السيد جمال الدين الحسيني

داعية التقريب والتجديد الاسلامي

اعداد، تقديم وتحقيق

سيد هادی خسروشاهی

لتحميل كتب متنوعة راجع: (مُنْتَدى إِقْرَأ الثَقافِي)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنْتَدى إِقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرأ الثقافى)

www. iqra.ahlamontada.com



جمال الدين الحسيني

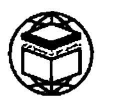
داعية التقريب والتجديد الاسلامي

- دراسات في تاريخ حياته وافكاره -

تحقيق، اعداد وتقديم

سيدهادي خسروشاهي

سرشناسه : خسروشاهی، سید هادی، ۱۳۱۷ -
عنوان و نام پدیدآور : جمال الدين الحسيني، داعية التقريب والتجديد الاسلامي دراسات في تاريخ حياته وافكاره/ تحقيق، اعداد وتقديم سيد هادي خسروشاهي.
مشخصات نشر : قم: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية، ١٤٣١ ق. = ۲۰۱۰م. ۱۳۸۹
مشخصات ظاهری : ۴۷۲ ص.
شابک : ۵۲۰۰۰ریال: ISBN:978-964-167-121-3
وضعیت فهرست‌نویسی : فیپا.
یادداشت : عربی.
یادداشت : کتابنامه به صورت زیرنویس.
موضوع : جمال الدین اسدآبادی، ١٢٥٤ – ١٣١٤ق.
موضوع : اصلاح طلبان – ایران -- سرگذشتنامه
موضوع : اسلام – تجدید حیات فکری
شناسه افزوده :مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی. معاونت فرهنگی
رده‌بندی کنگره :۱۳۸۹ ۳خ۵۳ج۸/۳۳۳/۷ BP
رده‌بندی دیویی :۲۹۷/٤٨٢
شماره کتابشناسی ملی :٢٠٤٥٨٣١



اسم الكتاب: جمال الدين الحسيني ، داعية التقريب والتجديد الاسلامي
(دراسات في تاريخ حياته وافكاره)
تأليف: سيد هادي خسروشاهي
تقويم النص: شوقي شالباف
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية – المعاونية الثقافية
الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ . ق ـ ٢٠١٠م
الكمية: ١٠٠٠ نسخة
السعر: ٥٢٠٠٠ ريال
ردمك: ISBN:978-964-167-121-3
العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران / طهران
ص . ب: ٦٩٩٥ ـ ١٥٨٧٥تلفكس: ٤-٨٨٣٢١٤١١-٢١-٠٠٩٨

المحتويات

المقدمة:

ثمة شخصيات كثير لمعت في سماء الفكر والثقافة حتى حظيت بتقدير واحترام المعنيين بهذه الشؤون، وآخرون برعوا في مجالات العلم والمعرفة، وايضاً حظوا باحترام الاوساط المعنية، واكتسبوا شهرة طارت بهم الآفاق بسبب دعم خاص من جهة او ربّما نقل همّاً تقافياً من هموم الأمة، كان يراه مشكلةً تقف عثرة امام مسيرة الفكر والحياة، ولم يتعب نفسه و لو مرة للوقوف على هذه المشكلة ومعالجتها ميدانياً، اذ يكفيه النظر الى العالم من خلال "ثقب" صغير (التلفزيون) وما تتناقله وسائل الاعلام.

لكن ثمة رجال آخرون - قليلون - يقفون في الجانب المقابل، برعوا ايضا في مضمار الفكر والثقافة، وتلألأوا في سمائهما، لكنهم لم يكتفوا بالوقوف والنظر من الشبابيك، بل راحوا يخوضون ميادين الجهاد والكفاح المرير باللسان والقلم، ويهاجرون من بلد إلى آخر بحثاً عن الحقيقة، وكشفاً عن المظلومية، ودعوةً إلى الوحدة والالتحام، فلم يكترثوا للموانع التي وضعها المعتدون الأجانب بين المسلمين؛ كالقومية والطائفية والقطرية والجنسية و... اضحوا نسوراً محلقة تطوف البلدان والحواضر، وطموحاتها تكاد تجتاز البحار والجبال... فعاشوا يحملون هموم المسلمين كافة: عرباً أو فرساً أو تركاً أو كرداً أو... وماتوا كأبطال الأساطير بعد ان اثقلتهم الاحزان والالام.

فليس من المبالغة اذا قلنا: إنّ هؤلاء لم يكتفوا أن كسروا نظرية (التقوقع) القومي أو الطائفي أو المذهبي فحسب، بل راحوا يأسّسون نظرية (الانفتاح على الاخرين) ويطرحون افكاراً شجاعة وجادّة في هذا الاتجاه.

لقد قدّم هذا الطيف من المفكرين من العطاء والكفاح ما عجز غيرهم عن تقديمه ولو بالقلم، فحازوا باعجاب ودهشة الجماهير والمتطلعين من المصلحين، ونالوا اهتماماً بالغاً على مستوى النخب

والجماهير معاً. أما الاعجاب فلأنهم قاموا ما لم يستطع غيرهم من ابناء جلدتهم ان يقوم به، ونهضوا ما عجز سواهم عن الخوض فيه، فصاروا قدوةً واسوةً للمجاهدين والقاعدين على السواء!

وأما الدهشة فلأنهم نفروا وانطلقوا رغم سوء الظروف، ورداءة الامكانات، وقلّت العدد والناصر، وضعف الحيلة!

وأمّا الاهتمام البالغ فلأنهم جعلوا انفسهم مناراً للكفاح والمقاومة، ورموزاً للحق والعدل، وشواخص للوحدة والتقريب بين أبناء القرآن.

اليس هذا مثيراً للاعجاب وللدهشة والاحترام البالغ معاً؟

ومن بين هذه الثلة النادرة يبرز اسمٌ طالما أثار اعجاب محبّيه وقلق اعدائه، وهو السيد جمال الدين الحسيني الأسد آبادي، المعروف بالافغاني، الذي يدين له كل الاسلاميين والمفكرين الواعين، من المحيط وحتى الشرق الاقصى لما حققه على الصعيدين: الفكري والحركي الواعي، وما ضخّ في الامة من افكار مازالت بصماتها على كل صفحة مشرقة من تاريخنا الاسلامي المعاصر.

فقد عرف السيد منذ ولادته (حوالي سنة ١٨٣٨م) في بلدة أسد آباد بايران، ومنذ نعومة اظفاره بالحركة والنشاط والطموح الكبير، إذ ما أن اكمل دراسته الاولى حتى انتفض وطلب من أبيه ان يبعثه الى النجف الاشرف للدراسة وتحصيل العلوم الدينية في حوزتها العلمية، ولم تمض خمسة سنوات حتى عاد ادراجه الى بلدته، لكنه لم يلبث ان شدّ الرحال الى الهند لاكمال دراسته، والوقوف عن كثب على حالة المسلمين هناك، ورغم الحاح والده بالاكتفاء بما تعلّمه في النجف، الاّ أنه أبى الاّ الرحيل ، تلبيةً لطوحه الكبير الذي كان يدفعه الى الطيران في الآفاق، فيجيب أباه قائلاً: انّني كصقر محلّق.. فلايسعني الحبس في هذا القفص الصغير!

وفي «كلكتا» حيث قضى السيد شطراً من حياته في تحصيل العلم واللغة، لكنه لم يطل المقام بها حتى رحل الى "جدة" حاجّاً وهو لم يبلغ العشرين من عمره! ومن بعد انصرافه توجّه إلي النجف وكربلاء ليقضي فترة فيهما، متنقلاً بينهما، غير أنه شدّ رحاله من جديد ليقفل راجعاً الى بلدته واحضان اهله، لكنه لم يستمر به الحال حتّى توجّه إلى طهران ثم خراسان،ومن بعد قرّر الذهاب إلى افغانستان، فاستقر في «كابل» وبدأ حياته العامة هناك، فوجد المسلمين هناك بحاجة الى من يرشدهم

ويهديهم، كما أنهم بحاجة ماسة الى من يعرفهم للعالم، ويكشف عن مظلوميتهم، فألّف اول كتبه حول تاريخ هذا البلد المسلم فأسماه «تتمة البيان في تاريخ الافغان».

لقد كانت افغانستان ـ آنذاك ـ ميداناً لدسائس الانجليز، ومحل صراعات الامراء المختلفين، الذين شحنت صدورهم البغضاء والكراهية ـ التي يذكي نارها الانجليز ـ لاخوانهم وابناء وطنهم. لذا ليس غريباً أن نلاحظ السيد في صفحات كتابه المذكور يسخر من هذه الاوضاع، ويؤكد تحامله على المستعمر الانجليزي الذي لاهم له إلاّ زرع الفرقة والبغضاء في قلوب المسلمين، على قاعدة «فرّق تسد»، وسخريته من حبّ الانجليز للدسائس والمؤامرات وكأنها هوايتهم المفضلة، كهوايتهم لحب الكلاب كما هو مشهور عنهم!

وحينما كان السيد يتجول في شوارع «كابل» وأزقّتها يصغي بحزن الى سكانها المسلمين الذين لم ينعموا بالطمأنينة ولا بالامان في وسط بلدهم، ممّا كان يتسبب له الالم والحزن، ثم ما يلبث ان يستذكر ما يخبره بعض الافغان من أنه لايمكن التظاهر للمطالبة بحقوقنا المشروعة، ولا الحركة بحرية في بلدنا ، ولو حملنا عصا عدّونا مسلحين!! إنه الاسلوب الاكثر قسوة في العالم أن يؤسر المرء في بلده، ويمنع من التجول في ربوعه وكأنّه اجنبي غريب!

لقد كشف الكتاب عن مظلومية شعب مسلم، كسائر الشعوب المظلومية، يرزح تحت نير الاستعمار، وضرورة انقاذه من براثن طغيان غطي لايفهم لغة إلاّ لغة السلاح والقوة. ولاشك أنّ هذه الفترة التي قضاها السيد في هذا البلد قد ركزت فيه روح الثورةعلى الواقع الفاسد، وعزّزت فيه روح البحث عن العلاجات اللازمة لانقاذ الأمة من هذه الفوضى، بل وتعمقت فيه لدرجة أن صارت جزءاً من حياته.

وعلى إثر احداث سياسية ألمت بالبلاد اضطر السيد الى مغادرتها نحو الهند، ولما كان هذا البلد يرزح تحت نير الاحتلال الانجليزي، وكانوا يحتفظون للسيد بملف خاص مدرج فيه كل نشاطاته في افغانستان، فقد واجه جملة ضغوطات وتهديدات مما حدى به الى المهاجرة، وهذه المرة الى القاهرة، حيث كانت تموج يومها بالاحداث والزوابع بين جهتين: احداهما تريد حقوقها المشروعة من الحرية والعدل، والاخرى ويمثلها الجهاز الحاكم (الخديوي) الذي طالما كان يحلم بالامبراطورية والسلطة المطلقة!

وما أن وطأت قدما السيد أرض الكنانة حتى التفّ حوله الناس، وخاصة طلاب الازهر وأساتذته، وبعض رجال الدولة، لكنه لم يلبث إلاّ قليلاً حتى شد رحاله الى الاستانة(تركيا) هذه المرة!

فقد استقبل السيد استقبالاً حاراً، ولم يمكث حتّى عين عضواً في المجلس الاعلى للمعارف، فبدأ عند ذاك نشاطه الواسع على المستويين: الثقافي والسياسي، فكان يركز في ندواته التي يعقدها هنا وهناك على تحرير الاسلام من التواكل، والذهنية المسلمة من الخرافة، وكان يدعو إلى العقلانية في الحكم والتطبيق.

ولم يمض السيد طويلاً حتى واجه هجوماً عنيفا من بعض المتنفذين في الدولة العثمانية، حتى اضطر السلطان الى الطلب منه الرحيل مؤقتاً ريثما يهدأ الضجيج المثار، فغادرها السيد نحو القاهرة سنة ١٨٧١، فاستقر به المقام فيها. وبدأ بالقاء محاضراته ودروسه فيها، في مجال الفلسفة والفكر والعرفان، على ثلة عريضة من طلبة علوم الازهر.

لقد أمضى السيد في مصر اخصب سنوات حياته، واكثرها نتاجاً وعطاءً وأثراً، فاستطاع أن يحقّق ما كان يطمح إليه. فبدأ العمل على إصدار صحيفة (مصر) ثم (التجارة) و(امرأة الشرق)، ولما وجد الانجليز أن مصالحه في مصر مهددّة بما يحمله السيد تحت عباءته! ضغطوا على الخديوي ليقتاده مكبّلاً بالحديد ليلاً، ويهجّره قسراً مع اول شعاع الفجر من صيف عام ١٨٧٩ م الى «بومباي» بحراً. لكنّه لم يقطع علاقته بمصر من خلال تلامذته واصدقائه، فكان يأمل في الحركة العرابية لتعيد الامور الى نصابها الطبيعي، لكنه اصطدم بفشلها، فلم يكن بداًّ إلاّ التحرك لإعداد كوادر تمتلك المؤهلات لقيادة الأمة، فبدأ بمشروعه الكبير في تأسيس جمعية اسلامية سرية اسماها (العروة الوثقى) ضمّ فيها الكثير من القادة والرجال المخلصين.

ثم ارتحل السيد الى «باريس» وبدأ نشاطه الفكري والتثقيفي هناك، والبدء بمشروعه الكبير، فالتحق به هناك عدة من طلابه واصدقائه، ومن ابرزهم الشيخ محمد عبده الذي كان منفياً ـ آنذاك ـ الى بيروت. وفي غرفة صغيرة في احدى عمارات شارع «مارتل» أصدر السيد بالتعاون مع تلميذه عبده الأعداد الاولى من الجريدة (العروة الوثقى) التي تركت بصماتها واضحة على كلّ ذلك الجيل.

لقد كان السيد على قناعة تامة بان اختلاف الاخوة لايمكن ان يكبر شقّه اذا كانت هنالك نخبة مثقفة وواعية في البين، تعمل على ردم كلّ هوة قد تحصل، وتشدّ من «العروة» لتجعلها اكثر وثاقة.

إنّ أروع ما يستوقف الباحث في شخصية السيد جمال الدين شيئان:

١ ـ أدب المقاومة، اذ فرض على نفسه سلوكاً خاصاً من شأنه تعزيز مكانةالدين في العملية السياسية والحركية. فقد وضع الاسلام على محكّين للبرهنة على قوته واثره:

المحك الأول: تاريخي، فهو يؤكدّ على أن ظهور الاسلام أدّى الى اقتلاع كل جذور الشرك والكفر والعدوان، وحرر الناس من براثن الاباطرة والمستكبرين.

والمحك الثاني: معاصر، فالاسلام مازال يمتلك كل مقومات الانتصار، وبوسعه الانتشار سريعاً ـ كما كان سابقاً ـ عبر الاقاليم والبلدان الشاسعة، وتحرير المسلمين من سجون المستكبرين.

٢ ـ ادب التقريب بين المسلمين، اذ لم يخطو خطوة واحدة إلاّ في هذا الاتجاه، بعيداً عن كل أشكال التفرقة العنصرية او الطائفية أو القومية او... بل يركز الحث على توطيد العلاقات مع كل قطاعات المسلمين، فلاجرم أن يعد السيد احد رواد التقريب.

إنّ الفكر الذي كان يحمله السيد لا ينطلق من كونه إيرانياً أو افغانياً أو مصرياً.. بقدر ما ينطلق من كونه اسلامياً قرآنياً محمدياً، يؤمن بكتاب الله وبرسوله الاكرم (ص) واهل بيته الطاهرين وصحبه المنتجبين، ويدعو الى الانسجام والوحدة في موارد الأزمات والمحن، ونصرة المسلمين في كل مكان من البقاع المعمورة، سواء في الهند أو باكستان أو أفغانستان أو مصر أو السودان أو العراق أو... من دون فرق في ذلك، إذا التكليف واحد، والموضوع واحد، فالحكم نفسه.

فدعواته كانت تتلخص برفض الظلم، ومكافحة الاستبداد، وطرد الاستعمار الانجليزي والفرنسي من بلاد الاسلام، ودعوة المسلمين جميعاً إلى الوحدة والتقريب بين المذاهب، واستنهاض الشعوب المسلمة للكفاح والمقاومة، وحثّ المسلمين على التعلم والتثقف والنهضة الحضارية، كما كان عليه اجدادهم الماضون.

ومن هنا فالسيد الحسيني ـ رغم ولادته بايران ـ لم يدّع بايرانيته، ولم يذكر أنّه كان أفغانياً ولا مصرياً ولا عراقياً... بقدر ما كان يفتخر من كونه مسلماًمجاهداً أسدآبادياً وكابولياً واسلامبولياً... كما جاء في تواقيعه المتعددة؛ لأنّه لم يكن يعتقد بفكرة «التقوقع» والقومية والمذهبيةالتي غرسها الاستعمار في ذهنية وعقول المسلمين، بل كان يؤمن بالاسلام المحمدي، فهو مصرياً تارة وسودانياً اخرى، حيث واجه الاحتلال البريطاني لمصر والسودان في الخندق الاول، كما في مقالاته في العروة الوثقى، كما كان شيعياً وسنّياً، وحسينياً كربلائياً ايضاً، حيث رفع راية الرفض بوجه المعتدين الاجانب بيد، وعلم الحرية والاستقلال التام بيده الاخرى.

ومن أجل ذلك فحقّه أن يخلد في ضمائر الجماهير المسلمة في طول العالم الاسلامي وعرضه، وقلب كل مصلح ومجاهد مصري أو عراقي أو ايراني أو افغاني أو هندي أو باكستاني أو تركي... بل و في كلّ خلية تنبض بالحياة، وترفض التبعية والاستعمار بكلّ أشكاله وألوانه.

ونظراً الى الشخصية الاستثنائية التي كان يمتلكها هذا الرجل العظيم، وافكاره النيرة التي كان يطرحها على الناس عبر مقالاته النفيسة والهادفة، والدور الذي لعبه على مستوى الامة، من خلق تيار من الوعي الحضاري، وانتاج طيف واسع من الذين استوعبوا هموم الرسالة، وقدموا للامة صورة ناصعة عن الاسلام، وبذلك تمكن من تثبيت أركان الوعي الجماهيري، وتمهيد الطريق للاجيال القادمة، من اجل مواصلة درب الاصلاح والتجديد الذي ابتدأه السيد الحسيني، واستمر الى الامام الخميني العظيم، وخلفه الصالح آية الله السيد الخامنئي قائد الثورة ومرشدها الاول.. ارتأينا أن نجمع كل مقالات السيد جمال الدين ـ ولو بتحرير تلميذه الشيخ عبده ـ العربية منها والفارسية، وتبويبها في فصول موضوعية، وطبعها في مجلدين، أحدهما طبع ونشر، وها هو الاخر يلحق باخيه لينضم اليه؛ خدمةً لأهل العلم والمعرفة، ولطلاب الاصلاح والتجديد في العالم، ورجالات التقريب والوحدة بين المسلمين.

إنّ للأجيال اللاحقة حقاً علينا أن نبلغها تراث علمائنا الأحرار، ومفكرينا الذين لم يبخلوا بشيء في سبيل نصرة المسلمين على طول بقاع العالم الاسلامي، وننور طريقها بافكار الماضين وكذلك المعاصرين، من أجل أن تعي بواقعها، وتعلم أنّ المستقبل سوف يكون مزدهراً لو سارت عل نفس الدرب، درب الاصلاح ومقاومة المستعمرين.

واذ نثمّن جهود جميع الاخوة الأعزاء الذين ساهموا في انجاز هذا العمل الكبير، من طباعته ومقابلته وتنقيحه ونشره، واخراجه بهذه الحلة الجميلة، عسى أن تنفعنا واياهم في الدنيا والآخرة، نشكر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية على حسن تعاونه واستجابته ـ كما هو ديدنه ـ لخدمة الامة وأبنائها المخلصين.

ايران – قم: سيد هادي خسروشاهي

٥ ربيع الأول ١٤٣٠هـ

«١»

السيد جمال الدين الهمداني
الشهير بالافغاني

العلامة آية الله الشيخ آغابزرك الطهراني
- العراق -

السيد جمال الدين الهمداني الشهير بالافغاني[1]

١٢٥٤ـ١٣٤١

هوالسيد جمال الدين ابن السيد صفدر ابن السيد علي ابن شيخ الاسلام الميررضي الدين محمد الحسيني ابن القاضي المير أصيل الدين محمد ابن المير زين الدين ابن المير ظهيرالدين ابن المير أصيل الدين ابن المير ظهيرالدين ابن السيد عبدالله (معاصر الامام زاده احمد) ابن السيد مرتضى ابن السيد منصور ابن المير سعيد ابن السيد محمد ابن السيد عبدالمجيد ابن السيد اسماعيل ـ الملقّب بالطاهر الذين كان من الامراء في عصر السلطان سنجر ـ بن نصرالله بن السيد داود ابن السيد عبدالله ابن يحيى بن عمرو[2] ابن

---

١. أشرنا في مقدمة كتابنا – نقباء البشر في القرن الرابع عشر – طبع النجف الاشرف ١٣٧٤هـ – إلى عزمنا على الاختصار، إلاّ أنّ الاضطراب الذي جاء في عامة الكتب التي ذكر فيها السيد جمال‌الدين ألزمنا بالشرع الوافي كشفاً للالتباسات والتمويهات التي أوردها البعض، وقد رأينا أن أصدق من كتب عنه هوابن أخته الميرزا لطف‌الله الأسدآبادي الهمداني، تلميذه وخريج مدرسته الذي كان بخدمته في أغلب جولاته في الشرق والغرب، فقد كتب في أحواله رسالة فارسية مفصلة عن طريق المعاشرة والمخالطة لا السماع، وهي أصح ماكتب عنه، وقد احتوت هذه الرسالة على بعض كلماته ومراسلاته وارشاداته لمؤلفها ونصائحه وسائرما يتعلّق به من ولادته إلى حين وفاته بكل تفصيل، وقد لخصنا منها هذه الترجمة تعريباً حتى يقف عليها من لا يأنس بالفارسية من رواد الحقائق، وأما ماكتبه عنه تلميذه الثاني مفتي الديار المصرية وفيلسوفها الشيخ محمد عبده فليس فيه كذب وتمويه. وانماكتب ما سمعه من أستاذه المترجم لكنّه أعطاه من جراب النورة على اصطلاح المحدثين والرواة.

٢. وعمروهذا هوالذي ثار مع أخيه زيد بن علي طلباً بدم جدّهما الامام الحسين عليه السلام، وقتلا بأمر هشام بن عبدالملك.

الامام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام[1]. من أعاظم الفلاسفة وكبار رجال الشيعة المصلحين.

أصله وأسرته

السيد جمال الدين من بيت علم وشرف ورياسة وجلالة في «أسدآباد» همدان، يعرف بطائفة شيخ الاسلامي لكونه منصب بعض أسلافه، وهوبيت قديم هناك، فقد توفّي بها جده الاعلى السيد عبدالله المعاصر للامام زاده احمد في (٨٦٢)، وتعاقب فيها أحفاده إلى اليوم ففي (كوي سيدان) من أسدآباد بجنب مرقد الامام زاده احمد المذكور قبور مشيدة وألواح صخرية على قبور قدمائهم، يشعر الكثير منها بالعظمة والرفعة والسيادة والشهادة. إليك نصّ بعضها: (مرقد نخبة الاكابر ونقبة الاخبار جلال الدولة والدين السيد صالح السعيد الشهيد... الخ).

كان آباء المترجم يتمتعون بمرتبة عالية لدى حكّام البلدة وأعيانها، وكان أهل البلد يرون احترامهم من الواجب المحتّم، ويروي بعضهم بعض الكرامات لأهل هذا البيت، وبالجملة فكونه همدانياً أسدآبادياً مما لايعتريه شكّ أوشبهة؛ لما يأتي من معلومية محل ولادته.

وأمّا ما طفحت به كتب الغربيين وبعض المصريين من نسبته إلى الافغان فهومّما لا نصيب له من الصحة، على أنّ سبب الاشتهار بذلك منه فقد نسب إليها نفسه في مصر وما والاها تعميةً للأمر، ورجاءً لبلوغ الهدف، وحصول الغاية، ولولا ذلك لما سمّي بحكيم الاسلام، ولا لقب بفيلسوف الشرق، ولا كانت له هذه الشهرة الواسعة، ولا أنزله الصدر

---

١ . توجد في كوي سيدان من توابع أسد آباد همدان مشجرتان في نسب المترجم احداهما بخط السيد سيفالدين بن السيد عبدالوهاب بن سيف الله ابن محمد علي، و الأخرى بخط امام الجمعة السيد المير شفيع، وليس فيهما أي اختلاف أوتفاوت، وهذا النسب في غاية الصحة وهوهناك كالشمس وضوحاً وجلاءاً، فان كاتبي المشجرتين من سادة أسدآباد الأجلاء المعاريف المجاورين لدار والد السيد جمال الدين كما في الرسالة المذكورة.

الأعظم علي باشا في استانبول منزل الكرامة والعزّة، ولا عظّمه ملوك عصره ووزرائه، ولا عيّن عضواً في مجلس المعارف، ولا عيّنت له حكومة مصر ألف قرش مصري شهرياً، ولا عكف عليه طلاب مصر وفضلائها وأخذوا عنه، ولا اتخذوه مرشداً موجّهاً ودليلاً هادياً، بل لشنّوا عليه الغارات، وألصقوا به أنواع الشبهات، ونسبوا اليه الهفوات و..

وبالجملة: فليس له في الأفغان أيّة علاقة، إذ لم يولد بـ«كنر» ولم ينتقل مع أبيه إلى كابل، ولم ينفهما دوست محمد خان أمير الافغان، ولا كانت لبني عمه سيادة على شيء من أراضيها، ولا يعرف عنهم الأفغانيون شيئاً، فضلاً عن أن يكون لهم منزلة في قلوبهم حرمة لنسبهم، إذ لم يمتوا إلى السيد علي المحدث الترمذي بصلة ولا رحم، وإنما هذه أمور أملاها المترجم على تلميذه الشيخ محمد عبده شارح (نهج البلاغة) مبالغة في تعمية الأمر وإغراقاً فيه، وإلاّ فالأمر أوضح من أن يخفى، ويكفي الشيعة الامامية فخراً في قبال مصر ورجالها أن يكون معلّمها الأول ورئيس نهضتها الحديثة الشيخ محمد عبده تلميذاً للمترجم، فقد صرّح غير مرة بأنّه أخذ كلّ ما عنده منه، واعترف ـ في مقدمته التي كتبها لرسالة المترجم في الردّ على الدهرية ـ بالعجز عن تحديد منزلته العلمية، ووصفها فقال: أمّا منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدّها قلمي إلاّ بنوع من الاشارة إليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها، كأنّ كل معنى قد خلق له. وتكفي هذه الشهادة على علوّ منزلة المترجم وجلالة قدره، وسمومكانته في العلوم.

ولادته ونشاته وسيره الدراسي

ولد السيد جمال الدين في شعبان (١٢٥٤) بقرية أسدآباد من توابع همذان على سبع فراسخ منها ـ ولم تزل دار ولادته موجودة معروفة لدى بني عمه وذوي قرابته المعاصرين من سكنة أسدآباد ـ وأمه هي العلوية «سكينة بكم» كريمة المير شرف الدين الحسيني القاضي [أخ جده السيد رضي الدين]، نشأ على أبيه نشأة طيبة، فعني بتربيته

ولقّنه المبادئ بنفسه، وكانت تلوح عليه آنذاك امارات النبوغ، فقد كان يمتاز بذكاء مفرط، وفراسة غريبة، وفكر دقيق، ونظر عميق، إلى غير ذلك من الأمور المشعرة بيومها إلى ما توصّل إليه، وكانت له حافظة عجيبة هي الباعث الأول في ترقّيه، فإنّ ما يؤثر عنه من هذا القبيل يجلب الحيرة.

سافر به والده إلى قزوين في (١٢٦٤) وهو ابن عشر سنين فمكثا بها سنتين، كان والده يدرّسه خلالهما ويغذيه العلم والمعارف، وهو يجدّ بشوق غريب حتى أيام الأعياد والعطل، وفي أول (١٢٦٦) سافر به والده إلى طهران فنزلا في محلة «سنكلج» بدار حاكم أسد آباد، وتشرّف المترجم بخدمة العلامة السيد صادق السنكلجي واستفاد منه، وهو الذي ألبسه العمة والبزة الروحية، وبعد أشهر هاجرا إلى العراق، وعند ورودهما النجف زارا مرجع الشيعة يومذاك الشيخ المرتضى الانصاري، وعاد والد المترجم إلى أسدآباد بعد شهرين، وبقي هو في النجف أربع سنين درس خلالها المقدمات، وأخذ الفقه والأصول والحديث والتفسير والكلام والهيئة على أساتذة مهرة. واستطاع لكثرة ذكائه وقوة حافظته أن يبلغ بهذه السنين القليلة مبالغ الشيوخ، ويحوز على سمعة طائلة، فقد تألقّ نجمه في الاوساط النجفية وهوشاب مقبل، وفي (١٢٧٠) سافر إلى الهند، ثم طاف العالم الاسلامي بأقطاره، وجال غربي أوربا بلداً بلداً بأزياء مختلفة، فوقف خلال ذلك على كثير من عادات الامم وأخلاقهم، واجتمع بكثير من الملوك والوزراء والعظماء والامراء ورجال العلم والسياسة وغيرهم، وما وطأ بقدمه ارضاً إلاّ أوجد فيها ثورة فكرية لا تخبو نارها إلى الابد، وكان يتقن من اللغات الفارسية والعربية والانجليزية والتركية والفرنسية، وكان خلال هذه التجوّلات ناشراً للدعوة الاسلامية، وموقظاً للشعوب.

وفاته

دعاه السلطان عبدالحميد خان إلى اسلامبول، فسافر اليها في (١٣١٠) فحلّ منه

مكاناً علياً، و نزل منه منزل الكرامة و العز، و كان طعامه من دار السلطنة وخاصة الملك، و كان السلطان يستمد من آرائه السديدة رجاء التوفيق إلى الاتحاد بين الممالك الاسلامية، إلى أن توفي السيد في شوال (١٣١٤) و دفن هناك في مقبرة خاصة بالعلماء والاولياء يسمّونها بالتركية [مقبرة شيخلر مزادلغي] و اختلف في سبب وفاته فقال بعضهم: إنّه توفّي مسموماً في القهوة، و قيل: بمرض السرطان الذي أصابه بفكه، وقيل: إنّه لقح في شفته بمادة سامة سبّبت له حالة تشبه السرطان، و اتّهم بعضهم السلطان عبدالحميد بالايعاز إلى الطبيب الذي أجرى له العملية بقطع وريده، و قيل: إنّه مات حتف أنفه، والله العالم.

مؤلّفاته

له آثار كثيرة جليلة

ـ منها [تاريخ الافغان] بالعربية، وهومن خيرة الآثار، طبع بمصر مكرراً

ـ و[رسالة الردّ على الدهريين] النيجرية،

ألّفها في حيدرآباد دكن، الهند، بالفارسية، ونقلها إلى العربية تلميذه الشيخ محمد عبده بمساعدة أبي تراب الاسد آبادي، وقدّم لها مقدمة مبسوطة ترجم فيها أستاذه المؤلّف، وطبعت بمصر أيضاً.

ـ ومجلته [العروة الوثقى] صدر منها ثمانية عشرة عدداً، بمساعدة تلميذه الشيخ محمد عبده، وترجمه في مقدمتها الشيخ مصطفى عبدالرزاق.

ـ وله [الحقائق الجمالية]

ـ و[انتقاد الفلاسفة الطبيعيين] طبع بمصر مكرراً .

ـ وجريدة [ضياء الخافقين] وغيرها.

ـ وقد ترجم في ثلة كبيرة من كتب الافرنج، ولا سبيل لنا إليها لعدم معرفتنا باللغات الاجنبية إلاّ ما نقل منها إلى العربية كـ (حاضر العالم الاسلامي) تأليف (لوثروت

ستودارد) الامريكي الذي عرّبه عجاج نويهض، وعلّق عليه الأمـير شـكيب أرسـلان، وترجم السيد أيضاً في تعليقته، وترجمه ايضاً المؤرخ الـشهير جرجـي زيـدان في كتابـه (أشهر مشاهير الشرق) وذكره الشرقاوي وبعض المستشرقين، إلاّ أنّ أبسط الجميـع مـا كتبه ابن اخته كما أسلفنا، والله من ورائهم محيط.

«٢»

جمال الدين الأفغاني

العلامة آية الله السيّد محسن الأمين

- لبنان -

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فهذه صفحات من سيرة المصلح الاسلامي السيد جمال‌الدين الشهير بالافغاني، كتبها الامام السيد محسن الامين، رأينا نشرها في رسالة مستقلة تعميماً لفائدتها، والله من وراء القصد.

السيد جمال‌الدين، ويقال: محمد جمال‌الدين ابن السيد صفدر الحسيني الهمذاني الاسدآبادي الشهير بالسيد جمال‌الدين الأفغاني

ولد في شعبان سنة ١٢٥٤ في أسدآباد من توابع همذان، وتوفي في شوال سنة ١٣١٤ أو سنة ١٣١٥ في استانبول وصلّي عليه في جامع التشويقية ودفن في مقبرة شيخلر مزار لغي أي: مقبرة المشايخ التي تختص بقبور الاولياء والعلماء على مقربة من الجامع المذكور.

(والاسدآبادي) نسبة إلى أسدآباد قرية على بعد سبعة فراسخ من مدينة همذان إلى جهة العراق بين همذان وكرمانشاه، فيها نحو ٨٠٠ بيت، وعدد سكانها نحو ٤٠٠٠ نسمة.

سبب وفاته

اختلف في سبب وفاته على أقوال لايرجع اكثرها إلى مستند، فتلميذه صادق خان البروجردي ـ الآتي ذكره ـ يقول فيما نقله عنه السيد صالح الشهرستاني في مجلة العرفان: لـمّا وصلت إلى الآستانة علمت أنّه مات مسموماً في فنجان قهوة، وجرجي زيدان والشرقاوي يقولان: إنّه توفّي بمرض السرطان الذي أصابه في فكه، والشيخ

مصطفى عبدالرزاق المصري يقول: إنّه لقح في شفته بمادة سامة سبّبت لـه حالـة تـشبه السرطان.

والسيد هبة الدين الشهرستاني يقول في بعض مذكّراته: اتّهـم الـسلطان عبدالحميـد بالإيعاز إلى الطبيب الذي أجرى له في حلقه عملية جراحية، فقطع منه الوريد.

ويقول الأمير «شكيب أرسلان» فيما علّقه على كتاب «حاضر العـالم الاسـلامي»: إنّه ظهر في حنكه مرض السرطان، فأمر الـسلطان عبدالحميـد كـبير جرّاحـي القـصر «قمبورزاده اسكندر باشا» وهومقرب عند السلطان عبدالحميد جداً أن يجري له عملية جراحية لم تنجح، ومات بعد أيام قلائل، فقيل: إنّ العملية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً، وقيل: لم تلحق بالتطهيرات الواجبة، وينقل عن صديقه الكونت لاون اسـتروروغ المستشرق؛ إنّه حدّثه في «لوزان» أنّ المترجم كان صديقه، فدعاه اليه بعد إجراء العملية الجراحية وقال له: إنّ السلطان أبى أن يتولّى العملية إلاّ جرّاحه الخاص، وأنّه هـورأى حاله ازدادت شدة بعد العملية فيرجومنه أن يرسل اليه جرّاحاً فرنسياً طاهر الذمة لينظر في عقب العملية، فأرسل اليه الدكتور (لاردي) فوجد أنّ العملية لم تجر على وجهها، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وأنّ المريض قد اشفى، قال: وقـال لي واحـد ممـن كـانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة: أنّ قمبورزاده اسـكندر باشـا كـان أطهـر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة، لكن كان رجل عراقـي اسمـه جـارح طبيـب أسنان يتردد كثيراً على جمالالدين ويعاين له أسنانه، وكانت نظارة الضابطة قد جعلـت جارحاً هذا جاسوساً على المترجم، قال لي صـاحب هـذه الروايـة: فـأردت أن أمنـع جارحاً من الاختلاط بجمالالدين، فأشار إليّ ناظر الضابطة أن أتركه، ولم تمـض أشـهر حتى ظهر السرطان في فك المترجم من الداخل، واجريت له عملية جراحية فلم تـنجح، وجارح هذا ملازم للمريض، وبعد موته كنا نراه دائما حزيناً كئيباً كاسف البال، واجـم الوجه خزيان، بما جعلنا نشتبه في ان يكون ذايد في إفساد الجرح أو في توليـد المـرض نفسه، لا أجزم بكونه هكذا فعل لكنّني أجزم بأنّه كان جاسوساً على المترجم.

وكلّ هذه الاقوال المتضاربة حدس وتخمين لا يستند واحـد منـها إلى دليـل، ويقـع

مثلها من الناس في امثال هذه المقامات، والظاهر أنّه مات حتف أنفه بمرض السرطان أو غيره.

هو ايراني لا أفغاني

أما نسبته إلى الافغان واشتهاره بالافغاني فمن المشهورات التي لا أصل لها ـ ورب مشهور لا أصل له ـ وسبب اشتهاره بذلك أنّه نسب نفسه إلى الافغان في سسر وخلافها لا إلى ايران تعمية للامر، ولولا ذلك لما سمّي بحكيم الاسلام وفيلسوف الشرق، ولا كانت له هذه الشهرة الواسعة، ولا أنزله الصدر الاعظم علي باشا في استانبول منزلة الكرامة، ولا أقبل عليه بمالم يسبق لمثله، ولا عظّمه الوزراء والامراء، ولا عيّن عضواً في مجلس المعارف، ولا أجرت له حكومة مصر الف قرش مصري مشاهرة، ولا عكف عليه الطلبة للتدريس في مصر، ولا تمكّن الشيخ محمد عبده أن يصاحبه ويأخذ عنه ويتخذه مرشداً وصديقاً حميماً إلى غير ذلك مما يأتي. ومع ذلك فقد انتدب بعض المصريين لذمّه في كتاب مطبوع ـ رأيت اسمه ولم أره ـ سمّاه فيه بكلّب العجم!

ويقال: إنّه سئل عن سبب قوله: إنّه أفغاني، فأجاب بأنّ ذلك للتخلّص من مضايقة مأموري ايران في الخارج، ولكن الصواب ما مر.

ومن هنا يلزم أن لا يعتمد على المشهورات، دينية كانت أو عادية، قبل البحث والتنقيب والتحقيق والتمحيص، خصوصاً ما يوافق الميول المذهبية والعقائد الخاصة. فهذا الرجل قد ترجمه تلميذه وخرّيجه الشيخ محمد عبده المشهور في صدر رسالة المترجم في الردّ على الدهرية، وبالطبع قد تلقّى هذا المعلومات من أستاذه المذكور كما يدلّ عليه قوله الآتي: وإنّا نذكر مجملا من خبره نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة، قال في جملة ما قال: هومن بيت عظيم في بلاد الافغان، يتصل نسبه بالسيد علي الترمذي المحدّث المشهور، ويرتقي إلى سيدنا الحسين بن علي. وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كنر) من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الافغانيين؛ لحرمة نسبها، وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقلّ بالحكم فيها، وانّما سلب الإمارة من أيديها دوست محمد خان أحد أمراء الافغان، وأمر بنقل السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل، وأنّه ولد

السيد جمال‌الدين في قرية (أسعدآباد) الصواب: اسد آباد، من قرى (كنر) وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة كابل، وأنّه دخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان، ولـمّا زحف الامير إلى هراة ليفتحها على السلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه، ولازمه مدة الحصار إلى أن توفي الأمير وفتحت المدينة، وتقلّد الإمارة ولي عهدها شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على إخوته، وكان منهم في الجيش ثلاثة: محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين، وكان هوى السيد جمال الدين مع محمد أعظم، فأحسّوا بذلك وفرّوا كلّ إلى ولايته التي كان يليها ايام أبيه، وبعد مجالدات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن وتغلّبا على عاصمة المملكة، وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن غزنة وسمّياه أميراً على افغانستان ومات بعد سنة، وقام في الإمارة بعده شقيقه محمد أعظم، وارتفعت منزلة السيد جمال‌الدين عنده فأحلّه محلّ الوزير الأول، وعظمت ثقته به، فكان يلجأ لرأيه في العظائم ومادونها ـ على خلاف ما تعوّده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم ـ وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال‌الدين لولا سوء ظنّ الامير بالأغلب من ذوي قرابته الذي حمله على تفويض مهمات الاعمال إلى أبنائه الأحداث فسّاق الطيش، أحدهم وهوحاكم قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة، فلمّا تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي واخترق بها صفوف أعدائه، فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا أنّ يعقوب خان قائد شير علي التفت فوجد ذلك الغر المتهور منقطعا عن جيشه، فكرّ عليه وأخذه أسيراً وتشتتت جند قندهار، وحمل شير علي على قندهار واستولى عليها، وبعد حروب هائلة تغلّب شير علي وانهزم محمد أعظم وابن اخيه عبدالرحمن، فذهب عبد الرحمن إلى بخارى، وذهب محمد اعظم إلى ايران ومات بعد أشهر في نيسابور، وبقي السيد جمال الدين في كابل ولم يمسه الأمير بسوء احتراماً لعشيرته، إلاّ انّه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به، فرأى السيد جمال‌الدين خيراً له أن يفارق بلاد الافغان، فأستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمرّ ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد اعظم، فارتحل عن طريق الهند سنة ١٢٨٥ إلى أن

قال: أمّا مذهبه فحنيفي حنفي ـ طبعاً لأنّ الغالب على الافغانيين المذهب الحنفي ـ قال وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلّداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب الصوفية «انتهى محل الحاجة».

وكل ذلك لا نصيب له من الصحة، بل يشبه قصص ألف ليلة وليلة، والظاهر أنّ جمال‌الدين كان يملي هذه القصص على تلميذه الشيخ محمد عبده مبالغة في تعمية الأمر واغراقاً في إثبات انّه افغاني. فالرجل ايراني أسدآبادي همذاني، لا افغاني ولا كابلي ولا كنري، بل لعلّه لم ير الافغان ولا كابل في عمره، وعشيرته في أسدآباد حتى اليوم لم تكن لها سيادة على جزء من أرض الافغان ولا دخل الافغان واحد منها.

قال السيد صالح الشهرستاني فيما كتبه في مجلة العرفان ج ٢٤: لا يزال يوجد في أسد آباد من أفراد قبيلته أولاد وأعمام وعمات وإخوان وأخوات السيد جمال‌الدين ما ينيف على الخمسين نسمة بين ذكر وانثى، ومنهم احد أحفاد أخ السيد جمال الدين وهوالسيد محمود ابن السيد كمال ابن السيد مسيح المتوفى عام ١٣٠٠ أخ السيد جمال‌الدين ابن السيد صفدر، وهومدرّس مدرسة القرية عام ١٣٥١ قال: ولا تزال الغرفة التي ولد فيها السيد جمال‌الدين في دار والده الواقعة في محلة (سيدان) اي السادات على حالها حتى اليوم، وتعرف أسدآباد عند أهل القرى المجاورة بقرية السيد جمال‌الدين. وقال: إنّ السيد محمود المذكور أهداه نسخة من كتاب فارسي فيه تاريخ حياة السيد جمال‌الدين منذ ولادته حتى وفاته بقلم ابن اخت السيد جمال‌الدين الميرزا لطف الله الاسدآبادي، وأمه هي السيدة طيبة بيكم بنت السيد صفدر أخت جمال‌الدين وهوصاحب المذكرات عن خاله المذكور بالفارسية المطبوعة في برلين.

وكل ما بني على كونه افغانياً من دخوله في سلك رجال الحكومة الافغانية، وحضوره بعض حروبها، وميله إلى بعض أمرائها وحلوله عنده محلّ الوزير، وإرادة بعضهم الغدر به وخروجه منها بحجة الحج، كلّه لا أصل له اريد به تكميل القصة المخترعة تمهيداً لكيفية وصوله إلى مصر وغيرها، وبيانا لسببها المخترع، ولعلّه كان لا يحب أن يظهر أنّه منفي من قبل شاه ايران أو كان يريد أن يبالغ في تحقيق أفغانيته التي ألبس نفسه اياها، ومذهبه شيعي كما هومذهب آبائه وأجداده وعشيرته وأهل بلده،

حنيفي جعفري لا حنفي، فانظر إلى هذا الأمر الذي اشتهر وشاع بين الناس في كلّ صقع وقطر، ودوّن في الكتب المطبوعة التي طبع منها الالوف وانتشرت في اقطار الدنيا في عصر المترجم وليس له اصل، تعلم صدق القول بأنّه ربّ مشهور لا أصل لـه مـع كـون رب للتكثير لا للتقليل، هذا في أمر لا اهمية له، فما ظنّك بما يكون له نـصيب ممـا يـسمونه السياسة والملك ونصرة العقيدة والنحلة وأمثال ذلك. ولعلّها اذا مضت مدة طويلة يصبح كونه ايرانياً اوافغانياً من الأمور المختلف فيها وينتصر لكل فريق.

ولا ندري هل كان الشيخ محمد عبده يعرف حقيقة حاله ويخفيها لخوفه مما خاف منه جمال‌الدين بصحبته له واخذه عنه أوكان يجهلها، الله اعلم.

وفي كتاب حاضر العالم الاسلامي تأليف (لـوثروت سـتودارد) الاميركـي وتعريـب عجاج نويهض ج ١ص ١٣٥: إنّ السيد جمال‌الدين ولد في (اسدآباد) بالقرب من همذان في بلاد فارس، وهوافغاني الارومة لا فارسي ينحدر نسباً ـ كما يدلّ عليه لقبـه هـذا ـ من العترة النبوية الطاهرة، ويجري في عروقه الدم العربي البحت الكريم.

فتراه قد نطق بالصواب من كونه ولد في بلاد ايران في أسدآباد بالقرب مـن همـذان، وجمع بين ذلك وبين كونه افغانياً كما يدلّ عليه لقبه بأنّ أصل آبائه من الافغان، والـذي دعاه إلى ذلك اعتقاده أنّ هذا اللقب لقب صحيح. اما بعدما عرفـت عـدم صـحة هـذا اللقب، فتعرف فساد هذا الجمع.

وقال الامير شكيب ارسلان فيما علّقه على كتاب حاضر العالم الاسـلامي: إنّ كـل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه أنّه من افغانستان، وأنّه من سادات كنر الحسينية المشهورين في تلك الديار، ووالده السيد صفتر، وكان مولده في اسدآباد بقرب كنر سـنة ١٢٥٤هجرية الموافق ١٨٣٨ ميلادية، وكذلك عرف به كـبير تلاميـذه الاسـتاذ الامـام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المـصرية في صـدر رسـالة ردّ الـدهريين تـأليف الـسيد جمال‌الدين. ولقد لقيت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر الـسيد حـسين أحـد ولاة افغانستان، ومن سادات كنر المشار اليهم ومن أفاضلهم، وعلمـت منـه أنّ الـسيد جمال‌الدين رحمه الله هومنهم، كما أنّي سمعت ذلك مـن جميـع رجـال الدولـة الافغانيـة وسفرائها الذين جمعتنا بهم التقادير في اوروبا بعد تأسيس سفاراتهم بها، فلا أعلم كيـف

تتفق كلّ هذه الروايات من أهل تلك الديار على كـون المتـرجم افغـاني الـدار علويـاً حسينياً من أسرة نسبتهم كالشمس ومقامهم في بلاد الافغـان أشـهر مـن أن ينـوّه بـه، ويكون في الحقيقة من همذان ومولوداً بها. (ونقول) هكذا ينشأ من الأخبار التي لا صحة لها اذا جمعت مع الاخبار الصحيحة تناقضات يعجز الافهام توجيهها أو توجّه بتوجيهات باردة فاسدة وشواهد ذلك كثيرة للمتتبع لو أمكنتنا الفرصة لأشرنا إلى جملة منها. أمّا ما ذكره الامير شكيب من أنّه علم من السيد حسين أحد ولاة افغانستان ومن سادات كنر أنّ السيد جمال‌الدين منهم، وأنّه سمع ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسـفرائها في اوروبا فيشبه خبر «كذّبت سمعي وبصري وصدّقت القرآن» والظاهر أنّ هؤلاء الجماعـة أرادوا الافتخار بانتساب السيد جمال‌الدين إلى بلادهم فصدّقوه بدون علم، ولم يـشاؤوا أن يتبرؤوا من هذه المنقبة مع عدم جزمهم بفسادها؛ لجهلهم حقيقة الحال.

أقوال المترجمين فيه

كان السيد جمال‌الدين ذكياً متوقّد الذكاء، فصيح الكلام بليغه، عالي الهمة، قليل النوم، كثير التفكير، سريع البديهة حسن الاخلاق، يتقن اللغات العربية والفارسية والانكليزية وآدابها، وقليلاً من التركية والفرنسية، له جاذبية لكل من حادثه وجالسه، ميالا بطبعـه إلى الحركة ومعارضة الحكّام والدعوة إلى الاصلاح وترك القديم جريئاً. ويكـشف عـن بعض نفسيته تلوّنه في لباسه، فقد رأينا صورته في مجلة العرفان تارة بالعمامـة الايرانيـة السوداء الكبيرة والعباءة، واخرى بالكفية ـ أو الكوفية ـ والعقال اللف، وثالثة بالعمامـة البيضاء والطربوش والجبة، ورابعة بالطربوش بدون عمامة.

وقال السيد صالح الشهرستاني فيما كتبه في مجلة العرفان، ولعلّه اخـذه مـن الكتـاب الفارسي الذي قال إنّ فيه ترجمته: إنّ السيد صفدر والد الـسيد جمـال‌الـدين جـاء إلى طهران مع ولده جمال‌الدين اوائل عام ١٢٦٦، وبعدما مكثا فيها ما يزيـد علـى خمـسة اشهر سافرا إلى العراق ودخلا النجف في عـصر الـشيخ مرتـضى الانـصاري، فـاعتنى الانصاري بجمال‌الدين وبقي السيد صفدر في النجف مدة شهرين، ثم عاد إلى اسد آبـاد وبقي جمال‌الدين في النجف أربع سنوات درس في السنتين الأوليتين منها العلوم الاوليـة والمتوسطة من دينية وعربية، وفي السنتين الأخيرتين العلوم العالية من التفسير والحديث

والفقه والاصول والكلام والمنطق والحكمة الالهية والرياضيات والطبيعيات ومقدمات الطب والتشريح والهيأة والنجوم وغيرها. والذي يعرفه المتأمل أنّ من أراد أن يدرس كل هذه العلوم في ضمن أربع سنوات يكون قد أضاع الاربع السنوات من عمره مهما بلغ في الذكاء والفطنة، والذي نظنّه انّه قرأ في هذه المدة العلوم العربية والمنطق وشيئاً من الكلام والهيأة. والرجل كان ذكياً منطيقا استطاع بذكائه وفطنته وفصاحة لسانه وقوة بيانه أن ينخرط في سلك العلماء الكبار بعلم قليل حصله في هذه المدة.

ثم يقول الشهرستاني: أنّ الشيخ مرتضى كان يوليه لطفاً وعطفاً وحباً، ويبشّر أباه في رسائله اليه بحسن مستقبله، فحسده على ذلك بعض الطلاب من زملائه، واضمر له السوء، فاطلع الانصاري على ذلك فأرسل جمالالدين إلى الهند مع بعض خواصه المسمى البير، فأوصله إلى بمبي وهو لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً. وهذا كسابقه لا يساعد عليه النظر الصادق والذي يلوح أنه بعدما بقي في النجف أربع سنين تاقت نفسه إلى السفر بما طبع عليه من حب الاسفار.

وفي كتاب حاضر العالم الاسلامي تأليف لوثروت ستودارد الاميركي وترجمة عجاج نويهض ج ١ ص ١٣٥: كان جمالالدين سيد النابغين الحكماء، وامير الخطباء البلغاء وداهية من أعظم الدهاة، دامغ الحجة قاطع البرهان، ثبت الجنان متوقّد العزم شديد المهابة، كأنّ في ناسوته أسرار المغنطيسية فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً. وكانت سيرته كبيرة، فبلغ من علوالمنزلة في المسلمين ما قلّ أن يبلغ مثله سواه. وكان سائحاً جوّالاً، طاف العالم الاسلامي قطراً قطراً وجال غربي أوروبا بلداً بلداً، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في العالم والامم علماً راسخاً واكتنه أسراراً خفية، واستبطن غوامض كثيرة، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الاعمال التي قام بها. وكان جمالالدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه داعياً مسلماً كبيراً فكأنّه على وفور استعداده ومواهبه انّما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب، فانقادت له نفوسهم، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم، فليس هناك من قطر من الاقطار الاسلامية وطأت ارضه قدماً جمالالدين إلاّ وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها ولا يبرد أوارها، وكان يختلف عن السنوسي منهاجاً فجمال الدين كان

أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي، وتمثّل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ورسخت في تربة الشرق قدمها، وادرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها، فهبّ جمال يضمي نفسه ويفني حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي وإنذاره بسوء العقبى، ويدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير. فلمّا اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له الف حساب، فنفته بحجة أنّه هائج المسلمين، ولم تخف دولة جمالاً وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية، فسجنته في الهند مدة ثم اطلقت سراحه. فجاء إلى مصر حوالي سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العرابية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين، فلمّا أحتلّ الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالاً للحال، فترك مصر وأنشأ يسيح في مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية، فتلقّاه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة، وقرّبه منه ورفع منزلته، فسحر جمال السلطان الداهية بتوقّد ذكائه، ونفسه الكبيرة، فقلّده رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية، ويغلب أنّ ما ناله السلطان عبدالحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية إنّما كان على يد جمالالدين المتوقّد الهمة المشتعل العزم. والتحق جمالالدين بالرفيق الاعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملاً كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه.

وقال الامير شكيب فيما علّقه على كتاب حاضر العالم الاسلامي: السيد محمد بن صفتر ـ صوابه: صفدر ـ من أعاظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر، كان بحسب رأي براون فيلسوفاً كاتباً خطيباً صحيفاً، وقبل كل شيء كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً، وأعداؤه مهيجاً خطيراً. وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية والمنازع الشوروية التي جدت في العشرات الأخيرة من هذه السنين في الحكومات الاسلامية، وكانت حركته ترمي إلى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوروبية وإنقاذها من استغلال الاجنبي، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة. وكذلك كان يفكّر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جملتها ايران الشيعية حول الخلافة الاسلامية لتتمكّن بذلك الاتحاد من منع التدخّل الاوروبي في أمورها، فجمالالدين بقلمه ولسانه أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية.

وقال الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في ترجمته التي صدر بها رسالة السيد جمال‌الدين في الردّ على الدهرية بعد حذف ما يتعلّق بكونه افغانياً ممّا مرّ يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كأنّه حقيقة كلية تجلّت في كل ذهن بما يلائمه أو قوة روحية قامت لكلّ نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء جوهره وزكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسّه ضرر الخرّاصين. وإنّا نذكر مجملاً من خبره نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة: هوالسيد محمد جمال‌الدين ابن السيد صفتر ـ الصواب: صفدر ـ ولد في اسعد آباد ـ الصواب: أسدآباد ـ سنة ١٢٥٤ هجرية، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس للتعلّم، وعني والده بتربيته وأيّد العناية به قوة في فطرة وإشراق في قريحته وذكاء في مدركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها، تلقّى علومًا جمة برع في جميعها، فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص، ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف، ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وإلهية، ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيأة وأفلاك، ومنها نظريات الطب والتشريح، أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد، وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنّه، ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في العلوم الرياضية على الطريقة الاوروبية الجديدة.

أمّا مقصده السياسي الذي قد وجّه إليه أفكاره، وأخذ على نفسه السعي إليه مدة حياته، وكل ما أصابه من البلاء اصابه في سبيله فهو إنهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية، وتقليص ظلّها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها.

أمّا منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدّها قلمي إلاّ بنوع من الإشارة إليهـا: لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها كأنّ كل معنىً قد خُلق له، وله قوة في حلّ ما يعضل منها، كأنّه سلطان شديد البطش فنظرة منـه تفكّك عقدها، كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنّه صنع يديـه، فيـأتي علـى أطرافه ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه، واذا تكلّـم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختـراع، كان ذهنه عالم الصنع والابداع، وله قدرة في الجدل وحذق في صناعة الحجـة لا يلحقـه فيهما أحد إلاّ أن يكون في الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهداً على ذلك أنّه ما خاصـم أحداً إلاّ خصمه، ولا جادله عالم إلاّ ألزمه، وقد اعترف له الاوروبيون بذلك بعدما أقـرّ له الشرقيون.

وبالجملة فإنّي لوقلت: إنّ ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هـو أقصى ما قدّر لغير الانبياء لكنت غير مبـالغ، ذلـك فـضل الله يؤتيـه مـن يـشاء، والله ذوالفضل العظيم.

أمّا أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفائه، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمسّ شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الـشهب فبينما هوحليم أوّاب إذا هو أسد وثّاب. وهوكريم يبذل ما بيده قوي الاعتماد على الله، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الامانة، سهل لمن لاينه صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدّمناه إذا لاحت له بارقة منه تعجّل السير للوصول إليه، وكثيراً ما كان التعجّل علّة الحرمان، وهوقليل الحرص على الدنيا بعيد من الغـرور بزخارفها، ولوع بعظائم الامور عزوف عن صغارها، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنّـه لا يعرفه، إلاّ أنّه حديد المزاج، وكثيراً ما هدمت الحدّة ما رفعته الفطنـة، إلاّ أنّـه صـار اليوم في رسوخ الأطواد وثبات الأفناد، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين صـلى الله عليـه وآله وسلم، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزاً أمنع من كونه سلالة ذلك البيـت الطـاهر، وبالجملة: ففضله كعلمه، والكمال لله وحده.

أمّا خلقه فهو يمثّل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين، فكأنّما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز حماه الله، ربعة في طوله، وسط في بنيته، قمحي في لونه، عصبي دموي في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل في النظر، هشّ بشّ عند اللقاء، قد وفّاه الله من كمال خَلقه ما ينطبق على كمال خُلقه.

بقي علينا أن نذكر له وصفاً لوسكتنا عنه سئلنا عن أغفاله، وهو أنّه كان في مصر يتوسّع في إتيان بعض المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة، والاماكن المعدة لراحة المسافرين، وتفرّج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار. وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلومن الفوائد العلمية، فكان بعيداً من اللغو منزّها عن اللهو، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم. وهذا الوصف ربما عدّه عليه بعض حاسديه، لكن الله يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه، وأيّ غضاضة على المرء المؤمن في أن يفرّج بعض همّه بما أباح الله له. هذا مجمل من أحوال السيد جمالالدين الافغاني، أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون، ولوسلكنا في تاريخه مسلك التفصيل لأدّى بنا إلى التطويل.

ثم اتبع الشيخ محمد عبده ذلك بما كتبه سليم العنحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح سحر هاروت، قال: والمطّلع على ما كتبناه يعلم خطأه في جلّ ما رواه، وهذا ما نشره العنحوري في جريدة لسان الحال وغيرها بحروفه، قال:

لا يخفى أنّنا كنّا أتينا في حاشية كتابنا «سحر هاروت» على شيء من ترجمة الحكيم الشرقي الغزير المادة السيد جمالالدين الافغاني الطائر الصيت، وأبنا في عرض قصصنا لمحة مما تلقّيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته ووهن دينه، مما كان مدعاة أسفنا وباعث استغرابنا، ثم أسعدنا البخت بأن التقينا تلك الايام بصديقنا المحلّى بحلية الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل والنقل، الشيخ محمد عبده أعزّ أخلاء الحكيم المشار إليه، فجال بيننا حديث أفضى إلى البحث بما يرويه عنه بعض الناس، ورويناه نحن عنهم، فأوضح لنا بدلائل ناهضة وبراهين داحضة أنّ ما تتناقله الالسن من هذا القبيل ما كان إلاّ من آثار ما رماه بعض من غمرتهم أياديه فجاوزه

بالكنود، يعني بهم قوماً كفرة تزلّفوا إليه فاغترّ ببراقيش ألسنتهم، ووطأ لهم جان الأنس، سالكاً في سبيل إسعادهم كل سبيل، فلمّا دارت عليه الدوائر وتحوّلت الاحوال أخذوا يتحجّجون بالتلمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر إليه. وبيّن لنا بأجلى أسلوب أنّ المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظرته الجدلية في بيان عقائد المعطّلين كان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح اليها، بل مع تعقيبها بالردّ عليها وإقامة الحجج على بطلانها.

ثم تأييدا لمقاله هذا وقفنا على رسالة منسوجة بقلم السيد المشار إليه سوأ بها أصحاب المبادئ المعطّلة من أيّ فريق كانوا، وبيّن قبح طريقته بعبارة حنيف عريق بالاسلام، نثبت هنا منها مبحثه في طريقة اعتقاد الالوهية لسعادة الانسان. قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لصلاح النوع البشري، وردّ ما زعموا: «فاذن لم يبق للشهوات قامع ولا للأهواء رادع إلاّ الايمان بأنّ للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الانفس، سامي القدرة واسع الحول والقوة، مع الاعتقاد بأنّه قد قدّر للخير والشر جزاء يوفّاه مستحقّه في حياة بعد هذه الحياة السرمدية.».

ثم قال: «فلم تبق ريبة في أنّ الدين هوالسبب الفرد لسعادة الانسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الالهي الحقّ، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب يكون سبباً في السعادة التامة والنعمى الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على المتمدّنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفر هم بسعادة الدارين».

ثم أتى بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصوصاً بما يطول بيانه، ويعلمه من اطّلع على تلك الرسالة هذا كلّه بعدما قال في وصف الماديين: «إنّهم كيفما ظهروا، وفي أيّ صورة تمثّلوا، وبين أيّ قوم نجموا، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم، وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم، يميتون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السم في الارواح بآرائهم، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رزئت بهم أمة ولا مني بشرّهم جيل إلاّ اتكث فتله وتبدت آحاده وفق قوام وجوده». ثم أطال في بيان ذلك إلى حدّ لم يبق معه محلّ للريبة في كمال اعتقاده وجلاء يقينه، فأخذتنا لذلك خفّة

الطرب، وما رعنا لاذاعته بلسان الصحف شأن المؤرّخ العادل، وقياماً بحقّ الاد وضنا بفضل هذا الرجل الخطير من أن تتناوله ألسنة من لا يعرفه خطأ وافتراء، والله يتولّى الصادقين.

أخباره

قال الشيخ محمد عبده في ترجمته المتقدمة اليها الاشارة: «إنّه سافر إلى الهند وعمره ١٨ سنة أي سنة ١٢٧٢، فأقام بها سنة وبضعة اشهر، وأتى بعد ذلك الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهوينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الأمم التي مرّ بها في سياحته، واكتنه أخلاقهم، وأصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثم رجع بعد أداء فريضة الحج إلى بلاده. وفي سنة ١٢٨٥ سافر إلى الحج على طريق الهند، فلمّا وصل إلى التخوم الهندية تلقّته حكومة الهند بحفاوة في إجلال إلاّ أنّها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها، ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه إلاّ على عين من رجالها، فلم يقم اكثر من شهر، ثم سيّرته من سواحل الهند في أحد مراكبها على نفقتها إلى السويس، فجاء إلى مصر وأقام فيها نحو أربعين يوماً، تردّد فيها على الجامع الازهر، وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا إليه كل الميل، وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار، فقرأ لهم بعضاً منه في بيته، ثم تحوّل عزمه عن الحجاز، وسارع بالسفر إلى الآستانة، وبعد أيام من وصوله اليها أمكنته ملاقاة الصدر الأعظم عالي باشا، ونزل منه منزلة الكرامة، وعرف له الصدر فضله، وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهومع ذلك بزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجراء، وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه، وهوغريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم، وبعد ستة أشهر سمّي عضواً في مجلس المعارف، فأدّى حقّ الاستقامة في آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف، لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه. ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الأوقات حسن فهمي أفندي لأنّها كانت تمسّ شيئاً من رزقه، فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب إلى مدير دار الفنون تحسين أفندي أن يلقي فيها خطاباً للحثّ على الصناعات، فاعتذر إليه بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه تحسين

أفندي، فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه وعرضه على وزير المعارف، وكان صفوة باشا وعلي شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلي دولتومنيف باشا ناظر المعارف وكان عضواً في مجلس المعارف، واستحسنه كلّ منهم وأطنب في مدحته، فلمّا كان اليوم المعيّن لاستماع الخطاب تسارع الناس إلى دار الفنون واحتفل له جمّ غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد، وحضر في الجمع معظم الوزراء، وصعد السيد جمال‌الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعدّه، وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به وما كان يجدها لوطلب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي وأنّ كلّ صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن يؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن، فشبه الملك مثلاً بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة، والحدادة بالعضد، والزراعة بالكبد، والملاحة بالرجلين، ومضى في سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف.

ثم قال: هذا ما يتألّف منه جسم السعادة الانسانية، ولا حياة لجسم إلاّ بروح، وروح هذا الجسم إمّا النبوة وإمّا الحكمة، ولكن يفرق بينهما بأنّ النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب، يختص الله بها من يشاء من عباده، والله اعلم حيث يجعل رسالاته. أمّا الحكمة فممّا يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات، وبأنّ النبي معصوم من الخطأ، والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه، وأنّ أحكام النبوات آتية على ما في علم الله، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالأخذ بها من فروض الايمان، أمّا آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتّباعها إلاّ من باب ما هو الأولى والأفضل على شريطة أن لا تخالف الشرع الالهي. هذا ما ذكره متعلّقاً بالنبوة، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية، إلاّ أنّ حسن فهمي أفندي أقام من الحقّ باطلاً ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أنّ الشيخ جمال‌الدين زعم أنّ النبوة ضعة، واحتجّ لتثبيت الاشاعة بأنّه ذكر النبوة في خطاب يتعلّق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت)، ثم أوعز إلى الوعّاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتنديد، فاهتم السيد جمال‌الدين للمدافعة عن نفسه وإثبات براءته ممّا رمي به، ورأى أنّ ذلك لا يكون إلاّ بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك) واشتد في طلب المحاكمة، وأخذت منه الحدّة

مبلغها، وأكثرت الجرائد من القول في المسألة، فمنها نصراء للشيخ جمال‌الدين، ومنها أعوان لشيخ الاسلام، فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون ويغضي على الكريهة، وطول الزمان يتكفّل باضمحلال الإشاعات وضعف أثرها، فلم يقبل ولجّ في طلب المخاصمة، فعظم الأمر، وآل إلى صدور أمر الصدارة اليه بالجلاء عن الآستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إن شاء، ففارق الآستانة مظلوماً في حقّه مغلوباً لحدته[1] وحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر، فجاء

---

١ . قال الاستاذ ابورية في مجلة العربي:

لما ضاق الظالمون والمستعمرون به ذرعاً، بعد أن سعّرها عليهم ناراً تلظى، لم يجدوا مناصاً من ان يأتمروا به، ليستريحوا منه، فدبّر لهم الطغيان ممثلاً في شخص عبد الحميد الذي كان سلطاناً على الدولة العثمانية، وإمامه الاكبر «أبي الهدى الصيادي» شيخ الطريقة الرفاعية، وصاحب الكلمة العليا في بلاط السلطان.

وقد نشأ التفكير في تدبير هذه المؤامرة عندما كان السيد جمال‌الدين في باريس يحرّر هووالاستاذ الامام محمد عبده صحيفة «العروة الوثقى»، إذ علم السلطان عبدالحميد أنّ السيد جمال‌الدين متصل بأعضاء جمعية «تركيا الفتاة» التي كانت تعمل على خلعه، وتخليص تركيا من طغيانه، وبخاصة لـمّا رأى أنّ العروة الوثقى تنوّه بهذه الجمعية، وأنّ السيد جمال‌الدين يسمّيها «الجمعية الصالحة» ويباركها ويدعوالله لها بالتوفيق في عملها.

ثم ازداد مقت السلطان وغضبه عليه عندما جاءته شكوى من شاه ايران بأنّ السيد جمال‌الدين يشهر بأعماله الظالمة في بلاده، ويؤلّب صحف أوروبة عليه، ويطلب من السلطان عبد الحميد أن يعمل ما استطاع على ازالة هذا الكابوس الذي يجثم على صدر كلّ حاكم ظالم، وأنّه اذا لم يتدارك الأمر اليوم فإنّ النار ستندلع حتى تصل إلى الآستانة.

ولم تكد هذه الشكوى تصل إلى السلطان عبدالحميد حتى تولاّه الذعر والهلع، وأخذ هووهامانه أبو الهدى، وحاشيته، في تنفيذ ما ائتمروا به. وكان أول شيء فعلوه أن سعوا في اجتذاب السيد جمال‌الدين إلى الآستانة ـ وكان حينئذ في لندن ـ حتى يكون أدنى إلى المقصلة، فبعث إليه السلطان بخطاب خلاّب طلب فيه أن يأتي إلى الآستانة. فأبى السيد في أول الأمر أن يستجيب له، فعاد السلطان وعزّز خطابه الاول بخطاب اكثر مداهنةً واستعطافاً، ووعده فيه بأن يعود إلى أوروبا بعد «الحظوة» بالمقابلة! فخدع السيد وأجاب الدعوة، وهولا يعلم ما خبّأه له القدر من كيد السلطان وحزبه! وما كاد يصل إلى الآستانة، حتى وضعوه في قفص من ذهب ـ كما وصف ذلك سائح الماني ـ ولم يمكّنوه من مغادرة البلاد.

ولبثوا بعد ذلك يتحينون فرصة للفتك به إلى أن جرت مقابلة بين السيد الافغاني وبين خديو مصر، الخديو عباس حلمي، فتذرّعوا بها للوصول إلى ما يضمرون، فزعموا أنّ وراء هذه المقابلة مؤامرة خطيرة هي خلع الخلافة عن السلطان عبد الحميد، وإعطاؤها إلى عباس حلمي خديو مصر، وبذلك تصبح عباسية بعد أن كانت عثمانية. وجعلوا ثالث المتآمرين في ذلك السيد عبدالله نديم اذ عزوا إليه أنّه هوالذي جمع بين الخديوعباس وبين السيد جمال‌الدين.

وقد روى هذا الأمر أحمد شفيق باشا المصري، في كتابه «مذكراتي في نصف قرن» فقال: «إنّ الخديو عباس حلمي الثاني لـمّا زار الآستانة في سنة ١٨٩٣ للمرة الاولى بعد ولايته كان شديد الرغبة في مقابلة السيد جمال‌الدين الافغاني، لما

←

اليها في أول محرم سنة ١٢٨٨. هذا مجمل أمره في الآستانة، وما ذكره سليم العنحوري في شرح شعره المسمّى (سحر هاروت) ممّا يخالف ذلك خلط من الباطل لا شائبة للحق فيه. ما مجيء السيد جمال‌الدين إلى مصر على قصد التفرّج بما يراه من مظاهرها ومناظرها، ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا، فاستمالته مساعيه إلى المقام، وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كلّ شهر[1] نزلاً أكرمته به لا في مقابلة عمل، واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم، واستوروا زنده فأوری، واستفاضوا بحره ففاض دراً، وحملوه على تدريس الكتب، فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى، والحكمة النظرية طبيعية وعقلية، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم، ولم يذهب إلى الازهر مدرّساً ولا يوماً واحداً. نعم كان يذهب إليه زائراً، وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة.

عظم أمر الرجل في نفوس طلاّب العلوم، واستزجلوا فوائد الأخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الالسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية، ثم وجه

كان يسمع عنه في مصر، فأرسل اليه مصطفى افندي الحصري المصري لتحديد موعد المقابلة، فأفهمه السيد جمال‌الدين أنّ هذه المقابلة لن تكون إلاّ بعد إذن السلطان! فاستأذن الخديو السلطان غير مرة دون جدوى».

«وذات يوم بينما كان الخديو ممتطيا جواده متنزهاً في الكاغذ خانة قابل السيد جمال‌الدين، وعرّفه بنفسه، ومكثا نحو ساعة يتجاذبان أطراف الحديث. فوصل الخبر إلى السلطان، فأحضر لديه السيد جمال‌الدين وقال له: أتريد أن تجعلها عباسية؟؟ (اي يسند الخلافة إلى عباس)، فردّ عليه جمال‌الدين بأنّ الخلافة ليست خاتماً في إصبعه يضعه في أيّ مكان يريد!!

ولكي يحكم المتآمرون تدبير مكيدتهم نشروا بين الناس هذين البيتين، وأرجفوا بأنّ السيد جمال‌الدين قد أنشدهما لخديو، وهما:

شاد الخلافة في بني العباس ... عباس لكن نعته السفاح

ولا نت خير مملك ستشيدها ... بالبشر يا عباس يا صفاح

ولم يكد السيد عبدالله نديم يسمع هذين البيتين حتى عارضهما ببيتين على لسان أبي الهدى وهما:

هي الخلافة ارجوها وترجوني ... فقد تربع فيها همـــــــودوني

يا غوث يا جد قد آن الأوان لنا ... فأين وعدكما في خان شيخون

١ . في تعليق الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامي: فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٣ ألف قرش اهـ ولعلّ الصواب معاشاً سنوياً بدل شهرياً؛ لتتفق الروايات.

عنايته لحلّ عقل الاوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر، وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره وبرعوا، وتقدّم فنّ الكتابة في مصر بسعيه، وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الإجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل، وما كنّا نعرف منهم إلاّ عبدالله فكري باشا وخيري باشا ومحمد باشا وسيد احمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه، ومن عدا هؤلاء فإمّا ساجعون في المراسلات الخاصة، وإمّا مصنّفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها. ومن عشر سنوات ترى كتبه في القطر المصري لا يشقّ غبارهم، ولا يوطّأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث في السنّ شيوخ في الصناعة، وما منهم إلاّ من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلّد المتّصلين به، ومنكر ذلك مكابر وللحقّ مدابر. هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية، أخذاً بقول جماعة من المتأخّرين في تحريم النظر فيها.

على أنّ القائلين بهذا القول لم يطلقوه، بل قيّدوه بضعفاء العقول، قصار النظر، خشية على عقائدهم من الزيغ، أمّا الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الاولين والآخرين، من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلاّ بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم، ولنا في ائمة الملّة الاسلامية الف حجة تقوم على ما نقول، ولكن تمكّن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيّدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرّفون في النقل عنه ولا يشعرون ، غير أنّ هذا كلّه لم يؤثّر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله. ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، إلى أن تولّى خديوية مصر حضرة خديويها المغفور له توفيق باشا، وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده، إلاّ أنّ بعض المفسدين ومنهم (مستر فيفيان) قنصل انكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوي، ونقل المفسد عنه ما الله يعلم أنّه بريء منه حتى غيّر قلب الخديوي عليه، فأصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه أبو تراب ، ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بحيدرآباد الدكن، وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين.

ولـمّا كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدرآباد إلى كلكتـة، وألزمتـه حكومـة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية، ثم أبيح له الـذهاب إلى أيّ بلد، فاختار الذهاب إلى اوروبا، وأول مدينة أصعد إليها مدينة لوندرة أقام بهـا أياماً قلائل، ثم انتقل منها إلى باريس وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافينـاه في أثنائها، ولـمّا كلّفته جمعية العروة الوثقى أن ينشيء جريدةً تدعوالمـسلمين إلى الوحـدة تحت لواء الخلافة الاسلامية أيدها الله ، سألني أن أقوم على تحريرها، فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خـصوصاً ما لم يأخذه قبلها وعظ واعـظ ولا تنبيـه منبّـه، ثم قامـت الموانـع دون الاسـتمرار في إصدارها حيث قفلت أبواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانكليزيـة في إعنـات مـن تصل اليهم فيه. ثم بقي بعد ذلك مقيماً بأوروبا أشهراً في باريس وأخـرى في لنـدرة إلى اوائل شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣، وفيه رجع إلى البلاد الايرانية.

وفي تعليق الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الاسلامي قـد زعـم (ويلفريـد سكافن بلونت) وهو ممّالم يذكره غيره من مترجميه أنّ جمالالدين ذهـب مـن الهنـد إلى امريكا، وأنّه منها جاء إلى لنـدرة سـنة ١٨٨٣، فقـال: وذكـر (غولـد سـيهر) مناقـشة جمالالدين مع رنان في أمر قابلية الاسلام للعلم ، فقال ما يأتي بالحرف:

«وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة، فنـشر فيهـا مقـالات ممتعة عظيمة القيمة على السياسة الشرقية التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية، وعلى أحوال تركيا ومصر، وعلى معنى حركة المهدي السوداني. وفي ذلك الوقت جـرت بينـه وبين أرنست رنان المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم، فجمالالدين الذي أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليـد العلمـي، وذلك في مقالة في جريدة «الدبا» ترجمت إلى الالمانية. ثم بعد ذلك بقليل عربت محاضرة رنان ــ مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم» الخ...

وقال الأمير شكيب أيضاً: وأول أثر ظهر لجمالالدين في ميدان السياسة هوالحركـة التي هبّت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا، وآلت إلى خلعه من الخديويـة، وكـان

للسيد اليد الطولى فيها، ولـمّا جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال‌الدين مساعيه، لكن لم يطل الامر حتى دبت عقارب السعاية في حقّه، وجاء من دسّ إلى الخديوي الجديد أنّ السيد لم يقف عند هذا الحدّ، وقد تحدّثه نفسه بثورة ثانية وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك، فصدر الأمر فجأةً بنفي جمال‌الدين، وأخرج إلى السويس، ومنها ذهب إلى الهند، ولم يدخل بعدها مصر. وجرت الحركة العرابية في غيابه، واحتلّ الانكليز مصر.

ثم يقول: وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال‌الدين إلى أوروبا، وأول مدينة صعد اليها لندرة، ثم تحوّل منها إلى باريس حيث وافاه الشيخ محمد عبده اكبر تلاميذه، وأكمل وعاة علومه، فأصدر فيها «العروة الوثقى» التي بلغت من ايقاظ الشرق وهزّ أعصاب العالم الاسلامي ما لم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ولا بعدها، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها الاّ بضعة عشر عدداً، فعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية، وبقي جمال‌الدين في أوروبا يجول في مدنها ويجالس أهل العلم فيها، ثم عاد إلى ايران.

وهنا اختلفت الرواية فيما علّقه الأمر شكيب على الكتاب المذكور في سبب عوده اليها، فعلى رواية أنّ الشاه اجتمع به في (منيخ) عاصمة (بافاريا)، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لـمّا شاهده من وفرة علمه وفضله، وتقدّم إليه في الذهاب معه إلى طهران، فلبّى السيد دعوته. وعلي رواية أخرى أنّ الشاه ناصرالدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ م إلى حاضرة ملكه طهران، فأكرم مثواه وبالغ في الاحتفاء به، ولكن خشية الرقباء حملت جمال‌الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب إلى روسية، حيث اقام مدة وصارت له علاقات كثيرة. ويفهم ممّا كتبه السيد صالح الشهرستاني في مجلة العرفان نقلاً عن الميرزا صادق خان البروجردي ـ أحد أصحاب السيد جمال‌الدين ـ أنّ خروجه إلى روسية كان بأمر من ناصرالدين شاه سنة ١٣٠٤ والله أعلم.

وقال الميرزا صادق: وفي أواخر عام ١٣٠٧ وأوائل عام ١٣٠٨ عاد إلى طهران من روسية، ونزل في دار الحاج محمد حسن كمباني أمين دار الضرب، وكان في جميع مجالسه وأحاديثه ينتقد السلطان ناصرالدين ووزيره يومئذ ميرزا علي أصغر خان الملقّب أمين

السلطان، ويدعو الى الاصلاح ومقاومة الاستبداد، وبلغ ذلك الوزراء فأبلغوه الشاه وأقنعوه بإصدار أوامره سراً إلى الحاج محمد حسن كمباني ليعتذر من السيد جمال الدين بعذر مشروع في مفارقته ليخرج من داره، فأخبر صاحب الدار بأنّ أخاه التاجر في أوروبا مريض ويضطره ذلك الى السفر لملاحظته، فعرف المترجم مقصوده وأجابه بأنّي أيضاً لا أرغب في البقاء في طهران، وسافر في اليوم الثاني إلى مشهد السيد عبدالعظيم الذي يبعد عن طهران نحواً من فرسخ، فبقي فيه ما يزيد عن سبعة أشهر لا يفتر فيها عمّا كان يبثّه في طهران، وبالطبع كان ذلك كلّه يبلغ مسامع ناصرالدين ووزرائه، فأمر بابعاده إلى كرمانشاه، ومنها إلى خارج ايران ـ العراق ـ وفي ليلة من ليالي شعبان سنة ١٣٠٨ جاء اليه المدعو آقا باقر خان سردار مع ستة من أهل البلد، وأخبره أنّ الشاه لا يرى صلاحاً في بقائه بايران وأنّ الحصان حاضر فليتفضّل ويركبه، فأجابه بأنّي أنا كنت غير راغب في المجيء إلى طهران والبقاء فيها، ولكن الشاه نفسه هوالذي أصرّ عليّ بالمجيء اليها، ولا تزال كتبه الكثيرة التي يدعوني فيها للعودة إلى ايران محفوظة عندي، وطلب أن يسمح له بزيارة عبدالعظيم فسمح له بذلك، فلمّا دخل المشهد أطال المكث فيه، فأمر باقر من معه بإخراجه قهراً، فأخرج بصورة قبيحة، وقد صادفوه خارجاً.

هذه رواية تلميذه الميرزا صادق البروجردي التي رواها عنه السيد صالح الشهرستاني، والذي يلوح أنّه احتمى بمشهد عبدالعظيم وامتنع عن الخروج، فأخرج قهرا بتلك الصورة، وكتابه إلى الميرزا الشيرازي الآتي يصرّح بذلك، حيث يقول فيه: أمر بسحبي من حضرة عبدالعظيم.

وأمّا غير ميرزا صادق من مؤرّخي الايرانيين وغيرهم فيقولون: إنّ الشاه أرسل خمسمائة فارس من الجنود فقبضوا عليه وساقوه إلى قم، وصحبه منهم هناك خمسون فارساً إلى كرمانشاه، ثم إلى ماوراء الحدود الايرانية. والذي يلوح أنّ رواية الخمسمائة الفارس مبالغ فيها مبالغة يراد بها تعظيم أمره، وإلاّ فلا نظنّ أنّ مثل ذلك يحتاج إلى اكثر من عشرة جنود، فإن زاد فالى خمسين. والذي يظهر أنّ الذين أخرجوه من المشهد هم الستة من أهل البلد وأخذوه من هناك إلى دار الحكومة، ومنها أصحبوه ببعض الجند والله اعلم، ثم أوصلوه إلى خانقين، ومن هناك استلمته الشرطة العثمانية حتى أو صلته

إلى بغداد، ثم ارسل إلى البصرة. وكان ذلك في سنة ورودنا إلى النجف لطلب العلم، وهي سنة ١٣٠٨. وكتب وهو في البصرة كتاباً إلى الميرزا الشيرازي بالعربية الفصيحة ـ ممّا يدلّ على أنّه كان قد أتقنها، وذلك دليل علو همّته ـ يستفزّه فيه ويستصرخه ويحمّسه ويستنجده بأنواع العبارات المهيّجة المؤثّرة في النفوس، وشاع هذا الكتاب في ذلك الوقت وجاءت نسخته إلى النجف وقرأناه وقرأه الناس، ولكن الميرزا الشيرازي لم يظهر منه شيء في هذا الباب من أجل هذا الكتاب، وهذه صورته:

كتاب السيد جمال الدين للميرزا الشيرازي

بسم الله الرحمن الرحيم. حقاً أقول: إنّ هذا الكتاب خطاب إلى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت وحيثما حلّت، وضراعة، تعرضها الأمة على نفوس زكية تحقّقت بها شؤونها كيفما نشأت، وفي أي قطر نبغت، ألا وهم العلماء، فأحببت عرضه على الكلّ وإن كان عنوانه خاصاً.

حبر الامة، وبارقة أنوار الأئمة، دعامة عرش الدين، واللسان الناطق عن الشرع المبين، الحاج الميرزا حسن الشيرازي صان الله به حوزة الاسلام، وردّ به كيد الزنادقة اللئام.

لقد خصك الله بالنيابة عن الحجة الكبرى، واختارك من العصابة الحقّة، وجعل بيدك أزمّة سياسة الامة بالشريعة الغراء. وحراسة حقوقها بها، وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها، وأحال إليك من بين الأنام وأنت وارث الانبياء مهام أمور تسعد بها الملّة في دارها الدنيا، وتحظى بها في العقبى، ووضع لك أريكة الرياسة العامة على الافئدة والنهى، إقامة لدعامة العدل، وإنارة لمحجة الهدى، وكتب عليك بما أولاك به من السيادة على خلقه حفظ الحوزة، والذود عنها، والشهادة دونها على سنن من مضى، وأنّ الامة قاصيها ودانيها، وحاضرها وباديها، ووضيعها وعاليها، قد أذعنت لك بهذه الرياسة السامية الربانية، جاثية على الركب، خارة على الأذقان، تطمح نفوسها اليك في كلّ حادثه تعروها، وتطلّ بصائرها عليك في كلّ مصيبة تمسّها، وهي ترى أنّ خيرها وسعدها منك، وأنّ فوزها ونجاتها بك، وأنّ امنها وأمانيها فيك، فاذا لمح منك غضّ نظر، أو نأيت بجانبك لحظة، وأهملتها وشأنها لمحة، ارتجفت أفئدتها، وانتكثت عقائدها،

وزاغت أبصارها، وانهدت دعائم ايمانها، نعم لا برهان للعامة فيها دانوا، إلاّ استقامة الخاصة فيما أمروا، فإن وهن هؤلاء في فريضة، أو قعد بهم الضعف عن إماطة منكر، اعتور أولئك الظنون والاوهام، ونكص كلّ على عقبيه مارقاً عن الدين القويم، حائداً عن الصراط المستقيم. وبعد هذا وذاك أقول:

إنّ الامة الايرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين، وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين، ووجوم الحجة الحقّ (اياك أعني) عن القيام بناصرها، وهوحامل الأمانة والمسؤول عنها يوم القيامة، قد طارت نفوسها شعاعاً، وطاشت عقولها وتاهت أفكارها، ووقفت موقف الحيرة وهي بين إنكار وإذعان، وجحود وإيقان، لا تهتدي سبيلاً وهامت في بيداء الهواجس، في عتمة الوساوس، ضالّة عن رشدها، لا تجد اليه دليلاً، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها، وسدّ دونها أبواب رجائها وكادت تختار ـ يأساً منها ـ الضلالة على الهدى، وتعرض عن محجة الحقّ وتتبّع الهوى، وأنّ آحاد الأمة لا يزالون يتساءلون شاخصة أبصارهم عن أسباب قضت على حجةالاسلام (اياك عني) بالسبات والسكوت، وحتم عليه أن يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينه، واضطره إلى ترك الشريعة وأهلها إلى أيدي زنادقة يلعبون بها كيف ما يريدون، ويحكمون فيها بما يشاؤون، حتى إنّ جماعة من الضعفاء زعموا أن قد كذّبوا، وظنّوا في الحجة ظنّ السوء. وحسبوا أنّ الأمر أحبولة الحذق، وأسطورة المذق، وذلك لأنّها ترى ـ وهوالواقع ـ أنّ لك الكلمة الجامعة، والحجة الساطعة، وأنّ أمرك في الكلّ نافذ، وليس لحكمك في الأمة منابذ، وأنّك لو أردت أن تجمع آحاد الامة بكلمة منك وهي كلمة تنبثق من كيان الحق إلى صدر أهله لترهب به عدو الله وعدوهم، وتكفّ عنهم شرّ الزنادقة، وتزيح ما حاق بهم من العنت والشقاء، وتنشلهم من ضنك العيش إلى ما هو أرغد وأهنأ، فيصير الدين بأهله منيعاً حريزاً، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزاً. هذا هوالحق أنّك ردس العصابة الحقّة، وأنّك الروح الساري في آحاد الامة، فلا يقوم قائم إلاّ بك، ولا تجتمع كلمتهم الاّ عليك، لوقمت بالحقّ نهضوا جميعاً ولهم الكلمة العليا، ولو قعدت تثبّطوا وصارت كلمتهم هي السفلى، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غضّ حبر الأمة طرفه عن شؤونهم، وتركهم هملاً بلا راعي، وهمجاً

بلارادع ولا داع، يقيم لهم عذراً فيما ارتابوا، خصوصاً لـمّا رأوا أنّ حجةالاسلام قد اتقى فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه، وأجمعت على حظر الاتقاء فيه خشية لغوبه، ألا وهوحفظ حوزة الاسلام، الذي به بعد الصيت، وحسن الذكر، والشرف الدائم والسعادة التامة، ومن يكون أليق بهذه المزايا وأحرى بها ممّن اصطفاه القرن الرابع عشر، وجعله برهاناً لدينه وحجةً على البشر.

أيها الحبر الاعظم! إنّ الملك قد وهنت مريرته فساءت سيرته، وضعفت مشاعره فقبحت سريرته، فعجز عن سياسة البلاد وإدارة مصالح العباد، فجعل زمام الأمور كلّها وجزئيها بيد ...أثيم غشوم، ثم بعد ذلك ... يسبّ الانبياء في المحافل جهراً، ولا يقيم لشريعة الله أمراً، ولا يرى لرؤوساءالدين وقراً، يشتم العلماء، ويقذف الاتقياء، ويهين السادة الكرام، ويعامل الوعّاظ معاملة اللئام، وأنّه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية قد خلع العذار وتجاهر .... وموالاة الكفّار ومعاداة الأبرار، هذه هي أفعاله الخاصة في نفسه، ثم إنّه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين المعادن والسبل الموصلة، إليها، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعّب فروعها إلى جميع أرجاء المملكة، وما يحيط بها من البساتين والحقول، نهر كارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه إلى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج والجادة من الأهواز إلى طهران، وما على أطرافها من العمران والفنادق والبساتين والحقول والتنباك، وما يتبعه من المراكز ومحلاّت الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنّى وجد وحيث نبت، وحكر العنب للخمور وما يستلزمه عن الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار البلاد، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل، والبنك وما ادراك ما البنك، وهواعطاء الاهالي الكلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه اياهم، وتسليمهم له بالرياسة والسلطان، ثم إنّ الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فحبق قائلاً: إنّ هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة، ياالله من هذا البرهان الذي سوّله خرق الخائنين، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقاً لسكوتها لوسكتت مرداب رشت وانهر طبرستان والجادة من انزلي إلى خراسان وما يتعلّق بها من الحدود والفنادق

والحقول، ولكن الدولة الروسية شمخت بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية، وهي عازمة على استملاك خراسان والاستيلاء على آذربيجان ومازندران إن لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنفسخ هذه المقاولات القاضية بتسليم المملكة تماماً بيد ذلك العدو هذه هي النتيجة الأولى لخيانة هذا الأخرق.

وبالجملة أنّ هذا المجرم قد عرض أقطاع البلاد الايرانية على الدول ببيع المزاد، وأنّه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم السلام للأجانب، ولكنّه لخسّة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها إلاّ بقيمة زهيدة ودراهم بخسة معدودة، نعم هكذا يكون اذا امتزجت اللامة والشره بالخيانة والسفه.

وإنّك أيها الحجة إن لم تقم بناصر هذه الامة، ولم تجمع كلمتهم، ولم تنزع السلطة بقوة الشرع من يد هذا الاثيم، لا صحبت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب يحكمون فيها ما يشاؤون، ويفعلون فيها ما يريدون، واذا فاتتك هذه الفرصة أيها الحبر ووقع الامر وأنت حي لما أبقيت ذكراً جميلاً بعدك في صحيفة العالم وأوراق التواريخ، وأنت تعلم أنّ علماء ايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك ـ وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم ـ كلمة واحدة، ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها، ومن خصّه الله بقوة، كيف يسوغ له أن يفرّط فيها ويتركها سدى؟!

ثم أقول للحجة قول خبير بصير: إنّ الدولة العثمانية تتبجّح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه، لأنها تعلم أنّ مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية واستيلاءها عليها تجلب الضرر إلى بلادها لا محالة، وأنّ وزراء ايران وأمراءها كلّهم يبتهجون بكلمة تنبض بهذا الشأن، لأنهم بأجمعهم يعافون هذه المستحدثات طبعاً ويسخطون من هذه المقاولات جبلة، ويجدون بنهضتك مجالاً لإبطالها وفرصة لكفّ الشره الذي رضي بها وقضي عليها، ثم إنّ العلماء ـ وإن كان كل صدع بالحقّ وجبه هذا الأخرق الخائن بسوء أعماله ـ ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين ما قرّت كسلسلة المعدات قراراً ولا جمعتها وحدة المقصد في زمان واحد، وهؤلاء لتماثلهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرياسة وتساويهم في الرتب غالباً عند العامة، لا ينجذب بعضهم إلى بعض، ولا يصير أحد منهم لصقاً للآخر، ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثّر

الانجذاب، حتى تتحقّق هيأة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة، كلّ يدور على محوره، وكلّ يردع الزور وهوفي مركزه، هذا هوسبب الضعف عن المقاومة، وهذا هوسبب قوة المنكر والبغي.

وإنّك وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجه السامية والمنزلة الرفيعة علّة فعّالة في نفوسهم، وقوة جامعة لقلوبهم، وبك تنتظم القوى المتفرقة الشاردة وتلتئم القدر المستشتة الشاذّة، وإنّ كلمة تأتي منك بوحدانية تامة، يحقّ لها أن تدفع الشرّ المحدق بالبلاد، وتحفظ حوزة الدين، وتصون بيضة الاسلام. فالكلّ منك وبك وإليك، وأنت المسؤول عن الكلّ عند الله وعند الناس.

ثم أقول: انّ العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذلك ... شدائد ما سبق لها منذ قرون مثيل، وتحمّلوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كلّ هوان وكلّ صغار وكلّ فضيحة، ولا شك أنّ حبر الامة قد سمع ما فعله أدلاّء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج ملا فيض الله الدربندي، وستسمع قريباً ما فعله الطغاة الجفاة بالعالم المجتهد التقي البار الحاج السيد على اكبر الشيرازي، وستحيط علماً بما فعله بحماة الملة والامة من قتل وكي وضرب وحبس، ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرماني الذي قتله ذلك... في الحبس، والفاضل الكامل البار الحاج سياح، والفاضل الاديب النجيب الميرزا محمد علي خان، والفاضل المتفنن اعتماد السلطنة وغيرهم.

وأمّا قصتي وما فعله ذلك... الظلوم معي، فمما يفتّت اكباد أهل الايمان ويقطع قلوب ذوي الايقان، ويقضي بالدهشة على اهل الكفر وعبدة الأوثان، إنّ ذلك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصّن بحضرة عبدالعظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور مثلها في الشناعة، هذا كلّه بعد النهب والغارة، إنّا لله وإنّا اليه راجعون ثم حملتني زبانيته الأوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلاً في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين، وصحبني جمع من الشرطة إلى بغداد، ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني إلى البصرة، علماً منه أنّه لوتركني ونفسي لأتيتك أيها الحبر

وبثثت لك شأنه وشأن الامة، وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شرّ هذا .... ودعوتك ايها الحجة إلى عون الدين، وحملتك على إغاثة المسلمين، وكان على يقين أنّي لو اجتمعت بك لا يمكنه أن يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وإهلاك العباد، وإعلاء كلمة الكفر، ومما زاده لؤماً على لؤمه ودناءة على دناءته أنّه دفعاً لثرثرة العامة وتسكينا لهياج الناس، نسب تلك العصابة التي ساقتها غيرة الدين وحمية الوطن إلى المدافعة عن حوزة الاسلام، وحقوق الاهالي بقدر الطاقة والامكان إلى الطائفة البابية، كما أشاع بين الناس أولاً ـ قطع الله لسانه أنّي كنت غير مختون، وا اسلاماه! ما هذا الضعف، ما هذا الوهن؟ كيف أمكن أن صعلوكا دنيء النسب، ووغداً خسيس الحسب، قدر أن يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة، ويزدري العلماء، ولا يد قادرة تستأصل هذا الجذر الخبيث، شفاء لقلوب المؤمنين، وانتقاماً لآل سيد المرسلين عليه السلام، ثم لـمّا رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة أمسكت عن بثّ الشكوى، ولـمّا قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي اكبر إلى البصرة طلب منّي أن اكتب إلى الحبر الاعظم كتاباً أبثّ فيه هذه الغوائل والحوادث والكوارث، فبادرت اليه امتثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمراً، والسلام عليك ورحمةالله وبركاته. «السيد الحسيني».

ويقول الأمير شكيب في تعليقه على حاضر العالم الاسلامي: فكان هذا النداء من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز، واضطرّت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة إلى إلغائه.

ولكن الحقيقة أنّ الميرزا الشيرازي أفتى بتحريم تدخين التنباك حينما بلغه اعطاء الامتياز إلى الدولة البريطانية قبل أن يرسل له السيد جمال الدين هذا الكتاب، ولم يكن إفتاؤه بتأثير كتاب جمالالدين، ولولم يكن له مؤثّر ديني من نفسه عظيم له يؤثّر فيه كتاب جمالالدين، ولكن الناس اعتادوا إذا مالوا إلى شخص أن يسندوا كلّ وقائع العالم اليه.

وجاء في بعض أسفاره إلى البحرين، ولعلّه ذهب اليها من البصرة، فنزل في دار بعض تجّارها وذهب إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة امير البحرين، ثم عاد من مجلسه

وسافر بعد يومين. وكان يذمّ الشيخ ويتأسّف على رئاسة امثاله علق المسلمين. (قال) الامير شكيب: وكان السلطان عبدالحميد قد دعا السيد جمالالدين إلى الاستانة، وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة. إذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبد العزيز. (اقول): إنّ صحّ أنّه دخل الآستانة في زمن عبدالعزيز كانت هذه المرة الثالثة لدخوله إيّاها، فإنّه قد دخلها في زمن عبدالحميد مرتين يقيناً، ففي المرة الأولى جاءها من الهند فأقام بها بين سنة ونصف وسنتين، والمرة الثانية دخلها بعد رجوعه من مصر إلى ايران ونفي ناصرالدين له سنة ١٣٠٨ واستدعاء عبدالحميد له ربما كان في المرة الثانية، قال: ولـمّا ورد السيد جمالالدين الآستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً في دار ضيافة خصّه بها في نشاش طاش، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة، وكان يدخل على السلطان ويصلّي صلاة الجمعة معه. قال: ومضت مدة وجمالالدين حظي عند السلطان عبدالحميد، وكان الجو لم يصفُ بينه وبين الشيخ أبي الهدى الصيادي، فأنشأ ذلك أجل القصص والوشايات بحقّه إلى السلطان، لكن السلطان بحسب قول جمالالدين ـ لم يحفل بهذه الوشاية. وهذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمالالدين من السلطان، وربما زاد لديه زلفى، وإنّما أدى إلى وحشة السلطان منه استمراره في مجالسه التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدح في شاه العجم، فحمل ذلك سفير ايران على رفع الشكوى إلى السلطان، فاستدعى السلطان إليه جمالالدين وقال له: إنّ السفير سألني أن أتكلّم معك في الكفّ عن الوقيعة في الشاه، وأنا بناءً على أملي فيك وعدته بأنّك تكفّ عنه، قال شكيب: وقد روى لي السيد هذه القصة عندما رجعت من أوروبا إلى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢ فقال لي هكذا بالحروف: «فقلت للسلطان: ما كنت ناوياً أن أترك شاه العجم حتى أنزله في قبره، ولكن بعد أن أمر أميرالمؤمنين بالكفّ عنه فلابد من طاعته».

ثم ذكر الامير شكيب أنّ رجلاً ايرانياً بابي المذهب اسمه آقا رضا خان وجد مع جمالالدين في حبس قزوين، وتأكّدت بينهما المودة، فبعد مجيء جمالالدين إلى الاستانة زاره هذا الرجل فيها، وأنّ جمالالدين حمله على قتل الشاه، فذهب فقتله، وقال له ما ترجمته: «خذها من يد جمالالدين، فسرّ جمالالدين لقتل الشاه في كلام طويل هذا

حاصله، فغضب السلطان عبد الحميد غضبا شديداً لقتل الشاه، وشدّد المراقبة على المترجم، فأرسل إلى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه إيصاله إلى باخرة ليخرج من الاستانة. فتعهّد له بذلك، وأنّ السلطان أرسل إلى جمال‌الدين يناشده باسم الاسلام أن لا يمسّ كرامة الخليفة بطلب حماية أجنبية، فثارت في نفسه الحمية الاسلامية، وأرسل إلى المستشار أنه عدل عن السفر، وبعد أشهر ظهر في حنكه مرض السرطان، وجرى ما قدّمناه عند ذكر سبب وفاته.»

بعض ما يؤثر عنه من الكلمات القصار

ذكرها الشهرستاني فيما كتبه في العرفان: من لا معاش له لا معاد له. اعرف ربّك. حبّ وطنك. فكّر في شؤون حياتك. وله كلمات بالفارسية هذه ترجمتها: «أعظم ركن في بقاء الانسانية معرفة حقوق ذوي الحقوق. اطلب الراحة لرفقائك وتحمّل المشاقّ في سبيلهم. إنّ وطننا العزيز ايران يسير في سياسته في طريق معوجّ، وفي ديانته في طريق معوج. أيها النّاس تمسّكوا بحقائق الدين المحمدي إنّ الذي تتمسّكون به الآن هوشريعة الملالي وهي غلط، فقد كتب كلّ ملا كتاباً على مقدار تفكيره، وليس ذلك الملاّ مقصّراً فيما كتب، إذ أنّ مقدار تفكيره ومعلوماته كانت محدودة إلى هذه الدرجة، ولو أنّنا جمعنا كلّ هذه الكتابات وأضفناها إلى بعضها لما تمكّنت أن تزيد في عظمة الاسلام، بل بالعكس تصغّره».

واذا تأمّلت في هذا الكلام الأخير وجدته خالياً من المعنى، فحقائق الدين المحمدي إمّا ضرورية أو نظرية، والضرورية لا تؤخذ من العلماء الذين سمّاهم الملالي، والنظرية لا سبيل إلى معرفتها إلاّ من العلماء، فقوله: الذي تتمسّكون به هوشريعة الملالي وهي غلط، غلط.

مؤلّفاته

١ـ تاريخ الافغان ٢ – انتقاد الفلاسفة الطبيعيين، طبعا بمصر غير مرة ٣– رسالة الردّ على الدهريين ألّفها في حيدرآباد الدكن بالفارسية ونقلها من الفارسية إلى العربية الشيخ محمد عبده بمساعدة أبي تراب صاحب جمال‌الدين الذي سمّاه عارف افندي الافغاني أبا

تراب، والظاهر أنّ أفغانيته كأفغانية جمال‌الدين، فكان أبو تراب يترجمها من الفارسية إلى العربية ومحمد عبده يضع عباراتها، مطبوعة بمصر ٤- مجموعة جريدة العروة الوثقى بمشاركة الشيخ محمد عبده مطبوعة في مجلّد ٥- حقائق جمالي «الحقائق الجمالية» فارسي، يقول السيد صالح الشهرستاني عن الميرزا صادق خان البروجردي: أنّه فُقد بعد إبعاده من مشهد عبد العظيم، وكان يلقي منه دروساً على خواص تلاميذه الذين كنت أنا أحدهم.

تلاميذه

أشهرهم الشيخ محمد عبده الشهير مفتي الديار المصرية، فهو قد تخرّج به وصحبه، وكان صديقه الحميم وصاحبه الشهير في السراء والضراء. ومن تلاميذه السيد عبدالله نديم، ومنهم الميرزا صادق خان البروجردي كما حكاه عنه السيد صالح الشهرستاني وغيرهما كثيرون من المشاهير.

«٣»

أستاذي جمال الدين

العلامة الشيخ محمد عبده

- مفتي الديار المصرية -

أستاذي جمال الدين

نور جديد

جرت سنّة الله في خلقه أن عظائم الامور من صغارها، كما أن ضخام الأشجار تنبسق من بذورها...! جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٨ هـ.[1] رجل بصير في الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الاطلاع، جمّ التعارف، جريء القلب واللسان. وهوالمعروف بالسيد جمال الدين الافغاني.

اختار الاقامة في مصر، فتعرّف اليه في بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعياً إلى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده.

وكانت مدرسته بيته... فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم. وهوفي جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس الى معالي الامور، أو يلفت الفكر الى النظر في الشؤون العامة مما يمسّ مصلحة البلاد وسكانها!

وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الاجازة.

---

١ .هذه السنة توافق سنة ١٨٧١م. وسيأتي في كلام الاستاذ الامام ان جمال الدين نزل مصر في اول المحرم سنة ١٢٨٨هـ وهذا التاريخ يوافق ٢٢ مارس ١٨٧١م. وقد سبق لجمال الدين أن نزل مصر لاول مرة في رمضان سنة ١٢٨٧هـ الموافق سنة ١٨٧٠م. وذلك في طريقه من الهند إلى الحجاز. وأقام بها أربعين يوماً.

وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى احيائهم ينشرونه فيالناس. فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخفّ حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد، خصوصاً «القاهرة».

كل ذلك والحاكم القوي في علو مكانته، أرفع من أن يناله هذا الشعاع في ضعف شأنه...! ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء، وينتشر فيالانحاء على غير نظام، إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا في سنة ١٢٩٣ هـ)١٨٧٦م).

وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية، صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا، فتطلّعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب. وقد سهّلت كثرة الاجانب في البلاد وورود الجرائد الاوربية إلى طلابها من الاوربيين. ومهّدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق إلى العلم بما فيها، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب.

وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية،التي كانت لا تزال إلى هذا العهد مقصورة على ما لايهم، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل إلى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ماكان ينسب الى الجنود العثمانية...!؟ فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها...! وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفاً من قبل... ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة سبقها في نشر الاخبار، ومناوأتها في المشرب، واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حدّ لايمكن منعه، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة...!

لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الامم في سيرتها السياسية والاجتماعية، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد.

وأخذ الشيخ جمالالدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير، وانشاء الفصول الادبية والعلمية في موضوعات مختلفة، لا تخرج جامعتها عن إصلاح الفكار، وتهذيب الاخلاق.

فتسابق إلى ذلك الكتّاب، وتبارت الاقلام، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد

إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال، أو أرض غير هذه الارض...!

ومن يطلع على أعداد جريدة مصر، وجريدة التجارة، وجريدة مرآه الشرق والاهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا...

أول لقائي بالسيد جمال‌الدين

أخبرني ذات يوم أحد زملائي المجاورين في «رواق الشوام» بالأزهر أنّه جاء مصر «عالم أفغاني عظيم». وهو يقيم في «خان الخليلي» فسررت بهذا الخبر، وأخبرت أستاذي «الشيخ حسن الطويل». وكان الشيخ ممتازاً في الازهر بعلم المنطق، وحضرته عليه، ولكنّه لم يكن يشفي نفسي، وكنت أتشوق دائماً إلى العلوم العقلية، فبحثت في خزائن الكتب الازهرية عن طلبتي، فظفرت ببعض الكتب، وعثرت على كتاب «شرح القطب على الشمسية» ناقصاً. وقد قرأ لنا الشيخ حسن الطويل شيئاً من «الفلسفة»، ولكنّه لم يكن يجزم في قراءته وتدريسه بما يقرره من المعنى، وكثيراً ما كان الدرس احتمالات وتخمينات.

فلمّا سمعت بمجيء السيد جمال‌الدين إلى مصر، دعوت الشيخ حسن الطويل لزيارته معي. ذهبنا اليه في المساء، فألفيناه يتعشى، فسلّمنا عليه وسلّم علينا، ودعانا إلى الطعام، فاعتذرنا، وشكرنا...

وبعد أن تناول الطعام اتجه الينا، وسألنا عن معنى بعض آيات من القرآن الكريم، وما قال المفسرون والصوفية فيها. فآثرنا أن نستمع إليه، فأخذ يفسّرها أمامنا تفسيراً ملأ قلبي اعجاباً، وشغفني به حباً، لأنّ التصوف والتفسير، هما: «قرة عيني، ومفتاح السعادة»...!

قرأت عليه هذه الكتب

صاحبتُ «السيد» من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٨ هـ، وأخذت أتلقّى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية، وأدعوالناس إلى حضور دروسه والتلقّي عنه. وقد قرأت عليه كتاب «الزوراء» للدواني في التصوف، و«شرح القطب على الشمسية»

و«المطالع» و«سلم العلوم» من كتب المنطق، وكتاب «الهداية» و«الاشارات» و«حكمة العين» و«حكمة الاشراق» من كتب الفلسفة، و«عقائد الجلال الدواني» في التوحيد، و«التوضيح مع التلويح» في الأصول، و«تذكرة الطوسي» في الهيئة القديمة، وغيره من كتب الهيئة الحديثة. وقد شجّعني على كتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية...!

وحرصت على حضور مجالسه ودروسه، ولكن مشايخ الازهر وجمهور طلبته أخذوا يتقوّلون عليه وعلينا الاقاويل، ويزعمون أنّ تلقّي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة، وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيرالدنيا والآخرة...!

فكنت اذا رجعت إلى بلدي عرضت ذلك علي خال والدي الشيخ درويش، فكان يقول لي:

ـ إنّ الله هوالعليم الحكيم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإنّ اعدى أعداء العليم هوالجاهل، وأعدى أعداء الحكيم هوالسفيه. وما تقرّب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة. فلا شيء من العلم بممقوت عندالله، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه، إلاّ ما يسمّيه بعض الناس علماً، وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما، اذا قصد بتحصيلهما الإضرار بالناس...!

لم أهتم بالأقاويل

لم أهتم بتلك الأقاويل، وكنت ألازم «السيد» ملازمة ظلّه، وأحضر دروسه وناديه وسامره، وكانت كلها مجالس علم وحكمه وأدب ودين وسياسة...! وكان «السيد جمال‌الدين» يلقي الحكمة لمريدها، وغير مريدها، ومن خواصه أنّه يجذب مخاطبه إلى ما يريد وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك... لأنّ حالة المجلس تؤثر في نفسي، فلا تتوجه للكلام إلاّ اذا رأيت له محلاّ قابلاً واستعداداً ظاهراً... وهكذا الكتابة...!

جمال‌الدين كما عرفته

ولادته ونشاته

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صوره، في مخيلات اللاقفين لخبره، حتى

كأنّه حقيقة كلية تجلّت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكن نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء جوهره، وذكاء مخبره، لم يصبه وهم الواهمين. ولم يمسسه حزر الخراصين، وإنّا نذكر مجملاً من خبره، نرويه عن كمال الخبرة، وطول العشرة.

هذا هوالسيد جمال‌الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الافغان، ينتمي نسبه إلى «السيد علي الترمذي» المحدّث المشهور، ويرتقي إلى سيدنا «الحسين بن علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه، وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة «كنر» من أعمال كابل، تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، ولهذه العشيرة منزلة عليه في قلوب الافغانيين يجلّونها رعاية لحرمة نسبها الشريف.

وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقلّ بالحكم فيه، وانّما سلب الإمارة من أيديها دوست محمدخان جدالامير الحالي[1] وأمر بنقل أبي السيد جمال‌الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل.

ولد السيد جمال‌الدين في قرية «أسعدآباد» من قرى كنر سنة ١٢٥٤ الهجرية (١٨٣٩م) وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة كابل، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس للتعلّم وعني والده بتربيته، فأيّد العناية به قوة في فطرته، وإشراق في قريحته، وذكاء في مدركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها.

تلقّى علوماً جمة برع في جميعها، فمنها العلوم العربية من نحو، وصرف، ومعان وبيان، وكتابة وتاريخ عام وخاص. ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث، وفقه وأصول فقه، وكلام وتصوّف. ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية. ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة، وجبر وهيئة أفلاك. ومنها نظريات الطب والتشريح.

أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد، وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة

---

١ . يعني به الامير عبدالرحمن، لأنّ الترجمة كتبت وهوحي.

من سنّه، ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر، ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوروبية الجديدة.

وأتى بعد ذلك إلى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، وطالت مدة سفره اليها نحو سنة، وهوينتقل من بلد إلى بلد، ومن قطر، إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ هـ)١٨٥٦م) فوقف على كثير من عادات الامم التي مرّ بها في سياحته، واكتنه أخلاقهم، واصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى بلاده، ودخل في سلك رجال الحكومة على عهدالامير دوست محمدخان.

ولـمّا زحف الامير إلى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان احمدشاه صهره وابن عمه، سار السيد جمال‌الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار إلى أن توفّي الامير، وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً طويلاً. وتقلّد الامارة ولي عهدها شيرعليخان سنة ١٢٨٠ هـ)١٨٦٣م) وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على أخوته، خصوصاً من هواكبر سنّاً منه، ويعتقلهم، فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة، وألّبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالإمارة.

الوزير الاول جمال‌الدين

وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة: محمد أعظم، ومحمد أسلم، ومحمد أمين. وهوى جمال‌الدين كان مع محمد أعظم، فلمّا أحسّوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار وتفرقوا إلى الولايات، كلّ منهم ذهب إلى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها، وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية، وبعد مجالدات عنيفة عظم أمر محمد اعظم وابن أخيه عبدالرحمن «الامير السابق» وتغلّبا على عاصمة المملكة، وأنقذا محمد أفضل والد عبدالرحمن من سجن غزنة، وسمّياه أميراً على أفغانستان، ثم أدركه الموت بعد سنة. وقام على الامارة بعد شقيقه محمد أعظم خان، وارتفعت منزلة الشيخ جمال‌الدين عنده فأحلّه محلّ الوزير الاول، وعظمت ثقته به، فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها، على خلاف ما تعوّد أمراء تلك البلاد من

الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم.

وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال‌الدين لولا سوء ظنّ الامير بالاغلب من ذوي قرابته، ممّا حمله على تفويض مهمات من الاعمال إلى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة، عراة من الحنكة، فساق الطيش احدهم وكان حاكماً في قندهار على منازلة عمه شيرعلي في هراة، ولم يكن له من الملك سواها، وظنّ الفتى أنّه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر إخوته.

فلمّا تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مئتي جندي، واخترق بها صفوف أعدائه، فأوقع الرعب في قلوبهم، وكادوا ينهزمون لولا أنّ يعقوب خان قائد شيرعلي التفت فوجد ذلك الغر المتهور منقطعاً عن جيشه، فكرّ عليه وأخذه أسيراً، فتشتّت جند قندهار وقوى الامل عند شيرعلي... فحمل على قندهار واستولى عليها، وعادت الحرب إلى شبابها، وعضد الانجليز شيرعلي، وبذلوا قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم، فبيعت أمانات ونقضت عهود وجدّدت خيانات.

هجرته عن الافغان

وبعد حروب هائلة تغلّب شيرعلي وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن، فذهب عبدالرحمن إلى بخارى «وعاد إلى بلاده رحمه الله» وذهب محمد أعظم إلى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور، وبقي السيد جمال‌الدين في كابل لم يمسسه الامير بسوء احتراماً لعشيرته، وخوف انتفاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي، إلاّ أنّه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقّه بباطله. ولهذا رأى السيد جمال‌الدين خيراً له أن يفارق بلاد الافغان، فاستأذن للحج فأذن له على شرط ألاّ يمر ببلاد ايران كي لا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت، فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٩م) بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر.

فلمّا وصل إلى التخوم الهندية تلقّته حكومة الهند بحفاوة في إجلال، إلاّ أنّها لم تسمح

له بطول الاقامة في بلادها، ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه إلاّ على عين من رجالها، فلم يقم أكثر من شهر، ثم سيّرته من سواحل الهند في أحد مراكبها على نفقتها إلى السويس، فجاء إلى مصر وأقام بها نحواً من أربعين يوماً تردّد فيها على الجامع الازهر، وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل، وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار، فقرأ لهم بعضاً منه في بيته، ثم تحوّل عن الحجاز عزمه، وتعجّل بالسفر إلى الآستانة.

جمال الدين في الآستانة

وصل الاستانة بعد أيام من وصوله، أمكنه ملاقاة الصدر الاعظم عالي باشا... ونزل منه منزلة الكرامة، وعرف له الصدر فضله، وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيّه الافغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء، وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه، وهوغريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم.

وبعد ستة أشهر سمّي عضواً في مجلس المعارف، فأدّى حقّ الاستقامة في آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه. ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه لقب شيخ الاسلام لتلك الاوقات «حسن فهمي أفندي» لأنّها كانت تمسّ شيئاً من رزقه، فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ)١٨٧٠م) فرغب اليه مدير دارالفنون «تحسين افندي» أن يلقي فيها خطاباً للحثّ على الصناعات، فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية، فألحّ عليه تحسين أفندي، فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه وعرضه على وزير المعارف «صفوت باشا» وعلى «شرواني زاده» مشير الضابطية، وعلى دولتاومنيف باشا ناظر المعارف وكان عضواً في مجلس المعارف، واستحسنة كلّ منهم وأطنب في مدحه.

فلمّا كان اليوم المعيّن لاستماع الخطاب تسارع الناس إلى دارالفنون، واحتفل له جمّ غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد، وحضرت في الجمع معظم الوزراء.

وصعد السيد جمال‌الدين على منبر الخطابة، وألقى ماكان أعدّه وأرسل «حسن فهمي افندي» أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به، وما كان يجدها لو طلب حقاً، ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي، وأنّ كلّ صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن.. فشبّه الملك مثلاً بالمخ الذي هومركز التدبير والارادة، والحدادة بالعضد، والزراعة بالكبد، والملاحة بالرجلين، ومضى في سائر الصناعات والاعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف. ثم قال:«هذا ما يتألّف منه جسم السعادة الانسانية، ولاحياة لجسم إلاّ بروح، وروح هذا الجسم إمّا النبوة وإمّا الحكمة، ولكن يفرق بينهما بأنّ النبوة منحة الهية لا تنالها يد الكاسب، يختصّ الله بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالاته. أمّا الحكمة فممّا يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات، وبأنّ النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من الخطأ، والحكيم يجوز عليه الخطأ، بل يقع فيه، وأنّ أحكام النبوات آتية على ما في علم‌الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالاخذ بها من فروض الإيمان. أمّا آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتّباعها إلاّ من باب ما هو الاولى والافضل على شريطة ألاّ تخالف الشرع الا لهي».

هذا ما ذكره متعلّقاً بالنبوة، وهومنطبق على ما أجمع على علماء الشريعة الاسلامية، إلاّ أنّ «حسن فهمي افندي» أقام من الحق باطلاً ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أنّ الشيخ جمال‌الدين زعم أنّ النبوة صنعة! واحتج لتثبيت الاشاعة بأنّه ذكر النبوة في خطاب يتعلّق بالصناعة ـ وهكذا تكون حجج طلاب العنت ـ ثم أوعز إلى الوعّاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتنديد، فاهتم السيد جمال‌الدين للمدافعة عن نفسه وإثبات براءته ممّا رمي به.

ورأى أنّ ذلك لايكون إلاّ بمحاكمة شيخ الاسلام.ـ وكيف يكون ذلك؟ـ واشتد في طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها، وأكثرت الجرائد من القول في المسألة، فمنها نصراء للشيخ جمال‌الدين، ومنها أعوان لشيخ الاسلام، فأشار بعض أصحاب السيد عليه

أن يلزم السكون ويغضى على الكريهة، وطول الزمان يتكفّل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها، فلم يقبل ولجّ في طلب المخاصمة، فعظم الامر، وآل إلى صدور أمر الصدارة اليه بالجلاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إن شاء، ففارق الاستانة مظلوماً في حقّه، مغلوباً لحدّته.

جمال الدين في مصر

فارق الاستانة فحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر، فجاء اليها في أول المحرم سنة ١٢٨٨[1]، هذا مجمل أمره في الاستانة وماذكر «سليم العنجوري» في شرح شعره المسمى «سحر هاروت» ممّا يخالف ذلك خلط من الباطل، لا شائبة للحقّ فيه.

مال السيد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرّج بما يراه من مناظرها ومظاهرها، ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة «مصطفى رياض باشا» فاستمالته مساعيه إلى المقام، وأجرت عليه الحكومة وظيفة «ألف قرش مصري» كل شهر، نزلاً اكرمته به لا في مقابلة عمل.

واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم، واستوروا زنده فأورى، واستفاضوا بحره ففاض دراً، وحملوه على تدريس الكتب، فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى، والحكمة النظرية طبيعية وعقلية، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف، وعلم اصول الفقه الاسلامي.

وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم، ولم يذهب الى الازهر مدرساً يوماً واحداً. نعم كان يذهب اليه زائراً. وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة..!

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم، واستجزلوا فوائد الاخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الالسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية. ثم وجّه عنايته لحلّ عقد الاوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر،

---

١ . في مشاهير الشرق لجرجي زيدان ان جمال الدين نزل مصر في أول المحرم سنة ١٢٨٨هـ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٨٧١م.

وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره وبرعوا.

***

وتقدّم فن الكتابة في مصر بسعيه، وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الإجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل، وماكنّا نعرف منهم إلاّ «عبدالله باشا فكري» و«خيري باشا» و«محمد بشا سيد احمد» على ضعف فيه و«مصطفى باشا وهبي» على اختصاص فيه. ومن عدا هؤلاء فإمّا ساجعون في المراسلات الخاصة، وإمّا مصنّفون في بعض الفنون العربية أوالفقهية وما شاكلها.

ومن عشر سنوات ترى كتبه في القطر المصري لا يشقّ غبارهم ولايوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث في السنّ شيوخ في الصناعة، وما منهم إلاّ من أخذ عنه أوعن أحد تلامذته أو قلّد المتصلين به، ومنكر ذلك مكابر، وللحق مدابر.

هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية، أخذاً بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها، على أنّ القائلين بهذا القول لم يطلقوه، بل قيّدوه بضعفاء العقول، قصار النظر، خشية على عقائدهم من الزيغ.

أمّا الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الاولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك الاّ بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم، ولنا في ائمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول، ولكن تمكّن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل، وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيّدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه، فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرّفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير أنّ هذا كله لم يؤثّر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله، ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، الى أن تولّى خديوية مصر محمد توفيق باشا، وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، إلاّ أنّ بعض المفسدين، ومنهم «مستر فيفيان» قنصل انجلترا الجنرال، سعى فيه لدى الجناب الخديوي ونقل المفسد عنه، ما الله يعلم أنّه بريء منه، حتى غيّر قلب الخديوي عليه، فأصدر أمره

باخراجه من القطر المصري هووتابعه «أبو تـراب»[١] ففـارق مـصر إلى الـبلاد الهنديـة سنة١٢٩٦ هـ[٢]وأقام بحيدر آباد الدكن، وفيها كتب رسالته في نفي مذهب الدهريين.

ولـمّا كانت الفتنة الاخيرة بمصر ـ ثورة عرابي ـ دعي من حيدر آبـاد إلى كلكتـه، وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت[٣] الحرب الانجليزية، ثم أبيح له الذهاب إلى أيّ بلد، فاختار الذهاب إلى أوربا.

وأول مدينة اصعد اليها مدينة لوندرة، أقام بها أيام قلائل، ثم انتقل منها إلى باريس وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات، وافيناه في أثنائها.

ولـمّا كلفته جمعية العروة الوثقى أن ينشئ جريدة تدعوالمسلمين إلى الوحـدة تحـت لواء الخلافة الاسلامية أيدها الله، سألني أن أقوم علـى تحريرهـا، فأجبـت ونـشر مـن الجريدة ثمانية عشر عدداً. وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خـصوصاً ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ، ولا تنبيه منبّه، وذلك لخلوص النية في تحريرها، وصـحة المقصد في تحبيرها، ثم قامت الموانع دون الاستمرار في إصدارها، حيـث اقفلـت أبـواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانجليزية في إعنات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقيماً بأوروبا أشهراً في باريس، وأخرى في لندن إلى أوائـل شـهر جمـادىالاولى سـنة ١٣٠٣ هـ)١٨٨٥م) وفيه رجع إلى البلاد الايرانية.

عدوّ الانجليز والاستعمار

أمّا مذهب الرجل فحنيفي «حنفي» وهـو وإن لم يكـن في عقيدتـه مقلّـداً، لكنّـه لم يفارق السنّة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مثـابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام أقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلاّ مايحلّ في مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت في المحافظـة علـى أصول مذهبه وفروعه.

---

١ . عارف افندي الافغاني المشهور بأبي تراب، وابن أخت جمالالدين.

٢ . نفاء الخديوفي رمضان سنة ١٢٩٦هـ الموافق سبتمبر سنة ١٨٧٩م.

٣ .فثأ: سكن غليانه.

أمّا حميّته الدينية فهي ممّا لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله.

أمّا مقصده السياسي الذي قد وجّه اليه أفكاره، وأخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته، وكل ما أصابه من البلاء في سبيله، فهو إنهاض دولة اسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العزيزة،والدولة بالدول القوية، فيهود الاسلام شأنه، وللدين الحنيف مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار الشرقية، وتقليص ظلّها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله في عداوة الانجليز شؤون يطول بيانها.

منزلته من العلم

أمّا منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدّها قلمي إلاّ بنوع من الاشارة اليها. لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له، وله قوة في حلّ ما يعضل منها كأنّه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكّك عقدها.

كل موضوع يلقى اليه، يدخل للبحث فيه، وكأنّه صنع يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف سترالغموض عنه فيظهر المستور منه. ولذا تكلم في الفنّون، حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأنّ ذهنه عالم الصنع والابداع، وله لسن في الجدل وحذق في صناعة الحجة، لا يلحقه فيهما أحد إلاّ أن يكون في الناس من لا نعرفه.

وكفاك شاهداً على ذلك أنّه ما خاصم أحد إلاّ خصمه، ولاجادله عالم إلاّ ألزمه، وقداعترف له الاوروبيون بذلك بعدما أقرّله الشرقيون.

وبالجملة فإنّي لوقلت: أن آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدّر لغير الانبياء، لكنت غير مبالغ ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم﴾.

أخلاق جمال الدين

أمّا أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ماشاءالله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمسّ شرفه أو دينه، فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب.. فبينما هوحليم أوّاب، اذا هو أسد وثّاب.

وهوكريم يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله، لايبالي ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الامانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدّمناه، اذا لاحت له بارقة منه تعجّل السير للوصول اليه، وكثيراً ماكان التعجّل علّة الحرمان.

وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد عن الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الامور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنّه لا يعرف، إلاّ أنّه حادّ المزاج وكثيراً ما هدّمت الحدة، ما رفعته الفطنة، إلاّ أنّه صار اليوم في رسوخ الاطواد، وثبات الافناد[1]، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزاً أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر. وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده.

أمّا خلقه ـ بفتح الخاء ـ فهو يمثّل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين، فكأنّما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة للحجاز حماه الله: ربعة في طوله، وسط في بنيته، قمحي في لونه، عصبي دموي في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل في النظر، هشّ بشّ عند اللقاء، قد وفّاه الله من كمال خلقه، ما ينطبق على كمال خلقه.

بقي علينا أن نذكر له وصفاً لوسكتنا عنه سئلنا عن اغفاله، وهو أنّه كان في مصر يتوسع في أتيان بعض المباحات، كالجلوس في المتنزهات العامة والاماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار.

---

١ . الفند بفتح الفاء، سكون النون كالطول: الجبل العظيم.

وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلومن الفوائد العلمية، فكان بعيداً عن اللغو، منزّهاً عن اللهو، وكان يوافيه فيها كثيراً من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم.

وهذا الوصف ربما عدّه عليه بعض حاسديه، لكن الله يحبّ أن تؤتى رخصه، كما يحبّ أن تؤتى عزائمه. وأيّ غضاضة على المرء المؤمن في أن يفرّج بعض همّه بما أباحالله له؟

هذا مجمل من أحوال السيد جمالالدين الافغاني، أتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون. ولوسلكنا في تاريخ مسلك التفصيل، لأدّى بنا إلى التطويل.. .

محمد عبده[1]

الشيخ محمّد عبده

في محلّة «نصر» احدى قرى مركز «شبراخيت» بمديرية البحرية – في مصر – ولد الشيخ «محمد عبده» من أب اسمه «عبده خيرالدين» كان ممن رزقوا بسطةً في جسومهم وقوة، ومرنوا على الرماية والفروسية وما اليها، فكسبوا من الهيبة بقوتهم وبطشهم فوق ماكان لهم من عزّ ومال.

أمّا أمه فالسيدة «جتينة» أيّم ذات ولد من حصة شيشير من مركز «السنطة» بمديرية الغربية، تزوجها أبوه في هجرته مطارداً من بعض الحكّام.

وحفظ الشيخ محمد عبده القرآن في بلده، ثم ذهب إلى «طنطا» فجوّده في الجامع الأحمدي، وصدّ عن طلب العلم، فعاد إلى بلده ليشتغل بالزراعة، وتزوج يومئذ على حداثة سنّة. وكان في خؤولة أبيه رجل متصوّف يدعى الشيخ «درويش خضر» كفكف من جماح الشباب فجعله متصوّفاً، وردّه إلى طلب العلم في طنطا. ورحل بعد ذلك الشيخ محمد عبده إلى الازهر، فحضر دروس كبار العلماء في مختلف العلوم الازهرية مع الاشتغال بالتصوّف.

وجاء إلى مصر السيد جمالالدين الافغاني فحضر دروسه ولازمه، وظهرت في وقت

---

١ . لمزيد المعرفة حول حياة تلميذ السيد، الشيخ محمد عبده، انظر الملحق أعلاه.

قصير آثار انتفاعه بعشرته ومعارفه، فألّف في التصوّف (رسالة الواردات) ثم ألّف حاشية على شرح التصوواني على العقائد العضدية «في التوحيد» وأخذ يكتب فصولاً في الجرائد استرعت اليه الإنظار.

ثم نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية. بعد امتحان ظهر فيه أنّ الشيوخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب استاذه.

وعيّن على أثر ذلك مدرّساً في مدرسة دارالعلوم، وفي مدرسة الالسن الخديوية. ولـمّا نفي السيد جمالالدين من مصر عزل تلميذه وأمر بالمقام في بلده لا يبرحه، وعفي عنه، فجعل من محرّري الجرنال الرسمي (الوقائع الرسمية) ثم عيّن رئيساً للتحرير.

وجاءت الثورة العربية فحوكم مع زعمائها، وحكم عليه بالنفي ثلاث سنين وثلاثة أشهر، قضى شطراً منها في سورية، ثم دعاه أستاذه السيد الافغاني إلى أوربا، فأصدرا في باريس معاً جريدة (العروة الوثقى) التي لم تعش إلاّ نحوثمانية أشهر.

ثم رجع الشيخ إلى بيروت فعيّن استاذاً في المدرسة السلطانية، وكان يشتغل مع التدريس بالتأليف والكتابة، فألّف «رسالة التوحيد» ونقل إلى العربية «رسالة الردّ على الدهريين» التي كتبها السيد جمالالدين الافغاني بالفارسية، وشرح «نهج البلاغة» و«مقامات بديع الزمان الهمذاني» ونشر في الجرائد مقالات عديدة.

وفي بيروت تزوّج زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى.

وعاد من منفاه فعيّن قاضياً أهلياً، فمستشاراً في محكمة الاستئناف الاهلية، ثم جعل عضواً في مجلس إدارة الأزهر، وهوإول مجلس أسس ليكون رسول الاصلاح، ثم عيّن مفتياً للديار المصرية، فظلّ في هذا المنصب حتى أدركه الأجل.

وفي عهد تولّيه الافتاء كتب في إصلاح المحاكم الشرعية تقريراً جليلاً، وأصدر فتاوى ذات شأن، ووضع تفسير جزء عمَّ وتفاسير لبعض السور، ولبعض الآيات المشكلة، وألّف «كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» وكتب للمجلات والجرائد فصولاً قيّمة في موضوعات دينية وغير دينية.

هذه الصورة المجملة من تاريخ الشيخ محمد عبده تبيّن مناصبه وتعدّد مؤلّفاته، لكنّها لا ترسم جوانب عظمته، فانّ المناصب والكتب ليست مجلي عظمة الشيخ محمد عبده وإن كان ترك نفحة من النبل والعظم في كل ما اتصل به.

تخلّد ذكرى العالم: الكتب، يودع فيها آيات عبقريته، ويخلّد الأثر الفني ذكرى الفنان، أمّا المصلح فهو يهيئ للجماعة مثلاً أعلى لم تعرفه من قبله، ويحاول أن يصرف إلى ذلك المثل القلوب محاولة تظهر فيها قوة نفسه، وقوة عزيمته، ويظهر فيها فيض ما وهب من عبقرية وإلهام.

والشيخ محمد عبده مصلح جريء، حاول الهدم والبناء في أقدس هيكل عند البشر، فيما يعتبره الناس ديناً. عرض لذلك في الشرق موطن العواطف الدينية، وبين المسلمين أشد المتدينين بدينهم كبراً، وأكثرهم غيرةً وحفاظاً على ما له صورة دين.

أرسل صيحته في الأزهر تدوّي بين شيوخ إن لم يكونوا يومئذ هيأة كبار العلماء فلعلّهم لم يكونوا دون هؤلاء جموداً.

ولم يبال الاستاذ بما لقي من الأذى، وقد لقي من الأذى كثيراً.

***

كان الشيخ محمد عبده رجلاً مربوع القامة أو فوق ذلك قليلاً، ممتلئ الجسم، متين البنية، شديد العضل، رشيق الحركة نشيطها.

ملامح وجهه جميلة في جملتها وتفصيلها تزيدها جمالاً ومهابةً تلك اللحية البيضاء النضيرة المطيفة بمحيا مشرق، ذي جبهة غرّاء انحسر الشعر عنها رويداً، وارتفعت فسحة ناطقة بالعقل والارادة والذكاء. ولعينيه المعتدلتين في السعة من غير ضيق بريق ساحر يملأ الصدر هيبةً واعجاباً وحباً.

واشهد لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التي سخّرها الله لعبقريته، وكان صوته العذب المؤثّر من جنود عبقريته أيضاً. كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الازهر، وكان أساتذتنا - عفا الله عنهم - لا يفتأون يذمون لنا

الشيخ، ويمثّلونه خطراً على الدين وأهله، فتتأثّر بذلك عقولنا الطفلة، وكنت أفرّ بـديني من أن ألقى الاستاذ أوأستمع لدروسه مع أنّه صديق لوالدي.

وحضرت درسه مرةً لأشهد كيف تـشيه وجـوه الملحـدين، وتـشيه معهـا عقـولهم وقلوبهم. فلمّا رأيت الرجل بالرواق العباسي، وسمعته يفسّر كتاب الله، قلـت منـذ ذلـك اليوم: اللهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين:

إن كان رفضاً حبُّ آل محمدفليشـــهد الثقـــلان أنّي رافضي

***

كان الشيخ محمد عبده متميزاً من ناحية الكمال الجسماني بالفطرة والوراثة والنـشأة الريفية، ويظهر أنّه كان ذا منزلة خاصة عند أبويه، لأنّه أصغر أبناء أمه، وأنجب إخوته، فتربّى على شيء من الحرية يكون عادة للابناء المميزين ولايكـون لغيرهـم، فينـشأون ذوي استقلال وجرأة واقدام. ولا ينكر أثر التربيةالصوفية في نفس الاستاذ فإنّها وجهت كل عواطف الشباب في نفس الفتى إلى اللذائذ القدسية، لذائذ العارفين.

واذا كانت التربية الحديثة تـدعو إلى تلطيـف الـسرّ بـأنواع مـن الرياضـة البدنيـة والروحيّة.

قال ابن سينا في الاشارات: «العارف هش بش بسّام، وكيف لا يهـشّ وهوفرحـان بالحقّ وبكلّ شيء فأنّه يرى فيه الحق. العارف شجاع،كيف لا وهـو بمعـزل عـن تقيـة الموت، وجواد، وكيف لا وهوبمعزل عن محبة الباطل، وصفّاح، وكيف لا وذكره مـشغول بالحقّ».

هذه التعاليم الصوفية من شأنها أن تربّي جانب الوجـدان، وتلطّـف الـسرّ، وتجمّـل النفس وتزيّنها. ولاجرم كان الشيخ محمد عبده صوفي الأخلاق، قد هذّبت من صـوفيته تربية السيد جمالالدين الافغاني، وزاده ما استفاد من الأسـفار وتعلّـم اللغـة الفرنـسية تهذيباً.

قال المرحوم قاسم بك أمين في وصف الاستاذ:«بلغت فيه طيبـة الـنفس إلى درجـة تكاد تكون غير محدودة: كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديـد، فينـدفع إليـه

ويسعى إلى كل نفع للغير عـام أوخـاص. كـان ملجـأ للفقـراء واليتـامي والمظلـومين والمرفوتين والمصابين بأي مصيبة، وأهل الازهر الذين هـم أكثـر النـاس احتياجـاً إلى المساعدة لأنهم في وسط المدنية الحاضرة، المتأخّرون العاجزون عن الدفاع عن أنفـسهم في ميدان حياتنا الجديدة، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عنده ولاة الأمور بهمّة لا تعـرف الملل، كأنّما كان يسعى لأعزّ انسان لديه. بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنّه أساء اليه، وقدح فيه، وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القـذف والنميمـة الـتي لم تنقطع عنه يوماً مدة حياته. كان الاستاذ يرى أنّ الشر لا فائدة منه مطلقاً، وأنّ التسامح والعفوعن كل شيء وعن كل شخص هما احسن ما يعالج به السوء، ويفيـد في إصـلاح فاعله».

***

اتصل الشيخ محمد عبده بالمناصب الحكومية، وبالشؤون السياسية، وبالحركة العلمية والأدبية، وبأعمال البر. وكان له في كل هذه الميادين نشاط مثمر ورأي مصلح، وعزم لا يعرف دون الكمال تراجعاً ولا فتوراً، لكن الميدان الذي أنفق في رحابـه الـشيخ محمـد عبده خيرما وهب من صحة وهمة وعقل وعلم وفصاحة هوميدان الاصلاح الديني؛ دعا الشيخ محمد عبده إلى الصلاح الديني باعتباره أساساً لكل إصلاح في الشرق.

وتنتظم دعوة الشيخ إلى الاصلاح الديني، أموراً ثلاثة:

١ـ تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لايخضع العقل لسلطان غـير سـلطان البرهـان، ولايتحكّم فيه زعماء الدنيا ولازعماء الاديان.

٢ـ اعتبار الدين صديقاً للعلم لا موضع لتصادمهما، اذ لكلّ منـهما وظيفـة يؤديهـا، وهما حاجتان من حاجات البشر لا تغني إحداهما عن الأخرى.

٣ـ فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كـسب معارفـه إلى ينابيعها الاولى.

ومنابع الاسلام في سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه: هي الكتاب وقليل من السنّة في العمل. هذا هو الأصل الذي ينبغي أن يرد اليه الدين الاسلامي في مـذهب أستاذنا.

ولـمّا كان الثابت بالتواتر من السنّة قلـيلاً، فقـد صـرح الـشيخ في تفـسير سـورة الفاتحة:(انه يجب أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذهب والآراء في الدين).

لهذا توجّهت عزيمة الشيخ في أخريات حياته إلى العناية بتفسير القرآن عناية كانـت تكاد تستغرق كل مجهوده للإصلاح الديني.

وجهة الطرافة في تفسير الاستاذ هي حسن الطريقة في البحث، ولطف التصوير لمعاني القرآن على ما يوافق ذوق هذه العصور وإدراكها حاجاتهـا، والـشيخ في كـلا الأمـرين متأثّر بمنهاج الفكر الحديث.

ولاشك أنّ الشيخ قد تأثّر بالحياة الغربية على وجه مافي حياتـه العقليـة ومعيـشته الخاصة، ذلك بأنّه تعلم اللغة الفرنسية وسافر إلى اوربا عدة مرات، وعاشر الاوربيين في مصر وفي غيرمصر، فاستفاد من مخالطته وسياحاته ومـن مطالعاتـه لكتـب الغـربيين في الفنون المختلفة، وظهر أثر ذلك في أفكار وكتاباته ودعواته الاصلاحية.

***

ولا يسع المؤرّخ حين يترجم للشيخ محمد عبده أن يغفل الاشارة إلى ما بلغه الرجل في حياته من عزّ وجاه وحرمة موفورة. كـان للـشيخ محمـد عبـده خـصوم يكرهونـه ويكيدون له، ويضعون له العقبات في سبيل إصلاحه، ولكن أحـداً لم يكـن يـستطيع أن يغضّ من جلال الشيخ أوينكر عليه منزلته الرفيعة في النفوس.

كان الشيخ محمد عبده بين الطوائف الراقية من المصريين، وبين طوائف الأجانـب في مصر محبوباً معظّماً معترفاً له بمقام الامامة الذي لا يساميه مقام، وانتشر صيته في أقطـار الشرق، وتوجّهت إليه الأنظار.

ولو شاء الشيخ محمد عبده لكان ذا غنيً، ولترك لأرملته المحترمة المريضة ثروة تكفل لها من بعده رفه الشيخوخة، وتصونها من ذلّة العسر، ولكن الاستاذ الإمـام كـان اكـبر نفساً وأشد احتقاراً للدنيا من أن يبذل جهده في جمع المال، فعاش عظيماً فقيراً. ومـات فقيراً عظيماً.

«٤»

جمال الدين
أول داعٍ إلى الحرية
وأول شهيد في سبيل الحرية

الأستاذ
الشيخ مصطفى عبدالرزاق
- القاهرة -

جمال الدين الأفغاني

اتفق من ترجموا للسيد «جمال الدين» على أنّ اسمه «محمد جمال الدين» واسم أبيه «صفدر». وقد حرّف هذا الاسم من كتبوا ترجمته بالعربية فقالوا: «صفتر».

و«صفدر»: لفظ فارسي من ألقاب الامام علي، مركب من كلمة (صف) العربية و(در) وصف من فعل «دريدان» الفارسي بمعنى: افترس أواقتحم.

ولم يختلفوا في أنّ جمال الدين ولد سنة ١٢٥٤ هـ)١٨٣٨ـ١٨٣٩م).

وهل هو بعد ذلك قد ولد في «أسعد آباد» قرية من قرى «كنر» من أعمال «كابل» من بيت عظيم في بلاد الافغان، حنفي المذهب، ينتمي نسبه إلى السيد «علي الترمذي» المحدّث المشهور، ويرتقي إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، وفي كابل تلقّى علومه واستكمل الغاية من دروسه؟

أم ولد في «أسدآباد» قرب «همدان» من أعمال «فارس» وتعلّم في مدينة قزوين ومدينة طهران، ثم سافر إلى الافغان، وليس أفغاني الجنس كما يزعم أهل السنّة والجماعة؟

أم أنّ والده من أهالي «مازندران» إحدى ولايات إيران، وكان ضابطاً في الجيش الإيراني أوفدته حكومته إلى بلاد الافغان لمهمة، فطابت له السكنى هناك، وتزوج وولد له «جمال الدين» في ايران وحمله معه صغيراً؟

هذا خلاف لا سبيل إلى تمحيصه، فإنّ ما يتعلّق بنشأة السيد «جمال الدين» وحياته

قبل اتصال الشيخ «محمد عبده» به سنة «١٨٧١م» هوعلى قلّة مصادره محاط بغموض واضطراب كما قال الاستاذ «براون».

ويدلّ على هذا قول الشيخ «محمد عبده» في فاتحة تعريبه لرسالة الردّ على الدهريين: «يحملني على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كأنه حقيقة كلية تجلّت في كل ذهن بما يلائمه، أوقوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله».

ويرى أنّ السيد جمال‌الدين وإن كان في الحقيقة فارسياً فقد انتسب إلى الأفغان لأمرين:

١ـ ان يكون من السهل عليه الظهور بمظهر السنّي لا الشيعي.

٢ـ أن يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الايرانية لرعاياها في الخارج. وقد عني والده بتربيته، فأيدت العناية به قوة فطرته.

وتلقّى معارف جمة بين علوم عربية، وعلوم شرعية، وعلوم عقلية، وفنون رياضية، ودرس نظريات الطب والتشريح. أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد، وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة.

بدأ تعلّمه في السنة الثامنة من عمره، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة. بقول «جورج كوتشي»: إنّ جمال‌الدين قد استرعى الأنظار منذ حداثة السن بذكائه النادر، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون العسكرية.

ولـمّا أتمّ دروسه سافر إلى الهند فأقام سنة تعلّم في خلالها شيئاً من العلوم الأوزبية وأساليبها. وقصد بعد ذلك إلى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، فقضى نحوعام تنقّل في بلاد العرب، حتى وافى مكة سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٧م. وعاد إلى بلاد الافغان، فانتظم في خدمة الأمير «دست محمدخان» وعلت منزلته عنده، ورافقه في بعض غزواته. ولـمّا مات الامير انحاز جمال‌الدين إلى الأمير «محمد أعظم خان»، الذي أثار حرباً عواناً على

«شيرعلي»، وهوأخوه الأصغر منه سنّاً، تولّى عرض الافغان بتأييد الانجليز.

وكان جمالالدين زعيم القواد في جيش «محمد أعظم خان»، فميزته كفاية باهرة، ولكن الأمير أوجس في نفسه خيفة أن يساميه إلى العرش فجعل لا يصغي إلى نصائحه، وعلى أثر الهزيمة شخصا معاً إلى الهند، وكانت الهند يومئذ تفور بالفتن وخشيت الحكومة الانجليزية أن يتصل الثوار بالسيد جمالالدين فردّته من حيث جاء.

ولم يأمن الأمير شيرعلي مقام السيد في الافغان؛ وأحسَّ السيد ماتوسوس به نفس الأمير فاستأذن في الخروج للحجّ وارتحل من طريق الهند مع خادمه «أبي تراب». ولـمّا بلغ التخوم الهندية تلقّته حكومتها بحفاوه واجلال ولكنها لم تسمح له بطول المكث، ولم تأذن في لقائه إلاّ على عين من رجالها، وبعد نحوشهر سيّرته من سواحل الهند في بعض مراكبها على نفقتها إلى «السويس» فجاء «مصر» وأقام بها أربعين يوماً تردّد في خلالها على الجامع الأزهر وخالط كثيرين من طلبة العلم السوريين، وألقى عليهم محاضرات في مسكنه.

ثم تحول عن الحجاز عزمه، وصرف عنانه إلى «الآستانة»سنة ١٢٨٧ هـ /١٨٧٠م كانت سبقته شهرته الذائعة فحومت اليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، واتصل برجال الأدب والعلم.

وبعد ستة أشهر سمّي عضواً في مجلس المعارف برعاية «عالي باشا» الصدر الأعظم فأدى حق الاستقامة والنصح في آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه عليها رفقاؤه، ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه لقب شيخالاسلام لذلك العهد «حسن افندي فهمي» لأنها كانت تمس شيئاً من رزقه، وأضمر له السوء وأرصد له العنت، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ فرغب إلى السيد مدير دارالفنون أن يلقي خطاباً في الحث على الصناعات، واحتشد الناس لسماع المحاضرة في تلك الدار من جميع الطبقات العالية. وكان فيما ذكره السيد تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي، وأنّ كل صناعة بمنزلة عضومن ذلك البدن. ثم قال: هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية، ولاحياة لجسم

إلّا بروح، وروح هذا الجسم إمّا النبوة وإمّا الحكمة.

هنالك راح شيخ الاسلام يقيم من الحق باطلاً ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أنّ جمال‌الدين يزعم أنّ النبوة صنعة محتجاً بأنّه ذكرها في خطاب يتعلق بالصناعات! ثم أوعز إلى الوعّاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد والتبديد، وأكثرت الجرائد من الخوض في المسألة، وانقسم الناس فيها شيعاً.

وأشار بعض أصحاب السيد عليه بأن يغضي على الكريهة ويلزم السكون، والزمن كفيل باضمحلال هذه الاشاعة وتلاشي، اثرها، لكن جمال‌الدين كان عصبياً دموياً، في مزاجه حدّة، فلجّ في مخاصمة شيخ الاسلام وطلب محاكمته، حتى صدرالأمر اليه بالجلاء عن الآستانة ريثما تسكن الخواطر، وحمله بعض من كان معه على أن يهبط مصر، فجاءها أول سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م، وكان ذلك في زمن «اسماعيل» واستمالته مساعي «رياض باشا» للمقام حيث لم يكن ينويه، وأجرت عليه الحكومة المصرية راتباً سنوياً مقداره ١٢٠ جنيهاً نزلاً أكرمته به لا في مقابلة عمل.

استقر قرار الرجل في وادي النيل بعد أسفار بعيدة، ومشاغل عديدة، في حياة الميادين والكفاح.

ولم تكن كل هذه الشواغل لتعوق جمال‌الدين عن متابعة الدراسة العلمية العالية التي كان له اليها نزوع شديد. ولقد كان ينتقل في البلاد مصحوباً بكتبه، وكان قارئاً نهماً لا يشبع، عرف في شبابه كل المؤلفات القديمة في الفارسية والعربية، ولم يكن يجهل أي كتاب من الكتب الحديثة ترجم إلى لغة شرقية.

لم يكن جمال‌الدين ذا لهو ولاشهوانياً، وكان قليل الطعام يتبلّغ منه بوجبة النهار، ويكتفي بمنقوع الشاي يشربه مراراً، وكان مغرماً بتدخين السيجار، ولم يكن لخلابة النساء وسحرهنّ سلطان على قلبه الحديدي.

شهد في مصر أواخر عهد «اسماعيل» وأوائل عهد «توفيق» إذ كانت تتمخض البلاد عن أزمات اقتصادية واجتماعية وفكرية وسياسية، بسبب إسراف اسماعيل وضعف

توفيق، وبما بدا من التصادم بين القديم والحديث، وبسبب الدسائس السياسية وتدخل الاجانب.

كل ذلك هيأ الوسائل لمواهب رجل أوتي حظاً عظيماً من سمو النفس، ومتانة الخلق، وتوقّد الذكاء، وقوة الذاكرة، ودقة الملاحظة، إلى علم غزير ونشاط لا يكلّ، وشجاعة لا تعرف الخوف، وبلاغة في الكتابة والخطاب خارقة للعادة، مع نفوذ ساحر، وسمت مهيب جليل. جذبت إلى السيد مزاياه الباهرة قلوب كثير من الأمراء، وأرباب المقامات العالية، وأهل العلم والادب، فكانوا يوافونه في القهوات والمنتزهات العامة، حيث كان سامره مجلس علم وحكمة وأدب وسياسة.

والتفّ حوله أذكياء الطلاب ومن بينهم عدد من خيرة مجاوري الأزهر، فكان يلقي عليهم دروساً في الادب والمنطق والتوحيد والفلسفة وعلم التصوف وأصول الفقه والفلك، في مسامرات خالية التكاليف والقيود.

وكانت مدرسته بيته، ولم يذهب إلى الازهر قط مدرساً، وانّما كان يذهب اليه زائراً، وأكثر ماكان يزوره في يوم الجمعة.

وكان يحمل تلاميذه على العمل في الكتابة، وإنشاء الفصول الأدبية والاجتماعية والسياسية، فاشتغلوا على نظره، وبرعوا بين يديه. وكانوا طليعة النهضة الادبية في مصر، وكانوا مؤسسي بنيانها.

وانتظم السيد في الماسونية وتقدم في درجاته، ثم انشأ محفلاً وطنياً جمع فيه نبهاء طلابه ومريديه، حتى صار عدد أعضائه نحو ٣٠٠، وكان هو رئيسه يمرّن فيه تلاميذه على الخطابة، ويلهمهم مبادئه ويعدهم للعمل، ويوقظ فيهم عواطف الوطنية، ويعلّمهم الشغف بحياة الحرية وبالنظم الدستورية.

وقد هيأ من تلاميذه طبقة ذات حرية وجرأة في السياسة والأدب والاصلاح، وأخذ يتوسل بالحركات السياسية. وكان الرجل سياسياً يعتبره أشياعه وطنياً وعظيماً، ويعتبره خصومه مهيجاً خطراً!

وفي سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م صدر أمر «الخديوي» توفيق باخراجه من القطر المصري هو وتابعه أبي تراب، لأنّ مساعيه السياسية أوغرت عليه صدر «المستر فيفان»قنصل انجلترا الجنرال، وتعليمه الفلسفي هيّج عليه الجامدين من الازهريين، فجاءه الكيد من هنا وهناك!!

أبحر السيد من السويس إلى (بوشيهر) ومنها ذهب إلى «حيدرأباد» فأقام عاماً كتب في أثنائه مذكرات كثيرةباللغة الفارسية والافغانية، وكتب في ذلك الوقت بالفارسية رسالة «الرد على الدهريين».

ولـمّا كانت الثورة العرابية دعي من «حيدرأباد» إلى «كلكتا» وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر الفتنة. وكانت الحكومة الانجليزية تظنّ أنّ له فيها يداً. ثم أبيح له أن ينطلق إلى حيث شاء، فاختار الذهاب إلى أوربا، وقصد مدينة «لوندرا» فأقام فيها أياماً قلائل، ثم انتقل إلى «باريس» وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات.

وكتب في طريقه من «بورسعيد» إلى الشيخ محمد عبده يخبره بذهابه إلى «لوندرا» ويطلب إليه أن يرسل الرد بعنوان جريدة الشرق والغرب أو«المستر بلانت». وهذا يدلّ على أنّ السيد ذهب من الهند إلى لوندرا خلافاً لما نقله «جولد شهير» في دائرة المعارف الاسلامية عن «المستر براون» في روايته عن المستر بلانت:« من أنّ السيد ذهب من الهند إلى أمريكا فأقام بها بضعة أشهر على عزم أن يتجنّس بالجنسية الامركية، ولكنه فيما يظهر لم ينفذ هذا العزم». فإنّا نجده في لندرا سنة ١٨٨٣ حيث أقام زمنا قصيراً، ثم انحدر إلى باريس مع صديقه ومريده الامين محمد عبده الذي صار بعد ذلك مفتي مصر.

والأقرب إلى الصحة أنّ السيد جمالالدين وصل باريس آتياً من لوندرا سنة ١٨٨٣ كما ذكره «جورج كوتشي» في رسالته التي عنوانها «الشيخ جمالالدين الافغاني ودخائل صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان عبدالحميد الثاني».

أمّا الشيخ محمد عبده فقد وافى أستاذه في باريس مدة مقامه بها، على ما صرّح به في ترجمته لأستاذه في فاتحة تعريبه لرسالة الردّ على الدهريين.

وكان ذلك في أواخر سنة١٨٨٣ لأنّ الشيخ عبده سافر إلى سوريا منفياً في أواخر سنة ١٨٨٢، وبعد نحوعام من مقامه هناك دعاه إلى باريس فسافر اليها.

وكان السيد جمال‌الدين في باريس منذ أول سنة ١٨٨٣ ولقي الفيلسوف «رينان» في ذلك العهد، كما يقول رينان نفسه في ردّه على السيد جمال‌الدين المكتوب في ١٨ مايوسنة١٨٨٣: «لقد تعرّفت بالشيخ جمال‌الدين منذ نحوشهرين، فوقع في نفسي منه مالم يقع لي إلاّ من القليلين، وأثر فيّ تأثيراً قوياً، وجرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالاسلام موضوع محاضراتي في «السربون». والشيخ جمال‌الدين رجل أفغاني لا سلطان عليه لمؤثرات الاسلام، وهوينتمي إلى ذلك الجنس القوي المستوطن ايران العليا الواقعة على حدود الهند، والتي لا يزال الذهن الأري يعيش فيها مطوياً في غلالة رقيقة من الاسلام الرسمي. والشيخ جمال‌الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية القائلة بأنّ قيمة الأديان بقيمة الاجناس التي تعتنقها! وقد خيّل إلي من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدّث إليه أنني أرى وجهاً لوجه أحد ممّن عرفتهم من القدماء، وأنني أشهد «ابن سينا» أو«ابن رشد» أو أحد أولئك الملحدين العظام الدين ظلّوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الإسار».

ألقى «رينان»محاضرته في الاسلام والعلم في مارس ١٨٨٣ ونشرت عقب إلقائها في جريدة «الديبا» فأرسل السيد جمال‌الدين إلى مدير هذه الجريدة رداً بالعربية ترجم إلى الفرنسية ونشر بعد بضعة إسابيع، وعقب عليه «رينان» برد مملوء باللطف والمجاملة.

أخذ السيد جمال‌الدين ينشر أفكاره السياسية محارباً تدخّل بعض الدول الغربية في شؤون الامم الاسلامية، خصوصاً الهند ومصر، في مقالات تداولتها الجرائد الكبرى وامتدت اليها أعناق الدوائر السياسية المشتغلة بشؤون الشرق.

على أنّ أكبر مظهر لنشاط جمال‌الدين السياسي والادبي في باريس كان في إنشاء «العروة الوثقى»وهي مجلة أسبوعية عربية كان هومدير سياستها، والشيخ محمد عبده محرّرها، وكانت تتولى الانفاق عليها جمعية اسمها جمعية العروة الوثقى، ذات فروع في

الهند ومصر وغيرهما من أقطار الشرق الاسلامي تعمل على إنهاض الدول الاسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية وتقليص ظلّها عن رؤوس الطوائف الاسلامية. وقد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه، وهي ذات أثر في كل ما جد بعد من الحركات الوطنية والحرية في بلاد الشرق.

وقد لقيت هذه الجريدة كل مصادرة في الهند ومصر حتى كانت توضع في غلاف لتصل إلى من يراد إيصالها إليه، وحتى أعلن في الجريدة الرسمية المصرية أنّ كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً!! وقد نشر منها في ثمانية أشهر ١٨ عدداً، صدر آخرها في ذي الحجة ١٣٠١.

خفت صوت العروة الوثقى بما أرصدته لها انجلترا من عنت وإرهاق، وترك الشيخ محمد عبده باريس عائداً إلى سوريا.

أمّا السيد جمال‌الدين فبقي في أوربا متنقلاً بين «لوندرا» وباريس يتصل بالعلماء والكتّاب ورجالات السياسة وينشر فصوله ومقالاته في الجرائد الكبرى.

وجمع «المستر بلانت» بينه وبين «اللورد سالسبوري» واللورد «تشرشل» للمفاوضة في أمر ثورة المهدي في السودان وهي يومئذ شغل القوم الشاغل، لكن التوفيق بين وجهات نظر متناقضة لم يكن مستطاعاً.

وفي جمادي الاولى ١٣٠٣ سافر السيد الى البلاد الايرانية بدعوة من «الشاه ناصرالدين»، فنال مكانة سامية وتزاحم حوله الامراء والمجتهدون والكبراء، وتمكّن من نظم كثير منهم في سلك الماسونية. وكأنما غشيت الشاه من ذلك ريبة، وملأه الخوف من تعاظم السلطان الروحي لجمال‌الدين على شعب أصبح يحيطه باجلاله ومحبته.

ولمح جمال‌الدين تنكر الشاه له، فغادر بلاد فارس إلى روسيا، فحلّ من الشعب الروسي محل الكرامة، وجعلت تتلقفه المجامع العالية، ونشر في الجرائد الروسية فصولاً تردد في عالم السياسة صداها.

ثم سافر إلى «باريس» ليزور معرضها الكبير سنة ١٨٩٩ فالتقى في «منخ» بالشاه «ناصرالدين» عائداً من باريس، ومازال الشاه يزين له العودة إلى «فارس» حتى لان شماسه وأجاب الدعوة.

وقد سارع الشعب الايراني إلى الالتفاف حول السيد من جديد على وجه أبعث للمهابة، وأدل على الحب والثقة، ولم يقتصر أمر مؤثريه على سماع مسامراته التي كان يبثّ فيها معارفه وأفكاره الحرة، بل جعل الشعب يتوسل به إلى تحقيق مطامحه في إصلاح الادارة، وإقامة العدل والقانون، وبدت نهضة إصلاح يكرهها «الصدر الأعظم» ويخشى عواقبها على سلطانه، فوسوس للشاه حتى غيَّر رأيه بالسيد.

هنالك خرج جمالالدين إلى «شاه عبدالعظيم» وهومكان على بعد عشرين كيلومتراً من «طهران»به مقام مقدس، لكنه لم يخلد إلى راحة هناك ولاسكون، بل جعلت طوائف المستنيرين من الطبقات المختلفة حتى طبقات الشبان من الضباط تشد رحالها إلى «شاه عبدالعظيم».

أدرك «الشاه ناصرالدين»الفزع، وخاف أن تزلزل تلك الحركة قواعد سلطانه المطلق، فبعث إلى جمالالدين بخمسمائة من فرسانه مدججين بالسلاح اقتحموا عليه وهو عليل في فراشه، وقاده خمسون منهم إلى ما وراء الحدود.

أقام جمالالدين في البصرة زمناً حتى أبلَّ من سقامه، ولم يزل يوالي أنصاره في فارس بكتبه يثير فيهم الحمية ويؤجج بين جوانحهم نار الوطنية، وكأن مناله من عسف الشاه قد أثار حفيظتهم.

وفي سنة ١٨٩٠م كانت حكومة فارس جعلت حق احتكار «التنباك» لشركة انجليزية، فاغتنم السيد جمالالدين وكتب خطاباً «لميرزا حسن الشيرازي» رئيس المجتهدين يعيب فيه على الحكومة هذا العمل الضار بثروة البلاد الممكِّن لأعدائها.

وكان من أثر هذا الخطاب أن أصدر المجتهد الشيرازي فتوى حرم بها على كل مؤمن

تدخين التنباك مالم تعدل الحكومة عن مشروعها، وقد اضطرت إلى العدول عنه ودفعت للشركة تعويضاً.

وكذلك قويت دعوة الحرية والاصلاح الدستوري في فارس حتى طاحت بعد برأس الشاه ناصرالدين.

وفي سنة ١٨٩٢ ذهب السيد إلى «لوندرا» مرة أخرى وأقام فيها ثمانية أشهر، موجهاً كل همته إلى محاربة الشاه ناصرالدين بقلمه ولسانه، داعياً إلى تخليص الشعب الفارسي من ظلم الحكم الاستبدادي. وكان من المؤسسين للمجلة الشهرية «ضياء الخافقين» التي كانت تصدر بالعربية والانجليزية، وكان من أكثر العاملين فيها نشاطاً.

وأرسل السلطان «عبدالحميد» إلى السيد «جمال‌الدين» بوساطة سفير تركيا في «لوندرا» كتاباً خلاّباً يستدعيه إلى «الآستانة»، فتردد السيد واعتذر، لكن السلطان وجه اليه رسالة ثانية أكثر خداعاً ودهاءً، فأجاب برسالة برقية أنه ملبٍّ دعوة صاحب الجلالة على أن يؤذن له بالعودة إلى أوربا عقب الحظوة بالمقابلة.

وسافر «جمال‌الدين» إلى «القسطنطينية» فاستغواه السلطان «عبدالحميد» وهيأ له منزلاً جميلاً يقوم على ربوة «نشان طاغ» غير بعيد من قصر «يلدز» وفرض له ٥٧ جنيهاً تركياً راتباً شهرياً.

وقضى السيد جمال‌الدين خمس سنين من حياته في الآستانة «يعيش بين مظاهر خداعة من عطف السلطان، ودسائس لا تحصي يبيتها له رجال القصر! وكم تضرع اليهم أن يسمحوا له بالسفر، فأمسكوه بقية عمره في اسار مموه بالذهب».

ذلك وصف سائح ألماني زاره سنة ١٨٩٦.

ومات جمال‌الدين يوم الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ الساعة ١٢ والدقيقة ١٣ أثر أوجاع مضنية، وعقب موته أرسل السلطان بعض موظفي قصره ليستحوذوا على أوراقه ومؤلفاته.

ويؤكد أكثر الايرانيين وغيرهم ممن ترجموا لجمال‌الدين أنّ موته لم يكن طبيعياً، وأنه

لقح في شفته بمادة سامة، سببت له حالة مرضية تشبه السرطان، ويقولون: إنّ ذلك من كيد «أبي الهدى». وأمر السلطان بدفنه لساعتين من وفاته، فسير نعشه بين جموع عديدة من الشرطة مخافة فتنة مباغتة من أنصاره الذين كانوا في ريب من أسباب موته.

هكذا مات السيد جمالالدين وشيّعت جنازته بعدَ أن عاش رجلاً ممتازاً مؤثراً في حوادث الشرق الاسلامي خلال عشرين سنة أكثر مما أثر فيها أي رجل آخر من أهل زمانه.

وقد عاش متنقلاً في البلاد منذ طفولته، فزار بلاد العرب، ومصر، وتركيا، وأقام بالافغان، والهند، وفارس،واتصل بحكومة الافغان في شبابه مشتركاً في حروبها الداخلية، كما اتصل بحركات النهوض في كل بلاد الشرق التي حلّ بها، وزار كثيراً من العواصم الاوربية وكتب في جرائدها، وخطب في مجامعها، وخالط رجال السياسة والعلم والأدب فيها، وشهد دسائس الاستعمار الانجليزي والافعاني والهند، وطارده الانجليز في مصر وغيرها، وأماتوا مجلة العروة الوثقى في مهدها، ووضعوا العقبات في سبيله أنّى سار!!!

من أجل ذلك لم يتعلّق ببلد من البلاد على أنّه وطن، ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى في مذهبه الاجتماعي، ومن أجل ذلك اشتد كرهه للانجليز وعاش عدواً لهم لدوداً. هوقد رأى الرقي في بلاد أوربا، ورأى الانحطاط في بلاد الشرق التي زارها، شهد نفوذ الاجنبي فيها وسوء أثر الحكم الاستبدادي، فتوجّهت فكرته إلى إنهاض تلك البلاد جملة وفرادى، ولهذه الممالك الشرقية الاسلامية حبّ في نفسه ينظمها جميعاً.

أمّا أساس النهوض لهذه البلاد عنده فهو خلاصها من سلطان الاجنبي، وخلاصها من الحكم الاستبدادي، ثم تلاؤمها بنوع من الوحدة يقوي التناصر بينها، ويكفل لها الغلب.

وإنّ استيفاء النظر في تاريخ السيد جمالالدين هو كما يقول الاستاذ «براون»:أحاطة بتاريخ المسألة المشرقية كلها في الازمان الحديثة، يدخل في ذلك تاريخ الافغان والهند، ويدخل فيها بوجه أخص تاريخ تركيا ومصر وايران. وفي هذه البلاد الثلاثة الأخيرة لايزال تأثيره حياً.

واذا كان قبر السيد جمال‌الدين الافغاني ظلّ في الاستانة مهدّماً مهجوراً حتى جاءه في العام الماضي «مستركرين» الاميركي فشيده وأظهره، فبحسب السيد أنّ مبادئه بعد مماته وموت الطغيان في الآستانة، قامت حية مشرقة على أطلاله.

حسب جمال‌الدين من عظمة ومجد، إنّه في تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية، وأول شهيد في سبيل الحرية.

«٥»

آية الحق

و

حكيم الشرق

الأمير شكيب ارسلان

حكيم الشرق

فيلسوف الاسلام، وعلم الاعلام، وكوكب الاصلاح،الذي أطلعه الله في أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام، حجة الشرق الناهضة، وآية الحق الباهرة، الذي قال عنه ارنست رنان، الفيلسوف الفرنسي المشهور بعد أن عرفه:«كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا، أو ابن رشد، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين». قد بلغ من شهرته، واللهجة بذكره، والضراوة بعبقريته ولاسيما بمصر والشام وسائر البلاد العربية، أنّ ترجمة حاله تكاد تكون أحدوثة الجميع، فلا حاجة إلى الاطالة بجميع تفاصيلها، ولا إلى الاحاطة بغررها وحجولها، قصارى ما في الإمر أنّ هناك حوادث لم تكتب إلى اليوم، وأنّ الروايات تضاربت في أمرين أحدهما؛ هل هوأفغاني مولود في أفغانستان، أم فارسي مولود في همذان؟ كما زعم بعضهم، والثاني: هل هوفيلسوف الهي أم مسلم!، أم فيلسوف مادي معطل؟

وعلى الأمر الأول نقول: إنّ كل من عرفوا السيد جمالالدين علموا منه أنّه من افغانستان، وأنّه من سادات كنر الحسينية المشهورين في تلك الديار، ووالده السيد صفتر وكان مولده في أسدآباد بقرب كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلاميذه، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، في صدر «رسالة الدهريين» تأليف السيد جمالالدين.

ولقد لقيت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان، ومن سادات كنر المشار اليهم، ومن أفاضلهم، وعلمت منه أنّ السيد

جمال‌الدين رحمه الله هومنهم، كما أني سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها، الذين جمعتنا بهم التقادير في أوربا بعد تأسيس سفارتهم بها، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار، على كون المترجم أفغانياً أو علوياً حسينياً، من أسرة نسبتهم كالشمس، ومقامهم في بلاد الافغان أشهر من أن ينوه به، ويكون في الحقيقة من همذان ومولوداً بها؟

ونقول على الثاني: إنّ الاستاذ الشيخ محمد عبده تعرض إلى إدحاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرّب من الفارسية مساعدة عارف افندي أبي تراب الافغاني رسالة «النيتشريين» أي الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال‌الدين على الملحدة والمعطّلة، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق، والحكمة العقلية، ويثبت صحة الوحي، وينتهي إلى إيضاح البراهين المحمدية، كل ذلك بملكة قلّ أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره، ولكن بعض الناس ـ ولا سيما العلماء الحشوية ـ أبوا أن يروا في الفلاسفة إلاّ ملحدين ومعطلين، ومن هذا جاء قولهم العامي: من تمنطق تزندق. وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المحزنة، أضلّوا العوام، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي الذي نراه عليه الآن.

واذا قام مصلح أومجدّد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية، ويحث على النظر، وينهى عن التقليد، ويبين مضارالجمود، كان أول ما يتسرّعون إليه رميه بالزندقة، واتهامه بوهن العقيدة. وقد يصادق ذلك هوى في أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلاً، فيلقفون ما يسمعونه من هذا القبيل بدون تشبث، ويسارعون إلى إذاعته بين الناس، لأنّ من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه، ولهذا صدر الاستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين، التي أسلفنا ذكرها، بمقدمة في ترجمة حال أستاذه السيد جمال‌الدين قال فيها تقريباً ما يأتي:«يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل مانراه من اختلاف آراء الناس في أمره، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه، أوحقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله، والرجل على صفاء جوهره، وزكاء مخبره، لم يتناوله وضع الوضاعين، ولاحرز الخرّاصين...الخ».

ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح،الذي هوأدرى به من كلّ مترجم غيره، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ، وما له به من تمام الخبرة،ومعه من أطول العشرة. فذكر نسبه، وحسبه، ومولده، ومنشأه، ورحلته، ومذهبه في السياسة، ومذهبه في الفقه، وقال في هذا:«إنّه حنيفي حنفي مع ميل إلى مشرب السادة الصوفية،رضي الله عنهم». وذكر في مذهبه السياسي أنّه كان جلّ اجتهاده في أن يرى إحدى الدول الاسلامية، في صف كبريات الدول الاوربية. وأطال في وصف مواهبه العقلية، وقدرته العلمية، إلى أن قال:«وبالجملة فلو قلنا: إنّ ما أوتيه من الذكاء، هوأقصى ما قدّر لغير الانبياء، لكنّا غير مبالغين». ووصف شمائله الباهرة، وأخلاقه العظيمة، وهممه العالية، وشجاعته التي لا تعرف للموت معنى، وعدم مبالاته بالدنيا وانتهى إلى قوله فيما أتذكر:«وهوحليم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع، إلى أن يدنو أحد ليمس دينه، أوشرفه، فينقلب إلى غضب تنقض منه الشهب، فبينما هوحليم أواب، اذا هوأسد وثّاب».

قلت: وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصرالدين ملك العجم، والصورة الفجيعة التي انتهى بها ذلك الخلاف، مما سنرويه لك في آخر هذه الترجمة.

وقد اتفق أرباب النظر في هذا العصر، على أنّ قدوم السيد جمالالدين الافغاني إلى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الادنى، ولم تزل تنمو الى الآن، رامية أيّ تحقّق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب، ورفع سيطرة هذا عن ذاك، واعادة الشرق سيرته الاولى من الرقي.

ولم يقرأ السيد جمالالدين على أحد بالأزهر، ولكنّه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده، والشيخ عبدالكريم سلمان، وابراهيم افندي اللقاني، والسيد وفا القوني، وسعد باشا زغلول، الذي قيل لي: إنّه أدرك أخريات أيام السيد بمصر، ولازمه ثلة من أدباء الشام النازلين بمصر، مثل أديب اسحاق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وغيرهم واندفع مريدوه وحملة علمه، يكتبون ويخطبون وينشّون إلى الملأ ما التقطوه من فوائده، وانتظموه من فرائده، وكان ذلك لسانا عالياً لاعهد للناس بأمثاله، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله، فأحدث في الأمة حركة

أفكار لم تكن من قبله، ونفخ فيها روحاً سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله، فنشطت همم واستجدت عزائم، وهبت قوى وفاضت قرائح.

وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ماياًتي تقريباً ـ لأن نصّ كلامه ليس بيدي الآن ـ: فاستنارت الألباب، واستضاءت البصائر، وانحلّت عقل الاوهام عن قوائم العقول...الى أن قال: إنّه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمالالدين شأن يذكر، ولم يكن يعرف من الكُتّاب سوى عبدالله باشا فكري وخيري باشا، وفلان على ضعف فيه؛ وفلان على اختصاص فيه، وبقية من بقي: فإمّا ساجعون في المراسلات الخاصة، وإمّا مؤلفون في بعض الكتب الأدبية...الخ.

ولم تكن الثورة التي أحدثها السيد جمالالدين في السياسة بأقلّ منها في المعارف، ولعمري هاتان توأمان، فقلما انتشر العلم في مكان إلاّ هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمالالدين في ميدان السياسة،هوالحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت إلى خلعه من الخديوية، وكان للسيد اليد الطُولى فيها، ولمّا جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمالالدين مساعيه، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية في حقّه، وجاء من دسّ إلى الخديوي الجديد:أنّ السيد لن يقف عند هذا الحد، وقد تحدّثه نفسه بثورة ثانية، وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك، مما لا يعيي[عن] تنميقه السعاة والمتملّقون، فصدر الأمر فجأة بنفي جمالالدين وأخرج إلى السويس، ومنها ذهب إلى الهند، ولم يدخل بعدها مصر.

وجرت الحركة العرابية في غيابه، واحتلّ الانكليز مصر، ومما لامراء فيه أنه المبدأ الوطني ـ الذي رأس تلك الحركة ـ كان من زرعه هو، ون كان هبّ على ذلك الزرع، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية، ولفحه من الدسائس الأجنبية ماصوح نضرته، وأذهب ثمرته، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق أوحركة إلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار، إلاّ أنّ ذلك الزرع لم تذهب بزرته من الأرض، وعاد فأخرج شطأه، ومازال ينمو حتى استوى على سوقه، يعجب جمالالدين لوعاش إلى اليوم، ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين في الجلاء عن مصر..

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال‌الدين إلى أوربا، وأول مدينة صعد اليها لندرة، ثم تحول منها إلى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه، وأكمل وعاة علومه، فأصدرا فيها «العروة الوثقى» التي بلغت من ايقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامي، مالم تبلغه صحيفة سيّارة قبلها ولابعدها، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها إلاّ بضعة عشر عدداً، فعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية، وبقي جمال‌الدين في أوربا يجول في مدنها ويثافن أهل العلم فيها إلى أن تلاقى بالشاه ناصرالدين صاحب فارس، بلغني أنهما تصادفا في منيخ عاصمة بافاريه، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله، وتقدم اليه في الذهاب معه إلى طهران؛ فلبّى السيد دعوته، وأكرم الشاه نزله في عاصمة فارس، ومازال في علياء عنده، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه، ولما كان السيد جمال‌الدين لا يكتم فكره، ولايحتاط من قوة نفسه، أن يجهز بكل ما يجيش به صدره، وكان بعد ذا وذا يجد في إدارة أحكام العجم، مالا يطيق عليه صبراً أقل منه بكثير، في الهمة، وإباء الضيم، وصحة الوجدان، فما ظنّك برجل نظيره، لم يصعب على أولئك المفسدين أن يحكموا الوشاية، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه؛ ثم باخراجه مهاناً من فارس إلى بغداد، حيث خاطب المجتهد الكبير، ميرزا محمد حسن الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير، عدّد فيه مساوئ الشاه،واستيلاء العته على عقله، وشرح فيه مضرّة امتياز شركة التنباك، الذي يقضي باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم، فكان هذا النداء من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز، واضطرت الحكومة الفارسية – خوف انتفاض العامة – إلى الغائه. ولكن السيد جمال‌الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة، وكان كلما تذكّر اهانة الشاه له، وبين جنبيه تلك النفس العظيمة؛ التي لوقلنا:إنّ أنفُسَ الملوك في جنبها تعد أنفُسَ سُوقة، لكنّا غير مغالين هاج به هائج الانتقام، وتقصد الأخذ بالثار، لاسيما أنه كان رأى بعينه في ايران، من آثار الاستبداد والظلم وفجائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل أهواء أفراد، وشهوات آحاد، مامكّن في خلده فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه.

وصادف بعد ذلك أنه ذهب إلى لندرة مرة ثانية، فحرّر في مجلة سمّاها «ضياء الخافقين» مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعد، وكان السلطان عبدالحميد قد دعا السيد جمالالدين إلى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢، فجاءه وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة، اذ كان قد عرف الآستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبدالعزيز. هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفري الأول إلى أوربا سنة١٨٩٢ المذكورة، هوالمرحوم السيد جمالالدين، فقيل لي: إنه قصد الآستانة، وأظهر لي التخوّف على مصيره بالاستانة هنري روشفور، الكاتب الفرنسي الشهير، الذي عرفته وهومنفي بلندرة. وكان روشفور يحب السيد جمالالدين ويحترمه، وقد وصفه في كتابه «ماجريات حياتي» بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة: «السيد جمالالدين الافغاني من رسالة النبي، والمعدود هو إيضاً أنّه أشبه بنبي» ثم قال:«إنّني شعرت نحوهذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها تربطني بكل داع إلى ثورة أو مقام لسلطة».

ولما ورد السيد جمالالدين الآستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً، في دار ضيافة خصه بها في نشان طاش، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة، وكان يدخل على السلطان ويصلّي صلاة الجمعة معه، ومضت مدة وجمالالدين حظي عند أميرالمؤمنين، لاخوف عليه ولا هو يحزن، وكان الجو لم يسفر بينه وبين السيد أبي الهدى الصياد، فنشأ ذلك أجلّ القصص بحقه إلى السلطان، وانما كانت تلك فترة لا يعبأ بها، اذ ماعتم الاستاذ الصيادي أن وجّه عليه حملاته عند مولاه؛ واندفع يتهم جمالالدين بالكفر والزندقة، كما هو ديدن هؤلاء في شأن كل من أرادوا تنقصه من أعدائه، وهم السيد فضل العلوي الحضرمي أمير ظفار، والشيخ ظافر المدني الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية، والسيد جمالالدين الافغاني، وثلاثتهم كانوا من المقربين إلى السطان، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة في هذه النشرة، وحصّة السيد جمالالدين تهمة الالحاد وفساد الاعتقاد. ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة:«أنا أطوف بأشجار البندار طواف الحجيج بالكعبة». والبندار هي السدود بالتركية، وذلك أنّه يوجد محل نزهة بظاهر الآستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكوّنت منها بحيرات لسقيا العاصمة، وقد أحاطت

بتلك البرك غابات ملتفة بديعة، فغاية مايقال: إنّ جمال‌الدين عبّر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية، فاستخرج منها أبو الهدى إلحاداً وكفراً. وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته، ليقدّموا ذلك إلى السلطان.

فما يروى أنّه كان هووعبدالله نديم الكاتب المصري المشهور في متنزه «الكاغد خانه» فصادفا جناب الخديوي عباس حلمي، وسلّم بعضهم على بعض، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك، فيقال: إنّ السيد أبا الهدى قدّم تقريراً للسلطان بأنّ جمال‌الدين وعبدالله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في الكاغد خانه. وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة! لكن السلطان بحسب قول جمال‌الدين لم يحفل بهذه الوشاية.

ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمال‌الدين من السلطان، وربما زاده لديه زلفى، وإنما أدى إلى وحشة الخليفة منه، استمراره في مجالسه التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدح في شاه العجم، مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى إلى السلطان، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال‌الدين وقال له:«إنّ سفير العجم ترجاني أن أتكلّم معك في الكفّ عن الوقيعة في الشاه، وأنا بناءً على أملي فيك وعدته بأنك ستكفّ عنه» وقد روي لي السيد رحمه الله هذه القصة عندما رجعت من أوربا إلى الآستانة في أواخر سنة ١٨٩٢، فقال لي هكذا بالحرف:«فقلت للسلطان: ماكنت ناوياً أن أترك شاه العجم حتى أنزله في قبره، ولكن بعد أن أمر أميرالمؤمنين بالكفّ عنه، فلابد من طاعته». بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك، ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام منهم، مع أنّ أشدهم حذراً ووسواساً كان السلطان عبدالحميد، فلا عجب إن وقع في نفسه شيء منه. ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه، إذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسناته العديدة، والذي جرّ عليه كثيراً من المصائب، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه:«وكثيراً ما هدمت الحدّة ما رفعته الفطنة».

ففي أحد الايام قدم على جمال‌الدين رجل من العجم، بابيّ المذهب، اسمه رضاآقا خان، صادف أنّه وجد مع جمال‌الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه، فحصلت بينهما صحبة أكيدة، ثم تفارقا عند ما أخرج جمال‌الدين من الحبس ونفي إلى

بغداد ثم أخلي سبيل رضاآقا هذا، ولـمّا بلغه مجيء السيد إلى الآستانة جاء يزوره فيها، فسرّ به السيد كثيراً، وكان دائماً يحادثه ويتكلّمان على شقاء الأمة الايرانية بسوء ارادة سلطانها ناصرالدين، فقال رضا آقاخان يوماً: أنه هوحاضر أن يفـدي نفـسه لتخلـيص أمته، فقال له جمالالدين:«إن كان كذلك فاذهب وافعل». فذهب رضـاآقاخان، وبعهـد أشهر، بينما ناصرالدين شاه في جامع عبدالعظيم في طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتلـه غيلة، وقال له:«بدى از جمالالدين» أي: خذها من يد جمالالدين! ووردت الأخبار إلى الآستانة وتحدّث بها الناس كما لايخفى، فأبدى السيد جمالالـدين مزيـد سـروره بهـذا الخبر، وشرع يقول:«قد تحقّق الآن أنّ الأمة الفارسية لم تمت، وأنها أمـة لم تنقطـع منـها الآمال، لأنّ الأمة التي قوم من أبنائها من يأخذ بثارهـا ويفتـك بالطـاغي الـذي علـى رأسها، لاتكون قد فقدت جراثيم الحياة». وكلاماً من هذا القبيل كان يردده.

ثم لـمّا ورده عدد من مجلة «الايلوستراسيون» التصويرية الفرنـسية، وفيهـا صـورة لقتل رضاآقا خان مصلوباً معلّقاً، والناس ينظرون من حوله هتف:«علـو في حيـاة وفي الممات». وقال:انظروكيف علّقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً إلى أنهم كلّهم كانوا من دونه». وكان الجواسيس ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد، فلـم يـشك عبدالحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمالالدين، وأنّه مازال وراء الشاه حتى «أنزله في قبره» كما قال.

ومن الغريب أنّ الشاه بعد أن خلّى سراح جمالالدين، وذهب هـذا إلى أوربـا، بلـغ الشاه أنّ المترجم كان يسعى في تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين لخلـع الـشاه أولقتلـه، فندم جداً على إفلاته، ويقال: إنّه هو الذي بعث إلى السلطان عبدالحميـد يرجـو منـه استقدام جمالالدين اليه، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله، فاستقدمه الـسلطان بكتاب من قلم أبي الهدى، ولـمّا ورد الاستانة أمر بالمبالغة في برّه وإكرامه، ليلهيه عـن عداوة شاه العجم، فكان مع ذلك ماكان، ولا يمنع حذر من قدر. فلمـا تحقّـق الـسلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم، ومنع أيّ أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية، فأصبح السيد في قصره محبوساً.

وكانت الحكومة الايرانية شـرعت في تحقيـق حادثـة القتـل، فثبـت لـديها إغـراء

جمال‌الدين لرضا آقاخان بالاشتراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضاآقاخان أيضاً، وشخص بغدادي اسمه الشيخ إبراهيم، فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالي تسليمها هؤلاء الثلاثة، فالسلطان عبدالحميد أبى تسليم جمال‌الدين، ولكن الشخصين الآخرين بلغني أنّه جرى تسليمهما وقتلا في ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة.

ثم إنّ التضييق بلغ حدّه على المترجم حتى أرسل إلى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله إلى باخرة يخرج منها من الآستانة، فحضر فيس موريس إليه، وتعهّد له بما طلب، واذ ذلك بلغ السلطان الخبر، فأرسل إليه أحد حجّابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لايرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحدّ، ولا يلتمس حماية أجنبية، فثارت في أنفه حمية الاسلام، وبعد أن كان زمّ حقائبه للسفر قال لفيس موريس: إنّه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن! ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية، وكان من أراد أن يشاهده فلابد له من إذن خاص.

وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر من حنكه مرض السرطان، واشتد عليه، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاّها قمبور زاده اسكندر باشا، كبير جراحي القصر السلطاني، وكان هذا مقرباً جداً إلى الحضرة السلطانية، فأجرى له العملية فلم تنجح،ومالبث إلاّ أياماً قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه. وهنا تقوّل الناس أشكالاً وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجراحية، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه، وماكان معروفاً من وساوس عبدالحميد، فقيل: إنّ العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً، وقيل: لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا، بحيث انتهت بموت المريض.

وحدّثني صديقي الكونت لاون أوستر وروغ، المستشرق العلاّمة، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردي، وحديثه هذا كان لي في هذه الايام الأخيرة في لوازن (شهر يناير سنة ١٩٢٣): أنّ المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد إجراء العملية الجراحية، وقال له: إنّ السلطان أبى أن يتولى العملية إلاّ جراحه الخاص، وإنّه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية، فيرجو منه أن يرسل اليه جراحاً فرنسوياً، مستقل الفكر، طاهر الذمة، لينظر في عقب العملية، فأرسل إليه الدكتور لاردي، وهو رجل

لايزال حياً، وإقامته بجنيف من سويسرة، فوجد أنّ العمليـة لم تجـر علـى وجههـا، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وأنّ المريض قد أشفي بسبب ذلـك، وعـاد إلى أسـتر وروغ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن، ومامضت أيام حتى فارق جمالالدين الحياة.

وقال لي واحد ممن كانوا في خدمة عبدالحميد وقد رويت له هذه القصة: أنّ قمبـور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة، ولكن كان رجل عراقي اسمه جارح طبيب أسنان يتردّد كثيراً على جمالالدين ويعاين له أسنانه، وكانـت نظارة الضابطة قد استمالت جارح هذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم، فـصار له عدواً في ثياب صديق. قال لي صاحب هذه الرواية: فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمالالدين فأشار إليّ ناظر الضابطة إشارةً خفيةً بأن أتركـه، وفهمـت مـن الاشارة أنّه يذهب إلى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم مـن النظـارة، والـسيد لا يعلـم بشيء من ذلك، ويستخلص جارحاً ويثق به، قال: فلا أعلم ماذا فعل جـارح بواسـطة طبّه وثقة جمالالدين به؟ قصارى ما أعلم أنّه لم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه، حتى ظهر السرطان في فكّ السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح، وجارح هذا ملازم للمريض، وبعد موته كنّا نراه دائماً حزيناً، كئيباً، كاسف البال، واجم الوجـه، خزيان، مما جعلنا نشتبه أن يكون ذا يد في إفـساد الجـرح بعـد العمليـة، أو في توليـد المرض نفسه من قبله بوسيلة من الوسائل، فلمّا مات السيد أخذ يعذبـه وجدانـه علـى خيانته هذا الرجل العظيم، الذي كان وثق به، قال: ولا أجزم بكونه هكذا فعل، ولكنني أجزم بأنّه كان جاسوساً على السيد، والله من وراء العلم.

وكانت وفاته رحمهالله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلّي عليـه في جـامع التـشويقية في نشان طاش، ودفن في مقبرة على مقربة منه. ولي في جريدة الاهرام يومئـذ مقالـة بـين يدي فقده، ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها.

وكنت لـمّا عدت من أوربا إلى الآستانة سنة ١٨٩٢، ذهبت اليه في نهـار وصـولي، فاستقبلني براً وترحيباً ولزمته تلك المدة إلى أن اضطررت إلى السفر إلى وطني سورية، ففارقته آسفاً وأنا أمنّي نفسي بالعودة إلى الآستانة،لمشاهدته والاستفادة منـه. وسـألني مرة عما شاهدته في أوربا، وأيّ نتيجة استخلصتها من حال أولئـك القـوم، لأنـه كـان

فيلسوفاً تاما لا يرى الجزئيات إلاّ من خلال الكليات، فلمّا أردت أن أبدي لـه مـايعن لي في هذا الباب، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجاوز الثانيـة والعـشرين مـن العمـر، غلبتني مهابة حكمته، وخشيت أن لا أصيب المخز، فتحوّطت لكلامي بشيء من إنكار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلّم بحضرة مثله؛ فما رأيتـه الاّ نهـض وأمسك بيدي وهتف قائلا:«أنا أهنّئ أرض الاسلام التي أنبتتك». فـسمع النـاس هـذه الجملة ومازالوا يتناقلونها، وما أخاله قصد بها الاّ الجـذب بـضبعي إلى الامـام، وجـبر مانقص من قوتي المعنوية.

وحكيت له مرة أنّ إحدى جرائد اميركا بحثت في موضوع اكتـشاف تلـك القـارة، فقالت: يروى أنّ العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشـدين الـبر الـذي وراءه، وسألت هل عند مؤلّفي العرب شيء مـن هـذا الخـبر؟ فعرّبـت ذلـك جريـدة النـشرة الاسبوعية في بيروت، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنـت في بـاريز، فلمّـا اطلّعت على القضية لبيّت ذلك النداء، وراجعـت في المكتبـة الوطنيـة، كتـب الـشريف الادريسي الجغرافي العـربي الـشهير، ونقلـت مـن كتابـه نزهـة المـشتاق إلى اختـراق الآفاق،خبر الاخوة المغورين، الذين ركبوا سفينة من أشبونة، وجعلوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء، وخاضوا بها بحر الظلمات إلى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شـهر إلى جزيرة خالية لم يجدوا بها إلاّ الوحوش، فركبوا البحر متجهين إلى الجنـوب، وبعـد نحـو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسي وملك يحكم عليهم، فقفلوا من عنده متجهين شـرقاً، حتى نفذوا بعد مدة إلى مرسى أسفى بالمغرب الأقصى. فلمّا أكملت لـه الروايـة وأنـني حرّرتها جواباً على النشرة الاسبوعية، وقد أثرتها عنها جميع الجرائد العربية، التفت إليّ قائلاً:«لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة، هؤلاء قوم كلما قال لهم الانـسان: كونـوا بـني آدم، أجابوه: إنّ آباءنا قد كانوا كذا وكذا. وعاشوا في خيال مافعل آباؤهم، غير مفكّرين بأنّ ماكان عليه آباؤهم من الرفعة، لاينفي ماهم عليه اليوم من الخمول والضعة. قال:إنّ الإنسان اذا بنى قصراً مستوفياً جميع شروط البهاء والنيقة، ولم يفته فيه شيء من الرفاهة والفراهة، فهو يفكّر حينئذ بأن يأتي إلى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر الفلاني، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكهـا إلاّ القليلـون، وأن يجعـل في حديقـة

القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة. فأمّا وهو قصر متداع إلى السقوط، والجصّ نازل إلى الارض، والسقوف قد هوت من كل جانب، وهو لايقدر على ترميمها، فهل يخطر بباله أن يأتي لاكمال زينة قصره بهذه الآنية، وتلك الزهرة، وهاتيك الديباجة؟ كلا، لعمري أن من أعوزته الضروريات، لاحاجة به إلى الكماليات».

قال لي:«وأنا لا أقول لك: لماذا حقّقت عن قضية جد العرب لاكتشاف أميركا، ولكنني أقول لك: إنّ الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة، وهي كلما أرادوا الاعتذار عمّا هم فيه من الخمول الحاضر، قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم، قد كان آباؤكم رجالاً، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلايليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلاّ أن تفعلوا فعلهم». وكأنّه ينظر بهذا إلى قول القائل:

نبني كما كانت أوائلناتبني ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة مايجد من الالم لحال الاسلام، تخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع، فقال لي احدى المرار:«قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حدٍّ أن لا أمل بأن يصلحوا، إلاّ بأن ينشأوا خلقاً جديداً، وجيلاً مستأنفاً، فحبّذا لو لم يبق منهم، إلاّ كل من دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربيةً جديدةً تسير بهم في طريق السلامة».

وقال لي نوبة أخرى:«لم يبق في الاسلام أخلاق، فهذا محمود سامي (البارودي الشاعر الكبير، رئيس النظار أثناء حرب عرابي) عاهدني ثم نكث معي، وهو أفضل من عرفت من المسلمين». وقال لي أيضا:«إنّ المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شيء واحد فيهم وهوشهواتهم». وكان يندّد هذا التنديد كلّه، لماكان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الأخذ بأسباب الرقي، ومن السبات العميق الذي أمعنوا فيه، على حين صاح صائح الجد بسائر الأمم هيا على الفلاح.

ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التي كانت ترجمان أفكاره، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى أنّه أنبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة، مما تحقّق كلّه فيما بعد، حتى كأنّه كان ينظر إلى الحوادث المستقبلة في مرآة. وكان في أطوار حياته، فيلسوفاً كاملاً، عالماً عاملاً، فلايقول ما لا يفعل، ولايكتفي

من الحكمة بالنظر دون العمل، كما هو شأن كثير من العلماء الحفّاظين الذين قلوبهم في وادٍ وألسنتهم في واد، فكان يفطم نفسه عن الشهوات، ولا يرى من اللذات إلاّ اللذة العقلية العالية.

وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين، وشغله بزينة الدنيا، وراوده على الزواج، فأبى وأعرض، وقال له: قضيت حياتي مثل الطير على الغصن، فلا أريد في آخر أيامي أن أتعلّق بعائلة. وكنت سامراً مرة عنده وعنّ هذا الموضوع، فقال له أحد الدمشقيين: يا مولاي! لماذا لا تتأهّلون ويكون لكم الذرّية الصالحة؟ فلم يعجبه قوله، ولـمّا انصرف الرجل أقبل علي السيد وقال: «لم تدخل روح الفلسفة في هذه الامة». وليس مراده بذلك التزهيد في الزواج، وإنّما تقرير حقيقة وهي أنّ الفلسفة لاتبال بالنسل والذريّة، وأنّ الفلاسفة قلوبهم في شغل شاغل عن ذلك، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدخره، ولا يعرف معنى تثميره، ولا يتناول منه إلاّ ما هو ضروري للحياة. ولـمّا كان في الآستانة، كان عنده قهرمان هوالذي بيده الحساب والقبض والصرف، أمّا هو فلا يدري من ذلك شيئاً، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضي عسكر مثلاً، فأبى أن يقبل الرتبة، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً، فسألته عن ذلك، فقال: أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ، لارغبة ولا رهبة، أمّا الرغبة فقد كان راغبا عن الدنيا بحذافيرها، عيوفاً عن زينتها، معرضاً عن زخرفها، كما مرّ بك. وأمّا الرهبة فلم يكن يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً، وفيما سردنا لك من قصصه مافيه مقنع. وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت: أنّه من الأفراد بمصر، فأجابني:«لا يوجد مثله بمصر». وكان هذا قبل أن صار الاستاذ في منصب افتاء الديار المصرية، ونال تلك الشهرة العظمى.

تحرينا في ترجمة حال هذا الحكيم الكبير، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه، إنّه هوالموقظ الأعظم للشرق، وإنّ طريقته ستزداد انتشاراً، ومبادئه ستطبق في يوم من الايام الشرق بأجمعه، فيسأل الخلف عن أحوال حياته، ويستقصون عن خواطره، ويجدّون في جمع آثاره، كما نرى الاوربيين اليوم يحرصون جد الحرص على اكتشاف أقل شيء يعزى إلى عظيم من عظمائهم، سواء من خبر أو أثر. ومن غريب ضرائب البشر

أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشار مايحرصون عليها بعد ذهابهم، وكنت أسأل مرةً مارسل كاشين، وجان لونفيه، وجماعة من رؤساء الاشتراكيين الفرنسيس، عن «جوريس» نابغة السوسياليست في هذا العصر، فبعد أن حدّثوني عنه ساعة قالوا لي:« لم نكن نقدّره قدره في حياته كما نقدّره قدره اليوم» وأظنّ الحال كذلك مع رينان، ومع فيكتور هوغو، ومع سبنسر، ومع بسمارك وجميع الأعاظم. فإنّ أقدارهم تزداد بالوفاة، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد.

وهكذا شأننا مع جمال‌الدين ومحمد عبده، وغيرهما من كبار المصلحين، كلّما تقادم عليهم العهد، حرص الناس من أثارهم على اللفظة الشاردة، والكلمة الفاردة، ليكتبوها عنهم بماء الذهب.

ولجمال‌الدين تاريخ للأفغان، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة، سطا عليها لص علم، وآخر ما نشر له، رسالة الدهريين التي سبق ذكرها. وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرةالتصانيف، وانما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك.

* * *

وممن ترجم السيد جمال‌الدين، العلامة غولد سيهر المستشرق المجري المشهور، شيخ المستشرقين في العلوم الشرعية، وصاحب التصانيف العديدة. فقد رأينا له في دائرة المعارف الاسلامية، المحررة باللغة الفرنسوية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال‌الدين، جاء فيها ما ترجمته:

«السيد محمد بن صفتر، من أعاظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر، كان بحسب رأي براون فيلسوفاً، كاتباً، خطيباً، صحفياً، وقبل كل شيء كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً، وأعداؤه مهيجاً خطيراً. وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية، والمنازع الشوروية، التي جدت في العشرات الأخيرة من هذه السنين، في الحكومات الاسلامية، وكانت حركته ترمي إلى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوروبية، وإنقاذها من الاستغلال الاجنبي، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس إدارات حرة.

لذلك كان يفكّر في جمع هذه الحكومات بأجمعها، ومن جملتها ايران الشيعية، حول الخلافة الاسلامية. لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوروبي في أمورها. فجمال

الدين بقلمه ولسانه، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية. وأسرته الشريفة تنتمي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدّث الشهير الترمذي، فهو من أجل ذلك يلقّب بالسيد».

ثم يقول: إنّه بعد أكمال تحصيله بكابل، ذهب إلى الهند، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣،١٨٥٧ وبعد أوبته من الحج، دخل في خدمة دوست محمدخان أمير الافغان، ورافقه حصار هراة، ولـمّا توفي دوست محمدخان، دخل في خدمة محمد أعظم الذي استوزره إلى أن كان سقوطه واستيلاء شيرعلي خان على المملكة، فرحل السيد جمالالدين إلى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً، ومنها قصد الاستانة، فأقبل عليه وزراؤها وعلماؤها، وأجلّوا قدره، وعرفوا فضله، وعيّنته الدولة عضواً بمجلس المعارف، وصار يلقي بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد، ودعي مرة إلى القاء خطبة في دارالفنون على فوائد الصناعة، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية[١] فأدّى ذلك إلى أنّ حسن أفندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة، واضطر إلى مغادرة الآستانة قاصداً مصر، فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف قرش بدون أن تكلّفه القاء درس خاص، وانّما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله، واجتمع حوله كثير من العطاش إلى مناهل العلوم العالية... الخ.

وذكر غولد سيهر سائر مايعرف من أحواله ممّا حرّره الشيخ محمد عبده، في صدر رسالة الردّ على الدهريين، وما هو بمعنى ترجمتنا له في هذا الكتاب، إلاّ أنّه يقول: انّه لـمّا نفي من مصر إلى الهند جعلوا إقامته بحيدر آباد الدكان، وهناك كتب ردّه على الدهريين، وأنّه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهوممّا لم يذكره غيره من مترجميه، أنّ جمالالدين ذهب من الهند إلى امريكا، وأنّه منها جاء إلى لندرة سنة ١٨٨٣.

وذكر غولد سيهر مناقشة جمالالدين مع رينان، في أمر قابلية الاسلام للعلم، فقال ما

---

١ – حقيقة هذه القصة أنّ السيد يومئذ شبّه الاجتماع الانساني بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة، فشبّه الصنعة الفلانية باليد، والفلانية بالرجل، وهذه بالعين، وتلك بالأذن؛ ثم قال وأمّا الرأس المدبّر لهذا الجسم، فهو إمّا النبوة أوالحكمة، والفرق بينهما أنّ النبوة وحي إلهي معصوم من الخطأ، وأنّ الحكمة وضع بشري قد يخطيء وقد يصيب. وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ، ناقماً على الأفغاني قراراً سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول: إنّ الافغاني جعل النبوة من جملة الصناعات!

يأتي بالحرف: «وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة، فنشر فيها مقالات ممتعة، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية، التي كانت تتنازعها انكلترة وروسية، وعلى أحوال تركيا ومصر، وعلى معنى حركة المهدي السوداني. وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين ارنست رينان، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رينان في السوربون على الاسلام والعلم. فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رينان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمي، وذلك في مقالة بجريدة «الدبا» ترجمت أيضاً إلى الألمانية. ثم بعد ذلك بقليل، ترجمت محاضرة رينان، مصحوبة بردّ من قلم حسن افندي عاصم... الخ».

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى، وكيف شدّدت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول إلى مصر والهند. وقال: إنّه سنة ١٨٨٥، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكلترة، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت في أمر ايجاد حلّ لمسألة المهدي السوداني، ولكن لم يقترن شيء من ذلك بالعمل. ثم زعم أنّ الشاه ناصرالدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ إلى حاضرة ملكه طهران، وأكرم مثواه وبالغ في الاحتفاء به، ولكن خشية الرقباء حملت جمالالدين على الاستئذان من الشاه والذهاب إلى روسية، حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة، وأنّ لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية ودعاه هذا إلى الرجوع إلى طهران، وذلك سنة مجيء الشاه إلى معرض باريز (١٨٨٩) وذكر غولد سيهر أنّ سبب الفتنة بين جمالالدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي أصغرخان الملقّب بأمين السلطان، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التي أحرزها في ايران، وأنّ جمالالدين التجأ إلى مقام عبدالعظيم الذي هو اشبه بحرم من دخله فهوآمن، وأقام به سبعة أشهر والناس تتردّد عليه، إلى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس، اخترقوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة، وساقوه مكّبلاً بالحديد إلى خانقين.[١]

ثم استوفى بقية خبره، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه، ثم مجيئة إلى الآستانة، وموته فيها الوجه الذي حرّرناه.

---

١ - على حدود العراق.

« ٦ »

جمال الدين الأفغاني

جمال الدين الافغاني

جمال‌الدين الأفغاني؛ السيد محمد ابن صفدر: من أشهر أعلام الإسلام في القرن التاسع عشر. وقد كان في رأي براون E.G.Brown فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحفياً معاً، على أنه كان قبل كل شيء من رجال السياسة، ينظر إليه مريدوه نظرتهم إلى وطني كبير، وينظر إليه خصومه نظرتهم إلى مهيّج خطير. وكان لجمال‌الدين أثر كبير في الحركات الحرة والحركات الدستورية التي قامت في الدول الإسلامية إبان العقود الأخيرة، من السنين السوالف، وكان يرمي من تهييج الخواطر إلى تحرير هذه الدول من النفوذ الأوربي واستغلال الأوربيين، والنهوض بها نهوضاً ذاتياً من الداخل، متوسلاً في ذلك بإدخال النظم الحرة إليها، كما كان يهدف إلى جمع كلمة الدولة الإسلامية بما فيها فارس الشيعية تحت راية خلافة واحدة، وإقامة امبراطورية إسلامية قوية تستطيع الوقوف في وجه التدخّل الأوربي.

كان جمال‌الدين بقلمه ولسانه من أكبر الدعاة إلى فكرة الجامعة الإسلامية، ومن أشدهم إيماناً بها. وتصل أسرته نسبها بالحسين بن علي من جهة علي الترمذي المحدّث المشهور، ومن ثمّ أصبح حقيقاً بلقب «السيد». ولقد ذكر هونفسه أنّه ولد في أسعد آباد على مقربة من كنار من أعمال كابل في أفغانستان عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨- ١٨٣٩م، من أسرة حنفية المذهب. على أنّ روايات أخرى تذهب إلى أنّه طلع إلى الحياة في أسد آباد بالقرب من همذان من أعمال فارس، وأنّه أراد التخلّص من الاستبداد الذي كان يسود فارس فانتحل الجنسية الأفغانية.

ومهما يكن من شيء فقد قضى جمالالدين السنين الأولى من طفولته وشبابه في أفغانستان، ودرس في كابل كافة العلوم الإسلامية العالية حتى بلغ الثانية عشر، كما صرف همّه إلى دراسة الفلسفة والعلوم الرياضية على الأسلوب التقليدي المأثور في الشرق الإسلامي. ثم أمضى أكثر من سنة في الهند، وحجّ إلى مكة عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م، وما إن عاد من الحجّ إلى أفغانستان حتى دخل في خدمة الأمير دوست محمدخان، وقد اصطحبه دوست في حملته على هراة. وتوفّي هذا الأمير فخلفه على العرش أمير شير علي، وكان جمالالدين من خلصاء محمد أعظم أخي الأمير الجديد، فانغمس في النزاع الذي نشب حول ولاية العرش، ولـمّا دالت دولة مولاه، وكان وزر له مدة قصيرة، صمم على الرحيل من أفغانستان. فتذرّع بأنه يريد الحج مرة أخرى (١٢٨٥ هـ ./ ١٨٦٩ م) وسافر إلى الهند وظلّ بها مدة قصيرة، ثم قصد إلى مصر وأقام بها أربعين يوماً، اتصل في أثنائها بالأوساط الأزهرية، وألقى في داره دروساً خاصة.

ثم رحل إلى استانبول فبلغها سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠م، وكان قد سبقه إليها صيته العريض، فاستقبله وجوه القوم فيها استقبالا حاراً، وسرعان ما عيّن في مجلس التعليم، ودعي إلى إلقاء محاضرات في مسجد آيا صوفيا ومسجد أحمدية، وألقى السيد على الطلبة في دار الفنون وبمحضر كثير من علية القوم محاضرة في فائدة الفنون والصناعات، فذكر فيها النبوة وعدّها من مختلف الوظائف الاجتماعية، فانتهز الفرصة شيخ الإسلام حسن فهمي، وكان ينفس على السيد ازدياد شهرته ونفوذه، فرماه بالدعوة إلى آراء هدّامة، إذ جعل النبوة من الصناعات! وعرف جمالالدين بالدسائس التي حاكها له خصومه، فاستقرّ عزمه على مغادرة استانبول، وتوجه إلى القاهرة فتلقّاه أولو الأمر والطبقات المثقفة بالحفاوة والترحاب، وأجرت عليه الحكومة المصرية ١٢٠٠٠ قرش سنوياً دون أن تطالبه بأداء عمل رسمي معيّن، فغدا مطلق الحرية يعلّم الشباب الذين التفّوا حوله في بيته ويلقي عليهم أحاديث حرة في فروع الفلسفة والدين العالية، ويرشدهم في الوقت نفسه إلى سبيل الكتابة والتحرير.

أمّا في ميدان السياسة فقد أثّر جمالالدين في من حوله، وسعى إلى إيقاظ الشعور الوطني، وإثارة الرغبة في الحصول على نظم حرة ودستورية، وكان له أيضاً أثر في الحركة الوطنية التي شبّت سنة ١٨٨٢ وأدت إلى ضرب الإسكندرية بالقنابل، ووقعة التلّ الكبير، واحتلال الإنجليز لمصر. وقد أخرج هذا المهيج الملهب للخواطر من مصر قبيل ذلك، أي في سبتمبر عام ١٨٧٩، ذلك أنّ جهوده السياسية كانت شجى في حلق الممثل البريطاني، كما كان بعثه للدراسات الفلسفية مثيراً لحفيظة أهل الجمود في الأوساط الأزهرية، فنفي بسعاية الإنجليز من مصر، وأعتقل في الهند، في حيدرآباد، ثم في كلكته، ثم سمح له بمغادرتها بعد قمع فتنة عرابي، وألّف رسالته في الردّ على الدهريّين في اثناء إقامته في حيدرآباد (انظر مادة «الدهرية»).

وقد عرفنا من مذكرة لولفرد سكاون بلنت (W.S.blunt) الذي كان معنياً بالسياسة المصرية (في براون Browne ص ٤٠١) أمراً لم يذكره غيره من كتاب سيرة جمالالدين، وهو أنّ السيد خرج من الهند قاصداً أمريكا وبقي فيها بضعة شهور، وكان في نيته أن يتجنّس بالجنسية الأمريكية، والظاهر أنّه لم ينفذ هذا العزم، ونجده في سنة ١٨٨٣ في لندن، وقد أقام فيها زمناً قصيراً، وغادرها إلى باريس فمكث بها في صحبة صديقه وتلميذه الوفي محمد عبده الذي أصبح فيما بعد مفتي الديار المصرية، وأوقف قلمه على مناهضة التدخّل الانجليزي في مصائر الشعوب الإسلامية، ورحّبت أمهات الصحف وأوسعها سلطاناً بمقالاته في سياسة روسيا وانجلترا في الشرق، وسير الأمور في مصر وتركيا ومغزى الحركة المهدية التي قامت في السودان آنئذ، واهتمت الدول ذات الشأن بمقالاته هذه اهتماماً كبيراً.

وفي ذلك الوقف أيضاً ثارت بينه وبين أرنست رينان مناظرة بصدد محاضرة ألقاها رينان في السربون عن الإسلام والعلم، زعم فيها أنّ الإسلام لايشجع البحث العلمي، وأراد جمالالدين أن يرد على رينان، فكتب مقالاً ظهر أولاً في «جورنال ده دبا Journal des Debats» (نشر أيضاً باللغة الألمانية ـ انظر مصادر هذه المادة) ولابأس من أن نشير في هذا المقام إلى أنّ محاضرة رينان قد ترجمها بُعَيْدَ ذلك إلى العربية حسن

أفندي عاصم، وطبعت في القاهرة على الحجر مصحوبة بردّ في تاريخ غير معلوم.

على أنّ معظم نشاط جمال‌الدين في باريس سواء في ميدان التأليف أو السياسة كان منصرفاً إلى صحيفة عربية كان يحررها هو بالاشتراك مع محمد عبده (المحرر الفعلي) وهي العروة الوثقى، وكانت تصدر على نفقة نفر من الهنود المسلمين، وتحمل على سياسة الإنجليز في البلاد الإسلامية، وخاصة الهند ومصر، حملة شعواء، وصدر العدد الأول من هذه الصحيفة في الخامس عشر من جمادى الأولى عام (١٣٠١ هـ - ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م) وقد صادرتها السلطات الإنجليزية في الشرق ومنعت دخولها في مصر والهند، وإنّما كان يتيسّر ذلك بإرسالها إلى من يراد التأثير فيهم في غلاف محكم (هكذا ذكر جمال‌الدين نفسه) ولم تعمّر هذه الصحيفة طويلاً بالنظر إلى هذه العقبات التي صادفتها، فلم يصدر منها جمال‌الدين ومحمد عبده إلا ثمانية عشر عدداً في ثمانية شهور، وقد صدر العدد الإخير في السادس والعشرين من ذي الحجة عام ١٣٠١ هـ. /١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤م، ومع ذلك فقد كان لها شأن عظيم في إذكاء الآراء الحرة المناهضة للإنجليز في الأوساط الإسلامية، بل يمكن أن تعدّ باكورة الحركات القومية في الممتلكات الإسلامية التابعة لانجلترا، فقد أخذ ساعد هذه الحركات يشتد بفضلها شيئاً فشيئاً، وظلّت العروة الوثقى حافظة لشأنها إلى يومنا هذا، وشاهد ذلك أنّ حسين محيي الدين الحبال محرر جريدة أبابيل قد أعاد منذ عهد قريب (١٣٢٨/ ١٩١٠م) طبعة جديدة منها بعد انقضاء ربع قرن على صدورها، وتولّى طبعها نسيب أفندي صبره.

وقد كان جمال‌الدين يثير الخواطر على الإنجليز علناً وفي غير مؤاربة، إلاّ أنّ قادة الساسة الإنجليز قبلوا بوساطة بلنت أن يدخلوا في مفاوضات شخصية مع جمال‌الدين لإخماد حركة المهدي في السودان، ولكن هذه المفاوضات لم تنته إلى نتيجة عملية. وكان استيقاظ جمال‌الدين همم الشعوب الإسلامية قد أثر في القاصي والداني، فما أن مضى بعض الوقت حتى تلقّى دعوة بالبرق (١٨٨٦م) تستقدمه إلى بلاط الشاه ناصرالدين في طهران، فاستقبل هناك بحفاوة بالغة وتبجيل عظيم، وأسندت إليه المناصب السياسية العالية، ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً إذ سرعان ما ساورت الشاه الشكوك من نحوه

وضاق ذرعاً بسلطانه الآخذ في النمو وشهرته الآخذة في الاتساع، فلم يجد جمال‌الدين بدّاً من الرحيل عن فارس متذرّعاً باعتلال صحته، فذهب إلى روسيا وهناك دخل أيضاً في مفاوضات سياسية، وبقي في روسيا إلى أن حلّت زيارته لمعرض باريس الذي أقيم عام ١٨٨٩ فقابل الشاه الذي كان في أوروبا آنئذ، في ميونخ، وأغراه الشاه باصطحابه إلى فارس، ولكن جمال‌الدين استطاع أن يبلو في هذه الزيارة الثانية، وكيف يتلون الحاكم الشرقي وتتقلّب أهواؤه!

وقد استبان له ذلك كما لم يستبن من قبل، فقد أولاه الشاه في أول الامر كامل رضاه وعظيم ثقته، ولكن كبير الوزراء ميرزا علي أصغرخان أمين السلطان كان يطوي في صدره لجمال‌الدين سخيمة من السخائم، كما أنّه آنس في شخص هذا العالم الغريب المستفيض الشهرة منافساً له، فأخذ يكيد له حتى حول قلب الشاه عنه مستغلاً في ذلك خاصة مشروعاً لجمال‌الدين في إصلاح القوانين، وأحسّ جمال‌الدين بالخطر يحدق به فأوى إلى ضريح الشاه عبدالعظيم بالقرب من طهران، وكان يعد ملجأ لاتنتهك له حرمة، وأقام به سبعة شهور التفّ فيها حوله فريق من مريديه يستمعون إلى آرائه في إصلاح حال البلاد التي أذلّها الطغيان، وظلّ على ذلك إلى أن استثار كبير الوزراء الشاه فانتهك حرمة الضريح التي كان يرعاها الناس جميعاً، وأنفذ إليه في مستهلّ عام ١٨٩١ خمسمائة فارس مسلّحين، فقبضوا عليه وكبّلوه بالأغلال غير مبالين بضعف صحته، وسيق في عزّ الشتاء إلى بلدة خانقين على التخوم بين فارس وتركيا، ثم خرج من خانقين ميمماً شطر انجلترا للمرة الثانية، وتخلّف في البصرة أمداً قصيراً، وهناك، أي في انجلترا، أثار بمحاضراته ومقالاته حملة شعواء على حكم الإرهاب في فارس.

على أنّ طرد جمال‌الدين على هذه الصورة البشعة كان حافزاً إلى جمع صفوف حزب الإصلاح، وباعثاً له على الجهاد العلني، وهوأمر كان جمال‌الدين نفسه دائباً على الدعوة اليه في رسائله التي كان يبعث بها بعد نفيه إلى الأشخاص ذوي النفوذ، وقد حفّز الهمم إلى العمل تنازل الحكومة الفارسية لطائفة من الماليين الإنجليز في مارس سنة ١٨٩٠ عن حقّ احتكار التبغ، فحرمت البلاد مورداً من موارد الدخل الهامة لصالح المستغلّين

الأجانب، فانتهز جمال‌الدين هذه الفرصة وأرسل من البصرة إلى ميرزا حسن شيرازي شيخ المجتهدين في سامراء رسالة مشيرة نبّه فيها الأذهان إلى أنّ الحكومة الفارسية تبدّد موارد الدولة فتغدقها على أعداء الإسلام، ذلك أنّ المنح الهامّة التي كيلت للأوربّيين قد كفلت لهم السيطرة الاقتصادية على البلاد، وياليت الأمر وقف عند هذا الحدّ، بل إنّ الحكومة شرعت تسلّم لهم باحتكار التبغ في فارس، وقد أشار جمال‌الدين أيضاً إلى سوء الحكم في فارس وقسوته، وخاصة حكم على أصغرخان، وقد استكثر من الضرب على النغمة الدينية لإثارة هذا الشيخ الديني الكبير وزملائه، وحملهم على التدخّل باسم الدين تدخلاً حاسماً (وهذه الرسالة منشورة في المنار، ج ١٠ ص ٨٢٠ وما بعدها، ومترجمة إلى الانجليزية في Browne، كتابه المذكور آنفاً، ص ١٥-٢١)، وكانت النتيجة المباشرة لسعي جمال‌الدين أن أفتى المجتهد بتحريم تدخين التبغ على كل مؤمن مالم تبطل الحكومة اتفاقها الخاص بالتبغ، واضطرت الحكومة إزاء مناهضة الشعب لهذا الاتفاق إلى إلغائه، ودفع تعويض كبير لأصحاب الامتياز، وكان من أثر تهييج جمال‌الدين للخواطر ايضاً أن اتّسع نطاق حركة الإصلاح سريعاً، وظاهرتها الأوساط الدينية في فارس، وأدّى تهييجه كذلك إلى قتل الشاه ميرزا محمد رضا بيد تلميذ من تلاميذ جمال‌الدين في الحادي عشر من مارس سنة ١٨٩٩.

وأقام السيد في لندن فترة قصيرة (١٨٩٢م) كان نشاطه السياسي في أثنائها جماً، وقد بلغته آنئذ دعوة مكتوبة من السلطان عبد الحميد على يد السفير التركي في لندن رستم باشا يطلب إليه فيها الاستقرار في القسطنطينية ضيفاً عليه، فقبل جمال‌الدين دعوة السلطان في شيء من التردّد، وأجري له معاش شهري قدره ٧٥ جنيهاً تركياً، وأنزل بيتاً جميلاً على ربوة نشان طاش بالقرب من قصر يلدز السلطاني، وعاش فيه منعماً كالأمراء، يلقى أولئك الذين يلتمسون حديثه الملهم، وقد قضى في هذا البيت السنوات الخمس الأخيرة من حياته «ينعم بآيات من عطف عبد الحميد ورضاه، ويشقى بأحابيل لاتحصى من دسائس كانت تحيكها حوله بطانة السلطان، وكم سعى إلى الاستئذان في الرحيل، فكان رجاؤه يردّ دائماً، وعاش في البيت الجميل الذي أفرد له، وكأنما كان هذا البيت قفصاً من ذهب».

وتلكم حاله بنشان طاش في يونية سنة ١٨٩٦ كما وصفها زائر ألماني، أمّا الدسائس التي أنغمس فيها أعداؤه فيمكن معرفة كنهها من قول جمال‌الدين نفسه لزائر ألماني آخر: «كان الخديوي الشاب عباس باشا قد وفد على استامبول لأول مرة، وأراد أن يتعرّف إليّ، ولكنّهم سعوا إلى الحيلولة بينه وبيني، ولاأدري من قال حينئذ للخديوي أنني جريت على الذهاب إلى المياه الحلوة عصر كل يوم، وحضر الخديوي إليها، وكأنما ساقته المصادفة إلى ذلك، فأقبل نحوي وقدّم نفسه إليّ وتحدّثنا ربع ساعة، ونقل ذلك إلى السلطان، وقيل له: إنّ لقاءنا الذي تمّ مصادفة كان مدبّراً من قبل، وزادوا على ذلك أنني قلت في حديثي مع الخديوي إنّه الخليفة الحق! ومع ذلك فلم يكن السلطان لتؤثّر فيه آنئذ مثل هذه السعاية».

وازداد موقف جمال‌الدين حرجاً وبخاصة بعد قتل الشاه، ذلك أنّ خصومه في فارس أذاعوا في الناس أنّه هو الذي كان يدبّر من استامبول المؤامرة على الشاه، وأنّه هو الذي دفع القاتل إلى هذه الفعلة، وكان من أنصاره المخلصين، ولم يكن السلطان ليرضى بتسليم جمال‌الدين إلى أعدائه، ومع ذلك فإنّ وشاياتهم به وتقوّلاتهم عليه أخذت تحدث أثرها شيئاً فشيئاً، وكان أبو الهدى من أشد خصومه خطراً وأوسعهم شهرة، كما كان في الوقت نفسه أعظم رجال الدين في البلاط نفوذاً وأعلاهم كلمة عند السلطان، ولـمّا توفي جمال‌الدين في التاسع من مارس عام ١٨٩٧ إثر سرطان أصابه أولاً في ذقنه، ثم جاوزها إلى سائر وجهه، تهامس الناس بأنّ أبا الهدى قد حرض عليه من دسّ له السم، وثوى جمال‌الدين بمثواه الأخير بنشان طاش.

ولم يكتب جمال‌الدين كثيراً في مسائل الدين الإسلامي والفلسفة الإسلامية على الرغم من تعمّقه فيها، ولنذكر له في هذا المقام رسالته في الردّ على الدهريين (انظر مادة الدهرية) التي نشرت بثلاث لغات. ولجمال‌الدين أيضاً رسالة موجزة ألمّ فيها بتاريخ الأفغان وعنوانها: تتمة البيان (طبعت على الحجر بالقاهرة طبعة مجهولة التاريخ، ص ٤٥ وما بعدها)، وهو إلى ذلك صاحب مادة البابية في دائرة معارف البستاني، وقد صرف السيد معظم جهده في نشر مقالات سياسية مهيجة للخواطر. ولجمال‌الدين أثر آخر علاوة على العروة الوثقى، فقد ساهم في إنشاء ضياء الخافقين، وهي مجلة شهرية تصدر

بالعربية والانجليزية، وضرب في تحريرها بسهم وافر، فكان يكتب المقالات باسم السيد أوالسيد الحسيني، وقد حمل فيها على الشاه أعنف الحملات، ودأب على التحريض على خلعه، وندّد بوزرائه وسوء حكمهم تنديداً شديداً؟

المصادر:

(١) The Persian: E.G.Browne Revolution of 1905-1909 كمبردج ١٩١٠، وفي هذا الكتاب سيرة لجمال‌الدين مفصّلة موثوق بها وتقدير له ومراجع وافية وصورة للسيد في مطلع هذا السفر.

(٢) وله سيرة تضمنها الجزء الأول من كتاب محمد رشيد رضا في الامام محمد عبده (تاريخ الاستاذ الامام) القاهرة ١٣٢٥ هـ. الموافق ١٩٠٧م.

(٣) Vollers في Zeitschr.du.D.Morzenl. Ges ج٣، ص ١٠٨.

(٤) Masignon Monde Musulman في Revue du، ج ١٢ (١٩١٠)، ص٥٦١ وما بعدها.

(٥) L,Islamisme: Ernest Renan et la Science، محاضرة ألقيت في السربون في التاسع والعشرين من مارس عام ١٨٨٣ وقد نشر نقد جمال‌الدين لمحاضرة رينان وردّ رينان على هذا النقد في بال وبرنهايم عام ١٨٨٣ وكتب عن هذا النقد أنه للافغاني Scheik Djemmal Eddin (!) وقد نشرت محاضرتان لجمال‌الدين عن التعليم والصناعة في جريدة مصر (الاسكندرية، ٥ جمادى الأولى عام ١٢٩٦ هـ.(وقد نشرت له أيضا مقالتان عن الحكومات الاستبدادية في المجلد الثالث من المنار، وثمة مادة غزيرة من مواد سيرته منشورة فيما كتب في المجلات خاصاً بأحاديث جمال‌الدين ومقابلاته، ونذكر بصفة خاصة من الأوصاف التي ذكرت عنه في الألمانية المقالتين اللتين نشرتا في Berliner Tageblatt عدد ٢٣ يونيه ١٨٩٦ (طبعة المساء) وفي Beilage zur Allgemeinen Zeitung (ميونخ، ١٤ يونيه ١٨٩٦) وقد استقينا منهما بعض الشواهد التي وردت في صلب المقال. [جولد سيهر L.Goldziher]

«٧»

جمال الدين الأفغاني

الاستاذ حسن الأمين

- بيروت -

جمال الدين الأفغاني

ومن أشهر من نسب إلى افغانستان جمال‌الدين الافغاني، مع أنّه ليس بأفغاني بل هو ايراني، وقد تعمّد هو نفسه أن ينسب إلى افغانستان تعمية لأصله، ولئلا يدلّ على مذهبه؛ لأنّ مصلحة الدعوة الاصلاحية التي كان يدعو اليها تقتضي ذلك. فهو من بلدة أسدآباد الايرانية التي تقع قرب مدينة همذان. قال السيد صالح الشهرستاني فيما كتبه في مجلة العرفان: لايزال يوجد في أسدآباد من أفراد قبيلة وأولاد وأعمام وعمات وإخوان وأخوات السيد جمال‌الدين ما ينوف على الخمسين نسمة بين ذكر وانثى، ومنهم أحد أحفاد أخي السيد جمال‌الدين، وهوالسيد محمود ابن السيد كمال ابن السيد مسيح المتوفى عام ١٣٠٠ أخي السيد جمال‌الدين ابن السيد صفدر. وهومدّرس مدرسة القرية عام ١٣٥١. ولاتزال الغرفة التي ولد فيها السيد جمال‌الدين في دار والده الواقعة في محلة (سيدان) اي السادات على حالها حتى اليوم. وتعرف أسدآباد عند أهل القرى المجاورة بقرية السيد جمال‌الدين.

وقال السيد صالح: إنّ السيد محمود المذكور أهداه نسخة من كتاب فارسي فيه تاريخ حياة السيد جمال‌الدين منذ ولادته حتى وفاته بقلم ابن أخت السيد جمال‌الدين الميرزا

لطف‌الله الأسدآبادي، وأمه هي السيدة طيبة بيكم بنت صفدر أخت جمال‌الدين. وهوصاحب المذكرات عن خاله المذكور بالفارسية المطبوع في برلين.

وقال السيد محسن الأمين في الجزء السادس عشر من أعيان الشيعة في ترجمة جمال‌الدين: أمّا نسبته إلى الافغان واشتهاره بالافغاني فمن المشهورات التي لا أصل لها ـ وربّ مشهور لا أصل له ـ وسبب اشتهاره بذلك أنّه نسب نفسه إلى الافغان في مصر وخلافها لا إلى ايران، تعمية للامر، ولولا ذلك لما سمّي بحكيم الاسلام وفيلسوف الشرق، ولا كانت له هذه الشهرة الواسعة، ولا أنزله الصدر الاعظم علي باشا في استنبول منزلة الكرامة، ولا أقبل عليه بما لم يسبق لمثله، ولا عظّمه الوزراء والأمراء ولا عيّن عضواً في مجلس المعارف، ولا أجرت له حكومة مصر ألف قرش مشاهرة، ولا عكف عليه الطلبة للتدريس في مصر، ولا تمكّن الشيخ محمد عبده أن يصاحبه ويأخذ عنه ويتخذه مرشداً وصديقاً حميماً إلى غير ذلك. ومع هذا فقد انتدب بعض المصريين ـ ممّن عرفوا أصله ـ لذمه في كتاب مطبوع سمّاه بكلب العجم.[1] ومن هنا يلزم أن لايعتمد على المشهورات، دينية كانت اوعادية.. إلى آخر ما قال في أعيان الشيعة.

وقال في الأعيان ايضاً: ولاندري هل كان الشيخ محمد عبده يعرف حقيقة حاله ويخفيها لخوفه مما خاف منه جمال‌الدين بصحته له واخذه عنه أو كان يجهلها؟

وفي كتاب حاضر العالم الاسلامي تأليف (لوتروت ستودارد) وتعريب عجاج نويهض: (أنّ السيد جمال‌الدين ولد في أسدآباد بالقرب من همذان في بلاد فارس، وهو أفغاني الأرومة لا فارسي).

---

١ ـ كان هناك من أدرك حقيقة جمال‌الدين فاستغّل ذلك للطعن فيه. وفي ذلك يقول الدكتور عثمان أمين في مقاله عن جمال‌الدين بمجلة العربي: إنّ وريقات نشرت في القاهرة بعنوان: «تحذير الامم من كلب العجم». وكذلك فإنّ أبوالهدى الصيادي كتب إلى صاحب مجلة المنار يصف جمال‌الدين بـ(المتأفغن) يقول فيما يقول عنه: «لقد ثبت في دوائر الدولة رسمياً أنّه مازندراني، من أجلاف الشيعة»..

يقول في أعيان الشيعة عن هذا القول: فتراه قد نطق بالصواب من كونه ولد في بلاد ايران في أسدآباد بالقرب من همذان، وجمع بين ذلك وبين كونه افغانياً كما يدلّ عليه لقبه بأنّ أصل آبائه من افغانستان. والذي دعاه إلى ذلك اعتقاده أنّ هذا اللقب صحيح.

وقال الدكتور عثمان أمين في مقال له في مجلة العربي وهو يتحدّث عن جمالالدين وعن علاقة الشيخ محمد عبده به:.. فلا بدع إذن أن نرى محمد عبده، الذي كان يناصر في كتاب «العقيدة المحمدية» آراء السنّيين والأشاعرة ـ وهم يمثّلون حزب المحافظين في الاسلام ـ لايتردّد الآن في التحوّل عن تلك الطريق، وإذا به في كتاب «الحاشية على شرح العقائد العضدية» ينقلب مناصراً المعتزلة والعقليين وجميع النظّار من الاحرار والمتسامحين.

هذا ما قاله الدكتور عثمان في مقاله عن جمالالدين، ولكن الحقيقة أنّ تحوّل الشيخ محمد عبده إنما كان تحوّلاً عن آراء السنّيين الأشاعرة إلى آراء الشيعة، وهي الآراء التي وافقهم فيها المعتزلة، وهي نفسه آراء جمالالدين وآراء مذهبه التي لقّنها لتلميذه الشيخ محمد عبده.

وفي عصر جمالالدين كان ميرزا حسين خليل المرجع في النجف، وكان من زملاء جمالالدين في الدراسة، ويروي محمد جابر في الجزء الثاني من المجلد ٢٩ الصفحة ١٥٩ من مجلة العرفان: أنّ الشيخ عبدالحسين صادق حدّثه أنّ جمالالدين كتب من استنبول إلى صديقه ميرزا حسين خليل ملتمساً أن يكتب إليه بما تحتاجه النجف من إصلاح ليعرضه على السلطان عبد الحميد، وأنّ ميرزا حسين خليل عقد مجلسا من كبار العلماء وطلبوا عدة مطالب، وأنّ الشيخ عبدالحسين نفسه تولّى كتابه الجواب.

وقد كان السيد جمالالدين حكيماً في أنّه لم يعلن ايرانيته أو بالأحرى تشيّعه في عصر تسوده العصبيات المذهبية، فما دام يرى نفسه داعية إصلاح، فقد كان عليه أن لايعطي خصوم الإصلاح منافذ يدخلون منها إلى عقول العامة فيثيرونها عليه.

«٨»

السيد جمال الدين الأفغاني
دعوته وعصره

الدكتور محمد ضياء الدين الريس
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

السيد جمال الدين الافغاني

دعوته وعصره

[إنا نكتب هذا المقال هدية وفاء للمصلح الكبير بمناسبة حديثنا عنه في الثورة العرابية في العدد الثالث، وبمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لوفاته في شهر مارس الحالي، وكقطعة من تاريخنا الحديث يجب أن نتذكرها دائماً «وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين»].

سواء أصحّ الحديث ـ أم لم يصحّ ـ الذي ورد فيه الإخبار بأنّ الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها ـ فليس من شأننا أن نبحث هذا الموضوع، ونحن نتركه لرجال الحديث ـ فإنّ من الثابت عندنا ـ أي من وجهة النظر التاريخية ـ وهي حقيقة قد أصبح التسليم بها عاماً أوشبه عام، أنّه في السنوات التي أحاطت بملتقى المائتين الثالثة عشرة والرابعة عشر من التاريخ الهجري، ظهرت في أفق العالم الإسلامي شخصية فذّة قديرة كان لها ـ بما بذلت من جهد، وألقت من تعاليم، وبثت من روح ـ مثل هذا الأثر: في أنّها جدّدت للأمة أمر دينها، وأحيت ما خمد من عزائمها، وأعادت اليها ثقتها بنفسها. تلك هي شخصية السيد جمال الدين الأفغاني الحسيني، العالم الفيلسوف الصوفي السياسي، المجاهد، المربي والزعيم.

لسنا نريد هنا أن نسرد التفاصيل التي احتوتها حياته، ولا أن نكتب تاريخاً جامعاً له فهذا ـ على الأقل ـ ما لا يتسع له المقام. ولكنّا نريد فقط أن نشير إلى الحقائق البارزة

في حياته تلك، ونعني بصفة خاصة بأمرين: الطبيعة السياسية العامة للعصر الذي عـاش فيه، والمبادئ التي تكونت منها دعوته؛ وفي ضوء هذا كلّه يتسنى لنا أن نحدّد مكانتـه في التاريخ الإسلامي الحديث.

ولد السيد جمال‌الدين ـ كما اتفقت على ذلـك روايـات مـن ترجمـوا لـه ـ في عـام ١٢٥٤ هـ /١٨٣٩م بقرية أسعدآباد، من بيت علم وفضل، وعني والده بتربيته وتثقيفه، فتلقّى كل علوم الثقافة الإسلامية: من فقه، وتصوف، وحكمـة، وكـلام، وآداب، ودرس اللغة العربية ايضاً، ثم درس بالهند أيضاً الرياضيات وجانباً من العلوم الحديثة. ولم يكن المهم أنّه درس تلك العلوم، فكم من الناس درسوها غـيره؛ ولكـن الله سـبحانه وهبـه مواهب خاصة، فكان جمال‌الدين في الحقيقة «عبقرية» من العبقريات النادرة التي لاتظهر إلاّ قليلاً في التاريخ. ومن أهم ما ساعد على أنضاج هذه العبقرية، وإبلاغها حدّ الإثمار تربيته الصوفية. وإلى هذه التربية يرجـع كـثير مـن الأسـرار الـتي تميـزت بهـا حيـاة جمال‌الدين، وقوة تأثيره ونجاح مجهوداته، وعظم نفع الأعمال التي قام بها. بـل إنّ هـذه الصوفية الصادقة المخلصة السامية هي المفتاح الأول لشخصيته ـ بالرغم من غلبة الناحية السياسية أوالعلمية عليه ـ وقد غفـل أكثـر المـؤرّخين عـن الاهتـداء إلى هـذا السـرّ أو التنويه به.

واشتغل جمال‌الدين بالسياسة منذ كان شاباً في العقد الثالث من العمر، واضطلع بمهام كبيرة في الدولة. فبعد تقلّده بعض الوظائف في الحكومة اتصل بالأمير محمد أعظـم بـن أميرالأفغان الكبير «دوست محمدخان» وكانت سياسة الأفغان في أواسط القرن الماضي سياسة نشيطة، كثيرة التقلّبات حافلة بالأحداث، نتيجة نشاط السياسات الاسـتعمارية وما يصحبها من الدسائس، التي كانت تدبرها الدولتان المتنافستان: انجلترا الـتي كانـت تملك امبراطورية الهند شرقي أفغانستان، وروسيا القيصرية التي كانت تواصـل الزحـف والاستيلاء على الأقطار الإسلامية في اواسط آسيا. وقد نجحت الدسائس في أن فرّقـت بين أولاد الأمير محمدخان، فعقب وفاته انقسموا وانقسمت البلاد معهم شـيعاً وأحزابـاً، ووقعت بينهم الحروب. ورأى جمال‌الدين أن يؤيد «محمداعظم»، ووثق هذا بـه فجعلـه وزيراً له أووزيره الأول، واعتمد على نصائحه واشتركا معاً في تدبير الأمور. واكتـسب

بذلك جمال‌الدين ـ وهولايزال شاباً يافعاً ـ خبرة عملية، وأتيحت له الفرصة ليطلع على حقيقة نوايا الاستعمار الأوروبي وخباياه، وتآمره على إضعاف قوى البلاد الإسلامية تمهيداً لتدميرها، مما كان له أبلغ الأثر في تكوين آرائه وتحديد اتجاهاته، وإثارة وجدانه. ثم انتهت الحوادث بأن تغلّب أحد أبناء الأمير، وهو «شيرعلي» الذي كان مؤيداً من الانكليز وممداً بأموالهم، على أخيه الامير «محمد اعظم»، فزالت دولته، وحينئذ اضطر جمال‌الدين إلى مغادرة بلاده ـ ربما على كره منه، ولم يكن مقدّراً له أن يعود إليها مرة أخرى ـ ولكن هذه الهجرة كانت خيراً وبركة على العالم الإسلامي كلّه، كما سيأتي لنا بيانه.

كان هذا العصر الذي عاش فيه جمال‌الدين عصر ازدهار الاستعمار ـ أو دعنا نسمّيه كما سمّاه أحد علماء الإسلام المعاصرين: غارة أوروبا على العالم الإسلامي ـ وبلوغه أوج قوته: فكانت انجلترا قد أتمت استعمارها للهند، وبعد الثورة الكبرى عام ١٨٥٨ أعلنت انجلترا ضمها إلى أملاكها، وأخذت تديرها إدارة مباشرة؛ وبذلك أصبح تحت حكمها ولايات تسكنها أغلبية من المسلمين. وكانت الأفغان مسرحاً للدسائس التي ألمحنا اليها، وكذلك إيران التي كانت روسيا وانجلترا تتصارعان ـ طول القرن الماضي ـ على التدخّل في شؤونها ووضع اليد على مواردها. وأمّا مصر فقد كان التنافس فيها قائماً بين انجلترا وفرنسا؛ وقد كان التغلّب للأخيرة أولاً بما فازت به من الحصول على امتيازات فتح قناة السويس؛ وتوجّهت مجهوداتها بالنجاح عند الاحتفال بافتتاح هذه القناة في عام ١٨٦٩، ثم بعد هزيمة فرنسا أمام المانيا في حرب السبعين خلا الجو لانجلترا، فأسرعت إلى شراء أسهم القناة، ثم إلى التدخّل تمهيداً لاحتلال البلاد. وكان والي مصر (إسماعيل) يسوق البلاد سوقاً إلى الخراب، ويدفعها إلى الهاوية دفعاً؛ فقد باع مواردها ثمناً للربا وأغرقها بالديون، وأسلم رقبتها إلى المرابين ليذبحوها ويسلخوها كما يشاؤون. هذا بينما كانت الدولة العثمانية قد خضعت خضوعاً تاماً للدول المستعمرة. وبعد عقد معاهدة باريس ١٨٥٦ التي انتهت بها حرب القرم أصبحت كأنها تحت حماية انجلترا، وصار سفير انجلترا في الأستانة كأنه الحاكم الفعلي للدولة العلية، وما يتبعها من ولايات.

ولم تكن الكارثة الكبرى هي مجرد استغلال هذه الدول الأوروبية لموارد البلاد الإسلامية، أو تمكّنهم من بسط نفوذهم السياسي أو الثقافي؛ بل كانت الكارثة العظمى هي أنّ روحاً من الإعجاب بهؤلاء المستعمرين قد أخذت تسري بين الشعوب الإسلامية، وأخذ جو من الشك يعم أنحاء الشرق، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين وتقليدهم في أساليب حياتهم، دون نظر إلى ما كان منها صالحاً أوفاسداً، وكان هذا كلّه مؤدياً أوسيؤدي لامحالة إلى ضعف إيمان الشرق بنفسه، أوزعزعة ثقته في مبادئه وثقافته. ولـمّا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كان هناك عاهلان في الشرق على رأس هذه الدعوة، بل كانا يبذلان كل جهد في سبيل إقناع الناس بها، ويضحيان بالأموال ليروّجا لها: وهما السلطان عبد العزيز خليفة آل عثمان في تركيا، والخديو إسماعيل حفيد محمد علي في مصر. فقد كان كلّ منهما مفتوناً بأوروبا مغرماً بما شاهده من المظاهر المادية، مدفوعاً إلى تقليد الغربيين في فنون عبثهم ولهوهم، حتى جهر الأخير ـ وهو يشعر بالزهو والافتخار ـ أنّ «مصر قطعة من أوروبا»؛ وكان هذا المبدأ الذي عمل به كما عمل شبيه العثماني، وإن كانت أوروبا لاترضى إلاّ بأن يكون ذيلا لها ـ إن قبلت ـ لاقطعة منها.

في هذا الجو وفي هذا العصر نشأ جمال‌الدين، وقد طوّف بأرجاء البلاد في الشرق والغرب، وشاهد ودرس، واطلع بنفسه على حقائق الأمور، وأحسّ بهذه الاتجاهات وعرف هذه الدعوات؛ وأدرك إذن مدى الخطر الذي كان يتهدد العالم الإسلامي، وسبر عمق الهوة التي كان يدفعه إليها قادته المفتونون وزعماؤه الجهلة ليتردى فيها، فتتحطم قواه المعنوية تحطيماً لايرجى لها إصلاح بعده.

كان هذا هومفترق الطرق في حياة العالم الاسلامي، والإزمة الدقيقة الخطيرة الأثر في تاريخه. وقد شاءت العناية الإلهية أن يوجد جمال‌الدين في ذلك الوقت ليؤدي رسالة اختارها له القدر، من أنبل الرسالات التي قام بها المصلحون وقادة الشعوب في المراحل الحرجة من تاريخ حياة أممهم، عميقة المغزى خالدة النتائج، وهذه الرسالة تتلخّص في إيقاف الشعوب من الهوي التي يراد لها أن تتردى فيها، ومقاومة التيارات والتأثيرات الضارة التي من شأنها أن تؤدي بها إلى التهلكة، ورفع الغشاوة عن أبصارها وهدايتها

إلى سُبُل الرشاد، فهذا كله يؤدي إلى عرفانها نفسها، وردّ الثقة إليها في قدرتها وإمكانياتها، وإحياء آمالها، وتجديد إيمانها بمستقبلها ومثلها. وهذه هي الأهداف التي عمل لها جمال‌الدين، ووقف عليها وقته وجهوده وضحى بكل شيء، حتى حياته في سبيل تحقيقها.

نظر جمال‌الدين فوجد أنّ سبب البلاء وأصل العلّة أمران: الاستعمار الأوروبي، والاستبداد السياسي. وكان يرى أنّ وسائل انجلترا في محاربة الشعوب الإسلامية هي أخطر الوسائل. ولذا عدّها العدو الأول. ومن أكبر ما يمهد للاستعمار ويزيد من قوته، ويوجد عوامل بقائه: شعور الإعجاب به، والوصول إلى الاعتقاد الخاطىء بأنّ تفوق أهله يرجع إلى مزية طبيعية فيهم، مع اقتصار النظر على المحاسن الظاهرة دون معرفة ما تنطوي عليه من مساوئ وشرور باطنة، والغفلة في نفس الوقت عما كان عليه الحال في العصور السالفة. أمّا استبداد الملوك والولاة بشعوبهم فهو آفة الآفات التي نتج عنها الخطر الأول، فلولا حرمان الشعوب من استعمال حقوقها وإبعادها عن الاشتراك في السياسة، ولولا استمرار استغلالها وتسخيرها، الرضا ببقائها في الجهل، وسوقها سوق العبيد، وقسرها على أن تحيا حياة تفضي إلى سقم الجسم والروح. لولا ذلك كله ـ وهونتيجة سياسة الحكام والأمراء المتأثرين بالسلطة وكل الخيرات ـ لما أمكن للشعوب في بلاد الإسلام أن تصبح فريسة للطامعين والمعتدين من أهل أوروبا.

وكان السيد ينظر إلى ما آل إليه حال العالم الإسلامي وما كان عليه حاله من قبل من عزة ومنعة، وما ساهم به في بناء الحضارة وتقدم الإنسانية بمجهوداته في ميادين العلم والعمران، فتثور نفسه ويهيج خاطره، ويدعوالعقول إلى أن تتيقظ والمشاعر أن تتحرك، ويهيب بالأيدي أن تعمل، والجماعات أن تتحرر.

وقد وجد جمال‌الدين أنّ طرح الإصلاح هي: رفع المستوى الفكري والروحي لهذه الشعوب، بنشر الثقافة الإسلامية الأصيلة، واغترافها من منابعها الأولى. فكان يدعو إلى إحياء العلوم الإسلامية والتجديد فيها، وكان درسه بمصر وفي غيرها من البلاد نموذجاً عملياً لما يمكن أن يسار عليه في فهمها، وعرضها في ثوب قشيب يتفق مع روح العصر.

وقد حمل عنه هذه الطريقة الشيخ محمد عبده وغيره، فكان لأعمالهم وتوجيهاتهم العلمية أنفع الأثر.

وكانت القاعدة التي تقوم عليها الطريقة الاجتهاد وتحكيم العقل لا التقليد. أمّا الطريق الآخر للاصلاح فهوتحرير الشعوب من الاستبداد. ورفع نير الظلم عنـها، إلى أن تـصل إلى التمتع بحقوقها السياسية، وتـصير لهـا الإدارة العليـا في تـصريف شـؤونها وتقريـر مصائرها. وفي سبيل ذلك كان يعمل السيد دائماً إلى إثارة الشعور وتنبيـه الأقـوام إلى حقوقهم، بالأحاديث والخطب، ونصح رجال الصحف بـأن يكتبـوا المقـالات ويحـاولوا الإجادة فيها على أحسن ما تقتضيه الأساليب والقواعد العربية؛ فـأدى هـذا أيـضاً إلى البدء في إيجاد نهضة لغوية. وكان الـسيد يـدعو إلى جانـب ذلـك إلى اتحـاد الـشعوب الإسلامية، وجاهد من أجل جامعة تلمّ شملها لكي تصبح جبهة قوية أمام أعدائها.

ولم يحتج جمال‌الدين في اهتدائه إلى طرق الإصلاح هذه ـ أي فيما يتعلّق بـالنواحي السياسية ـ إلى أن ينقلها عـن زعمـاء أوروبـا، ولا عـن رجـال «الثـورة الفرنـسية» ولاغيرهم؛ ولكنّه اقتبسها من الإسلام نفسه ومن ثقافته وروحـه، فالإسـلام يـشتمل ـ فيما يشتمل ـ على أسمى المبادئ التي تتكون منها الديمقراطية، وضمن في شرائعه ـ فيما ضمن ـ الحقوق السياسية للانسان، ودعا إلى الحياة الاجتماعية الرفيعة الفاضلة. وذلـك كله قبل أن تصل أوروبا إلى معرفة هذه المبادئ بعشرات القرون، ولم يكن مصدر إلهامه غير القرآن والسنّة وأعمال السلف. ولكن جهل الأمم الإسلامية بمبادئ دينها وحقائقه ـ أوعلى الأقل عجزها عن تنفيذ هذه المبادئ ـ هو الذي أدى بها إلى أن تـصبح ذليلـة، وتترك مصالحها ومصائرها في أيدى حكام غشمة متجبرين لاضمير لهم، يعبثون بها كما تشاء أهواؤهم ويضيعونها.

لبث السيد جمال‌الدين يدعو طوال حياته إلى تلك المبادئ. وقد طوف بأقطار كثيرة في الشرق والغرب؛ فصار شخصية عالمية. فكان قد ذهب إلى الحجاز في مطلـع حياتـه لأداء فريضة الحج، وحين غادر بلاده توجّه أولاً إلى الهند، ثم إلى مصر فترة قصيرة، ثم ذهب إلى الآستانة فأوقع به هناك الرجعيون، فعاد إلى مصر ولبث بها هذه المـرة ثمـاني سنوات (١٨٧١-٧٩)؛ وبعد أن أخرج منها رجع إلى الهند، ثم زار بعد ذلك أوروبا، فزار

انجلترا وفرنسا وروسيا. وفي اثناء ذلك توجّه إلى فارس مرتين بدعوة من الشاه ناصرالدين، وأخيراً أغراه السلطان عبدالحميد بالذهاب إلى الآستانة فبقي بها شبه أسير حتى اختاره الله إلى جواره، في ٩ مارس سنة ١٨٩٧.

ولكن لعلّ أهم فترة في حياته كانت تلك التي قضاها في مصر؛ فهناك وجد تربة خصبة ولقي نفوساً مهيأة لدعوته؛ وكانت الأحوال السيئة والظروف البائسة التي أوجدها «إسماعيل» ومن سبقه من افراد أسرته، قد كوّنت في نفوس أهالي البلاد عوامل ثورة، ولكنها كانت في كمونها تحتاج إلى الموقظ والقائد والموجّه، فوجدت ذلك في شخص السيد جمال‌الدين حينما نزل بمصر، وكفى أنّه كان من بين تلاميذه الشيخ محمد عبده وعبدالله النديم وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان وغيرهم. ولذا فإنّه كوّن مدرسة أو جيلاً كانوا هم الطليعة من بناة مصر الحديثة المجاهدة من أجل الحرية والنهضة على أسس إسلامية. وما زال أثرهم متصلاً إلى اليوم. كما أثمرت تعاليمه أيضاً في ايران، فبثّ فيها من الروح مثل مابث من قبل في مصر، وكانت ثورته وحملته العنيفة على الشاه هي المقدمة التي مهدت إلى الثورة الدستورية التي قام بها أهل تلك البلاد في عام ١٩٠٦، ثم أدت فيما بعد إلى خلع أسرة «قاجار»، التي كانت تحكم الفارسيين منذ أواخر القرن الثامن عشر.

وكانت قوة جمال‌الدين في شخصيته التي كانت أظهر الصفات التي تتميز بها: حدة الذكاء إلى مرتبة العبقرية، وسعة الأفق، ونقاء الوجدان، وحساسية الشعور؛ وفي طاقته الروحية الكبيرة المستمدة من صوفيته، التي كانت سريعة التأثير في كل من يتصل به، وتمكّنه من التغلب على مخالطيه، وتجذب إليه القلوب ـ وكان جمال‌الدين متأثراً بالإمام الغزالي يعتبر نفسه أحد تلاميذه في نزعته الصوفية العلمية ـ كما كانت قوته تصدر أيضاً عن إيمانه بمبادئه، وثقته بنفسه، واعتداده بها إلى حدّ أنّه كان يعتبر نفسه كفاء الشاه ناصرالدين أوالسلطان عبدالحميد حينما يحدّثهما، بل أكبر منهما أيضاً، وأيّد هذا كلّه جنان جريء، وفهم للثقافة الإسلامية، ويقين ثابت في مستقبل الإسلام.

ولانرى في ختام هذا الحديث عنه أوفق من أن نقتبس بعض ما قال عنه بعض المؤرّخين الغربيين الذين درسوه بروح خالية من التحيز، وبعض الأقوال التي أثرت عنه

والتي تعبّر بلسانه عن بعض مبادئه: فقد قال الأستاذ «براون»: «إنّ جمال‌الدين كان فيلسوفا كاتباً خطيباً صحفياً؛ وفوق ذلك كان سياسياً... وكان له أثر بالغ في النزعات الثورية التي حدثت في عشرات السنين الأخيرة في الحكومات الإسلامية، وكان يرمي إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية، وانقاذها من الاستغلال الأجنبي، وإلى ترقية شؤونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة. كما كان يرمي إلى جامعة تنتظم الحكومات الإسلامية ـ ومنها إيران الشيعية ـ لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخّل الأوروبي بشأنها».

ويقول «لوثرب ستودارد»، وهو مؤرخ أمريكي: «إنّ خلاصة تعاليم جمال‌الدين تنحصر في أنّ الغرب مناهض للشرق، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب «بطرس الناسك»، ولم يزل التعصّب كامناً في عناصرها، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للاصلاح والنهضة. ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامي أن يتّحد لدفع الهجوم عليه؛ ليستطيع الذود عن كيانه».

ومما قال السيد جمال‌الدين نفسه: «إذا لم يبنَ تقدمنا وتمدّننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فيه؛ ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخّر».

وقال أيضاً فيما روي عنه: «ما نراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهراً هو عين التقهقر، لأننا في تمدّننا هذا مقلّدون للأمم الأوروبية، وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن طويل أن نخنع للذل والسلطة الأجنبية، أوتتبدّل صيغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلّب، إلى صبغة خمول وذلّ بعض الشعوب القديمة».

وعبّر الشيخ محمد عبده عن مدى تأثيره الروحي فقال: «لقد أعطاني والدي حياة يشاركني فيها علي ومحروس. أمّا السيد جمال‌الدين فقد أعطاني حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم، والأولياء والقديسين».

وبعد، فإنّ جمال‌الدين كان لايرى أنّ الإسلام عبادة فقط؛ ولكنّه عبادة وقيادة، وعلم وسياسة، وعمل وإصلاح، وقانون وأخلاق. ولا تزال لتعاليمه جدة، ولايزال كثير من نظراته صادقة. وما أحوجنا إلى اتّباعه والاقتداء بتلك الروح.

«٩»

العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى

الأستاذ طه عبدالباقي سرور

- مصر -

العروة الوثقى
والثورة التحريرية الكبرى

عقد المستشرق العلاّمة ليوبولد قابس[1] فصلاً في كتابه العظيم «الإسلام على مفترق الطرق» بعنوان ـ شبح الحروب الصليبية ـ قال فيه: «إنّ اليونانيين والرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنّهم وحدهم المتمدّنون، أمّا كل من كان أجنبياً عنهم، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر الأبيض المتوسط، فقد كان اليونانيون والرومانيون يطلقون عليهم لفظ «البرابرة» ومنذ ذلك الحين، والأوروبيون يعتقدون إنّ تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع، ثم أن احتقارهم إلى حدّ بعيد أوقريب لكل ما ليس أوروبياً من أجناس وشعوب قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية».[2]

هذا هوالتصوير النفسي للانفعالات الغائرة في أعماق الروح الأوروبي، الانفعالات التي انبثقت منها تلك النظرة المتعالية المتكبّرة التي ترمي بها أوروبا الأجناس الملونة في

---

١ – أسلم بعد سياحة دراسية عميقة في الشرق الإسلامي، وتسمى باسم «محمد أسد» وأصبح من أكبر دعاة الفكرة الإسلامية العالمية.

٢ – ومن هنا نشأت الفلسفة الإمبريالزم الأوروبية التى لخصتها الكلمة الغربية المشهورة: البقاء للأصلح، أي للاوروبي، لأنه الأقوى.

أي بقعة من بقاع الكوكب الأرضي، خارج المحيط الأوروبي.[1]

ولكن أوروبا فوق هذه النظرة المتعالية المتكبرة، المعتزة بنفسها، المحتقرة لكل شيء سواها، تختص العالم الإسلامي بشيء يتجاوز الكبرياء والازدراء إلى البغض العميق، والغلّ القائم المسموم الذي يأكل روحها عداوة وموجدة للاسلام وأبناء الإسلام.

يقول العلاّمة ليوبولد: إنّ الاصطدام العنيف الأول بين أوروبا المتحدة من جانب، وبين الإسلام من الجانب الآخر، أي الحروب الصليبية، يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوروبية، ومن هنا تكونت العقدة الكبرى في روح تلك المدنية.

لقد كانت ثمة حروب بين المسلمين والأوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية، كانت فتوح العرب في صقلية والأندلس، وكان هجومهم على جنوب فرنسا، ولكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ أوروبا إلى وعيها الثقافي الجديد فاتسمت من أجل ذلك، ومن وجهة النظر الأوروبية على الأقل، بطابع ذي نتائج محلية.

إنّ الحروب الصليبية هي التي عيّنت في المقام الأول، والمقام الأهم، موقف أوروبا من الإسلام لبضعة قرون تتلو، لقد كانت الحروب الصليبية حاسمة لأنّها حدثت في أثناء طفولة أوروبا، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها، وكانت لاتزال في طور تشكّلها، والشعوب كالأفراد.

وإنّ الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لايمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبا من قبل، ولا أتفق لها من قبل، لقد اجتاحت القارة الأوروبية كلها موجة من النشوة، كانت عنفواناً تخطّى الحدود التي بين البلدان وبين الشعوب، ولقد أتفق ذلك الحين، وللمرة الاولى في التاريخ أنّ أوروبا أدركت في نفسها وحدة، ولكنّها وحدة في وجه العالم الإسلامي، ويمكننا أنّ نقول من غير أن نوغل في المبالغة: إنّ أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية!

---

١ - يقول الفيلسوف الفرنسي جوستاف جروم نيباوم في كتابه «حضارة الإسلام» عن الإمبراطورية الرومانية: فمن عاش داخل الإمبراطورية ينتسب إلى شعب الله، وأما من كان يعيش خارجها فلم يصل بعد إلى الإنسانية الكاملة».!!

وقد ولدت أثناء الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية، وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوروبية على السواء، وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للاسلام.

ولقد كان في الجانب الإسلامي دائماً رغبة مخلصة للتسامح المتكافىء وللاحترام، ولكنّه أبداً لم يلق معاملة المثل.

إنّ خير وسيلة يجب أن يلجأ إليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربي على احترامهم، هي أن يكونوا أقوياء.

ويقول الكاتب الفرنسي، «مالك بن نبي» الذي عاش في الشمال الافريقي وامتزج به وأحبّه واعتنق الإسلام ولاقى الأهوال في سبيل الدفاع عنه:[1] «...لايجب أن ننسى أنّ أوروبا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على مصير النوع البشري لم تعترف منذ عصر بوكاشيو ـ حين كانت مدنيتها لاتزال في المهد ترضع اللبن العربي ـ بأية مدنية إسلامية. ولنستمع إلى جوستاف لوبون ينهي كتابه عن المدنية العربية بقوله: لربما يتساءل القارئ إذاً عن السبب الذي ينكر من أجله العلماء ـ الذين يجب عليهم أن يتجردوا عن كل تعصّب ديني ـ اليوم تأثير العرب... والواقع أنّ استقلال الرأي ظاهري أكثر منه حقيقي، وذلك لأننا لسنا أحراراً قط في تفكيرنا حول بعض الموضوعات. فقد استمر التعصّب الذي ورثناه ضد الإسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوي».

ويقول الكاتب العالمي «حيدر بامات» في كتابه:[2] «لاتزال النصرانية تواجه الإسلام بحقد وازدراء يمليهما التعصّب عليها، ويتجلّى هذا على وجوه كثيرة، ومنها ما نرى في الفقه الدولي الذي لايعامل الأمم الإسلامية معاملة تكون بها مساوية للأمم النصرانية.

وتعتذر الحكومات النصرانية عمّا تسوم به الدول الإسلامية من حملات وإهانات

---

١ - مستقبل الإسلام. ترجمة شعبان بركات. ص ٢٩، طبع بيروت.

٢ - مجالي الإسلام، ص ٥٠٠ ترجمة عادل زعيتر، طبع عيسى البابي الحلبي.

باستشهادها بما هي عليه هذه الدول الإسلامية من تأخّر وتوحّش، ومع ذلك فإن تلك الحكومات النصرانية نفسها هي التي تقيم العقبات من كل وجه، حيال كل سعي إلى الإصلاح والنهضة في بلاد الإسلام.

المنهج الاستعماري الاوروبي

ولقد رسم الغرب مناهجه الاستعمارية على أسس علمية دقيقة، أسس تجرّدت من الأخلاق تجرّدها من الشرف، وبعدت الإنسانية بعدها عن كل نبيل رفيع في الحياة. أسس استهدفت غايتين:

الأولى: تحطيم قوى الشرق المعنوية والمادية والروحية تحطيماً يحيل هذه الأمم إلى قطيع بدائي، مسلوب الرأي، مزلزل العقيدة، مهدر الحقوق. فالقومية: تعصب أحمق، والوطنية: تطرّف ضار، والكرامة: زهو وحشي، والشعور الفطري: كراهية للأجانب؟! وقامت أجهزة الدعاية الغربية الماهرة المدبّرة بهذه الغاية في دقة كاملة، وعلى نطاق الحرب النفسية الشاملة.

والثانية: أن تتحول بلاد الشرق إلى إقطاعيات زراعية، ومناجم للمواد الأولية، لتمدّ الغرب بحاجياته، ليقوى ويعتز، وتزداد قبضته تحكّماً وقسوة.

ورسمت برامج التعليم، ووضعت مناهج الاقتصاد، ودارت عجلة الحياة بكامل ألوانها لتؤدي إلى الهدف المنشود. يقول مالك بن نبي[1] متحدّثاً عن الأجهزة الاستعمارية الخفية: .. ولهذا الاستعمار مجامعه، كمدارس العلوم الاستعمارية، كما أنّ له برنامجه العام، وهوعبارة الميثاق الاستعماري الذي يتغيّر حسب تغيّر الحاجات، وتطور الحوادث، ليتلاءم دائماً والأوضاع الجديدة، كما تعقد المؤتمرات بانتظام تحت أسماء مستعارة تخفي أهدافها الحقيقية. وهكذا يجد الشعب المستعمر نفسه ضمن إطار مصطنع، يعمل كل جزء فيه على إفساد الفرد!

---

١ – مستقبل الإسلام ص ٧٨.

هذا التوجيه الخاطئ هو في الحقيقة تدمير يتغيّر حسب تغير الأوضاع الجديدة، ويقف في وجه كل مبادرة جديدة، فيعمد إلى القضاء عليها.

ولهذا كان لابد أن يهتم المستعمر بتزييف النهضات اهتماماً كبيراً، ونرى ذلك فيما أدخله المستعمر في المجتمع الإسلامي الحديث من عناصر التخريب، وعوامل الفوضى، ولقد أوحت إليه السلطة التي يتمتع بها كما أوحى إليه طموحه الذي لا يحدّ، فكرة مجنونة محزنة لإيقاف سير المدنية في البلاد المستعمرة.

فألّب على حركة التجديد جماعة المرابطين والباشوات والمتزمتين وشبه الجامعيين الذين قاموا بتمثيل دور الدفاع عن التقاليد الإسلامية ـ الزائفة ـ وإذا بكلمة «التقاليد» هذه تصبح شعار السياسة الاستعمارية أجمالاً!

ثم يقول: ولهذا لا يكفّ الاستعمار عن ترديد قولته المشهورة في تاريخ الشعوب المستعمرة «قفي أيتها الشمس عن الدوران»!!

فكان هذا القول الذي لم يخطر ببال جنكيزخان أوأتيلا، الصفة السياسية في الوقت الحاضر لأحطّ صور الاستعباد الإنساني في القرن العشرين، عنصر المدنية الأوروبية.

ويكتب رينان فيلسوف أوروبا الحبيب إلى قلبها فيقول محدّداً وظائف الأوروبيين، ووظائف الشرقيين في المستعمرات: «إنّ العنصر الأوروبي، هوعنصر الأسياد والجنود، ولهذا فإنّ حمل هذا العنصر النبيل على العمل كما يعمل العبيد والشرقيون يدفعه إلى الثورة، وذلكّ لأن كل ثائر عندنا، إنّما هوجندي لم يؤدّ رسالته، لأنّه مخلوق وجد ليحيا حياة البطولة، فإذا به يجبر على القيام بمهمة لاتتفق وعنصره، فهوعامل فاشل، وإن كان جندياً باسلاً، غير أنّ الحياة التي يثور عليها عمالنا، تجعل الشرقى والفلاح سعيدان، وهما كائنان لم يخلقا للحرب، فليقم كل منا بما خلق له، فتسير الأمور عندئذ على أتم وجه».

ليقم كل منا بما خلق له، ليقم الأوروبي النبيل الشجاع الأبي بدور السيد البطل المتعالي، ولنقم نحن أبناء الشرق بدور العبيد الاذّلاء، ويومئذ، ويومئذ فقط، تسير الأمور على أتم وجه وأكمله!!

كفاح الأحرار

ولقد تعمدنا أن نطيل الحديث عن الروح الاستعماري الأوروبي، ومناهجه وأهدافه، ونظرته المتعالية المتكبرة إلى الشعوب الملونة، ونظرته المسمومة الحقود إلى العرب والإسلام، لأنّ محور هذا الكتاب «العروة الوثقى» إنّما يدور حول نضال العرب والإسلام التاريخي لهذا الروح الإستعمارية الباغية المتسيطرة.

ولقد ابتلي العرب، وابتلي المسلمون بهذه الروح بلاءً تاريخياً، فبلادهم هي مفاتيح الشرق بأسره، هي البرزخ الذي تعبر منه أوروبا إلى أعماق القارتين الملونتين، القارتان اللتان يسيل لعاب الاستعمار حول كنوزهما وموادهما.

وأرضهم هي قلب الدنيا، وأغناها بالموارد التي تبعث الحياة في الحضارة القائمة، وتدير عجلاتها، وتكون طاقاتها.

وكما يقول صاحب «مجالي الإسلام»: إن جميع الطرق البحرية والجوية الكبرى التي تتجه من الغرب إلى الشرق، وجميع الطرق البرية التي تقود من الشمال إلى الجنوب، تمر من بلاد الإسلام.

ولهذا كان الثقل الأوروبي الاستعماري على تلك المنطقة أعظم ثقل استعماري في التاريخ، ومن ثم شهدت تلك المنطقة اروع ضروب النضال والجهاد في سبيل الحرية والحياة. وأصبح مستقبل الإنسانية بأسره، وقفاً على نتيجة الصراع الداخلي والخارجي الذي تدور رحاه في أرض العروبة والإسلام من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي.

وبهذا النضال المشبوب منذ أكثر من قرن حملنا أمانة عالمية يتوقّف عليها غد الإنسانية، بل يتوقف عليها رسالة النوع البشري كافة. فصراعنا الملتهب مع الاستعمار، هوصراع في سبيل المثل الإنسانية الرفيعة كافة، في سبيل الفضائل والأخلاق التي بعث بها الأنبياء، ودعا إليها الأحرار، وقامت عظمة بني الإنسان على إحساسه بها، وتناديه إليها، وجهاده في سبيلها.

إننا بهذا الصراع إنّما نقاوم البربرية والوحشية في أبشع صورها، نقاوم الإلحاد والمروق في أحطّ ألوانهما، نارب روح الشيطان الذي تنفث في كيان الاستعمار الأوروبي، ليملأ الدنيا دماء وشقاقاً، وتعاسة وبغضاً. ومن واجبنا اليوم، والصراع لايزال دائر الرحى بيننا وبينه أن نعرف تاريخنا معه، وأن نحصي معاركنا ونتدبرها، لنتفهم وسائل خصمنا وأساليبه، ومراوغاته ودعاياته.

لقد خدعنا الإستعمار عن أنفسنا، فسمّى قوميتنا تعصّباً، وحقّنا عدواناً، وتحررنا بغضاً للأجنبي، وتفضّل فوسم ديننا بالجمود والتأخّر والبدائية المنبثقة من الصحراء!! ولكننا اليوم لن نخدع، فقد طال بنا وبه التاريخ، حتى لم يعد ثمة من جديد في تفكيره ووسائله، إنّه يخوض معنا معاركه الأخيرة، وقد تكون معركته الفاصلة أشد بأساً وتنكيلاً، ولكنّها تسير إلى نهايتها المحتومة.

إننا الآن كما يقول الرئيس جمال عبدالناصر:[١] «بيننا وبين الاستعمار معركة قد بدأت في بعض الميادين، ولكن معارك في ميادين أخرى لم تبدأ بيننا وبينه، وإنّ لنا وله كذلك غداً قريباً أوبعيداً، نغسل فيه عاراً، ونحقّق أماني، ونستردّ حقوقاً».

ومن واجبنا ونحن في هذا الصراع المتعدد الميادين والساحات أن نتفهم تاريخنا معه، وأن نذكر مناضلينا الكبار الأحرار، الذين ناهضوه في عزة، وقاوموه في بأس.

وأنّ من أخلد صفحات هذا النضال، لصفحة «العروة الوثقى» صحيفة الثوار الأوائل الذين صاحوا في سماء الشرق فكانت صيحتهم هي البعث والأمل. وإن كنا اليوم نعيش في دائرة من النور والأمل، والتطلّع إلى النصر الذي تلوح بوادره في الآفاق، نعيش في ظل نهضة وثورة مؤمنة منتصرة، فإنّ جذور تلك الثورة، وعروق تلك النهضة إنّما زكت أصولها، ونمت جذورها على يد العبقري الأبي المناضل الثائر جمال‌الدين الافغاني وزميله وتلميذه الإمام محمد عبده.

---

١ - من كلمة للرئيس قدم بها كتاب «هذه هي الصهيونية» من سلسلة اخترنا لك.

ولقد حفظت لنا مقالات «العروة الوثقى» التي نقدّمها اليوم إلى القرّاء جهاد هذين الأمامين الثائرين، جهادهما من الإنجليز، ومع الخديوي، بل جهادهما مع الاستعمار قاطبة، الذين ابتلي بهم الشرق، فكانوا أنكى، وأشد قسوة بشعوبهم من الاستعمار نفسه. لقد كانوا أدوات الاستعمار وسوطه ولسانه، بل مطيته التي امتطاها لإذلال الشعوب، واستعباد الجماهير، والفتك بالأحرار، وإخفات أصوات المناضلين الثوار.

ولئن كنا نحن الذين عشنا في عهدي فؤاد وفاروق، قد رأينا الأقلام وكيف تزلّفت إليها، وكيف لانت وهانت وتبذّلت! ورأينا الرؤوس وكيف انحنت وتطامنت حتى رؤوس الزعماء الكبار وأشباه الكبار!! حتى كدنا أن نؤمن ونحن داخل الأسوار، يصبّ في مسمعنا بالليل والنهار، والحمد والإكبار لأصحاب التاج وحاشية التاج، كدنا أن نؤمن بأنّ الزلفى والخضوع لأولياء النعم، فطرة فطرالله الناس عليها؟ وأنّه ليس في طاقة مناضل، أوكاتب، أوزعيم، أن ينال من العروش وأصحاب العروش؟! فإنّ جمالالدين الأفغاني، الذي طوّف بالشرق والغرب، قد تحدّى ملوك الشرق كافة، تحداهم في مصر، وإيران وأفغانستان، والهند، حتى خليفة تركيا المهول بقداسته المخيف بقسوته. تحدّاهم بقلمه ولسانه، تحدّاهم حتى الموت، وعندما اغتال الثائر ميرزا رضا، سلطان إيران المستبد المتغطرس صاح وهو يطعنه: خذها من يد جمالالدين. وكان الخليفة عبد الحميد في استامبول يقول: لا آمن على نفسي، وهذا المخلوق الخطر يجاورني!!

وكذلك كان محمد عبده عنيفاً مع طغاة الشرق عنفه مع مستعمري الشرق، وما أحسب أنّ كاتباً استطاع أن يهاجم محمد علي. وأسرة محمد علي، تحت ظل الجبروت الخديوي، كما تحدّي محمد عبده وكتب. ولقد كتب مقاله هذا في سنة ١٩٠٢ م لمناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي للدولة المصرية ليهدم الأسطورة الزائفة.

ماذا صنع محمّد علي؟

.... لم يستطع أن يحيي، ولكن استطاع أن يميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضي الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على

إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأساً فيه ضمير «أنا» واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهالي، وتكرر ذلك منه مراراً، حتى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أونفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه!

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى، كأنّه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم!! حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلاّ آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أي وجه: فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده، على إثر إقطاعات كثيرة لغيره.

أهداف محمد علي الشخصية؟

إشرأبّت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوروبيين، فأوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك في بلادنا، يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها، وانقلب الوطني غريباً في داره، غير مطمئن في قراره، فاجتمع على سكان البلاد الرسمية ذلاّن: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية، وذّل سامهم الإجنبي إياه، ليصل إلى ما يريده منهم، غير واقف عند حدّ أو مردود إلى شريعة، قالوا: إنّه أطلع نجم العلم في سماء البلاد. نعم عنى بالطب، لأجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الأحيان

عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم، وبالهندسة لأجل الري، حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير.

هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أوالأدب؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أوأمهات الأقاليم؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل.

لم يكن شيء من ذلك، بل كان رجال الحكومة إمّا من الأرناؤوط، أوالجراكسة، أو الأرمن من الحورالية، أوما أشبه هذه الأوشاب وهم الذين يسمّيهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم «دخلاء» وكانوا يحكمون بما يهوون، لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون، وإنما يبتغون مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير.

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا ليتعلّموا فيها، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا؟ كلا، ولكنّه استعملهم آلات تصنع له ما يريد، وليس لها إرادة فيما تصنع!!

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى، من التاريخ والفلسفة والأدب. ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت أغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا!! فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، وتخفيف ثقلها عنها. فنثرتها بين الناس، فتناول منها من تناول. وهذا يدلّنا على أنّها ترجمت برغبة الرؤساء من الأوروبيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد، لكنهم لم ينجحوا؛ لأنّ حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قرّاء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون.

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى، كما يتخطّفون عساكر الجيش، فهل هذا ممّا يحبّب القوم في معلم، ويرغبّهم في إرسال أولادهم إلى المدارس؟ لا، بل كان يخوّفهم من المدرسة، كماكان يخيفهم من الجيش!!

حمل الأهالي على الزراعة، ولكن ليأخذ الغلاّت، ولذلك كانوا يهربون من تلك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر، وقوانين الحكومة لذلك

العهد، تشهد بذلك. يقولون: أنّه أنشأ المعامل والمصانع، ولكن هل حبّب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد؟ أين هم؟ ومن كانوا؟ وأين آثارهم؟ لا، بل بغّض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في المعمل والمصنع، لينصرفوا عنه ساخطين عليه، لا عنين الساعة التي جاءت بهم إليه!

يقولون: إنّه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوّخ به الملوك، وانشأ أسطولاً ضخماً تثقل به ظهور البحار، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار، فهل علّم المصريين حبّ التجنّد، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب، وحبّب إليهم الخدمة في الجندية، وعلّمهم الافتخار بها؟ لا، بل علّمهم الهروب منها، وعلّم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينحوا عليهم معتقدين أنّهم يساقون إلى الموت.

وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرر مصر! لا يخرج منها إلاّ بالموت! هل شعر مصري بعظمة أسطوله، أوبقوة جيشه؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقول: هذا جيشي وأسطولي، أوجيش بلدي أو اسطوله؟ كلا، لم يكن شيء من ذلك. فقد كان المصري بعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه، فهي قوة خصمه. فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلاّ أسوأ الأثر: أثر كلّه شر في شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدّمت واندثرت.

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابي، دخل الإنجليز مصر بأسهل ممّا يدخل به ذامر على قوم، ثم استقروا، ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهوضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين مصر: وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى، والموت الأخير.

لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول: إنّ محمد علي جعل جدران سلطانه بنية من الدين، أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي! دين التحصيل، دين الكرباج! دين من لادين له إلاّ ما يهواه ويريده! وإلاّ فليقل لنا أحد من الناس: أيّ عمل من أعماله

ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامي الجليل؟ لا يذكرون إلاّ مسألة ... وأهل الدين يعلمون أنّ الإغارة فيها كانت على الدين للدين.

ولا أظنّ أنّ أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي ـ على بصيرته ـ أنّ هذا الرجل كان تاجراً زارعاً، وجندياً باسلاً، ومستبداً ماهراً، لكنّه لمصر قاهراً، ولحياتها الحقيقية معدماً، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهومن أثر غيره».

الشيخ محمد عبده

بقلم تلميذه المرحوم مصطفى عبدالرازقي

ولد الشيخ محمد عبده في محلّة نصر، إحدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة. كان أبوه عبده خير الدين[١] ممّن رزقوا بسطة في جسومهم وقوة، ومرنوا على الرماية والفروسية ... فكسبوا من الهيبة بقوتهم وبطشهم فوق ما كان لهم من عز ومال.

حفظ الشيخ محمد عبده القرآن في بلده ثم ذهب إلى طنطا فجوده في الجامع الأحمدي، وصدّ عن طلب العلم، فعاد إلى بلده ليشتغل بالزراعة[٢] وتزوج يومئذ على حداثة سنّه. ورحل الشيخ بعد ذلك إلى الأزهر الشريف، واجتمع بالعلماء ورجالالدين، ومن بينهم الأستاذ جمالالدين الأفغاني.

ألّف في التصوّف «رسالة الواردات»....

ألّف حاشية على شرح التصووافي على العقائد العضدية في التوحيد، وأخذ يكتب فصولاً ممتعة في الصحف استرعت إليه الأنظار. ثم نال الشهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أنّ الشيوخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه[٣].

---

١ ـ أما أم الشيخ محمد عبده فهي السيدة جنينة أيم ذات ولد من حصة شيشير مركز السنطة بمديرية الغربية تزوجها أبوه مطارداً من بعض الحكام.

٢ . وسرعان ما عاد إلى العلم مرة ثانية بايعاز من شيخ يدعى درويش خضر.

٣ . جمالالدين الأفغاني، طبعاً!!

وعيّن على إثر ذلك مدرّساً في مدرسة دار العلوم، وفي مدرسة الألسن الخديوية. ولـمّا نفي الأفغاني من مصر عزل تلميذه وحدّدت إقامته. وعفي عنه بعد تعيينه محرراً في جريدة (الوقائع الرسمية) إلى أن عيّن رئيساً للتحرير.

واندلعت نيران الثورة العرابية فحوكم مع زعمائها، ونفي ثلاث سنين وثلاثة أشهر. فتوجّه إلى سوريا، وهناك تلقّى دعوة من أستاذه الأفغاني للحضور إلى باريس، حيث أصدرا (العروة الوثقى). وبعد ثمانية اشهر رجع الشيخ إلى بيروت وعمل أستاذاً في المدرسة السلطانية.

وألف في ذلك الوقت (رسالة التوحيد).

ونقل إلى اللغة العربية (رسالة الردّ على الدهريين)[1].

وشرح (نهج البلاغة).

وشرح (مقامات بديع الزمان الهمداني).

وفي بيروت تزوّج زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى.

وعاد من منفاه فعين قاضياً أهلياً، فمستشاراً في محكمة الاستئناف الأهلية، ثم عضواً في مجلس إدارة الأزهر، وهو أول مجلس أسس ليكون رسول الإصلاح، ثم عيّن مفتياً للديار المصرية حتى أدركه الأجل!

وفي عهد تولّيه الإفتاء كتب في إصلاح المحاكم الشرعية تقريراً جليلاً، وأصدر فتاوى ذات شأن.

ووضع تفسير (جزء عم).

وألّف كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية).

هذه الصورة المجملة من تاريخ الشيخ محمد عبده، تبيّن مناصبه وتعدّد مؤلفاته، ولكنّها لا ترسم جوانب عظمته، فإنّ المناصب والكتب ليست مجلى عظمة الشيخ محمد

---

١ . وكان السيد الأفغاني قد كتبها بالفارسية.

عبده، وإن كان ترك نفحة من النبل والعظمة في كل ما اتصل به.

إنّ الشيخ محمد عبده مصلح جريء، حاول الهدم والبناء في أقدس هيكل عند البشر، فيما يعتبره الناس ديناً. أرسل صيحته في الأزهر تدوّي بين شيوخ، إن لم يكونوا يومئذ هيئة كبار علماء، فلعلّهم لم يكونوا دون هؤلاء جموداً. ولم يبال الأستاذ بما لقي من الأذى، وقد لقي من الأذى كثيراً.

***

وأشهد لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التي سخّرها الله لعبقريته، وكان صوته العذب المؤثر من جنود عبقرية أيضاً.

كنت طالباً من صغار الطلاب أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر، وكان أساتذتنا عفا الله عنهم لا يفتأون يذمون لنا الشيخ، ويمثّلونه خطراً على الدين وأهله داهماً، فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة، وكنت أفرّ بديني من أن ألقى الأستاذ أوالتمع لدروسه مع أنّه صديق لوالدي!

***

وحضرت درسه مرة لأشهد كيف تشبه وجوه الملحدين، وتشبه معها عقولهم وقلوبهم؟! فلمّا رأيت الرجل بالرواق العباسي، وسمعته يفسّر كتاب الله قلت من ذلك اليوم: اللّهم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين!!

وقال المرحوم قاسم أمين، محرر المرأة المصرية، في وصف الشيخ محمد عبده: بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة. كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه، ويسعى إلى كل نفع للغير، عام أوخاص. كما يلجأ للفقراء واليتامى والمظلومين... والمصابين بأي مصيبة، وأهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة، لأنهم في وسط المدينة الحاضرة، المتأخّرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان حياتنا الجديدة، يبذل إليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمّة لا تعرف الملل، كأنّما كان يسعى لأعزّ إنسان لديه، بل كان يسعى لصاحب الحاجة

وهويعلم أنّه أساء إليه وقدح فيه، وحالف مع خصومه في ترويج مبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوماً مدى حياته.

كان الأستاذ يرى أنّ الشر لا فائدة منه مطلقاً، وأنّ التسامح والعفو عن كل شيء ومن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء، ويفيد في إصلاح فاعله.

***

وتتلخص دعوة الشيخ إلى الإصلاح الديني في أمور ثلاثة:

أولاً: تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدين والدنيا على حدّ سواء.

ثانياً: إعتبار الدين صديقاً للعلم ولا موضع لتصادمها، إذ لكلٍّ منهما وظيفة يؤديها، وهما حاجتان من مستلزمات البشر، لا تغني إحداهما عن الأخرى.

ثالثاً: فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب عارفه إلى ينابيعها الأولى. ومنابع الإسلام في سذاجته وبراءته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه هي:

«الكتاب وقليل من السنّة في العمل». هذا هوالأصل الذي ينبغي أن يرد إليه الدين الإسلامي في مذهب أستاذنا.

ولا شكّ أنّ الشيخ قد تأثير بالحياة الغربية على وجه ما في حياته العقلية ومعيشته الخاصة، ذلك بأنّه تعلّم اللغة الفرنسية وسافر إلى أوروبا عدة مرات، وعاشر الأوروبيين في مصر وفي غير مصر، فاستفاد من مخالطته وسياحاته ومن مطالعاته لكتب الغربيين في الفنون المختلفة، وظهر أثر ذلك في افكاره وكتاباته ودعواته الإصلاحية.

***

ولا يسع المؤرّخ حين يترجم للشيخ أن يغفل الإشارة إلى ما بلغه الرجل في حياته من عزّ وجاه وحرمة موفورة، كان للشيخ خصوم يكرهونه ويكيدون له، ويضعون له

العقبات في سبيل إصلاحه، ولكن أحداً لم يكن يستطيع أن يغضّ من جلال الشيخ أوينكر عليه منزلته الرفيعة في النفوس.

***

ومحمد عبده إذ يرسل قلمه الناري ليدفع رأس الأسرة الدخيلة، متحدياً جبروتها وبأسها، كان يعرض كل ما في حياته للخطر والتدمير. كان طليعة للأحرار، وكان الأحرار يجدون أنفسهم في عزلة وغربة، بعيدين كل البعد عن الموازرة الشعبية التي يستند عليها الأحرار في كفاحهم ونضالهم، فقد ران على مصر في عهد الأفغاني ومحمد عبده ظلاماً قاتلاً خانقاً.

كانت مصر في عهدهما تعاني فقراً وجهلاً وانهياراً كاملاً، وكان ذلك ثمرة طبيعية للحكم الاستبدادي الجاهل الذي ران عليها قرابة نصف قرن تحت ظلّ الغطرسة التركية الملكية.

ولقد ترك لنا محمد عبده في مذكراته التي لم تنتشر عن أسباب الثورة العرابية وثيقة هامة عن حالة مصر في ذلك العهد جاء فيها: «... أنّ أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ. ١٨٧٧ م كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى، ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته... ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحقّ له أن يبديه في إدارة بلاده... أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنّهم محكومون مصرفون فيما تكلّفهم الحكومة به وتضربه عليهم، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى، سواءً كانت إسلامية أوأوروبية، ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلّم فيها من عهد محمد علي إلى ذلك التاريخ الذي ذكرناه (١٨٧٧) ... لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار، ولا فوائد تلك المعارك التي اكتسبها، ومع أنّ اسماعيل باشا أبدع «مجلس الشورى» في مصر سنة ١٢٨٣ هـ /١٨٦٦م، وكان من حقّه أن يعلّم الأهالي أنّ لهم شأناً في مصالح بلادهم، وأنّ لهم رأياً يرجع اليه فيها، لم يحسّ أحد منهم

ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأنّ لهم ذلك الحق الـذي يقتـضيه تـشكيل هـذه الهيئـة الشورية، لأنّ مبدع المجلس قيّده في النظام والعمل، أمّا في النظام فلأنّه قد نصّ فيه على أنّ نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه، وما يعن لهـا أن ترسـله إليـه للمداولة فيه. وأمّا في العمل فلأنه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخـبر الأعـضاء بإرادة أفندينا!! فيقرّرون ما يريد بعد مداولة صورية، فكانوا يشعرون بأنّ الإرادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في أرائهم.

هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يأمر به! هل كـان يمكـن لـشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له، أو الوجهة التي يتوجّه إليهـا الحـاكم! لـو حدّثـه الفكر السليم بأنّ هناك وجهة خيراً من تلك، هل كان يمكنه أن ينطق بما حدّثه به فكره؟ كلا، فإنّه كان يجانب كل لفظ نفي عن الوطن، أوإزهاق للروح، أوتجريد من المال.

ظهور الأفغاني

ثم يواصل محمد عبده كلامه فيقول: ... وبينما الناس على هذا، لا كاتب ينبّههم، ولا خطيب يعظهم، إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه، وإن كان مما جرت به الـسنة الإلهيـة في كل زمان.

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب بصير في الدين، عارف بـأحوال الأمم، واسع الإطلاع، جم المعارف، جريء القلب، وهـوالمعروف بالـسيد جمـالالـدين الأفغاني. اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية... وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونـه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بمـا ينالونـه إلى أحيـائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخفّ حجاب الغفلة».

ويقول العلامة حيدر بامات[1] واصفاً قدوم جمالالدين الأفغاني إلى مصر وأثره فيهـا:

---

١ . مجالي الإسلام ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

«... ويمرّ من الهند ومصر والآستانة ويستقر بالقاهرة سنة ١٨٧١م، ويقيم بها ثماني سنين، ويكون هذا الدور من أكثر الأدوار خصباً في حياة جمالالدين الكثيرة الحركة، ويجعل من منزله الخاص جامعة حرة يلقي بها دروساً عن مذاهب الإسلام الكلامية والفلسفية، ويمزج بين أفكاره السياسية وتعليم العلوم الإسلامية الخالصة من كل روتين رسمي، والمستقصاة بروح عصري، ويبذل طاقته لدى المستمعين في إيقاظ الميل إلى النظم الحرة، والعزم على إنقاذ بلدهم من سلطان القوى الإجنبية، وما اتفق له من نفوذ في طبقات مصر المثقفة كان له بالغ الأثر في اشتعال الحركة الوطنية بمصر سنة ١٨٨٢ م ونشوب ثورة عرابي باشا، وضرب الاسكندرية بالقنابل».

ثم يقول[1] : وكان جمالالدين عالماً فيلسوفاً كاتباً، ذا اتصال ثقافي بالتيارات الفكرية العالمية، فكان يبدو: دائماً صاحباً لعقلية عصرية، متقبلاً لجميع مناحي الفكر في زمنه إلى أوسع ما يكون.

وهو لم يأل جهداً في إثباته بلسانه وقلمه أنّ الإسلام لم يكن قط جسماً بلا روح، وإنّما يرى الإسلام، إذا ما أزيل منه ما هوغريب عن مذهبه الحقيقي من الأوراق الخرافية، بقي دائماً قوة حية فعّالة ملائمة لمقتضيات العصر، ولجميع ما تنطوي عليه الحضارة الغربية من اختراعات فنية.

كان الأفغاني يثبت في الحقل الإجتماعي والسياسي أنّ مذهب الإسلام حرّ جوهراً، ديمقراطي عنصراً، فيمنح الأمة حقّ الاشتراك في إدارة الدولة، ورقابة حكومتها.

وكان أول من أدرك ما تنطوي عليه سياسة التوسع الغربي من تهديد لاستقلال دول الإسلام، فحاول تعبئة الجماهير روحياً، وأكثر من مراجعة ملوك الإسلام وامرائهم، منذراً إياهم بما يهدّدهم، ناصحاً باتخاذ ما يلزم من وسائل الدفاع، وكان يشعر بالخطر شعوراً حاداً ... ويقدر للوصول إلى أهدافه أن تقوم قبل كل شيء، حكومات دستورية،

---

١ . المصدر السابق، ص ٥٠٠.

وأن تحقّق إصلاحات اجتماعية تؤدي إلى جعل الأمم الإسلامية في مصاف الأمم الغربية».

***

ولقد كان للأفغاني قبل قدومه إلى مصر أثراً ضخماً في المشرق الاسلامي، فقد جاءه على موعد وقدر، جاءه مجدّداً لرسالات الشرق الكبرى، وأمجاده العريقة، ومدنيته التالدة. جاء ليحي أرضاً مواتاً، ويبعث نفوساً راكدة هامدة، ويهزّ عروشاً مستبدة متعالية، ويحارب استعماراً موطّد الدعائم، عزيز الأركان، فواراً بالقوة والبأس والسلطان.

نشأ في الأفغان، ثم سافر إلى الهند فأحدث دوياً وألهب ثورةً ثم طوف بإيران فبعث فيها الحياة والحركة، وانتقل إلى العراق والحجاز فترك آثاره وتلاميذه وأفكاره تغلي وتفور.

وكانت كراهيته للانجليز سمة من السمات الجوهرية في شخصيته، ذلك أنّه أيقن منذ عهد مبكر وعن تجربة أنّ هؤلاء القوم يكنّون للمسلمين عداءً شديداً[1] فهم حريصون كل الحرص على التنكيل بالممالك الإسلامية وعلى التهامها واحدة بعد أخرى، وهم لا يترددون أمام أية وسيلة من الوسائل، ولا يحترمون أيّ مبدأ من المبادئ إذا أرادوا تحقيق مآربهم، وأكثر ما يعتمدون في ذلك على اصطناع اللين والخداع والمخاتلة حتى يظفرون لأنفسهم أولقوم سواهم بجزء من أراضي المسلمين، كأن لهذه الدولة الماكرة، لذة في النكاية بأهل الدين! وكأنّها تبتغي للسعادة في تذليلهم ومحو ما يكون من ملكهم، وكمال بهجتها أن تراهم أذلاّء لا يملكون من أمرهم شيئاً!

النزوع إلى الحرية ... والرغبة في العدالة

ولكن كما يقول الدكتور عثمان أمين[2]: «ما من قطر من أقطار الشرق أثّر فيه

---

١ . جمال‌الدين الأفغاني، للدكتور محمود قاسم.

٢ . رائد الفكر الحديث ص ٢٢.

جمال‌الدين مثل تأثيره في مصر، فهومن أوائل العاملين على تطور الروح الوطني في هذه البلاد، وقد نسب إليه بحقّ الدور التاريخي لأبي القومية. استطاع الرجل بخطبه الملتهبة أن ينفث في النفوس نزوعاً إلى الحرية، ورغبة في العدالة، خطب مرة في الاسكندرية قبل خلع الخديوي اسماعيل، فقال: «أنت أيها الفلاح المسكين تشقّ قلب الأرض لتستنبت ما تسدّ به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشقّ قلب ظالمك؟ لماذا لا تشقّ قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟»

بهذه الجرأة كان جمال‌الدين يخطب ويتكلّم، وكان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس، وتنبيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين، فاتجه الناس إلى نقد أصحاب السلطان، وأخذت تنضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقّه المطلق في التصرف في شؤون الرعية، وليس هناك شكّ في أنّ للأفغاني يداً في الحركة العرابية. ومن المحقّق أنّ المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة من غرسه، كما قال شكيب أرسلان، وإن كان هبّ على ذلك الزرع من سموم الجهل، ونقصان التربية السياسية، ولفحة الدسائس الاجنبية ما صوّح نضرته، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق، أوحركة إصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار.

على أنّ جمال‌الدين قد عرف بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي ترمي إلى اتحاد جميع الشعوب التي تعيش في كنف الإسلام، لكي يتيسّر لها التخلّص من سيطرة الأجنبي، وقد كان يقول بهذا الصدد: إنّ الدول الغربية تنتحل الأعذار في هجومها وعدوانها على البلاد الإسلامية وإذلالها وإكراهها، بقولها: إنّ الممالك الإسلامية هذه أنما هي من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع أن تكون قوّامة على شؤون نفسها بنفسها، في حين أنّ تلك الدول عينها لا تكفّ عن التذرّع بألوف الذرائع، حتى بالحرب والحديد والنار، للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والإصلاح في البلاد الإسلامية، ومن ثم يجب على العالم الإسلامي أن يتّحد في حلف دفاعي كبير ليستطيع بذلك أن يصون نفسه

من الفناء، وللوصول إلى هذه الغاية، إنّما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم في الغرب، وأن يكتنه أسرار تفوّقه وقدرته».

بيد أنّ جمال‌الدين لم يكن يعني بذلك إحلال قومية الدين محلّ قومية القطر، وإنّما كان يرغب في أن تتحد جميع الأقطار الإسلامية، مع استقلال كلّ منها عن الآخر، إلى هدف واحد، هو التحرّر السياسي. من أجل النهوض بالوطن المصري أوالتركي أوالفارسي كان يعمل على نهضة الإسلام الذي يتغلغل في الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار الإسلامية المختلفة.

وكان الأفغاني حرباً مشتعلة لا تهدأ على الاستعمار الأوروبي بشتيت صوره وألوانه، وكان يعتبر الاستعمار البريطاني رأس الأفعى، وخصم الإسلام الأكبر.

ويقول الدكتور قاسم[1] : «... ولقد أثارت كتاباته السياسية ضجة كبرى، وكان لها دوي شديد في مصر، ورجع صدى في إنجلترا، إذ بيّن أساليب الإنجليز وحيلهم في استعمار الشرق، وبه كيف يزعمون أنّهم يتدخلّون لحماية العروش الهاوية، مع أنّهم يضمرون الفتك بالشعوب التي يتظاهرون في الوقت نفسه بالعطف عليها، ومحاولة إصلاح أمرها، ودفع الضلم عنها، ورفع مستوي الحياة بين أفرادها؟».

وكان جمال الدين سابقاً لعصره بتفكيره الشعبي، وعقيدته الدستورية، ومن هنا كان إيمانه بالشعوب، وجهاده في سبيل الحريات الشعبية. فقد نادى بقلمه ولسانه بأن كل إصلاح إلى زوال ما لم ينبعث من أعماق الجماهير، وكان يقول: ولن تنبعث شرارة الإصلاح في وسط هذا الظلام الحالك إلاّ إذا تعلّم الشعب وعرف حقوقه، ودافع عنها، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق وجد نفسه مضطراً إلى المطالبة بها، والمحافظة عليها إذا نالها».

ومن هنا كانت حروبه الطويلة المستمرة مع الخديوي وبطانته ووزرائه، وكانت كراهية الملوك والأمراء والوزراء له.

---

١ جمال الدين الافغاني، للدكتور محمود قاسم ص٦.

الأفغاني يحرّض محمّد عبده على قتل الخديوي اسماعيل!!

وكان جمال بطبيعته الثائرة عنيفاً مندفعاً مغامراً، لا يثنيه شيء عن هدفه، ولا يتراجع أمام عقبة تعترض سبله. ولهذا عندما شاهد الخطر الذي يهدّد مصر من حكم اسماعيل، وعلم أنّه لن يتراجع ولن ينثني عن تحالفه مع الاستعمار، اقترح على تلميذه محمد عبده أن يقتل الخديوي اسماعيل!![1] ويستطرد الإمام فيقول: «وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل، لوأننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت فربما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة معه لأن قتل اسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله».

وأنقذ اسماعيل من الاغتيال نبأ عزله الذي جاء من الآستانة في ٢٦ يونيه سنة١٨٧٩. وكان أول عمل عمله توفيق الذي تولّى ملك مصر بعد اسماعيل أن أمر بطرد جمال الدين من مصر تعصّباً لوالده من ناحية، وإرضاءً للانجليز من ناحية أخرى!

طرد الأفغاني من مصر!

ويحدّثنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن طرد الأفغاني فيقول: وألقي القبض على الثائر العظيم، واقتيد بالقوة إلى محطة السكة الحديد، وأركب بالعنف في القطار الذاهب إلى السويس، ولقيه في طريقه قنصل إيران وبعض المصريين الأحرار فعرضوا عليه مائة دينار، فأبى جمال الدين أن يأخذها مع أنّه كان لا يملك شيئاً، وقال كلمته المأثورة: إحتفظوا بالمال فأنتم أحوج إليه، إنّ الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب!».

ووصف لنا محمد عبده خروج الأفغاني من مصر فقال: «... لا ريب في أنّ الانزعاج بنفي جمال الدين كان عاماً، والكدر كان تاماً، ولكن الخديوي أظهر سروره بما فعل، وتحدّث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار، فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمال الدين، وألزمت الجرائد

---

١ من حديث لمحمد عبده في منزله في ١٨ مارس سنة ١٩٠٣، التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر، ص٣٥٤.

بنشر الأمر الصادر بالنفي والتقريع الشديد بمالم يكن يستحقّه الرجل. كما أنّه كان فيه تشنيع جارح على من كانوا يجتمعون عليه، فنشره البعض، وأبت أحدى الجرائد نشره... فعطّلت، على أنّ هذه الشدة لم تزد الأفكار إلاّ حدّة، ولا الألسن إلاّ جرأة، ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلاّ نمواً وظهوراً، ولم تكن حكومة مصر كريمة في معاملته، فوصفته بالزندقة وسمته (ضلال الدين) أوالأفغاني الأفّاق! وقالت في المنشور الذي أصدرته لهذه المناسبة: إنّها أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد، عبرة للمعتبرين، ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين، البادي من أفعالهم الظاهرة أنّهم لا خلاق لهم في الدنيا والآخرة»!!

أهداف العروة الوثقى

وسافر الافغاني إلى باريس، ومن هنالك كتب إلى الإمام محمد عبده يأمره بالحضور والإقامة معه، فسافر إليه صفيّه وهنالك أسّسا معاً «جمعية العروة الوثقى» وهي جمعية إسلامية عالمية هدفها إعادة عزّة الإسلام ومجده، والعمل على تطهير عقائده مما شابها، وتحرير العالم الإسلامي من ذلّ الاستعمار وعبوديته.

وكانت جميع الأفكار في الجريدة التي صدرت باسم (العروة الوثقى) لجمال الدين، أمّا الأسلوب فكان للامام محمد عبده. وكان يعاونهما في جهادهما ميرزا محمد باقر، وكان عمله معهما هوالاطّلاع على ما يكتب في الصحف الأوروبية مما له صلة بالعالم الإسلامي فيترجمه ليكون مادة للجريدة في أخبار السياسة الدولية.

ولقد لخّصت هذه الجمعية أهدافها في العدد الأول منها، وحصرتها في هذه المبادئ[1]:

١- تضع الجمعية نفسها في خدمة الشرقيين عامة، فتبيّن لهم الواجبات التي يجب عليهم القيام بها، التي كان التفريط فيها سبباً في تدهورهم، وتوضّح الطرق التي يجب

---

١ جمال الدين الأفغاني ، للدكتور محمد قاسم.

اتّباعها لتدارك الأخطاء الماضية، وتجنّب الصعاب والأخطار في المستقبل.

٢- كما ستبحث معهم الأسباب والعلل التي أدّت إلى ضعفهم، وفي طليعتها تفريطهم في تعاليم دينهم.

٣- وستكشف الغطاء عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين، وتزيح الوساوس التي سيطرت على عقول المنعمين، ممّا أدى إلى اليأس من الأصلاح، والقنوط من تلافي الأخطار الماضية.

٤- وستحاول أن تحيي الأمل في النفوس، وتبيّن أنّ طريق النهوض ليست بالصعوبة المتوهمة التي توجب فتور الهمة أو خور العزيمة.

٥- كما ستبدي اهتماماً خاصاً بالردّ على التهم التي توجه إلى الشرقيين عامة والمسلمين بصفة خاصة، وستعنى بتفنيد مفتريات الغرب التي يزعم قائلوها بأنّ المسلمين لن ينهضوا أبداً ما داموا متمسّكين بأصول دينهم.

٦- وستوالي الجريدة اطلاع الشرقيين على الأحداث العالمية وأسرارها ليحيطوا علماً بما يدبّره السياسيون الأوروبيون، وما يبيتونه لهم، ولكي يعلموا في أيّ عالم يعيشون حتى لا يقعوا في شراك الدعايات المغرضة.

٧- وأخيراً ستعمل الجريدة على تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وبيان المنافع المشتركة بينها، وعلى مناصرة كل سياسة خارجية من شأنها ألاّ توقع حيفاً بالشرقيين.

وقامت العروة الوثقى برسالتها، فكانت منارة للشرقيين عامة، ونبراساً لكلّ مجاهد حرّ يناضل في سبيل الحرية والحياة. وكانت شواظاً من نار على الاستعمار والبغاة، وكانت تلقي النور المبين على جوانب الإسلام لتظهره للعالمين مطهّراً مما ألحق به، ودسّ عليه، ونسب إليه، ديناً ارتضاه الله لعباده رحمة وخيراً، وأهلاً لخير حضارة أخرجت للناس.

وأدركت بريطانيا الخطر الكامن وراء سطور تلك الجريدة، الخطر المدمّر لسياستها، الفاضح لفظائعها وأهدافها، فأعلنت الحرب الشاملة عليها. وكان من نذر هذه الحرب أن

منعت دخول أعدادها في البلاد الإسلامية، وأخذت تتعقّب الأحرار الذين ترسل إليهم، وقامت الحكومة المصرية من جانبها بمؤازرة حليفها الاستعماري فحدّدت عقوبات لمن يضبط متلبّساً بجريمة قراءتها!

بريطانيا تعرض عرش السودان على الأفغاني!

وعجزت بريطانيا بنفوذها ودهائها والتباعها الذين يدورون في فلكها في البلاد الأوروبية والإسلامية، عجزت كل هذه القوة عن أن تنال من ثورة جمال الدين وهجومه الرهيب على الاستعمار والمستعمرين، فلجأت العجوز الداهية إلى سلاحها الخالد، المال والملك، وخيّل إليها أنّها تضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، فأرسلت إلى الأفغاني تدعوه باسم حكومتها لزيارة لندن لتسأله رأيه في حركة المهدي، ولتحصل منه على فتوى شرعية تناهضه بها، ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة: «إنّها تعلم مقدرته، وتقدّر رأيه حقّ قدره، ولأنّها تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية مسلك المودة والولاء!».

وكان مما قاله له اللورد سالسبوري حسب الوقائع الرسمية: «لذلك تصوّرنا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي، وتمهّد لإصلاحات بريطانيا فيه».

ورفض الأبي الثائر أن يقع في الفخّ البريطاني، وسخر من العقلية الإنجليزية التي لا تؤمن بأنّ في الدنيا رجال أحرار شرفاء إلاّ في جزيرتها؟! قائلاً: (إنّ السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف في عرشه».

وتغضب بريطانيا فتلقي بكل مافي صدرها من حقد وغضب على جمال الدين وصاحبه وتتعقبّهما، وتتعقّب صحيفتهما حتى تتمكن أخيراً من القضاء عليها قبل أن تتم عاماً من حياتها.

ولكن العروة الوثقى استطاعت خلال الثمانية أشهر التي صدرت فيها أن تغيّر نظرة

الحياة في الشعوب الشرقية كافة، وأن تطلق شعاعاً من أشعة الحرية ظلّ يتّقد ويتعاظم حتى جنينا ثمراته حرية واستقلالاً في ثورة ٢٣ يوليوسنة ١٩٥٢ التي أطاحت بالرجعية والاستعمار في مصر والشرق العربي بأسره.

ويقول العلاّمة حيدر بامات في حديثه عن جهاد الأفغاني العالمي «.. بيد أنّ أهم أثر قام به جمال الدين هو ولا ريب إصدار مجلة العروة الوثقى العربية في باريس التي كان مع الشيخ محمد عبده مؤسساً باعثاً أصلياً لها، وكان لهذه المجلة أثر كبير في نشوء المشاعر الوطنية الحرة في الأوساط الاسلامية، فتعدّ مبشّرة أدبية في الحركات الوطنية التي ما انفكت تنموبعد ذلك».

ويقول الفيلسوف الإجتماعي رينان: «... كنت أتحدّث إليه فكان يخيّل. إليّ من حرية فكره، ونبالة طبعه، وإخلاص قلبه، أنني أرى وجهاً لوجه أحد معارفي القدماء، وأنّي أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أولئك الأحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الإنساني.

ويقول عنه المفكّر الجزائري، علي إلهامي: «سوف يخلد اسمه في جميع البلاد الإسلامية كما خلد اسم «هوميروس» في مدن اليونان القديمة».

وأخيراً... يقول جمال الدين: «ما مات أحد في حبّ أمته إلاّ وأحيته» وحسب الأفغاني حياة وخلوداً، تغدو كلماته حية خالدة، وآية ذلك كل حرف من حروف هذا الكتاب الذي احتوى كل سطر خطّه الثائران العظيمان في صحيفة الحرية الكبرى... العروة الوثقى...

طه عبدالباقي سرور، القاهرة

«١٠»

لقاء بين مفكّرين

الدكتور محمد عبدالمنعم الخفاجي

- جامعة الازهر -

لقاء بين مفكّرين

كانت ليلة خالدة في تاريخنا القومي، وفي تاريخ الفكر الاسلامي، تلك التي جمعت بين رائدي النهضة الفكرية والاسلامية في العالم السلامي: محمد عبده وجمال الدين الافغاني.

كان الافغاني يومئذ في الثلاين من عمره، وكانت شهرته قد رنّ صداها في كل مكان: رائداً مصلحاً، وفيلسوفاً حكيماً، وثائراً مجدّداً، ومناهضاً للاستعمار والاستبدادية، وللفساد السياسي في الشرق الاسلامي، كان قد أبلى بلاءً حسناً في مقاومة الطغيان السياسي في ايران والافغان، وذاعت آراؤه الثائرة في الاصلاح والتجديد الديني، وفي مكافحة الاستعمار البريطاني في الهند، ونفته حكومة التاج من الهند على باخرة بريطانية متجهة نحوأوربا، وفي السويس نزل جمال الدين في أواخر عام ١٣٨٦ هـ. ١٨٦٩ م ويمم وجهه بشطر القاهرة ملاذ الأحرار، فأقام فيها أربعين يوماً، تردّد خلالها على الجامع الازهر، واتصل به كثير من المفكّرين والعلماء والطلاب.

وكان محمد عبده آنذاك من أنبه شباب الازهر، وأذكى طلابه، في نحو الخامسة والعشرين من عمره، يمتلئ صدره بأضخم الآمال لشعبه ووطنه العريق في المجد والتاريخ والنضال، وفي يوم قصّ عليه طالب سوري في رواق الشوام بالأزهر قصة قدوم عالم أفغاني عظيم إلى مصر، وحدّثه أنّه يقيم في خان الخيلي وأنّه يذهب اليه كل مساء حيث يقيم في رفقة بعض الزملاء، يتتلمذون عليه، ويأخذون عنه، وعجب محمد عبده من الامر، وأخبر استاذه «حسن الطويل» بالقصة، فاتعدا لزيارة جمال الدين والتعرّف به ليلة

اول المحرم عام ١٢٨٧ هـ .. ودخلا عليه فوجداه يتناول طعام العشاء، ورحّب بهما، ثم أخذ يحدّثهما في التصوف والتفسير والمفسرين وأشياء أخرى، وكان بين الحين والحين يصوّب نظره نحومحمد عبده، فيدرك ما كانت تنطوي عليه جوانحه من توثّب، وما كانت تنم عليه نظراته من حيرة وثورة، وشوق إلى المعرفة، وإيمان بمستقبل الاسلام والمسلمين، ولم ينته سمر الثلاثة وحوارهم ليلتئذ، إلاّ وقد اطمأن محمد عبده إلى جمال الدين، ووثق به، وصمم على ملازمته، والافادة من علمه وتفكيره ونزعته المتوثبة الحرة.

وانتهت اقامة الافغاني في القاهرة، وعزم على السفر إلى الآستانة، بعد أن كانت وجهته الحجاز لأداء فريضة الحج، وودّعه تلميذه محمد عبده وداعا حاراً، التفت الافغاني إلى مودّعيه يقول لهم: انّي خلّفت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده.

وفي الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية ـ تعرّف جمال الدين برجالات الدولة ومفكريها وعلمائها، واختير عضواً في مجلس المعارف هناك، ولكن الدسائس والوشايات حيكت له، فعاد إلى القاهرة في أول المحرم من عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م، واستقبله تلميذه محمد عبده استقبالاً يليق ومكانته، وأخذ يلازمه ليشبع رغبته في طلب العلم، ومعرفة كنوز الفلسفة وحقائق الحياة، وصار يدعو زملاءه وأصدقاءه إلى غشيان مجلس الافغاني، والافادة من تفكيره الثوري وتوجيهه الاسلامي.

واندمج جمال الدين في حياة مصرالاجتماعية والفكرية، وتردّد على دار «ابراهيم المويلحي» في حارة الامير حسين بشارع محمد علي، وهي في ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة، فلمّا أجرى عليه رياض باشا مرتباً شهرياً قدره عشرة جنيهات مصرية، استأجر منزلاً في حارة اليهود، وصار من يومئذ بيت الافغاني مدرسة جامعة، يقصدها النابهون من طلاب الأزهر، ويدرّس لهم فيها أمهات الكتب في العقائد والحكمة والمنطق والفلسفة والتصوف وأصول الفقه والفلك والتاريخ، ولم يكن يقصد من دروسه التعليم فحسب، بل كان يهدف من ورائها كذلك إلى الدعوة للاصلاح وفتح باب الاجتهاد في الدين والعلم، وبثّ الاخلاق العالية في النفوس، والتبصير بالشؤون السياسية

وحقوق الشعب والأمة، وكان إلى هذا يرشد الطلاب إلى مطالعة الكتب الأدبية لتنضج مواهبهم في الادب، وليستطيعوا أن ينهضوا بالامة عن طريق الكتابة في الصحف والمجلات. وعرف طلاب العلم الافغاني واهتدوا اليه، واستوروا زنده فأورى، واستفاضوا بحره فأفاض دراً، كمايقول الامام محمد عبده نفسه: أيقظ جمال‌الدين العقول من غفلتها، ونبّه شباب الأزهر إلى ضعف التوجيه الفكري في العالم الاسلامي وفي الازهر، حتى لقد ألفوا من بينهم جماعة تسعى في إصلاحه، وكان أول عمل لهم أن كتبوا منشوراً يدعون فيه إلى الإصلاح، وعلّقوه على اعمدة الازهر في سواد الليل البهيم. وكان من تلاميذه المقربين: محمد عبده، وعبدالكريم سلمان، وسعد زغلول، وابراهيم الهلباوي، وعبدالله نديم، وقاسم أمين، وحسن عاصم وحسن عبدالرزاق، وسيد وفا وسواهم.

وبتوجيه جمال الدين أقبل محمده عبده على الثقافات المترجمة إلى العربية فاستوعبها ونبغ في الكتابة الوطنية والصحفية، وكان لجمال الدين ندوة ثانية في «قهوة البوسطة» بجوار الازبكية، وكان من روّاده فيها: محمد عبده، والبارودي، وعبداالسلام المويلحي، وابراهيم المويلحي، وسعد زغلول، وأديب إسحاق، وعلي مظهر، وسواهم. وفي هذه الندوة حوّل جمال الدين وتلاميذه مجرى الادب، فجعلوا في خدمة الامة، يطالب بحقوقها، ويدفع عنها من ظلمها، ويحرّض الشعب أن يؤمنوا بحقّهم في الحرية، وألاّ يخشوا بأس الحاكم، فليست قوته إلاّ بهم، وأخذ الأدب يتحدّث عن الشعب، وينشد التحرّر، ويفيض في الحديث عن حقوق الناس، وواجبات الحاكم، وبدأ ذلك واضحاً في مقالات محمد عبده وسعد زغلول، وأديب اسحاق، وكتب جمال الدين نفسه مقالتين في جريدة «مصر» كانت إحداهما في «الحكومات الشرقية» وأنواعها، وكان لها صدى بعيد، وكتب محمد عبده كذلك عدة مقالات تأثّر فيها بروح أستاذه ونشرها في جريدة الأهرام، أولاها في فلسفة التربية، والثانية في فلسفة الصناعة.

وكان «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي أثراً من آثار هذه الثورة الفكرية التي غرسها الافغاني في عقول الشباب، وهكذا عمل جمال الدين على توسيع المدارك وتوجيه الافكار وتعويد الشباب على الحرية في البحث والنقد، وتبصير الشعب بحقوقه

وبواجبات الحاكم ومسؤولياته تجاهه، وتحـدّث في صـميم الـسياسة، ورأى أنّ الحكـم النيابي لاقيمة له مادام الشعب غافلاً جاهلاً، ولـمّا أثرت النهضة الفكرية الـتي غرسـها بيديه أخذ يلحّ في طلب الحكم النيابي ويدعو إليه، وكان ذلك طبعاً هـو الرافـد العظـيم للثورة العرابية الخالدة والموجّهة لاقطابها إلى العمل مـن أجـل وطنـهم، وفي مقدمتـهم بالطبع: عرابي، ومحمد عبده، والبارودي وسواهم.

وظفر محمدعبده بشهادة العالمية عام ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م، وأصبح مدرّساً بـالأزهر، واختير بعد قليل مدّرساً للتاريخ الاسلامي بدار العلوم، وللعلوم العربية بمدرسة الالسن، وفي الأزهر أخذ يدرّس المنطق والعقائد على نحو جديد، ويدعو إلى تدريس الفلـسفة، والى فتح باب الاجتهاد، والعودة إلى أمهات مصادر الثقافة الاسـلامية، وفي دار العلـوم قرأ لتلاميذه «مقدمة ابن خلـدون»، وفي داره كـان يتحـدّث مـع زائريـه في الـسياسة والاجتماع وشؤون الفكر وأصول الدين. وهو في كل ذلك متأثّر بنزعات أستاذه جمـال الدين، الذي أثّر فيه تأثيراً بليغاً طول حياته، وكان الافغاني كثير الثناء عليه والتقدير له، وكان يعبر عنه بالصديق، ويعجب لأخلاق الامام وعزّة نفسه، ويقول له: قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت؟ وكذلك كان محمد عبده ينعت جمال الدين بلسان الحقّ ومحيي الدين.. وفي زحام هذه الثورة الفكرية ظهر شعار «مـصر للمـصريّين» أي ليـست للاتـراك ولا للاوروبيين ولا للخديويين وأذنابهم، ووقف الافغاني في الاسكندرية قبل خلع اسماعيـل يخطب جموع الشعب، ويقول: أنت أيها الفلاح تشقّ قلب الارض لتنبت فيها ما تسدّ بـه الرمق ويقوم بأود العيال، فلماذا لا تشقّ قلب ظالمك؟ لماذا لا تشقّ قلب الذين يأكلون ثمرة كفاحك وتعبك؟

وطويت صحائف الايام، ومرّ عام وعام، وعزل اسماعيل، وخلفه توفيق في الخـامس والعشرين من يونيوعام ١٨٧٩ م. وكان توفيق من قبل يظهر الصداقة والمحبة للامـامين ويعاهدهما على ايجاد حكم سياسي نظيف في مصر، فيما لو آلت الامور إليه، وكان مـن أجل ذلك هوى جمال وحزبه معه، ولم يتوان توفيق في أن يستدعي جمال الـدين ويقـول له: أنت أيها السيد أملي في مصر الآن، فنصحه جمال الدين بتأييد الدستور، وإقامة حكم

نيابي في مصر، يشترك فيه الشعب اشتراكاً فعلياً في حكم البلاد، ولم يمض غير قليل حتى كان ردّ توفيق عليه أن انعقد مجلس وزرائه في ٢٤ اغسطس عام ١٨٧٩ م أواسط رمضان ١٢٩٦ هـ وقرّر نفي جمال الدين من مصر، وإقالة محمد عبده من وظائفه العلمية، وتحديد إقامته في قريته «محلة نصر»: وصدر بلاغ رسمي من إدارة المطبوعات يتهم جمالا وحزبه بالإفساد والتضليل وإثارة الفتن!

ورحل الافغاني عن مصر التي أحبها، وسعى مخلصاً لها، بعد ان عاش فيها ثمان سنوات، كانت كلها نضالاً وجهاداً من أجل مستقبل مصر السياسي، وحقوق شعبها المكافح الأبي، وعاد الى الهند مرة أخرى، وكان ذلك آخر عهده بمصر، وقبل أن يغادر الافغاني البلاد قال كلمته المشهورة: إنّي تركت في أرض مصر الشيخ محمد عبده يتمّ ما بدأت به.

وتلفّت الناس إلى خليفة جمال الدين ليجدوه شبه معتقل في قريته، محجوراً عليه في أن يعمل لخير وطنه وأمته، وثار الشعب، وأشفق رياض باشا من الأمر، فشفع في الامام عند توفيق، وانتهى الامر بتعيينه محرراً بالوقائع المصرية صحيفة الدولة الرسمية، ولم يلبث محمد عبده أن نهض بالعبء، وصار المحرر الاول فيها، واختار معه سعد زغلول والهلباوي وعبدالكريم سلمان وسيد وفا، وهم من تلامذة الافغاني. وأخذ يعلّمهم الكتابة الصحفية، ويعوّدهم على تدبيج المقالات وتحبيرها، وأحدث محمد عبده ثورة صحفية واجتماعية وفكرية وأدبية عن طريق الوقائع التي كان فيها ملعماً ومصلحاً ورائداً لشعبه وللأحرار فيه، وكثيراً ما كان ينقد أعمال الحكومة، ويدعو الحاكم والمحكوم إلى احترام القانون، كدعوته إلى تنمية الاقتصاد الوطني، وفتح أبواب الراغبين فيه من أبناء الشعب، وإنشاء المدارس النهارية والليلية، وبجهوده أسس مجلس المعارف الأعلى في ٣١ مارس عام ١٨٨١ م وانتخب عضواً فيه، وهو في ذلك كله إنّما يعمل وفق تعاليم أستاذه.

وما فتىء يواصل جهوده في خدمة الشعب واعداد الرأي العام الوطني المستنير، حتى نشبت الثورة العرابية التي كان هو وأستاذه من أكبر الممهدين لها، والغارسين لبذورها، بل

كان محمد عبده كما يقول اللورد كرومر: «الروح المدبّرة للثورة»، وكان هوالواضع لصيغة اليمين الوطني الذي أقسم به جميع رجالات مصر وضباطها على أن يكونوا يداً واحدة، وهوالواضع كذلك لصيغة القرار الذي عزلت الأمة به «توفيق بن اسماعيل»... ودعا محمد عبده إلى التطوع في صفوف الجيش المدافع عن أرض الوطن، والى التبرع له بالمؤن والمال والسلاح.

وكان الافغاني إبان ذلك قد اعتقلته بريطانيا في الهند، وانتهت الثورة العرابية بالقبض على زعمائها، ومن بينهم الامام وحبسه مائة يوم، حكم عليه بعدها بالنفي ثلاث سنين، واختار سوريا منفى له، فوصلها في نهاية عام ١٨٨٧ م وأقام في بيروت وكفاحه من أجل الشرق الاسلامي عامة، ومصر وشقيقتها السودان خاصة. وفي عام ١٨٨٣ أطلقت بريطانيا سراح جمال الدين، وسمحت له بالسفر، فسافر إلى الندن، وفي طريقه اليها كتب إلى محمد عبده في بيروت يبشّره بفكّ أسره وسفره إلى العاصمة البريطانية، ووصل جمال الدين إلى انجلترا، ثم سافر منها إلى باريس، وأرسل إلى الامام محمد عبده يستدعيه ليلحق به هناك، فلبّى النداء وشدّ رحاله إلى باريس.

وفي باريس أخذ الإمامان يجاهدان من أجل مستقبل الشرق الاسلامي، ويعملان ليعود للاسلام مجده، وكونا عام ١٨٨٤ م «جمعية العروة الوثقى» للجهاد في سبيل الاسلام والدعوة اليه، والكفاح من أجله، والذود عن شعوبه، وخلق الوعي المستنير فيها، ومناهضة الحكم الديكتاتوري، والعمل على إحياء الاخوة الاسلامية بين شعوب الشرق، وعلى قيام الحكم فيها على أساس الدين الذي يأمر بالشورى والعدل بين الناس. وقد كان من أهدافهما الكبرى تحرير مصر والسودان من الاستعمار البريطاني.. ومن أجل هذه الاهداف أنشأ الإمامان «جريدة العروة الوثقى» في باريس، وصدر العدد الأول منها في ٥ جمادى الاولى عام ١٣٠١ هـ / ١٣ مارس عام ١٨٨٤ م ولخّصا فيه أهدافهما فيما يلي:

١- بيان الواجب على الشرقيين، وأسباب فساد جهّالهم.

٢- اشراف النفوس عقيدة الامل وترك اليأس.

٣- الدعوة إلى التمسّك بالأصول التي كان عليها أسلافهم.

٤- الدفاع عمّا يتهم به الشرقيون من أنّهم لن يتقدموا ما داموا متمسكين بدينهم.

٥- إخبارهم بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

٦- تقوية الصلات بين الأمم الاسلامية، تمهيداً إلى جامعة إسلامية، وتقوية لفكرة الرابطة الشرقية، بتقوية العلاقات السياسية والتجارية بين شعوب الشرق، صداً لتيار الغرب وزحفه.

وكانا يريدان حكومة اسلامية موحّدة، ولـمّا يئسا من ذلك دعيا إلى قيام روابط وثيقة بين الحكومات الاسلامية.. وأخذا يناهضان الاستعمار، ويدعوان إلى الاجتهاد وترك التقليد، والى أن التكافل الاجتماعي في الاسلام ملتحم مع العقيدة، ملتصق بالاخلاق، يبعث عليها حب الخير، على النقيض من اشتراكية الغرب التي يبعث عليها جور الحكّام، أو حسد العمال لأصحاب رؤوس الأموال، وأعلنا في قوة أنّ الدين لايخالف الحضارة العلمية والفكر الحرّ النزيه، فالقرآن أجلّ من أن يخالف نواميس العلم الحقيقي خصوصاً في الكليات، وظلّت جمعية العروة الوثقى وصحيفتها يؤديان رسالتهما، ومن خلفها فروع الجمعية السرية العديدة في شتى الاقطار، ولكن قوى الاستعمار اجتمعت على محاربة الصحيفة، فتوقّفت عن الصدور بعد العدد الثامن عشر الذي صدر في ٢٦ من ذي الحجة عام ١٣٠١ هـ / ١٦ اكتوبر عام ١٨٨٤م... وفي يوليوعام ١٨٨٤ م وقبل إغلاق الصحيفة بقليل، أوفد جمال الدين الامام محمد عبده إلى لندن لمفاوضة الانجليز في القضية المصرية والسودانية، فسافر الامام إلى لندن ومعه ميرزا محمد باقر، وهناك قابل محمد عبده أقطاب الزعماء والساسة والنّواب والمفكرين، وتحدّث معهم في المسائل السياسية، وكان صوته أول صوت مصري يرتفع بالمطالبة بحقوق مصر والسودان بعد الاحتلال البريطاني، وصوّر لنا كفاح محمد عبده ومن ورائه الافغاني في سبيل المسألة المصرية، هذا الحديث الذي دار بين الامام ومندوب صحيفة الفازيت ونشرته الجريدة في ١٧ اغسطس عام ١٨٨٤ م.

قال الصحفي الانجليزي: إنّ الشيخ محمد عبده أول مصري أصيل يزور هذه البلاد،

فهو يقيناً فلاح، يلبس جبة زرقاء، وعمامة بيضاء، ولا يتكلّم الفرنسية ولا الانجليزية ولا التركية، انّما يتكلم العربية لغة قومه، وتلك أول مرة يزور فيها الشيخ بريطانيا، ليرى بعينيه البلاد التي كانت السبب في نكبة وطنه..

وسأل الصحفي البريطاني محمد عبده عن رأيه في الحالة السياسية في مصر، فردّ عليه يقول: إنّنا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية، كنّا نظنّ أن الانجليز يناصرون قضية الحرية، لكننا لم نعد نعتقد بمثل هذه الظنون، فانّ الحقائق أقوى وأبلغ من الاحلام، إننا نرى أنّ انتصاركم للحرية هوانتصار لما فيه مصلحتكم، وأنّ عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل، لقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكي يكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا.

وعاد الإمام يقول للصحفي البريطاني: لم لا تغادرون بلادنا في الحال؟ لقد علّمنا الانجليز شيئاً واحداً هوالتضامن في رغبتنا أن نراهم يرحلون عن بلادنا، حتى اننا أردنا أن نحطّم استبداد حكّامنا، ولكننا الآن نعلم أنّ هناك ما هو شر من استبداد الحكّام، أنّ لنا إليهم رجاءً واحداً هوأن تغادروا بلادنا من غير رجعة.

ولـمّا سأله الصحفي الانجليزي عن مشاعر المصريين نحوتوفيق، بادره محمد عبده بقوله: إنّنا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم بريطانية.

وقال له الصحفي: إنّ فرنسا تريد احتلال بلادكم بدلاً عنا! فردّ عليه الامام: إنّ الفرنسيين يعلمون أننا لا نقبل حكمهم كما لانقبل حكمكم، إنّنا لا نريد لوطننا حكّاماً أجانب معنا، كائنة ما كانت بلادهم، ونحن نعرف كيف نجعل حكمهم فينا أمراً مستحيلاً.

ولـمّا تعلّل الصحفي بحماية بريطانيا للاقليات في مصر، أجابه محمد عبده بأنّه لانزاع بيننا وبين المسيحيين طالما عاشوا في ظلّ قوانيننا ولم يتدخلوا في شؤون حكومتنا، والمذابح التي حدثت كان سببها الانجليز أنفسهم، أنّ وصول اسطولكم إلى الاسكندرية هوسبب كلّ هذه الاحداث.

وخوّف الصحفي الامام بحركة المهدي في السودان، فردّ عليه رداً قوياً، وقال له: كفّوا عن تهديدنا وغادروا مصر. وطالب بجلاء جيش الاحتلال، وباقامة حاكم جديد في

مصر على أن يكون مسلماً مصري المولد لمدة سبعة أعوام أوثمانية، وفي نهاية هذه المدة يحقّ للشعب أن يختار بنفسه من يحكمه، لسنا نريد ملكاً وانّما نريد زعيماً، انّنا معشر المصريين نريد الاصلاح، نريد العدالة، نريد حاكماً نستطيع احترامه، دعوا أمتنا تختار زعيمها، ودعوها تحكم نفسها بنفسها.

هذا الصوت العظيم في مكافحة الاستعمار لايقلّ عنه صوت محمد عبده في الردّ على هانوتو وفي الدفاع عن العقيدة الاسلامية، مما بهر الغربيين وهزهم وأثار تأملاتهم.. عاد محمد عبده إلى باريس وبعد قليل أغلقت صحيفة العروة الوثقى، وكلّف جمال الدين محمد عبده بالسفر إلى السودان لإذكاء الثورة المهدية وتوجيهها والإفادة منها في تحرير مصر من الاحتلال، وسافر محمد عبده سراً إلى تونس، ومنها إلى مصر خفية، وقصد السودان، وفي طريقه إليه توفي المهدي في ٢١ يونيو ١٨٨٥ وخلفه التعايشي الذي سلم للانجليز في السودان، فعدل الامام عن غايته، وسافر سراً إلى بيروت، وألّف فيها هو وميرزا محمد باقر «جمعية التأليف والتقريب» للدعوة إلى الاسلام والتعريف به ومقاومة اضطهاد أوروبا للشرق والمسلمين. ودعا محمد عبده كثيراً من المستشرقين ورجال الدين في أوربا إلى الايمان بالاسلام وأصوله، وكان قيام هذه الجمعية امتداداً لتعاليم الافغاني وتفكيره الثوري. وفي أواخر ١٨٨٨ م عاد محمد عبده من المنفى إلى وطنه، واتخذ سكناً له في شارع الشيخ ريحان بجوار عابدين، وكان يقول لأصدقائه: اخترنا هذا المكان لنناطح عابدين وننازلها، والتفّ حوله أصدقاؤه ومريدوه ينشرون دعوته في الاصلاح الديني والتجديد العقلي والثقافي للوطن وأبنائه، وأسندت اليه وظائف كثيرة كالإفتاء، والإشراف على المحاكم الشرعية وإصلاحها، وعضوية مجلس الاوقاف الاعلى، وعضوية مجلس شورى القوانين، والجمعية الخيرية الاسلامية، وجمعية إحياء الكتب العربية. وكان الافغاني آنذاك في باريس، ثم سافر منها إلى الآستانة، وفيها توفي في صباح الثلاثاء ٥ شوال ١٣١٤ هـ / ٩ مارس ١٨٩٧ م ولم يبق للعالم الاسلامي من موئل سوى محمد عبده وعقله البعيد الافق، المنير في ظلمات الخطوب والاحداث.

واستمر محمد عبده في كفاحه الديني والوطني والقومي، كافح صلف كرومر، وغرور

عباس، وجهل أنداده الحاقدين عليه، إلى أن خرّ شهيداً في ساحة الجهاد في ٨ جمادى الاولى ١٣٢٣ هـ / ١١ يوليو ١٩٠٥ م في الذكرى الثالثة والعشرين لضرب الاسطول الانجليزي للاسكندرية، والذكرى المئوية لولاية محمدعلي على مصر.

وهكذا عمل محمد عبده وأستاذه جمال الدين الافغاني على غرْس روح الثورة والحرية في نفوس الملايين من المصريين والمسلمين، وناضلا في سبيل تحرير الشرق العربي من نير الاستعمار نضال الأبطال، وماتا بعد أن خلّفا وراءهما ذكراً خالداً لايموت على مرّ الأيام وكرّ الأجيال والعصور.

وما أعظم ما كان الامام يتجه إلى أستاذه جمال الدين في المحنة، ويقول له: «أيها السيد! أرى أن نترك السياسة، ونذهب إلى مجهل من مجاهل الارض لا يعرفنا فيه أحد، نختار من أهله عشرة غلمان أواكثر من الاذكياء، السليمي الفطرة، فنربّيهم على منهجنا، ونوجّه وجوههم إلى مقصدنا، فاذا أتيح لكلّ واحد منهم تربية عشرة أخرين، لا يمضي بضع سنين الاّ ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح.. فيقول له أستاذه جمال الدين: إنّما أنت من المثبطين، نحن قد شرعنا في العمل، ولابد من المضي فيه ما دمنا نرى له منفذاً».

رحمهما الله، واكرم مثواهما في جنّته وحماه....

«١١»

دور جمال الدين الأفغاني
في يقظة الشرق ونهضة المسلمين

الأستاذ الشيخ المهدي البوعبدلي
عضو المجلس الاسلامي الاعلى الجزائر

دور جمال الدين الأفغاني

في يقظة الشرق ونهضة المسلمين

إنّ الحديث عن جمال الدين الافغاني، من مختلف جوانب حياته، يتطلب عدة مجلّدات، وقد خصّص بالفعل بمئات التآليف، ولا زال محلّ اهتمام الباحثين، وموضوع دراساتهم، وإنّي استهلّ هذه المحاضرة ببيت شعر للمتنبي سبق لبعض مترجميه افتتاح دراسته بذكرها وهي:

يقـــولون لـي ما أنت في كل بلدة   وما تبتغي: ما ابتغي جلّ أن يسمى

فقال المترجم في تعليقه على هذا البيت: «لعلّ هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغاني، فقد كان ذا أمل كبير يدفعه إلى التنقّل في شتى الممالك القاصية، لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجة والانتعاش، بل ليقيم في كل أرض ثورة، ويشعل في كل مملكة ضراماً، وليهدم ما تعفّن من الآثار البالية، ويقيم على أنقاضه صروحاً عالية من العزّة والاستقلال، وان رجلاً واحدا يمكنه أن يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية، لجدير أن يكون رنّان الصوت، طائر الصيت».[1]

وإنّي سأتعرض في هذه المحاضرة لنشأة جمال الدين، ثم مراحل حياته في البلدان التي أقام فيها، وطبع كل واحدة منها بماخلّفه فيها من آثار، سواء في الميدان العقائدي أو

---

١ ـ محمد رجب البيومي، كتاب علماء في وجه الطغيان (العدد ٥٥) مطابع الدار القومية بمصر.

السياسي، ثم اذكر لقطات من انطباعات بعض مترجميه المشهورين بالنزاهة والاطلاع على الخبايا، وتقييم الرجال، وألخّص ما أمكن من النقاط البارزة في ترجمة حياته، وأجنب المستمعين الدخول في التفاصيل.

نشأته وشخصيته:

هوجمال الدين بن السيد سفتر الافغاني، ينحدر من سلاله علي الترمذي، المحدّث الشهير، الذي لا زال تأليف يحمل اسمه وهو«سنن الترمذي»، والترمذي هذا يرتقي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، كما جزم بذلك الشيخ محمد عبده المترجم الأول لأستاذه جمال الدين.

ولد جمال الدين سنة ١٢٥٤ هـ ، الموافقة لسنة ١٨٣٩ م، في قرية «أسعد اباد» القريبة من همذان التابعة لبلاد فارس، وهو أفغاني لا فارسي، وانتقل بانتقال والده كما نذكر ذلك في موضعه.

كانت أسرة جمال الدين تتوارث منزلة عليه في قلوب الافغانيين، ومن ذلك أنّها كانت لها السيادة على جزء من الأراضي الافغانية تستقلّ بالحكم فيه، ومركز العشيرة كان في كنر[١] وأعمال كابل[٢]. وقد فقدت العشيرة هذه الإمارة في عهد والد جمال الدين، وكان الأمير الذي استلب من الاسرة إمارتها، نقل افرادها إلى مدينة كابل، ومن جملة المنقولين والد جمال الدين وأعمامه، وفي السنة الثامنة من عمره، أجلس للتعليم على الطريقه المتبعة في البلاد الاسلامية إذ ذاك، وهي لا تختلف كثيراً عن بعضها، وقد أنهى تعلّمه في سنّ مبكرة نظراً لاستعداده الفطري، وقريحته الوقّادة، وشهرته بالجد والاجتهاد منذ نعومة اظفاره، وبمجرد اتمامه لمعلوماته فارق بلده لأول مرة لقضاء فريضة الحج، وكان ذلك في سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦م وبعد أدائه فريضة الج رجع إلى مسقط رأسه فقلّده والي البلاد دوست محمد خان خطة في الحكم، وكان دوست هذا هو الذي استلب من

---

١ ـ قال ياقوت في معجم البلدان: كنر بالكسر وتشديد ثانية وفتحة وآخره راء.

٢ ـ وقال: كابل بضم الباء الموحدة (معجم البلدان).

الاسرة إمارتها، ونقل أفرادها إلى كابل كما تقدم لنا ذلك. وقعت حروب بين دوست هذا، وبعض أقاربه كان والياً على هراة، وكان ذلك سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م فمات دوست أثناء الحصار وتولّى ولي عهده، ووقعت أحداث بين أفراد الأسرة فتولّى بعضهم، وكان صديقاً حميماً لجمال الدين، فعيّنه رئيس وزرائه، ثم هزم ذلك الصديق في حروبه، واشتعلت نار الفتن، فكانت تلك أسباب مغادرة جمال الدين بلاده، ذلك سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩ م. وكان أول بلد القي فيه عصا التسيار، بلاد الهند، ورغم أنّ حكومة الهند تلقته بحفاوة واكرام، إلاّ أنّها أشعرته أنه غير مرغوب في طول اقامته، إذ حالت بينه وبين علماء البلاد، ولم تأذن إلاّ لقليل منهم بالاتصال به، ولهذا كانت اقامته بالهند لم تزد على شهر واحد، وقد ودّعته حكومة الهند بنفس التكريم الذي تلقته به عند وروده عليها. ومن ذلك أنّها سخرت له الباخرة التي أقلته إلى قنال السويس على نفقتها، فجاء إلى مصر وأقام فيها نحو الأربعين يوماً، كان يتردد فيها على الأزهر، ويجتمع بطلبته، ولم تطل إقامته بمصر أيضاً، حيث مكث فيها حوالي أربعين يوماً، ثم انتقل إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية، وبعد وصوله بأسابيع قليلة اجتمع بالصدر الأعظم علي باشا، الذي تلقّاه بمزيد من الحفاوة والتبجيل، وصارا متلازمين، وبعد إقامته حوالي ستة أشهر، عيّن عضواً في مجلس المعارف، فقام بمهمته أحسن قيام، وكان كثيراً ما يقترح ادخال بعض الاصلاحات لتعميم التعليم، فيعارضه بعض زملائه، الذي كان على رأسهم شيخ الاسلام حسن فهمي أفندي.

وعند حلول شهر رمضان سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠ م طلب مدير «دارالفنون» تحسين أفندي من السيد جمال الدين أن يلقي محاضرة «بدار الفنون» موضوعها الترغيب في التصنيع، فاعتذر لضعف معرفته باللغة التركية، فلم يقبل عذره، فحينئذ، هيأ خطابه كتابة، وقدّمه قبل إلقائه إلى وزير المعارف، صفوة باشا، والى الحاكم العسكري علي شرواني زاده، والى منف باشا، ناظر المعارف، فاستحسنه كلّهم. فمن هذه الاحتياطات كلّها تبيّن أنّ جمال الدين كان على حذر من مكائد خصومه، وكان اتصاله بالجماهير ومخاطبته اياهم، أول فرصة يمكنهم استغلالها ضده، وهذا ما وقع بالفعل، فأنّهم قوّلوه مالم

يقله، وأوّلوا كلامه فاتهموه بالزندقة والزيغ، وهذه التهم هي التي كانوا يروجونها عليه خفية، فلمّا سخت لهم الفرصة اتهموه بأنّه في محاضرته بدار الفنون زعم أنّ النبوة صنعه، حيث ذكرها في خطاب يتعلّق بالصناعة، ولم ينتظر شيخ الاسلام ردّ فعل المحاضر جمال الدين، حتى فاجأه بالايعاز إلى خطاب المساجد، ووعّاظها، بإثارة هذه التهمة الملفقة في خطبهم المنبرية، ودروس الوعظ، والاحتجاج على صاحبها بالتنفيد والتنديد، فعندئذ طلب جمال الدين أن يمكن من الدفاع عن نفسه، ليثبت على رؤوس الملأ بطلان ما رمي به، وذلك في مناظرة بينه وبين شيخ الاسلام، وكان جمال الدين لا يلين في مثل هذه المواقف ورغم موقف أهل الحلّ والعقد الذين حضر جلّهم للمحاضرة، بعد أن اطلّعوا عليها قبل القائها، ونصحوه بالتغاضي، وعدم الالتفات إلى كيد خصومه، إلى أن يهدأ الرأي العام، فامتنع وأصرّ في إلحاحه على المناظرة. ولما لم يجب إلى مرغوبه، غادر الآستانة مأسوفاً عليه من النخبة التي كانت تقدر مواهبه وعبقريته وشجاعته الأدبية النادرة المثال، وكانت وجهته مصر.

رجوعه إلى مصر للمرة الثانية:

فارق جمال الدين الآستانة في وجهته إلى مصر في أول محرم ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م. وكان قصده مجرد الاستجمام، وفي مصر اجتمع برئيس الدولة مصطفى رياض باشا فاستماله على الاقامة ورغّبه فيها، فأجرت عليه الحكومة المصرية مرتباً شهرياً، قدره ألف قرش مصري مجاناً، فلازم بيته التي صارت محطّ رحال طلبة العلم، ونخبة المفكرين المصريين، وكان يتردّد على الازهر أيام الجمعة، ولم يؤثر عنه أنّه انتصب يوماً ما في حلقة من حلقات الدروس، جرياً على عادة كثير من العلماء الواردين على مصر، بل كان يلقي دروسه في بيته، وذلك كلّه محافظة على عدم المسّ من كرامة مسيريه (الازهر) واتقاء جرح عواطف فقهاء البلاد المحافظين، ومع كل هذه التحفّظات ثار عليه فقهاء البلاد الذين صبّوا عليه جام غضبهم، واتهموه بما اتّهمه به شيخ الاسلام بالآستانة، أي الزندقة والالحاد، ولنترك الكلمة لتلميذه الذي عاش معه تلك الفترة، وهو الأستاذ محمد

عبده الذي خصّص له ترجمة قال فيها مشيراً إلى موقف علماء مصر منه مايلي: «هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوه سبيلاً للطعن فيه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها، على أنّ القائلين بهذا القول لم يطلقوه، بل قيّدوه بضعفاء العقول، فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ. أمّا الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أومخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلاّ بصيرة في دينهم، وقوة في يقينهم، ولنا في أئمة الملة الاسلامية ألف حجة، تقوم على ما نقول، ولكن تمكّن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل، وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يرقون مجلسه، فيسمعون مالا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه، ولا يشعرون، غير أنّ هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله، ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، إلى أن تولّى خديوية مصر محمد توفيق باشا. وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، إلاّ أنّ بعض المفسدين ومنهم مستر فيفيان قنصل انجلترا العام سعى فيه لدى الخديوي، ونقل المفسد عنه ما الله يعلم أنّه بريء منه حتى غير قلب الخديوي عليه، فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصري، ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ هـ / سبتمبر ١٨٧١م وأقام بحيدر اباد... الخ». اهـ .

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في دراسته الخاصة التي نشرتها دار الهلال تحت عنوان «الثائر الاسلامي جمال الدين الافغاني» رمضان ١٣٩٣ أكتوبر ١٩٧٣ عدد ٢٧٤.

وقبل أن نواصل حديثنا عن حياة جمال الدين نقف وقفه قصيرة لمزيد من البيان والتوضيح عن حياة جمال الدين في مصر، التي كانت منطلقاً لتعاليمه في البلاد الاسلامية بصفة عامة، وفي البلاد العربية بصفة خاصة، كما يظهر لنا من هذا البيان أنّ الدعوة إلى دراسة الكتب الفلسفية، وتحريض جمال الدين تلامذته على مزيد من الاهتمام بها، ليست هي التي أوغرت صدر الخديوي محمد توفيق، أو وشايات قنصل انكلترا العام، الذي تسبّب في إصدار الأمر بإخراجه من مصر التي فارقها للابد سنة ١٢٩٦ هـ /

١٨٧١ م، بل الذي أوغر صدورهم عليه، نشاطاته السياسية، ومن ذلك ما ذكره صاحب كتاب «علماء في وجه الطغيان» الذي قال في ترجمة جمال الدين وخروجه من مصر مبعداً.

قال: «لقد اتجه إلى مصر ليصل رسالته في البعث والإيقاظ، وقد زارها مرتين، فعرف وجوهها وأحوالها، واتصل بأزهرها الاسلامي، ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحقّ وبه يعدلون، ولم تكن الأحوال في مصر بأحسن منها في الهند، فقد استدان اسماعيل وبالغ في القرض والتبذير، حتى جرّ الاستعمار إلى وطنه، وقد ألف الناس الاستكانة والانصياع، فأخذ يتفح العيون على ما يجري في البلاد من أهوال، ويتصدر المجالس ليعلن آراءه في الحكّام، وبرامجه في الاصلاح، ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم إلى الكتابة في الصحف ليصوروا الفساد الداخلي، ويفضحوا الطغيان الخارجي، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام، وإقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقّظ، يحاسب على التبذير والرشوة، ويحدّ من الفردية الدكتاتورية في الحكم والسلطان، وقد عزل اسماعيل في هذه الظروف التي خلقتها مآسيه المتلاحقة وجاء ولده توفيق، وكان ذا صلة بجمال الدين، فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثيره، وأراد أن يلاطفه ليرجع عن مبادئه في الحرية والاستقلال وهما منه، أنّ الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء، وكان أن هيأ اجتماعاً عاجلاً في القصر الخديوي، بدأه توفيق فقال مداهناً، مراوغاً: إنّي أحبّ كل خير للمصريين، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح، ولكن مع الأسف، أنّ أكثر الشعب جاهل، لا يصلح أن يلقي عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة.

فاعتدل جمال الدين في مجلسه، ثم رفع رأسه ليقول في اعتداد: «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول له: «إنّ الشعب المصري كسائر الشعوب، لا يخلومن وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل. فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر اليكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص، وأسرعتم في إشراك الامة في حكم البلاد، عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب من الامة،

تسنّ القوانين، وتنفذها باسمكم وإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم، وأدوم لسلطانكم» وانتهى اللقاء،بعد أن لمس توفيق خيبة مسعاه، ثم علّق صاحب المقال على هذه المقابلة بقوله: «لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة أنّ أيامه في مصر محدودة، فانبعث يشعل اللهب، بخطبه وأفكاره، وكانت به حدة قاسية تلجئه إلى العنف الصريح دون مواربة، فانشأ محفلاً ماسونياً جديداً، بلغ أعضاؤه اكثر من ثلاثمائة عضو، من نخبة المفكّرين والناهضين المصريين، وكان في هذا المحفل مطلق الحرية، نظم شعباً للاعمال المختلفة، فشعبة للحقانية (أي العدالة) وأخرى للمالية، وثالثة للاشغال، ورابعة للجهادية (أي للجيش) وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها ومصلحتها، وتعرف ما يقع من الظلم، ووجوه الاصلاح فيها، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختصّ، وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح، فكان لذلك هزة (في الاندية والمجتمعات)[١].

ثم ختم دراسته بالظروف التي أعقبت نشاطات جمال الدين بمصر، فقال «وصاحب ثورة كهذه الثورة، لابد أن يحارب بعنف، فقد تعاون الاستعمار الخارجي، والطغيان الداخلي، على إبعاده، فغادر مصر، ولكن بعد أن أعدّ الموقد وأشعل الثقاب»[٢].

وهذه آراء معظم مترجمي جمال الدين عن مدة إقامته في مصر، تلك الاقامة التي قال عنها بعض مترجميه: «ما من قطر من أقطار الشرق أثّر فيه جمال الدين، مثل تأثيره في مصر، فهومن أوائل العاملين على تطور الروح الوطني في هذه البلاد»[٣].

ومن ذلك أنّ جلّ مترجميه اعترفوا أنّ الثورة العرابية المصرية من أثر دعوته، إذ كان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس، وتنبيههم إلى حقوقهم، فاتجه الناس إلى نقد تصرفات أصحاب السلطان، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم، وحقّه المطلق في التصرف في شؤون الرعية، والذي استدلّ عليه كثير من مؤرخي الثورة العرابية هي قوله: «وليس

---

١ ـ عن كتاب زعماء الاصلاح، نقلاً من محمد المخزومي باشا.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ـ «الامبراطورية المصرية في عهد اسماعيل» لمحمد صبري باشا.

هناك شك في أنّ لجمال الدين يداً في الحركة العرابية، ومن المحقق أنّ المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة من غرسه» وأيّد نظريته بما كتبه الامير شكيب أرسلان في الموضوع حين قال: «وإن كان هبّ على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية، ولفحة الدسائس الاجنبية، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق، أوحركة إصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار»[١].

كما كان لخطبه على قلّتها في التجمعات الجماهيرية تأثيرها في الثورة، سجّلت خطبة قالها في الاسكندرية قبل خلع الخديوي اسماعيل بمدة قليلة، قال فيها مخاطباً الجماهير: «أنت أيها الفلاح المسكين، تشقّ قلب الارض لتستنبت ما تسدّ به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشقّ قلب ظالمك؟ لماذا لا تشقّ قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك»[٢].

ولنواصل حديثنا عن مراحل حياة المترجم بعد مغادرته مصر، فإنّه قصد حيدر آباد بالهند، إلاّ أنه بمجرد اندلاع ثورة عرابي نقل من حيدر آباد إلى كلكوته التي الزم بالإقامة الإجبارية فيها، ثم أذن له في الذهاب إلى أوروبا، فغادر الهند ومرّ في طريقه إلى باريس على لندن، واختار الإقامة بباريس، لما كانت تتمتع به من سمعة اكتسبتها من ثورتها المشهورة، فأنشأ فيها جريدة «العروة الوثقى» التي أسند رياسة تحريرها لتلميذه ـ الذي لحق به فيها ـ وهوالشيخ محمد عبده، وقد تمكّن من إصدار ثمانية عشر عدداً منها، ثم تعرضت طريقه صعوبات، حيث منعت الجريدة من الدخول إلى الهند، وصودر كثير من أعدادها في بقية البلدان التي كانت تخضع للنفوذ البريطاني مباشرة أوبواسطته، فخاب أمله في بلاد الحرية وغادرها سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م.

اهتم كثير من المؤرخين بترجمة مراحل حياة جمال الدين الافغاني، وهذه التراجم وإن اختلفت في بعض تفاصيلها أو في بعض المؤثرات عليها، فكادت أن تتفق في مجموعها

١ـ حاضر العالم الاسلامي شكيب ارسلان ج٢ ص: ٢٨٩-٣٠٣.

٢ «حوليات مصر السياسة» أحمد شفيق باشا.

على صدق نية الرجل، وشجاعته المثالية، ونزاهته. وقبل أن نتعرض لنماذج من انطباعات مترجميه، نذكر انطباعات بعض المعاصرين منهم على طريقه اللفّ والنشر الغير المرتب، أي نبدأ بآخر مترجميه الذي قال في ختام ترجمته اياه: «مات جمال الدين في القسطنطينية في أواخر القرن التاسع عشر مصاباً بالسرطان في لسانه، ولهجت الالسن بعد ذلك إنّه ذهب ضحية خصومه كما هي العادة في الشرق، وهذه شائعة لا أثبتها ولا أنفيها.

ولكن ماذا كانت حياة جمال الدين الذي كان من عظماء العالم؟ إنّه كان كسقراط في حكمته وقدرته على تكوين الرجال، وكان كابن خلدون في علمه واتساع دائرة معارفه.

وكان كديموستين في فصاحته وخطبه، لقد عاش مضطهداً مطارداً، ولم يتمكن في واحدة من الممالك الاسلامية الشرقية التي عاش فيها وأحبّ خيرها، وخدم شعبها، من أن يعيش عيشة راضية، أو يتمتع بحياة هادية، ولم يؤسس أسرة، ولم يبن بيتا، ولم يدخر مالاً، ولم يتولّ منصباً، بل عاش عيشة المفاليك المشردين، يبيت ليلته ولا يدري أين يكون صباحهُ، ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي أيقظ الشرق من رقدته التي نامها سبعة قرون، منذ اجتاحه المغول من الشرق، والاوروبيون من الغرب، هوالرجل الذي أنهض الشرق بعد أن يئس كل من عداه من إيقاظه»[1].

وقال عنه الكاتب الفرنسي آرنست رنانErnest Renon [2] الفيلسوف الشهير قال: «كنت أتحدث اليه، فكان يخيّل إليّ من حرية فكره ونبالة طبعه، وإخلاص قلبه، أنّي أرى وجهاً لوجه أحد معارفي القدماء، وانّي أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أولئك الأحرار العظام، الذين مثلوا خلال خمسة قرون، تقاليد الفكر الانساني».

ولنرجع إلى مواصلة الحديث عن نماذج من انطباعات بعض المؤرخين الذين ركزنا

---

١ ـ نشرته جريدة «Les Debats» الباريسية في عددها المؤرخ في ١٩ ماي ١٨٨٣ نقله عنه د. عثمان أمين في تأليفه «رائد الفكر المصري محمد عبده» ص٣٠٥.

٢ ـ علماء في وجه الطغيان، لمحمد رجب البيومي.

دراستنا هذه على شهاداتهم وآرائهم إذ كانوا أدرى الناس بترجمته.

ومن هؤلاء الامير شكيب[١] أرسلان الذي قال عنه: «كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء، وأمير الخطباء البلغاء، وداهية من أعظم الدهاة...فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً، وكانت سيرته كبيرة، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قلّ أن يبلغ مثله سواه، وكان سائحاً جوالاً، طاف العالم الاسلامي قطراً قطراً، وجال غربي أوروبا بلداً، بلداً، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والامم علماً راسخاً، واكتنه أسراراً خفية... .

وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه داعياً مسلماً كبيراً، فكأنّه على وفور استعداده ومواهبه انّما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب، فانقادت له نفوسهم، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم، فليس هناك من قطر من الاقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين، إلاّ وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية، لا تخبو نارها، ولا يتبدّد أوارها، وكان يختلف على السنوسي منهاجاً، فجمال الدين انكبّ على السياسة وشؤونها، وذلك ـ أي السنوسي ـ على علوم الدين وترقيتها.

غير أنّ السيد جمال الدين الافغاني كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدها، وامتدت حياتها، ورسخت في تربة الشرق، وأدرك شؤم المستقبل، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى إذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها. فهبّ جمال يضحّي نفسه، ويفني حياته في سبيل إيقاظ العالم الاسلامي، وإنذاره بسوء العقبى، فلمّا اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره، وحسبت له الف حساب، فنفته بدعوى أنّه هائج، ولم تخف دولة جمالاً وتضطهده، مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية، فسجنته في الهند مدة، ثم أطلقت سراحه، فجاء إلى مصر حوالي سنة ١٨٨٠،

---

١ ـ نقل د. عثمان أمين في تأليفه «رائدالفكر المصري محمد عبده» ج١ ص٣٠٥.

وكان له يد في الثورة العرابية، التي أوقدت نارها في وجه الغربيين، فلمّا احتلّ الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالاً للحال فزايل مصر، وأنشأ يسيح في مختلف البلدان، حتى وصل إلى القسطنطينية، فتلقّاه عبدالحميد، بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة، وقرّبه منه، ورفع منزلته فسحر جمال السلطان الداهية، بتوقّد ذكائه ونفسه الكبيرة، فقلّده السلطان رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية، ويغلب أنّ ما ناله السلطان عبدالحميد من النجاح في سياسته، في سبيل الجامعة الاسلامية، إنّما كان على يد جمال الدين الافغاني المتوقد الهمة، المشتعل العزم، والتحق جمال الدين بالرفيق الاعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملاً كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه».

والنموذج الثاني من هذه النماذج ما قاله الكاتب الشهير محمد لطفي جمعة في تأليفه «حياة الشرق: دوله وشعوبه وماضيه وحاضره» قال تحت عنوان «الزعماء في الشرق»: «لقد ظهر في الشرق زعماء سياسيون كثيرون، بل في كل ناحية من ناحيات الشرق العربي، وفي مصر خاصة، ونحن نذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الافغاني وأحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول.. إلى أن قال: أمّا جمال الدين الافغاني فكان في الحقيقة مصلحاً عاماً للدين والسياسة والاجتماع، ولكن السياسة كانت الصبغة الغالبة على مبادئه، ولعلّه اتخذ الإصلاح الديني، والإصلاح الاجتماعي ونشر الفلسفة وسيلة للاصلاح السياسي في نظره، ينحصر في نقطتين:

الاولى، تحرير الشعوب من الحكم الاستبدادي، أي من ظلم الحكّام الشرقيين المطلقين، الذين كانوا لعهده في فارس والافغان وتركيا ومصر، وعندما ظهر لأول عهده، لم تكن أوروبا قد هجمت على الشرق هذا الهجوم الفظيع، بل كان الانجليز في الهند وحدها، والفرنسيون في الجزائر.

ونظر بعد ذلك في تخليص أمم الشرق الواقعة تحت حكم الاجنبي، وارتأى الخلاص الشعوب الاسلامية مما كانت واقعة فيه لعهده، تأليف الجامعة الاسلامية تحت رعاية الخليفة، ولم يكن لعهده رجل يصلح لتولّي هذا المنصب سوى السلطان عبدالحميد.

لقد لجأ الافغاني أولاً إلى الملوك أنفسهم، وحاول هدايتهم بالعلاقة الشخصية، وقد نجح فعلاً في إقناع شاه الفرس بضرورة إعطاء الدستور إلى شعبه، وتمكّن من قلب الشاه، وبذل له الإخلاص كله، وامتزج بالمصلحين من الشعب الفارسي، بعد أن استمالهم إليه بعقله وعلمه وفصاحته وشخصيته الجذابة. ولـمّا اضطهد وتآمروا ضده، سافر إلى بلاد الهند، وشعر الانجليز بقوته ونفوذه فنفوه، فذهب إلى الافغان، وكانت مملكته تتناهبها المظالم، وهي واقعة تحت السلطة الانجليزية، لأنّها خطر على أبواب الهند، فلم يكن الدور الذي لعبه فيها عظيماً، ولكنّه لقّحها، وترك فيها خميرة صالحة كما ترك خميرة في فارس، وكما ترك آثاره في الهند» اهـ.

وقبل أن أنهي هذه الدراسة، نرجع مرة ثانية إلى تتبع مراحل حياة جمال الدين بعد خيبة أمله في باريس كما تقدم، إلاّ أنّ مدة إقامته في باريس تركت أثراً محموداً، فعلاوة على الاعداد التي أصدرها من جريدة العروة الوثقى، والتي رددت صداها الأوساط الشرقية والغربية، فانّه اغتنم فرصة وجوده بها، ليردّ على بعض الكتاب الاوروبيين، الذين كانوا يتطاولون على الاسلام، وكان من بين هؤلاء آرنست رينان Ernest Renon الذي ذكرنا انطباعاته عن جمال الدين، وقد سبق لجمال الدين عندما كان بحيدر آباد، ووردت عليه استفتاءات من علماء الهند عن بعض الطوائف ظهرت فيها، فألّف رسالته المشهورة «برسالة الردّ على الدهريين»، غادر باريس تلبية لطلب شاه ايران، الذي عرض عليه أن يتخذه مستشاراً للملكة، وعندما عرض عليه الاصلاحات المستعجلة التي من بينها أحداث برلمان يختاره الشعب، ورأى الشاه أنّ علماء فارس، ونخبتها التفّوا حوله، سارع إلى التخلص منه ومن إصلاحاته، فنفاه ورمى به خارج حدود بلاده، فغادر جمال الدين فارس مكرهاً، ورجع مرة أخرى إلى الآستانة حيث لقي الحفاوة والتبجيل من الخليفة عبدالحميد، الذي أعدّ لسكناه قصراً ملكياً، وعرض عليه أرقى منصب ديني في الخلافة ـ مشيخة الاسلام ـ وقد اتفق مؤرخو تلك الفترة، أنّ الخليفة عبدالحميد كان يتفق تماماً مع جمال الدين في فكرة الجامعة الاسلامية، إلاّ أنّ

هناك موانع لم تكن في الحسبان قضت على آمال الرجلين معاً، في الجامعة الاسلامية، التي لقيت حتفها في مهدها، لأخبار تطول، وكيفما كانت أسباب الإطاحة بها، فإنّ المنتفع الأول كان الاستعمار الغربي الذي كانت تشخصه الامبراطورية الانكليزية، وقد ظهر تأليف أثناء الحرب العالمية الاولى، وبالضبط سنة ١٩١٧ م للكاتب الايطالي الشهير في الاوساط الديبلوماسية وهوالدكتور أنريكو انزباطو Enrico Insabato في تأليفه «الاسلام وسياسة الخلفاء» الذي عندما تعرّض فيه لسلطة الخلافة الاسلامية العثمانية، وخطرها، ختم بحثه بهذه الجمل «... من حسن الحظ لأوروبا أنّ «الشبان الاتراك» الذين أطاحوا بالخليفة عبدالحميد أوقفوا مسيرة «الوحدة الاسلامية» ـ الخطيرة على الغرب ـ التي كان يرعاها عبدالحميد، وأنّ تصرفهم هذا سواء كان ناشئاً عن جهل أوغباوة، حيث أرادوا استبدال «الوحدة الاسلامية» «بالوحدة التركية» فإنّهم أبعدوا عن الروح العربية، وقد تفطّنوا ـ بعد أن فات الاوان ـ إلى هفوتهم، وشعروا بأنّهم أخطأوا المرمى، وذلك عندما أعلن سلطانهم الجهاد أثناء انضمامهم في الحرب العالمية الاولى إلى ألمانيا القيصرية، ثم حاولوا الرجوع عن غلطاتهم، فسبقتهم الأحداث، إذ انكلترا التي كانت تتبع سير هذه الاحداث عن كثب، تبنت الحركة العربية وآزرتها (أي الوحدة العربية).

والخلاصة أنّ جمال الدين الافغاني كان من أفذاذ قادة الفكر وعظماء الرجال، ترك بصمات أصابعه في تاريخ البلاد الاسلامية غرباً وشرقاً، حاول الانكليز استمالته بالمال والتاج والسلطنة، فأشعرهم وهو بلباسه القومي البسيط، إذ كان محافظاً على زيّه الافغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء ...

فأشعرهم وهم الذين كانوا يتصورون فيه صورة من كانوا يعرفوهم من الأمراء والسلاطين عباد الفروج والبطون والقصور، بأنّهم غلطوا، وترك في سجلاّتهم كلمته التي قالها عنهم: «إنّ تخوّف حكومة بريطانيا من زائر أعزل مثلي يسجّل عليها وهن عزيمتها، وضعف شوكتها، وقلّة عدها، وعدم أمنها، وأنّها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار أضعف بكثير من شعوبها» اهـ .

ولا غرو أنّ ساهمنا في إحياء ذكراه لمرور ثمانين سنة على وفاته، بالمركز الثقافي الاسلامي، الذي صادف الاحتفالات بذكرى المولد النبوي الشريف، الذي امتاز في هذه السنة بمحفل رهيب في مدينة وهران تحت رئاسة الأخ الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم الذي فتح سلسلة محاضرات تحت عنوان (اهتمام الامم بايامها) وأمنيتنا أن نعود إلى الموضوع في فرصة أخرى.

«١٢»

جمال الدين الافغاني:
الإصلاح الديني والنضال السياسي

الأستاذ مهدي هاشم

- باريس-

جمال الدين الافغاني:

الإصلاح الديني والنضال السياسي

في آخر ليل السادس من رمضان ١٢٩٦ هـ ، الموافق ليوم الاحد، ٢٤ آب ١٨٧٩ م، كان جمال‌الدين الأفغاني برفقة تابعه «أبوتراب» يغذ السير باتجاه منزله في شارع (خان الخليلي)، إلى أن توقّفت سيارة ترجّل منها بضعة رجال ونقلوا الرجل المعمم مع صاحبه إلى المخفر، وهنالك أضى يوماً دون السماح له بالعودة إلى منزله، ثم نقل إلى ميناء السويس، حيث رمي في باخرة أقلّته إلى «بومباي» في الهند، فمكث فترة تحت الحراسة الانكليزية المشددة.

في مساء ذلك اليوم، كان الرجل ذو الملامح الصلبة والنظرة الحادة، قد ألقى خطاباً حماسياً امام أربعة آلاف مستمع، محرضاً الجمهور على التحرك من أجل الاستقلال والقضاء على الهيمنة الاجنبية، والاستبداد الداخلي. يلخص هذان الحدثان إلى حدّ بعيد مسار شكلين متعارضين من الفكر والممارسة، ويضعان قيد التساؤل والبحث طبيعة المواجهة بينهما، مسبقاتها ولواحقها، بلّ ومبرر وجودها.

وينبغي الاشارة هنا إلى أنّ نفي الافغاني تم في أعقاب ضغط سياسي انكليزي على الخديوي توفيق الذي كان قبل تولّيه السلطة من أنصار الافغاني، والإطار السياسي الذي أخذ بالتكون تحت اسم «الحزب الوطني الحر» والذي سعىٰ إلى عزل الخديوي اسماعيل عام ١٧٨٩ م في أعقاب الازمة المالية التي عصفت بمصر نتيجة الديون الاجنبية، وتحوّلت إلى أزمة سياسية تقاطعت داخلها خطوط متشابكة من صراع النفوذ بين القوى

الاوروبية من جهة والقوى العثمانية من جهة أخرى، إضافة الى نموالاتجـاه المحلـي ذي الشعارات القومية (مصر للمصريين) استطاع هذا الاتجاه الذي تمحور حول احمد عـرابي، أن يدمج مجموع التململات الاجتماعيـة (الفروقـات الاتنيـة، هيمنـة العنـصر التركـي والشركسي على الجيش على حساب أبناء الفلاحين المصريين، مركزة الجهاز الـسياسي والاداري وحصر القسم الكبير مـن الملكيـات الزراعيـة في أيـدي حاشـية الخـديوي وعائلته، إضافة إلى تزايد التغلغل الاجنبي في المجال الاقتصادي والمالي والاشغال العامة بصورة أساسية، حيث شكّلت الجالية الاوروبية نوعاً من دولة داخل الدولة، وأدخلـت في زبانتها وفي حقل اشـتغالاتها قـسماً مـن الأقليـات (المـسيحيون الـشوام، الأرمـن، اليونانيون) على حساب الأغلبية الساحقة من المصريين (مسلمون وأقبـاط علـى حـدّ سواء).

الاتجاه الذي قام بصياغته ـ بصورة أساسية ـ جمال الدين الافغاني سيصبح موضوع نزاع بين التيارات الفكرية والسياسية اللاحقة، وستصبح أفكار الأفغاني حلبة لسجال لم ينته حتى أيامنا هذه، سجال يتناول الهوية والوحـدة، وتثبيـت أشـكال المقاومـة ضـد الأجنبي، وبلورة مشروع إيجابي من قلب الثقافة الاسلامية يكون حاصل جهد مـزدوج باتجاه التاريخ الاسلامي نفسه، عبر قراءة نقدية للتقطّعات التي أصابته وباتجاه «شـروط الحياة الحديثة» هذه الشروط التي استعملت كغدر ايديولوجي من أجل ترسيخ المركزية الاوروبية ونهب المجتمعات «المتخلّفة».

ولكن من هو هذا الأفغاني الذي أفنى حياته متنقلاً بـين أفغانـستان وايـران والهنـد ومصر وروسيا وباريس واسطنبول، وحيثما حلّ أحدث ضجة وتململاً، هذا الرجل الحالم بالجامعة الاسلامية ويقظة الشرق، الذي إذا سئل عن موضع معرفته وعن مكتبته أشـار إلى صدره، إلى موضع القلب.

التجربة الافغانية: دروس في المواجهة

قبل أن ننتقل إلى معالجة الملامح الفكرية للأفغاني، ينبغي الاشارة إلى الرصيد العملي والخبرة السياسية التي حظي بها الافغاني، عبر انخراطه المبكر في الصراع الذي كان دائراً

في أفغانستان بين الأمراء والأقارب (محمد أعظم خان، دوست علي خان، وشيرعلي خان) حيث كان الأفغاني رئيس وزراء حكومة محمد أعظم، هذه الصراعات التي أثخنت الافغان بحروب أهلية متتالية آلت إلى سيطرة شيرعلي خان على كابول سنة ١٨٦٨م، وقد لعب الانكليز دوراً كبيراً في إدارة النزاع وفي حسمه لصالح الأمر الذي سيعمل تبعاً لمصالحهم. حينها اضطر الأفغاني إلى مغادرة البلاد إلى الهند ومنها إلى السويس، فالى الآستانة قبل أن يستقر في مصر من ١٨٧١ م إلى ١٨٧٩ م. وكانت هذه الفترة من أخصب مراحل نشاطه السياسي. التجربة الأفغانية أعطت الأفغاني حساً سياسياً صلباً في ضرورة مقاومة الأجنبي. الانكليز بصورة خاصة، أي أولئك الذين يسعون إلى إحكام سيطرتهم على الهند وعلى مصر من أجل السيطرة على طريق الاولى، ونتائج هذه السيطرة ستكون شبيهة بمستهلاتها، أي نشوء كيانات سياسية مصطنعة تعمّق الانقسامات، وتهمّش شعوبها.

الاسلام كايديولوجية سياسية وحدوية

الجانب النظري في جهد الأفغاني يكمن في سعيه لتحديد مفاهيم سياسية استناداً إلى القرآن والسنّة والتاريخ الاسلامي، بمعنى آخر أراد الأفغاني إعادة صياغة للاطار السياسي للأمة الاسلامية بشكل يضمن لها الاستقلال والوحدة، آخذا بعين الاعتبار طبيعة المواجهة الجديدة التي فرضتها أوروبا الرأسمالية على الشعوب الأخرى، نتيجة الاختراقات العملية وعقلنتها للتجزئة، والتي بدأت تحوّل السلطنة إلى هيكل سياسي فارغ، فيما يستولي المركز شيئاً فشيئاً على القدرات الحياتية للداخل، ويجذبها إلى سياسة حتمية إلى منطق نزاعاته، والى تثبيت التبعية. وبالطبع فإنّ الافغاني أخذ بعين الاعتبار مجموع العقبات الداخلية للنموذج الاسلامي، والتي حالت دون الوصول إلى مواجهة شاملة: عجز الادارة العثمانية عن إعادة تنشيط الدينامية الاجتماعية، وبالتالي تاركة للأجنبي نقاطاً واسعة للولوج عبر الخلافات الأتنية والقبلية والمذهبية، من جهة ثانية عدم قدرة الجهاز الديني على استقطاب التململات وصياغتها في مشروع حضاري يكون رداً بمستوى الاختراق، ذلك أنّ العملاء، بصورة عامة، اتّبعوا سياسة «إنقاذ ما

يمكن» واستكملوا نزاعاتهم السابقة وحبس أنفسهم في النصوص، واضعين المجتمع أمام مسؤولية أخلاقية تجاه هويتهم، فيما كان الأجنبي يحفر في البنى المحلية حيثما استطاع، وينقل تدريجياً إدارة الحياة، أي الاقتصاد والثقافة والتعليم إلى الدوائر التابعة إليه مباشرة أوغير المباشرة. هذا فيما كانت القوى الشعبية تستلهم من تاريخها العملي إمكانيات انتقاض لا تحدّ، وتكثّف مواجهتها على أرضية المعاش، عبر «الأخويات» والتعاونيات الحرفية، وحلقات الصوفية: المهدية والسنوسية على سبيل المثال.

وبالطبع ينبغي الأخذ بعين الاعتبار المقاومة النسبية التي وجّهتها النخب الحديثة التي نمت في كنف التغلغل الرأسمالي وإن كانت هذه المقاومة تتم غالباً على أرضية الغالب، وتستلهم شعاراته ومثله. وهي هذه المقاومة بالذات التي لعب الافغاني دوراً بارزاً في صياغة برنامجها ونشاطها. ولكنّه كان يميل إلى التضامن مع أشكال الانتفاض كافة، بغضّ النظر عن المثال الذي تتوخّاه هذه الحركة أوتلك، داعياً بصورة ثابتة الادارة العثمانية إلى أداء مسؤوليتها التاريخية تجاه الأمة وحفظ وحدتها.

شرق غرب أم غالب ومغلوب

أعاد الافغاني صياغة المواجهة بين المركز الرأسمالي والمجتمعات الأخرى، متلمّساً التعابير الأكثر دقّة في تعيين طبيعة وعناصر هذه المواجهة. فالاستشراق استكمل المجابهة بين الاسلام والمسيحية الغربية على قاعدة معطيات الثورة الصناعية وحاجيات التوسّع، وانتج بصورة ميكانيكية سلسلة من الثنائيات (شرق/ غرب، اسلام/ مسيحية، حاضر/ ماضي... الخ)، استخدمها بشكل ذرائعي من أجل تسمية وأخضاع الشعوب الأخرى، ففي أدبيات التاسع عشر تراكب الشعور الديني وتصالح مع العقلاني والعلمانية التي ترى في علاقات القوة مؤشراً وحيداً لتصنيف وتقديم الآخرين، اللورد كرومر أحد كبار ممثلي الاستشراق العلمي، والذي حكم مصر ما يناهز ربع قرن، كان يرى أنّ تخلّف المسلمين يعود إلى ديانتهم المتزمتة، أمّا تخلّف الاقباط فيعود إلى شرقيتهم، وحين نشير إلى الاستخدام الميكيافيلي فليس ذلك من قبيل الانشاء، بل لأنّ الخطاب الاستشراقي هو بالدرجة الأولى خطاب حرب، أي خطاب يعمل على إيجاد نقاط ولوج استراتيجية،

عبرها يستطيع القيام بنفي الآخر مرة بالقوة، ومرة بالاقناع.

كان الافغاني مدركاً ـ إلى حدّ بعيد ـ هذه التعمية الايديولوجية: «مختصر المسألة الشرقية، هي: العراك بين الغربي والشرقي، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين: فالغربي تذرّع بالنصرانية، والشرقي بالاسلامية، وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محرّكيها. فالقائمون بالنصرانية يسخّرون الدين لأجل الدنيا، ويحسنون أمر دنياهم وما تتطلّب مظاهر الحياة، والعاملون بالاسلامية، يسخّرون الدنيا لأجل الدين، وإذ هم لا يعملون بأحكامه، يخسرون الدين والدنيا معاً». ويضيف الافغاني: «إذ كان للضغينة الدينية شيء من الدخل في إيجاد المسألة الشرقية والاحتفاظ بها، فإنّها ليست هي أسباب كل المسألة، بدليل أنّ سلاطين آل عثمان فتحوا، وتوغّلوا، وضمّوا الممالك، وكانوا يدينون بالاسلام، ومن دخل في ملكهم وتحت سيطرتهم كانوا نصارى، وأشد تمسّكاً بالنصرانية مما هم الآن (...) رضوخ الطوائف، والامارات النصرانية للحكم العثماني الاسلامي، أكبر دليل على أنّ مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في المسألة الشرقية ..».

ويرى الأفغاني أنّ الدول الاوروبية ساعية في قضم الحكم العثماني عبر مساهمتها في استقلال البلقان، وستكون الحجة: عنصر الاسلاوي، والصقلبي، وكانت الحجة من قبل: تخليص النصرانية من الحكم الاسلامي، والصحيح: قوي يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف».

وتعليقاً على حوار أجراه الشيخ محمد عبده في لندن مع وزير الدفاع الانكليزي «هرتنكتون» يكتب الأفغاني في «العروة الوثقى»: أنّ الانكليز «يعتقدون أنّ الأمم الشرقية، والأمة المصرية، في درجة الحيوانات السائمة والدواب الراعية، لا تتألم إلاّ من الجوع وفواعل الطبيعة المادية، وليس لها من الإحساس إلاّ نوع من الانفعالات البدنية، ولا تعرف من شؤونها إلاّ ما به تقوم حياتها الحيوانية».

غير أنّ نقمة الافغاني على الانكليز لا تصل إلى التزمّت العنصري، ولا تدّعي تعريفاً علمياً للأمة الانكليزية، بل كشف لمنطق المركزية الاتنية: «الأنكليز، كأمة، ليس من

ينكر أنّها من ارقى الأمم، تعرف معاني العدل، وتعمل بها، ولكن في بلادها، ومع الانكليز. تعلم أنّ للانسان حقاً في الحياة، وهذا الانسان في عرفهم هو الانكليزي وغيره من البشر ليس بانسان!! شعار كل انكليزي، وشعار دولة الانكليز: «أنّه ليس في الوجود إلاّ الإله وحقّ الانكليزي». فما زال الطمع الهائل مشبع به رأس كلّ انكليزي، ويرى كل بقعة غنية، كالهند أحقّ بها الانكليزي من أهلها، وكل قطر خصب، كالقطر المصري، الانكليزي أولى به من أهله ومن أرباب الحقّ فيه، متى كان الأمر كذلك، وهوالواقع، فلايمكن أن يصدر عن أعمال الانكليز الاكل ظلم، ولا يمكن أن تكون وسائلهم غير المكر والختل والخديعة..».

ويصل الافغاني إلى اعتبار أنّ الاستعمار هو الوجه الرئيسي للمواجهة بين الشرق والغرب: «إنّ الاستعمار بمعناه الصحيح ومبناه الصريح، هو تسلّط دول وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء» وعامل الغلب والقهر بالنسبة للافغاني هو«القوة والعمل يحكمان ويتحكّمان بالضعف والجهل». ويرى بثاقب نظر أنّ «انقضاء أجل الاستعمار انّما يتم بزوال الأسباب التي مكنت أهله من التسلط، وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم».

الاقتصاد السياسي للاستعمار

يتوخّى الافغاني على صفحات «العروة الوثقى» إبراز اكثر دقة لآلية التبعية، حيث كانت سياسة التجزئة تحوّل المركز الرأسمالي إلى نقطة توسط، إلى محور ينظم الدورة الاقتصادية، فمدّ سكة الحديد من «سواكن» إلى «بربر» بحجة تخليص «غوردون» من حصار المهدي له إنّما يهدف إلى الاستيلاء على السودان الشرقي، وإقامة الصلة مع السودان الغربي، هذه السكة عبر تأمين المواصلات بين البلاد السودانية، سوف «تفتح للتجارة الانكليزية باباً وتغلق بصفته باب المنفعة عن مصر، فتأتي بضائع البز (ثياب الكتان أوالقطن» ونحوها مما يحتاج إليه السودانيون من انكلترا إلى «سواكن» ومن «سواكن» تذهب إلى السودان، بدون أن تصل إلى أيدي المصريين، وتنقل الأصناف التجارية السودانية من داخل السودان إلى «بربر»، ثم تحمل إلى «سواكن» وتصدّر إلى

أوروبا، ولا يراها مصري، فاذا تولّى الانكليز مصر (....) حرموا الوطنيين من الانتفاع معهم في تجارة السودان، وهي من أغزر ينابيع ثروتهم التجارية، واذا التجأتهم الحوادث للجلاء عنها فقد اختصوا بمادة المنفعة التي ممكن أن تأتي من أقطار السودان، وبذلك تتقوّض الكثير من بيوت التجارة في الأقطار المصرية، ويعدم بخرابها آلاف مؤلّفة من النفوس، فليس حقيقة الغرض من مدّ سكة الحديد من «سواكن» إلى «بربر» إلاّ التوصّل إلى ينبوع متدفّق من ينابيع الثروة المصرية، وتحويل مجراه عن مصر إلى جزائر بريطانيا». ونظرة الافغاني للنموذج الغربي بقيت ملونة بانسانية ملازمة بصورة عامة للتعمّق الاسلامي، فالقاعدة الداروينية التي احتذاها الغرب، أي تنازع البقاء، يرى الأفغاني أنّه كان من الأصح التعبير عنها «بتنازع الفناء». وأنّ التقدم العلمي الذي يدّعيه الغرب الرأسمالي كان تلقيحاً للبشرية بكوارث وحروب لا نهاية لها، ولا أحد يضمن نتائجها المدمّرة على كل حال.

اعتبر الأفغاني أنّ ظروف المواجهة اقتضت خلق أشكال اكثر فعالية، فحين يتعامل الأمراء «المسلمون» مع الاقاليم الواقعة في حوزتهم شكلياً على أنّها إطارات متمايزة، يستخرج الافغاني حديثاً شريفاً ضد هذه القسمات الخلدونية للمجتمع: «ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية».

والتمايز والاحترام انّما يحصل بالتقوى: «إنّ اكرمكم عندالله أتقاكم». وأيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً». وأحد الشعارات الثابتة التي دفعها الافغاني ضد عملية التجزّؤ، كان: «إنّما المؤمنون إخوة» التي تتكرر في أكثر من موضوع ومناسبة.

جمال الدين الافغاني

إلحاق الأطراف بالمركز

لقد استطاعت أوروبا الرأسمالية إيجاد محطات تنظم وتتوسط العلاقات السياسية والمجموعات الاجتماعية الموجودة في إطار السلطنة العثمانية. وهذا التوسط سوف يسهّل عبر عمليات التبشير والاقتطاع الاجتماعي لفئات تتزايد يوماً بعد يوم عملية ربطها

بالنموذج الغربي، أي بتقنياته وقيمه. ولكن الرأسمالية عملت على تدميرالمجتمعات الاخرى مرتين: مرة في العض على محاور ديناميتها الأساسية وإزاحة الدورة الاقتصادية ـ الاجتماعية عن مراكزها، ومرة أخرى في عدم رسملتها جدياً، لأنّ ذلك يفترض خلق منافس يحظى بحيز من الاستقلال والتجانس فيما كانت الغاية هي جعل هذه الأراضي مصدراً للمواد الاولية وللزراعات الأحادية، أي حقلاً مفتوحاً للنهب.

ضمن هذا المنظور يكتب الأفغاني: «إنّ الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته إصلاح سير، ولا إصلاح سيرة المبذر، لترجع إليه حقوقه، بل من أقصى أمانيه أن يتمادى الشرقي في غيه وإسرافه، لكي يطول عهد العجز، ومع تمادي الزمن، أن يتم بعد الاستعمار، التملّك والاستعباد». وسوف يستخدم الغرب كل الحجج لتدخّله من حماية الأقليات والاجانب إلى تدريب الشعوب المحلية على ادارة حياتها السياسية، ويبتكرون أمراء متنازعين يتوحّدون في إداء الطاعة للمستعمر فيما يبقى فعل الغربي هو: «برنامج يحمله من بلاده في محفظته، ثم ينقله إلى ذاكرته وحافظته، مسطور فيه: «شعب خامل جاهل متعصّب، أراضي خصبة، معادن كثيرة، مشاريع كبيرة، هواء معدل، نحن أولى بالتمتّع بكل هذا».

الوحدة الاسلامية:

إذا كان الأفغاني من الأوائل الذين أدركوا تلازم الانفصام مع منطق وسلوك التوسّع الرأسمالي الأوروبي، فأن جهده الرئيسي سوف ينصبّ على صياغة إجابة تأخذ بعين الاعتبار العمق التاريخي للأمة الاسلامية. وتبتكر من هذا العمق بالذات عناصر أكثر قوة وصلابة، ولن يتوانى الأفغاني عن إبداء تضامنه مع كافة أنماط الأجوبة التي أعلنتها فئات اجتماعية مختلفة بالرؤية والأساليب ضد الاجنبي، فهو من ممهّدي الثورة العرابية ذات النزوع المحلّي، ويتضامن مع ثورة المهدي ذات الطابع الرسالي. ولكنّه أراد، بصورة ثابتة، وصل هذه المقاومات المتعددة بالواحد الاسلامي، من هنا إصراره على الخلافة العثمانية. وقضائه الفترة الأخيرة من حياته بجانب السلطان عبدالحميد في الآستانة، دعياً إلى الجامعة الاسلامية.

الجديد عندالافغاني هوتعبيره عن هذه العملية التي تربط الواحد بالمتعدد، في الوقت الذي كانت فيه الارادة الكولونيالية تعمل على تحويل المتعدد، أي الميل الاقليمي، إلى آحاد مرتبط بالمركز. واعتبر الافغاني أنّ ظروف المواجهة اقتضت خلق أشكال أكثر فعالية، فحين يتعامل الأمراء «المسلمون» مع الاقاليم الواقعة في حوزتهم شكلياً على أنّها إطارات متمايزة، يستخرج الافغاني حديثاً شريفاً ضد هذه القسمات الخلدونية للمجتمع: «ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية». والتمايز والاحترام إنّما يحصل بالتقوى: «أنّ أكرمكم عندالله أتقاكم». وأيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». واحد الشعارات الثابتة التي دفعها الأفغاني ضد عقلية التجزّؤ، كان: «إنّما المؤمنون إخوة» التي تتكرر في اكثر من موضوع ومناسبة. ويقوم الافغاني بمقاربة أولية لتباين عناصر الضعف في الأمة التي انهكت بين ميلين متناقضين، ميل إلى تجزئة المجتمع إلى أقاليم وعشائر من أجل استيلاء أحد العصبيات على السلطة، حيث يبدوالعامل «السياسي» حافزاً للتفرقة.

هذا الميل يتعارض مع ميل ثان عميق أيضاً في الوعي الاسلامي، وهو الإيمان التوحيدي: «أمّا وعزّة الحقّ وسرّ العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد، مع رعايةالعلماء العاملين معهم لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن واأسفاه، تخلّلهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أوملك ولوعلى قرية لا أمر فيها ولانهي، هؤلاء الذين حوّلوا وجه المسلمين عمّا ولاّهم الله» عامل الوحدة الأساسي سيكون بالنسبة للافغاني هوالشعور الديني القادر على تأطير الفوارق الاتنية واللغوية والجغرافية: «إنّ من أدرنه إلى بيشاور (مدينة في باكستان) دولاً اسلامية متصلة الاراضي، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً، (...)، أليس لهم أن يتفقوا على الذبّ والإقدام كما اتفقوا عليه جميع الأمم؟ (...)، فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذا السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب؟!. لا التمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإنّ هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي

ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فانّ حياته بحياته وبقاءه ببقائه، وقد أدرك الافغاني أنّ النصاب القادر على تحقيق الاطار القومي للاسلام هو، هو الجهاز الديني، ولم يستبعد الافغاني، خلافاً لتلميذه محمد عبده، تحرك العلماء بهذا الاتجاه، ما دامت عناصر هذه الامكانية موجودة ومتحفّزة: «أنّ الميل للوحدة والتطلّع للسيادة، وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام، كلّ هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة،(...)، وأرى أنّ العلماء لو وجّهوا فكرهم لايصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لأمكنهم أنّ يجمعوا بين اهوائهم في أقرب وقت، ولس بعسير عليهم ذلك.

من الواضح ان جهد الافغاني يتركّز على تسييس عناصر الديانة الاسلامية، ليس فقط في مجال المعاملات، أي العلاقة بين الافراد والجماعات، بل أيضاً في مجال العبادات ولكن على أي أسس يمكن بناء هذه الوحدة الاسلامية؟

العصبية عائق أمام الوحدة

هنا يضع الأفغاني عامل التعصّب للجنس بتعارض مع التعصّب للدين: «لا تكون الدول ولا يخلص لها السلطان إلاّ بقوتين: قوة الجنس، التي تدعو للاتحاد لمغالبة من سواهم، ويكون فيه النعرة والعصبية والانتصار لجنسه. وقوة الدين الذي يقوم أمام الجنسية في جمع الكلمة وتوحيد الوجهة، وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها». ويعتبر الافغاني «أنّ التعصّب للجنس ليس أمراً طبيعياً»، بل هومن «الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات»، وهذا ما يفسّر إعراض المسلمين، على اختلاف أفكارهم «عن اعتبار الجنسيات، ورفضهم لأيّ نوع من العصبيات ما عدا عصبيتهم الاسلامية، فإنّ المتديّن بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهوعن جنسه وشعبه، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة، وهي علاقة المعتقد». كما أنّ الأساس الحقوقي للمجتمع الاسلامي، يعتبر تطبيق الشريعة، هو قياس استواء المجتمع، وليس علاقات السلطة التي ترتكز على قرابة الدم لأن «وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية، التي لا تميّز بين جنس وجنس، واجتماع آراء الامة، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلاّ بكونه أحرصهم على الحفاظ على الشريعة والدفاع عنها.

وكل فخار تكسبه الأنساب، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثر في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأعراض، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقّة فهي ممقوتة على لسان الشارع، والمعتمد عليه مذموم، والمتعصّب لها ملوم». ضمن هذا المنظور، على الارجح، اعتبر لويس ماسينون Louis Massignon أنّ الاسلام علماني ومساواتي، والاتجاه الذي قاد هذا التأويل، بصورة متقطعة لكن عميقة، كان التصوف، الذي يعتبر استدخال الايمان ومصداقيته شرطاً محدداً لبناء المجتمع، وحيث العلاقة بين الانسان والله، تعني مباشرة سوسيولوجية الجماعة. وعبر التصوف بالذات انتقل الافغاني إلى الفلسفة، محاولاً إرساء المقاربة الصوفية على أسس عقلانية قادرة على حفظ الهوية والأمة الاسلاميتين، والتصدي لأشكال الاختراق الأوروبي. بالنسبة للأفغاني ينبغي إعادة بناء الامة على أساس إيلاء اللحمة الدينية محلّ القوة الجنسية، وعناصر هذه العملية موجودة وإن كانت مرهقة بفعل الانقسامات والنزاعات.

وبالطبع فقد كان الغرب يمارس عملية «ابتزاز» ثقافية على المجتمعات المتمسكة بهويتها وخصوصيتها، فإمّا أن تقبل هذه المجتمعات بسيطرة الرأسمالية، أي بتدمير نفسها، وإلاّ فإنّها متعصبة fanatipues المتفرنجون اقتبسوا نفس معايير السلوك الانفصامي لاوروبا ووجّهوها ضد مجتمعاتهم، ويسمي الافغاني هذه الفئة «بالمتسربلين بسرابيل الافرنج، الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط، والخلط لا يميزون بين حقّ وباطل».

يصل الافغاني إلى اعتبار أنّ الاستعمار هوالوجه الرئيسي للمواجهة بين الشرق والغرب: «أنّ الاستعمار بمعناه الصحيح ومبناه الصريح، هو تسلّط دول وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء» وعامل الغلب والقهر بالنسبة للافغاني هو: «القوة والعلم يحكمان ويتحكّمان بالضعف والجهل». ويرى بثاقب نظر أنّ: «انقضاء أجل الاستعمار إنّما يتم بزوال الأسباب التي مكّنت أهله من التسلّط، وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم».

والذين إذا أرادوا الحطّ من شأن شخصي، نعتوه بالتعصّب، فيما يعتبر الافغاني أنّ التعصّب أمر طبيعي، فهو«روح كلي مهبطة هيئة الامة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد

حواسه ومشاعره، فإذا ألمّ بأحد المشاعر ما لا يلائمه من أجنبي عنه انفصل الروح الكلي، وجاشت طبيعته لدفعه، فهو لهذا مثار الحمية العامة، ومسعر النعرة الجنسية، (...)، وأنّ استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حساب درجة التعصّب فيها، والتلاحم بين أفرادها»، ولكن للتعصّب «حدّ اعتدال وطرفا إفراط وتفريط» والإفراط يؤدي إلى إبادة المخالفين، لكن ذلك لم يحصل في التاريخ الاسلامي، حصلت إفراطات لدى بعض الطوائف الاسلامية، ولكن لم تصل إلى حدّ إلغاء المخالفين في الدين، كما حدث مع الحروب الصليبية، واضطهاد المسيحيين لليهود، وكما جرى مع مسلمي الاندلس.

أسباب التقهقر الاسلامي

إنّ إعادة توحيد الامة المفكّكة عبر وضع الديني السماوي tra nscendental كقاعدة مركزية للاجتماع، يفترض مواجهة نقدية للعوامل التي آلت إلى تفتت الدولة الاسلامية وتشظيها، وهنا يقدّم الافغاني عناصر تاريخية سريعة، تصلح كمدخل للسجال الحالي حول السلطة والمجتمع في الاسلام. فإنّ انحطاط الدولة الاسلامية سببه «ترك حكمة الدين وعدم العمل بها، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة، والكلمة المتفرقة، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس، وقوته. نعم لـمّا فشي الجهل في الخلفاء، وبعدوا عن العلم بتحقيقه الدين وحكمته، وهن وضعف أساس الملك، وتزلزل أقوى دعامة له، فرجعت القواد والرؤساء إلى توزيع قوى الجنسية، مفترق عصبيات القبائل، (...)، وقد زاد في ضعف الخلفاء بلية الإكثار من الأغراب، وجعلهم قوة استعاضوا بها عن قوة عصبيتهم وجنسهم» وارتقاء هؤلاء إلى المراتب العليا في الدولة هو مؤشّر الانهيار بالنسبة للأفغاني.

ولكي يبرهن فرضيته يقارن السيد بين انكلترا والدولة العثمانية متسائلاً: «هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية انكلترا هندياً أومصرياً؟ أوهل يخطر ببال انكليزي؟ كلا، ثم كلا... وبينما نرى أنّ عدداً من المناصب المهمة في الدولة العثمانية بيد أرمني، أو رومي» الملاحظة التي يبديها الأفغاني، تبدو لنا في غاية الاهمية، رغم أنّ السيد يعالجها

بصورة سريعة، أهميتها تكمن في إشارتها إلى أحد اسس السلطة كما تقيمها دعوة ذات بعد كوني، وتشير الملاحظة إلى شكلين مختلفين، وعلى الأغلب متعارضين، أتبعهما كل من النموذجين: الاسلامي والغرب في تحديد لعلاقته مع الآخر، أي مع خارجه، حيث يتبنى الأول (الاسلامي) عملية الدمج، ولكنّه لا يولي لاقليم أو لعرق أو اتنية ما، أفضلية على غيرها، ويقدّم الأفغاني عناصر أكثر دقة على المستوى التاريخي، لمشكلة تقهقر الدولة الاسلامية، فعدا تسلّق «العنصر الخارجي» إلى مراتب الدولة، يرى الأفغاني أنّ الانحلال والضعف في رابط الملّة الاسلامية، بدأ عند «انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقّه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه، كما كان الراشدون رضي الله عنهم. كثرت بذلك المذاهب وتشعّب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة، إلى حدّ لم يسبق له مثيل في دين من الأديان، ثم انثملت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام: خلافة عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الاندلس، تفرّقت بهذا كلمة الأمة وانشقّت عصاها، وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة، ولايرعبون جانب الخلافة». ويضيف الأفغاني إلى هذا الانتقال في مفهوم السلطة من الخلافة إلى الملك (وهوما يسمّيه ابن خلدون بالانتقال من الأحكام الخلافية إلى الاحكام السلطانية) دورالمغول في تسريع الانشقاقات المذهبية.

مسؤولية العلماء

العنصر الثاني في انحلال الدولة الاسلامية تقع مسؤوليته على العلماء، أي رجال الدين القادرون على إعادة اللحمة (وهي فكرة عزيزة على المستشرق الانجليزي جيب)، ويبدو أنّ العلماء، كما يلاحظ الافغاني بحقّ لم يعوا أهميتهم لدى الجمهور الذي يرى فيهم قطب الوحدة والاستمرارية في التاريخ الاسلامي: «لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلاّ العقيدة الدينية مجردة عمّا يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجربعضهم بعضاً هجراً غير جميل فالعلماء، وهم القائمين على حفظ العقائد وهداية

الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي(...)، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، (...). كما كانت هذه الفجوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين».

ومن خلال إشارته إلى تلكؤ العلماء في المبادرة، يشير الافغاني إلى الامكانيات النظرية والعلمية التي يمكن للعلماء الانطلاق منها: «كان من الواجب على العلماء، قياماً بحقّ الوراثة التي أشرفوا بها على لسان الشارع، أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم، حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة اذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعّاظ في جميع أنحاء الأرض، بعضهم ببعض، ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم، ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، (...). إلاّ أنّا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجّه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة، وهي أقرب الوسائل...».

الاسلام السياسي: لغة جديدة

بصورة مناسبة لمثاله السياسي، يسعى الافغاني إلى تأسيس تعبير جديد في إطار المجابهة، هذا التعبير لايخلومن التشوش ولكنّه لا يتوانى عن إبداء حساسية سيميائية لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت، فعدا حثّه الاتّباع على التعبير الكتابي والانخراط في العمل الصحافي، فإنّ الإعداد الثماني عشر من مجلة «العروة الوثقى»، التي صدرت في باريس والتي منعت من الدخول إلى غالبية الاقطار الاسلامية، احتوت على لغة سياسية ينبغي رؤية تأثيرها في الوعي الاسلامي لدى مجموعات أو أفراد، من بين هؤلاء الشيخ رشيد رضا الذي يذكر خلال كتابته سيرته الذاتية (كتاب تاريخ الاستاذ محمد عبده) الأثر الحاسم الذي تركته «العروة الوثقى» في تكوين وعيه، والذي آل به إلى الذهاب إلى مصر حيث ارتبط بصلة حميمة مع الشيخ عبده وأصدر مجلة «المنار» متوخياً لها

استكمال المنهج الذي بدأته «العروة الوثقى». فالمجلة تعكس توجهاً مبرمجاً لنضالية سياسية عمل الافغاني على إنتاج خطوطها الفكرية والعملية، شعاراتها أشكالها التنظيمية وأهدافها، فحين يعمق التغلغل الاجنبي تضع المجلة عدداً من الاولويات شبيهة بالتمييز بين التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية، فالافغاني يعتبر «أنّ الاشتغال بداخل البيت إنّما يكون بعد الأمن من طروق الناهب». وحين ينموالاتجاه نحوالحكم النيابي، الجمهوري، أوالدستوري، والذي يحلو له أن يجعل من الموضوع مسألة ذهنية تتعلّق بإمكانية توافق الاسلام مع هذا النوع من أشكال الحكم، يعيد الافغاني المسألة إلى نصابها، إلى الدلالة السياسية والاجتماعية لنشوء هذه المؤسسات والاطار الذي ستعمل ضمنه، ويرى الافغاني أنّ هذه الأشكال مهما حاولت النخب من جهة لإعطائها أساس حقوقي صريح، فإنّها لن تكون سوى هياكل فارغة من أي مضمون، مادامت ظروف نشأتها هي الشروط التاريخية للتبعية والتماهي. ففي حال «تشكل المجالس النيابية الأوروبية، بمعنى أنّ أقّل ما سيوجد فيه من الأحزاب (حزب للشمال وحزب لليمين). ولسوف ترون اذا تشكّل مجلسكم، أنّ حزب الشمال لا أثر له في المجلس، لأنّ أقلّ مبادئه أن يكون معارضاً للحكومة (...). ومتى رأيتم مجلس المجلس النيابي الموهوم تشكّل، ورأيتم كل عضو يفرّ من أن يكون في حزب الشمال (...) فراره من الاسد إلى حزب اليمين، إذ ذاك تقولون: صدق جمال الدين». لأنّ «المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة، فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثة له خارجة عن محيط الامة، والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجلسها، يعارضها، منافع متضادة، وهدفان مختلفان فمثل هذا المجلس لا قيمة له، وكما أنّه لا يعيش طويلاً، كذلك لا يغني عن الأمة فتيلاً».

ويتخيّل الافغاني بسهولة طبيعة النائب المقبل الذي سيكون (ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكّام الذين هم أسقط منه همة (...)، ذلك الرجل الذي يرى في إرادة القوة الجائرة كل خير وحكمة، ويرى في الدفاع عن وطنه، ومناقشة للحساب قلّة أدب وسوء تدبير (...) بالتالي، يرى أنّ كل صفات العزة النفسية، والمقومات الأهلية القومية، مآلها الويل والثورة وكل ما يدعو الى

الذلّ، واحتقار القومية، وسحق ما تنمو به حرية الأمة، هو من مجالي حكمته العصرية».

أمّا بالنسبة للفئات الاجتماعية التي تتوجه اليها «العروة الوثقى» وأفكار الافغاني بصورة عامة، فهي تأخذ بعين الاعتبار التنوع الديني والاتني للامة، وتحاول إيجاد قاعدة مشتركة لانخراط المجموع في وجه أيديولوجية وسياسية واحدة. لقد كان الملاحظ وأحياناً مما يثيرالشبهة (بالنسبة لبعض المؤرخين) أن نجد بين أتباع الافغاني عدداً من الأفراد المسيحيين أو اليهود، مثل أديب إسحق ويعقوب صنوع وغيرهم الذين أداروا عدداً من الصحف مثل «مصر» و«النظارة» وغيرها، بل أنّ الأشكال التنظيمية التي تمّ خلقها، توحي للوهلة الاولى بأنّها لا تمت بصلة إلى الإرث الاسلامي في التعبير والتنظيم، ولكن ذلك ليس سوى ظاهرياً. وهذه القضية بالذات تبدو لنا بالغة الأهمية لأنّها تطال مسألة الاقليات في المجتمع الاسلامي، حيث يخلط المؤرخون والمفكّرون الاوروبيون وبعض الحركات الاسلامية بين مستويات ومفاهيم ينبغي التمييز بينها، والافغاني ليس ببعيد عن هذا التمييز بين الأمة، أي الاطار الديني الحقوقي ـ السياسي، والذي داخله تنظم العلاقة بين جماعات متميزة دينياً أواتنياً أومذهبياً، وبين الجماعة التي ترتبط بعلاقات تضبطها بصورة عامة أخلاقية الايمان ومعاييره. لقد سبق للويه غارديه Louis Gardet أن لاحظ عندالمستشرقين الأوروبيين عدم التمييز الذي ذكرناه.

يشدّد الافغاني على أنّ: «حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الرعية على غير وجهها الحقيقي، مثل حمل القضاء والقدر على معنى يوجب أن لا يتحركوا لطلب مجدولاً لتخلّص من ذلّ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالّة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح (...) فلابد من بثّ العقائد الحقيقية بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب، وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى. ولابد ايضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم».

وحين تتوخّى بعض الاتجاهات الاسلامية أن تملي معايير الجماعة على مجموع

المجتمع فانّها لا تدرك أنّها تقوم بتهميش قسم ولونسبي من هذا المجتمع وتضعه في حالة عدم الاندماج. والافغاني الذي كان مدركاً أنّ الخصم الاساسي لاوروبا الرأسمالية هو الإسلام ليس فقط كجماعة تستكمل جدالاً دينياً مع المسيحية منذ زمن قديم، وتشكل تهديداً دائماً له، بل كوجود سياسي متحقّق لهذه الجماعة، حيث استطاع التسامح، وهوفضيلة عميقة في الوعي الاسلامي، أن يستبقي صورة متعرجة ولكن ثابتة عدداً لابأس به من الاقليات. إذن ينبغي التعامل مع المشكلة بصورة مزدوجة، فمن جهة تثبيت الاطار السياسي ـ الحقوقي للامة، حيث تستطيع الاقليات أن تجد لغة مشتركة انطلاقاً من خصوصيتها، في إطار المشكلات العامة والرئيسية للامة، الجماعة الاسلامية، من جهة ثانية، هي الرافعة التاريخية للامة. إنّ تشوش العلاقة بين المستويين والذي ساهم فيه بدور كبير التغلغل الاجنبي الذي أدخل قسماً من الاقليات في زبانته، ينبغي أن لا يعمم بصورة ساذجة ومتسرعة هذه الوضعية، لقد سبق وأشرنا إلى أنّ الأقباط، الارثوذكس بصورة خاصة، بقيادة هيئاتهم الدينية غالبها وقفوا مع الاغلبية المسلمة في اللحظات التاريخية الحاسمة.

وحين يعرّف الافغاني جريدته، يوضّح مسألة هامة: « لا يظنّ أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً، ومدافعتها عن حقوقهم، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة، فليس هذا من شأننا، ولا مما نميل إليه، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم، وإفساد في بلادهم، وقد نخصّ المسلمين بالخطاب لأنّهم العنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنبيون، وأذلوا أهلهم أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها».

تقييم عام لأثر الافغاني

يمكننا أن نلخص مشروع الافغاني انطلاقاً من حديثه للشيخ عبد القادر المغربي، الذي ينقله الشيخ رشيد رضا، حين يشير الشيخ المغربي إلى تمدّن الاستانة وتطورها عمّا كانت عليه منذ ثلاثين سنة، يجيب الافغاني: «إذا لم يبن تقدمنا وتمدننا على قواعد ديننا

وقرآننا فلا خير لنا فيه، ولا يمكن أن نتخلّص من ربقة الانحطاط والتأخّر (...) ما تراه الآن من حالاتنا المستحسنة ظاهراً هوعين التقهقر والانحطاط؛ لأننا في تمدّننا هذا مقلّدين الأمم الاوروبية، وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن غير طويل أن نخنع للذلّ والسلطة الاجنبية، أوتتبدّل صيغة الدين الاسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلّب إلى صبغة خمول وذلّ بعض الشعوب القديمة».

وهويشدد على أنّ «حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي، مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا لطلب مجدولاً لتخلص من ذلّ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالّة على فساد آخرالزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح (...) فلابد من بثّ العقائد الحقيقية بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب، وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى. ولابد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها، وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم». ولكن هذا الإصلاح المنشود أليس تأسيساً لسيمياء جديد؟ وهل يستطيع هذالسيمياء بتعابيره ومؤسساته ومثله أن يعيد بناء الثقافة والمجتمع؟ وهل ضرورته تستند إلى الاجابة الى تطلّعات عميقة للمقهورين والمهجرين على أرضهم؟ الفارق هو بين الوسائلية Linstrumentaliym وبين العضوية. تشوش الافغاني يعكس إلى حدّ بعيد، التباس الفكر والواقع الذي يأرجح العالم العربي والاسلامي منذ عرابي مروراً بعبد الناصر ووصولاً إلى الامام الخميني بين ذرائعية الدول القومية أو ايديولوجياتها الفضفاضة والضبابية، وبين تمسّك المجتمع بخصوصيته وقيمه، بمعنى آخر يتأرجح العالم العربي الاسلامي (الثورة الايرانية والسعة الاجتماعية لعلمائها، مسألة على حدة) بين نزاهة التيار القومي الوحدوي (الناصري بشكل خاص) الذي يمشي بموازاة الاسلام الشعبي، وبين عجز الأجهزة الدينية المصابة بالذعر والتي تساوم على الشيء من أجل انتصار الكلمة، ناسية أنّ التاريخ هوسلسلة متلاحقة من الأفعال. منذ الافغاني يجرب العالم الاسلامي كل الايديولوجيات والبرامج، ولكنّه ينتظر صياغة معادلة أفضل ليقول كلمته لنفسه وللعالم، والانتظار ليس سوى تأجيل التاريخ.

«١٣»

اَلْمَنْهَجُ الوَحْدَوِيُّ لدى السيّد جمال الدين والشيخ محمد عبده

الأستاذ شاكر الفردان
ـ البحرين ـ

اَلْمَنْهَجُ الوَحْدَوِيُّ

لدى السيّد جمال الدين والشيخ محمد عبده

الإنسان حيّ بحركته في هذه الحياة، يسعى جاداً في البحث عن طرق سعادته الّتي تبلغ به الكمال، كما أنّ مجموعة المخلوقات العاقلة منها وغيرالعاقلة في حركتها الجوهريّة طالبة كمالها، وكلٌ يبحث عمّا يرتبط بشؤونه ويصبّ في طريقه.

ولو ألقينا نظرةً على هذا الكون الفسيح للحظنا قسمين من الاندماج، يمكن أن يطلق على أحدهما تجمّع والآخر مجتمع، والأوّل: حالة من ضمّ شيء آخر؛ كضم الحجر إلى الحجر، أوبنظرة أرقى؛ كتجمعات الحيوان في مراكز تربيتها. والثاني: حالة من الضم تتبعها مجموعة من القيود والضوابط التي نعبّر عنها بالقيم والتقاليد.

والإنسان دائماً يتحرك في المحور الاجتماعي لا المحور التجمّعي، وذلك يتبع مقدار ما يمتلك من قيم وضوابط، وكلّما ابتعد عنها تفكّك المجتمع وبرزت روح الانفصال والتفرق والتمزق. من هذا المنطلق يتحرك الإنسان طالباً الوحدة مع بني مجتمعه باعتبارها نزعة إنسانية لايمكنه أن يتخلّى عنها، والسجلّ التأريخي لمسيرة الإنسان يسجّل لنا حركة الانسان في طلبه للوحدة والاتحاد مع الأفراد الآخرين، وكيف أنّه يسعى لتطبيقها بصور متعددة ونظرات مختلفة، وذلك لما لها من الارتباط الوثيق مع طبيعته الاجتماعية.

المهم أنّ هذه الدعوات والتحركات تنبيء عن الحسّ الداخلي للإنسان، وهي: نزعته للاتحاد والوحدة، ونتيجة لقصور الإنسان وانحصار نظرته إلى ما بين قدميه وانشداده إلى

بدنه المادي والى عالمه المادي، وعدم إدراكه لمصالحه ومفاسده، كانت نظراتـه ودعوتـه تعكس نفس النظرة القصيرة، ولذلك كان يطرح الوحدة تارة على أساس اللغة، وأخرى على اساس الجنس، ومرة على أساس القرب الجغرافي، وأخرى علـى أسـاس المـصالح الاقتصادية، وهكذا دواليك.. وما أن يظهر هذا النوع من الوحـدة إلى العلـن ويتحـرك خطوات حتى تضعف قواه ويسقط في منتصف الطريق ... وكيف ما كان فإنّها تعبّر عـن نزعة إنسانية ملحّة وضرورية يطلبها الإنسان.

ولن يستطيع الانسان بنفسه أن يقدم لنسفه طرحاً وحدودياً يملك الشمولية ويحظـى بقدرة الاستمرار والبقاء، والجهة الوحيدة التي يمكنها ذلك هي: الجهة التي تكفّلت بخلـق الإنسان، وتعلم الحاجات التي تتناسب مع هذا المخلوق، وهذه الجهة هي: السماء، لأنّها تعرف أنّه لو اتبعها لبلغ إلى نقطة الكمال والسعادة.

والشريعة الإسلامية مشروع من ضمن المشاريع الدينية التي تقدم الطرح لهذه النزعة، والطرح الإسلامي يتميز بقدرته على تقديم الطرح الوحدوي بصورة متكاملة، وذلك من خلال عنصري: الشمولية والاستمرار، وقدرته هذه نابعة من صميم القيم التي يطرحهـا، حيث إنّها ثابتة لا تتغير من جهة، ومن جهة أخرى تمثّل الاستجابات الحقيقيـة لفطـرة الإنسان.

على هذا الاساس نعتبر: أنّ المشروع الإسلامي الوحدوي هوالمشروع الوحيد الـذي يستطيع أن يجيب هذه النزعة الإنسانية، خصوصاً في هذا الظرف من الصراع الحـضاري الذي نحتاج فيه إلى تأسيس حضارة الإنسان، ولا حضارة له سوى حضارة الإسلام.

ومن هذا المنطلق أكّد الدين الإسلامي على الوحدة بين المسلمين ﴿واعتصموا بحبـل الله جميعاً ولا تفرقوا...﴾. وهكذا جاءت التأكيدات على ألسنة أئمته ودعاتـه، ولم تقـف النوبة عند الطرح النظري فقط، بل تعدّته إلى الطرح العملي كما يلحـظ ذلـك في حيـاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) التي مثلت أجلى مصاديق الوحدة بين المسلمين، وأيضاً يلحظ في حياة الأئمة المعصومين ـ عليهم الـسلام ـ مـا يـشير إلى ذلـك في ممارسـتهم العملية.

ولما أن تحوّلت الدولة الإسلامية إلى جسد ممزق وعصفت بهم التفرقة والتمزيق، وشقت عصاهم الفرقة الطائفية والفرقة السياسية، وبعد أن كان اختلاف الألسن والألوان آية من آيات الله أصبح عاملاً من عوامل التفريق، حتى ضعفت شوكة المسلمين واستضعفهم الكافرون، فانبرى لإنقاذ هذه الأمة من الضياع والتيه «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...» نقشوا أسماءهم على هامة الدهر، وقادوا مسيرة الإصلاح، ودعوا الناس إلى الوحدة والاتحاد بحسب ما يمليه الإسلام.

ومن هؤلاء: «السيّد جمال الدين الحسيني الأسد آبادي الشهير بالأفغاني» و«الشيخ محمد عبده» و«الإمام شرف الدين» و«الإمام الخميني قده» وبطبيعة الحال، كلٌ طرح نظرته الإصلاحية بحسب ظروفه الطبيعية الموضوعية، ولهذه تختلف الحركة الإصلاحية في تفاصيلها وتتحد في هدفها وأغراضها.

وسأتناول هنا ـ بقدرالاستطاعة - «دور الإمام السيّد جمال الدين الأسد آبادي والإمام محمد عبده» في توحيد المسلمين، مبيناً بايجاز دورالمستعمر في عهدهما وشيئاً من حياتهما، ثم المنهج الذي اتبعاه في دعوة المسلمين إلى الوحدة، وفي الختام مقارنة قصيرة بحركة الإمام الخميني (رض).

وما سأقدّمه سيكون إجابة لمجموعة من الاسئلة في حياة السيّد جمال الدين والشيخ محمد عبده.

- كيف كان يفكر السيّد جمال الدين في الوحدة؟
- كيف كان الاستعمار في عهده؟
- ما هوالمنهج الذي أتبعه في سبيل الوحدة؟

السيّد جمال الدين في فكره الوحدوي:

الذي يبدولي أنّ معظم علماء الإسلام كان يفكّر في الوحدة ويتمنى الاتحاد لكل المسلمين، ولكنّهم لم يصلوا إلى «مرحلة الهم» حيث يكون مشروع الوحدة الشغل الشاغل له في تفكيره وسلوكه، وهذا ما نلحظه من حياة السيّد جمال الدين، حيث هاجر من بقعة إلى أخرى منتقلاً من ايران إلى النجف الأشرف في العراق، ثم إلى أفغانستان،

فإلى ايران، ومن ايران إلى الهند، ومن الهند إلى مصر، ومن مصر إلى فرنسا، ومنها إلى الآستانة بتركيا حيث خلافة الدولة الإسلامية، وفي جولته هذه كان لسان المسلمين الناطق بأفكارهم ومحروميتهم، ولم تحجزه حدود جغرافية ولا حاجز اللسان ولا البشرة، بل كان يركز في نفوس المسلمين عزّتهم وكرامتهم من خلال منهج محدّد سار عليه.

«هذا ما نراه من زيارة السيّد جمال الدين إلى الهند، حيث يصف الزيارة الأستاذ صلاح البستاني في مقدمة كتاب العروة الوثقى: سأله المستعمر عن المدة التي سيقضيها في البلاد، فقال الأفغاني: لا أكثر من شهرين، فبثت الحكومة البريطانية عيونها حول زوار ضيفها الجديد. فجاءه في اليوم الأول عشرات.. وفي اليوم الثاني مئات ... وهرع العلماء والأعيان لملاقاة بطل جريء .. وغصّت الساحات بالوفود .. وحدث ما كان في الحسبان.. وتقدم مندوب الحكومة أمام الحشود يستعجله في مغادرة الهند».

هذه الصورة التي ينقلها البستاني تمثّل حالة الالتحام بين السيّد جمال الدين وبين الشعوب الإسلامية، وأنّ حاجز اللغة والقومية لم يكن مانعاً من تقريب المسلمين وتوحيدهم تحت راية الإسلام.

ولذا كان المشروع الوحدوي هماً عند السيّد جمال الدين أين ما حلّ، فكان يعالجه بمعالجاته الخاصة بحسب ظرفه.

وكذلك الشيخ محمد عبده كان متأثّراً بأستاذه تمام التأثّر حتى أدى ذلك إلى أن ينتقم منه شيوخ الأزهر،حيث أعطوه الشهادة من الدرجة الثانية. وتعرّض للعزل وتحديد الإقامة، كل ذلك بسبب ما يحمل من هم ـ على غرار أستاذه ـ وحدوي ونظرة للإصلاح.

فلنرى كيف يتحدث السيّد جمال الدين عن الوحدة: «أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة ويهدي اليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب ... وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجتمع، والكلف

بسيادة لا توضع»[١].

نعم، هكذا كانت الوحدة في فكره ضرورة ملحة يهدي اليها الدين وتفيدها التربية والسنن، وأنّها سبب لرقي المجتمعات ورفعتها، وهذا ما لحظناه في الصدر الأول من رفعة مجد المسلمين.

وهكذا تمثّل الوحدة همّاً للسيد جمال الدين يحمله على كتفه متنقلاً به بين البلدان، ويستدعيه الأمر أن يوجّه خطابات صريحة للأمة الإسلامية تنبيء عن حرقته على المسلمين لما هم فيه، يقول السيّد جمال الدين: «... هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لانبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، ندعي مع هذا أنّنا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟ واخجلتاه! لوخطر هذا ببالنا، ولا أظنّه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الإسلام.

إنّ الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة...».

نعم، هكذا كان يحترق ألماً لما عليه المسلمون من تمزق وتفرق، وهكذا كان يتحرك نحوالوحدة في البحث عن طرق تجميع المسلمين من خلال تذكيرهم بمجدهم، واستنهاضهم ممّا هم فيه، ممّا جعل الاستعمار يفكّر في السيّد جمال الدين كمحور لوحدة المسلمين التي تخيفهم وتعصف بهم.

الاستعمار في عهد السيّد جمال الدين:

كانت الدول الإسلامية في عهد السيّد (ره) ترزح تحت نيرالاستعمار الأوروبي المتمثل في «بريطانيا العظمى» في ذلك الوقت، وكان الاستعمار البريطاني يتميّز بالخبث والنفس الطويل في تذويب المسلمين ومسخهم من شخصيتهم الإسلامية. وما كان يصنعه

---

١ ـ العروة الوثقى: ص ٧٤.

الاستعمار كان مبنياً على أساس حسابات دقيقة ودراسات علمية موسعة، إضافة إلى الحالة التي يعيشها المسلمون من جهل وغفلة وتمزق، كل ذلك أدى إلى أن يحكم المستعمر قبضته على رقاب المسلمين.

وكان الاستعمار يركز في حركته على أمرين:

الأول: مسخ الشخصية الإسلامية، وتحطيم المعنويات والقيم التي يتمتعون بها، بل السعي في إذابة كل ما للمسلمين من فكر وعقيدة وسلوك وفلسفة.

يقول «كلادستون» رئيس وزراء بريطانيا الأسبق: «مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق»[١].

هكذا كان يفكّر المستعمر في إبعادنا عن قرآننا الذي هومصدر عزتنا وكرامتنا، فلو ابتعدنا فإنّه يستولي علينا، والمقصود من ذلك: تعاليم القرآن التي تأمرنا بالوحدة وتدعونا إلى الجهاد، لا القرآن مجرداً عن تعاليمه.

الثاني: جعل البلاد الإسلامية مركزاً تمويلياً لاقتصادهم، وجعلها إقطاعيات زراعية ومناجم لبلدانهم، وأن يسوقوا شعوبها بالتبعية من خلفهم.

كل هذه الأمور جعلت السيّد جمال الدين (ره) أن يتخذ موقفه السلبي من هذه التحركات الحاقدة التي تخفيها من وراء وجهها الباهت.

يقول الدكتور محمود قاسم في كتابه «جمال الدين الأفغاني» عن «العروة الوثقى»: «كانت كراهية الانجليز سمة من السمات الجوهرية في شخصيته، ذلك أنّه أيقن منذ عهد مبكر وعن تجربة أنّ هؤلاء القوم يكنّون للمسلمين عداءً شديداً ... كان لهذه الدولة الماكرة لذّة من النكاية بأهل الدين ... وكمال بهجتها أن تراهم أذلاء، لا يملكون من أمرهم شيئاً»[٢].

ومن أهم ما يميز الاستعمار البريطاني بصورة خاصة والاستعمار الأوروبي بصورة

---

١ ـ دمروا الإسلام أبيدوا أهله ـ جلال العالم.

٢ ـ العروة الوثقى:ص ٢٧.

عامة هي: سياسة «فرّق تسد»، وهي سياسة خبيثة نجحت فيها نوعاً ما حينما فرّقت المسلمين بعد سلبها لأراضيهم وخيراتهم، صنعت منهم دويلات صغيرة لا تقوى على شيء، وأثارت بينهم غبار الفتنة، وجعلت من نفسها مرجعاً لهم في حلّ مشاكلهم وقضاياهم.

ولنرى كيف كان السيّد جمال الدين يتحدّث مع «بريطانيا العظمى» عندما كان في الهند حيث التقى به مندوب الاستعمار: «إنني ما أتيت لاضعف حكومة بريطانيا العظمى، ولا أنا على استعداد للشغب، ولكن تخوّفها من زائر أعزل مثلي، وتفريقها المتظاهرين من زواري ـ وهم أضعف مني ـ إنّما يسجّل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها، وضعف شوكتها، وضيق صدرها، وعدم أمنها من حكمها، وأنّها - بريطانيا ـ في حقيقة حكمها لهذه الأقطار الشاسعة أضعف بكثير من شعوبها»[1].

على هذا كان الاستعمار في عهده ناهباً لكثير من أراضي المسلمين ولكثير من خيراتها، إضافة إلى مسخه للعقول الإسلامية وممارسته لسياسة التفريق على المستوى الفكري وعلى مستوى تقسيم الدول، ممّا جعل المهمة شاقة على المصلحين في جمع المسلمين تحت مظلّة الإسلام، ومن هنا ينكشف لنا عظم ما قام به السيّد جمال الدين مع صحبه في مواجهة هذا الاستعمار الماكر، وما يمتلك من إمكانيات جعلته يطارد السيّد في كل مكان، خصوصاً في البلدان الإسلامية حتى أذاقه السجن والتشريد.

منهج السيّد جمال والشيخ عبده في الوحدة:

يمكننا أن نلخص هذا المنهج في بعض النقاط التالية:

١- بيان علل ضعف المسلمين.

٢- التوجّه إلى العدو المشترك.

٣- رفع الرين والبدع عن الدين الحنيف.

---

١ ـ العروة الوثقى، ص: (د).

٤- معالجة غياب العلماء عن سدة الحكم.

وهذا المنهج عبارة عن بيان أسباب الفرقة في بعض نقاطها، وجعل البعض الآخر سبباً للوحدة كالنقطة الثانية.

وقبل الخوض في تفاصيل هذه النقاط لا بد من الإشارة إلى مقدمة مهمة في هذا المقام: إنّ من أصعب الأمور عملية التشخيص بين الوظائف المتشابكة، حيث إنّنا نعلم أن الوظائف والمسؤوليات بينهما ترتب طولي، وحينها يقدّم الأهم على المهم، وهذه المسألة وإن كانت في ظاهرها سهلة واضحة، إلاّ أنّها في المجال العملي في غاية الصعوبة، ولذلك نجد كثيراً من الذين خطوا في مجال الوحدة كيف تعثرت بهم الخطى، أوأنهم زاغوا عن طريق الوحدة إلى نقيضها، فمثلاً: عندما تتظافر عليك مجموعة من الأعداء كيف تشخّص العدوالأول بين هؤلاء؟! وهذا الأمر يحتاج إلى نباهة وكياسة من قبل دعاة الوحدة، والسيّد جمال الدين (ره) كان من الدعاة الذين يمتلكون هذه القدرة في التشخيص، وذلك لما يتمتع به من كياسة وتجربة، فهو الى جانب كونه شخصية علمية فلسفية دينية كان فطناً في المجال السياسي والاجتماعي، ودقيقاً في استخدام العبارات والألفاظ.

١- بيان علل وضعف المسلمين

من أهم العوائق التي تمنع الوحدة بين المسلمين هي: حالة الضعف والخوار بينهم خصوصاً حالة الضعف التي ركزها الاستعمار، والحلّ لمثل هذه المشكلة هو: بيان هذه العلل وتعريف المسلمين بها، فإنّ معرفة الداء نصف الدواء.

يقول السيّد (ره): «هل يمكن تعيين الدواء إلاّ بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟! إن كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول إلى علله وأسبابه إلاّ بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار»[١].

---

١ ـ العروة الوثقى، ص: ١٤.

علل الضعف والفرقة بين المسلمين:

أ ـ الوهم

ب ـ التقليد

ج ـ عدم التمسك بالدين

أ ـ الوهم: وهومن الأمور القاتلة للأفراد فكيف بالأمم؟ فالأمة التي تفسح المجال لواهمة أن تصور لها الأشياء ستصير لها الحقير خطيراً، والخطير حقيراً.

يقول السيّد جمال الدين (ره): «الوهم يمثّل الضعيف قوياً، والقريب بعيداً، والمأمن مخافة... الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه...».

«كان الانجليز أمة مجتمعة القوى، مستكملة العدد، مستعدة للفتوحات، وذلك في زمان: بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم ....، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحراً وكرامةً...»[١].

الوهم كان سبباً في ضعفهم وتفرقهم، حتى كانوا يخافون من الانجليز في زمن ضعفهم بأنّهم لازالوا أقوياء، مما ولد الجبن في نفوسهم، فأصابهم الله بالصغار والذلّة.

يقول السيّد جمال الدين (ره): «من يتوهم أن يجمع بين الجبن والإيمان بما جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد غشّ نفسه وغرر بعقله... وهوليس من الإيمان في شيء... المؤمنون لا يحتاجون إلاّ لقليل من التنبيه ... فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً، وينالوا عند الله مقاماً محموداً»[٢].

ب- التقليد: وهوانسلاخ الأمة من شخصيتها واتخاذها دور التبعية بدل الاستقلال، المسلمون عاشوا هذه الحال من التدنّي والهبوط الذي جعل منهم أمة ضعيفة لا تقوى على مواجهة أحد، بل أصبحت هشّة يتناولها الاستعمار حيثما يريد. ولنستمع إلى كلام

---

١ ـ العروة الوثقى، ص: ١٣٥.

٢ ـ المصدر السابق، ص: ١٤٢.

السيّد جمال الدين عن المقلدين: «علّمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأنّ المقلّدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ... ويصير أولئك المقلّدون طلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات يمهّدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكّنون سلطتهم...»[١].

ج- عدم التمسّك بالدين: إنّ كثيراً من المسلمين للضعف والانبهار من بريق الغرب وما قدّمه في مجال العلوم استدعى المسلمين أن يتخلّوا عن دينهم، فلا تكون وشيجة القيم ورابطة الدين هي التي تربط بيهنم، فتفكّكوا وأصبحوا شيعاً، فلن يكون اتحادهم إلاّ على أساس الرجوع إلى الدين والتمسك بأصوله.

وها هوالسيّد يطرح التمسك بالدين علاجاً لذلك: «فعلاجها الناجع إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية ... فاذا قاموا لشؤونهم وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني»[٢].

٢- العدوالمشترك:

من أهم الأمور هو: توجيه الأمة وتحشيدها باتجاه العدو المشترك؛ لأنّه بعدم ذلك يحصل الاختلاف وتتمزق الأمة، فيسهل على العدوأن يعبّر من خلال ذلك. السيّد جمال (ره) حشد الأمة نحوعدوها المشترك وهو: الغرب الكافر، بالخصوص «الانجليز» حيث كانت معظم أراضي المسلمين في ذلك الوقت تحت هيمنته، وكانت دول الاستعمار من الدرجة الثانية تتحرك وفق ما تمليه دولة الانجليز، وهذا الذي أزعج الانجليز مما حدا بها إلى أن تشوّه شخصية السيّد جمال الدين وتطاردها في كل مكان.

يشير السيّد جمال (ره) إلى أنّ الانجليز هم مصدر الفساد والإفساد، وأنّه لا يوجد بلد لم

---

١ ـ العروة الوثقى، ص: ١٩.

٢ ـ المصدر السابق، ص: ٢١.

يمسّها ضرر من بريطانيا: «لا نظنّ ولن نظنّ أن يجد الانجليز لهم يوم التصادم نصيراً من دول أوروبا ولا من دول المشرق ولا من الهنديين...؛ لأنّه لا توجد نفس تشعر بوجود حكومة الانجليز على سطح الأرض إلاّ وقد مسّها منهم شيء من الضر»[1]

فعلى هذا تكون بريطانيا عدوة لكل الشعوب، لا للمسلمين خاصة وإن كان الحقد الصليبي يدفعها نحوتركيز حقدها على المسلمين خاصة، مستغلّة حالة الضعف بينهم، فبتشخيص العدو المشترك الواحد تتظاهر الجهود وتقوى الشوكة، اعرف عدوّك تكسب النصر.

٣- رفع الرين والبدع عن الدين الحنيف:

تقدّم أنّ من الأمور التي توحّد المسلمين هي: الرجوع إلى الأصول الدينية الثابتة، وهنا نقول: بأنّ البدع والإضافات التي دخلت على الدين، بل التأوّلات والاجتهادات المنافية لروح الدين جعلت من الدين مجموعة من الطقوس الهشة والعقائد المبنية على الخرافة، مع أنّه الدين القويم القائم على البرهان والوجدان، ولذلك اعتبرت تصفية الزوائد والشوائب التي علقت بالدين من أهم المسائل التي توجب وحدة الدين ووحدة المسلمين، وذلك بالرجوع إلى القرآن وسنّة الرسول القطعية التي لا تخالف الكتاب، فإنّ اكثر خلاف المسلمين ناتج للرين والبدع التي ألصقت بالدين الحنيف.

يقول السيّد (ره): «هل تعجب أيها القارىء من قولي: إنّ الأصول الدينية الحقة المبراة عن محدثات البدع تنشىء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة»[2].

٤- عدم المنافاة بين العلم والدين:

من الأمور التي استغلّها الاستعمار في تمزيق الأمة، عملية التمزيق بين أعلى طبقات المجتمع وهم: العلماء، الدينيين والطبيعيين، فأوجد حالة من الفرقة بينهم تستدعي التفريق

---

١ ـ العروة الوثقى، ص: ١٢٣.

٢ ـ العروة الوثقى، ص: ٢١.

بين العلم والدين، وقد استلهم الاستعمار ذلك من مجتمعه الأوروبي، وقد استجاب البعض لهذه الدعوات التي فتت المجتمع، ووضعت العلماء في زاوية حرجة يستضعفهم المستعمر، وبهذا يكون قد أقصاهم عن المجتمع ليصبح لقمة سائغة في فم الأعداء.

السيّد جمال الدين (ره) حاول أن يوجد التلاحم بين هذين الجناحين اللذين تطير بهما الأمة، واعتبر الجهل من أسباب ضعف الامة وتفرقها، كما أنّ بعدها عن الدين والأصول الحقّة تيه وضلال يغرب بالأمة ويضيعها.

٥- معالجة غياب العلماء عن سدة الحكم:

إنّ وجود العلماء يعتبر ضمان الأمال لإدارة أي حركة في المجتمع؛ وذلك لما يتمتعون به من محبة في نفوس المجتمع، فاذا أردنا أن نوجد الوحدة بين المسلمين علينا أن نبدأ أولاً من العلماء، فإن اتحدوا استطعنا أن نوحّد الأمة، وما نراه من تمزق وتفرق بين المسلمين منشؤه بعض العلماء.

لا أقصد أنّ الوحدة بينهم تحدث بين عشية وضحاها، وإنّما تحتاج إلى خطط ودراسات وإعادة نظر في كثير من المناهج، حتى صياغة العقلية المسلمة من جديد لتستوعب الكثير من المفاهيم التي تتناسب مع الوحدة. يقول السيّد جمال الدين (ره) محملاً المسؤولية العلماء في توحد الأمة وتوجيهها: «إنّ كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم، فأيّ عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومة؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين؟ لم لا يبذلوا الجهد في جمع شملهم؟ لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم؟...»[١].

هذا دور العلماء في تجميع طاقات الأمة وتوحيدها، ولن يكون هذا الدور إلاّ إذا كانت أزمة الأمور بأيديهم، أي: لابد أن يكونوا في سدة الحكم حتى يوحّدوا المسلمين، وإلاّ فاذا كان الحكّام من غيرهم تفرق المسلمون وضعفوا وتسلّل العدومن بينهم، هذا إذا لم يكن الحكّام من الخونة الذين يجلبون المستعمر لبلدانهم، أويعيشوا على تفريق

---

١ ـ العروة الوثقى، ص: ٨٦.

المسلمين لتستقر عروشهم.

يقول السيّد جمال الدين (ره) في أسباب انحطاط المسلمين: «بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلفاء وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحرزوا شرط العلم والتفقّه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه ...»[1]

فلا بد للمسلمين أن يسعوا جادّين لتوحيد صف الأمة من خلال تمكين العلماء مباشرة في إدارة أمور المسلمين، من قبل أيدي عالمة عارفة بدين الله، ويقول السيّد في هذا المقام: «كان من الواجب على العلماء قياماً بحقّ الوراثة أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف»[2].

منهج السيّد جمال الدين من خلال مجلة العروة:

يمكن ملاحظة عناوين المجلة التي تشير إلى هذا المنهج:

١- الجنسية والديانة الإسلامية: الذي يبين فيها أنّ الميل إلى التراب ليس طبيعة أصيلة، وإنّما هومن الملكات العارضة القابلة للزوال.

٢- ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها: حيث يشير من خلاله إلى الوحدة كعامل قوة للمسلمين، وأنّ الابتعاد عن الدين عامل ضعف.

٣- انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك.

٤- التعصّب باعتباره مانعاً من فهم الدين، وحاجزاً عن وحدتهم، ثم امتداحه للتعصب الممدوح: كالتعصّب للدين باعتباره قائماً على الحقّ.

٥- الوحدة الإسلامية.

٦- الوحدة والسيادة.

٧- الأمل وطلب المجد.

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٣٤.

٢ ـ العروة الوثقى، ص ٣٤.

٨- رجال الدولة وبطانة الملك.

٩- دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان، حيث سعى الجانبان إلى إيجاد اتحاد نسبي بينهما، ممّا شد السيّد جمال الدين لهذه الفكرة ودعاهم لمواصلة الدرب.

١٠- الأمة وسلطة الحاكم المستبدّ، باعتبار ما يشير اليه السيّد جمال الدين من أنّ العلماء مالم يكونوا في سدة الحكم فالأمة لاتستطيع أن تعيش الوحدة.

١١- «الشرق» حيث يشير فيه إلى الدفاع عن شرق المسلمين.

١٢- ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاء هم البينات﴾. إشارة إلى التفريق وحالة التمزق بين المسلمين.

١٣- «سنن الله في الأمم» بأنّ الأمة إلى لا تتحدولا تعي نقاط الضعف فيها تؤول إلى الزوال.

١٤- «الوهم» حيث يؤدي إلى قوة العدوضعف المسلمين.

١٥- «الجبن».

مقارنة مختصرة بعهد الإمام الخميني (رض):

أحاول أن اختم هذه الوريقات بمقارنة بسيطة بين حركة السيّد جمال الدين وحركة السيّد الإمام الخميني (رض).

كانت حركة السيّد جمال نابعة من ردة الفعل، ولم تتعدّ إلى قلب العدو، بينما حركة الإمام(رض) كانت من دائرة الفعل والتأثير متعدية دور الانفعال وردود الفعل، إضافة إلى أنّ الامام(رض) حاول أن يتعدّى إلى قلب العدو من خلال هزيمته في داخله، سواء على المستوى الفكري أو العملي.

كانت طروحات السيّد جمال الدين مبنية على أسس نظرية، بينما كانت حركة الإمام(رض) تطبيقية من خلال تشكيل الحكومة الإسلامية وإدارة العلماء لدفة أمور المسلمين.

كان الاستعمار في حياة السيّد جمال الدين استعماراً مكشوفاً مستغلاً لأراضي المسلمين، ولذا كان من السهل مواجهة هذا العدو أمّا الاستعمار ـ المتمثل في أمريكا ـ في

عهد الإمام(رض) فإنّه خفي، واتخذ أساليب جديدة في مواجهة المسلمين، خصوصاً في المواجهة الثقافية.

إنّ حالة الوعي التي يعيشها المسلمون كانت ضعيفة في عهد السيّد جمال الدين، ولكن لم تصل إلى حالة من التمزق والتفكك كما هي عليه الآن، إلاّ أنّ حالة الوعي واليقظة في هذه الفترة أكثر مما كانت عليه.

بقي شيء يجب أن نؤكد عليه وهو: أنّ الظروف الموضوعية لكل فترة تختلف، وهذا لا يعني الاختلاف في الحركة، والسيّد جمال الدين يمثّل حلقة من ضمن حلقات الدعاة إلى الوحدة، توجت هذه الحلقات بالحلقة القوية المتينة، وهي: حركة الإمام (رض) بما تمتلك من قوة واتساع وتجاوبٍ شاملٍ.

قال الامام الراحل الخميني (قدّس سره)

- «من المسائل التي خطّط لها المستعمرون وعمل على تنفيذها المأجورون لإثارة الخلافات بين المسلمين... المسألة القومية، وهناك ما هوأخطر من النعرات القومية وأسوأ منها، وهو ايجاد الخلافات بين أهل السنّة والشيعة، ونشر الأكاذيب المثيرة للفتن والعداء بين الاخوة المسلمين.
- في إطار الثورة الإسلامية الإيرانية لا يوجد ـ والحمدالله ـ أيّ اختلاف بين الطائفتين، فالجميع يعيشون معاً متآخين ومتحابين.
- أهل السنّة المنتشرون في إيران، والقاطنون مع العدد الكبير من علمائهم ومشايخهم في أطراف البلاد واكنافها، متآخون معنا ونحن متآخون ومتساوون معهم. وهم يعارضون تلك النغمات المنافقة التي يعزفها بعض الجناة، المترتبطون بالصهيونية وامريكا.
- ليعلم الأخوة أهل السنّة في جميع البلدان الاسلامية أنّ المأجورين المرتبطين بالقوى الشيطانية الكبرى لايستهدفون خيرالإسلام والمسلمين.
- وعلي المسلمين أن يتبرأوا منهم، ويعرضوا عن إشاعاتهم المنافقة.
- إنني أمدّ يد الأخوة إلى جميع المسلمين الملتزمين في العالم، وأطلب منهم أن

ينظروا إلى الشيعة باعتبارهم أخوة أعزاء لهم، وبذلك نشترك جميعاً في إحباط هذه المخططات المشؤومة.

- وقال فضيلة الشيخ محمود شلتوت (رحمه الله): «إنّ الإسلام لا يوجب على أحدٍ من أتباعه مذهباً معيناً، بل يقول: إنّ لكل مسلم الحق في أن يقلّد بادىء، ذي بدء أيّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً والمدوّنة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أي مذهب كان ـ ولاحرج عليه في شيء من ذلك.

إنّ مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية مذهب يجوز التعبّد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة.

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات».

«١٤»

الجزائر في كتابات محمد عبده فرنسا اتخذت من التبشير وسيلة للسيطرة على البلاد الاسلامية

الدكتور محمد برج
- أستاذ في جامعة الجزائر-

الجزائر في كتابات محمد عبده

فرنسا اتخذت من التبشير وسيلة للسيطرة على البلاد الاسلامية

«لو أسلمت الأمة الفرنساوية بأسرها، وفي مقدمتها مسيوهانوتو، وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهده في الجزائر ومداغسكر، هل ترجومن سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها، وأن لا ينتهزوا الفرصة للثورة عليها؟». لعل من امتع الابحاث التي قدمها إلينا أمامنا الراحل محمد عبده تلك الدراسة التي انبرى فيها للردّ على المؤرخ الفرنسي هانوتو Hanoteaux والمتعمق في دراسة الاستاذ الامام يعرّف عنه قدرته العجيبة على دحض الافتراءات التي يحاول خصوم الاسلام الصاقها به، وكذلك تمكّنه من معرفة ما يبطنه هؤلاء الخصوم وإن تظاهروا عكس ما يبطنون.

ونحن حين نقرأ للاستاذ الامام نلمس غيرة دينية متعصّبة، وحماسة وطنية غير ضيقة الأفق رحبة واسعة، يعترف بنقائص قومه حين تكون هناك نقائص، أنظر اليه يقول: «اما لو رجع المسلمون إلى كتابهم، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم، لسلمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه في تنزيله وعلى لسان نبيه، ومهّده لهم سلفهم، وخطّه أهل الصلاح منهم، واستجمعت لهم القوة، ودبّت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه هانوتو وأتباعه من دين صحيح شراً مما يخشونه من دين شوّهته البدع».

وكان هانوتو قد نشر مقالتين في بداية هذا القرن تحت عنوان : «الاسلام والمسألة

الاسلامية» تضمنت كثيراً من الافتراءات. والحقيقة أنّ الشيء الذي شغل هانوتو وأقضّ مضجعه ومضجع غيره من المستعمرين آنذاك كانت قضية الجامعة الاسلامية التي برزت للوجود آنذاك يدعمها السلطان العثماني عبد الحميد[١].

ويستطيع الباحث أن يصل إلى ذلك، ذلك أنّ صاحب صحيفة الاهرام انتهز فرصة وجوده في باريس وقابل هانوتو، ودار حديث بينهما أراد منه صاحب الصحيفة المصرية أن يصل إلى السبب الذي من أجله كتب المؤرّخ الفرنسي هانوتو ما كتب، فكان من بين ما قاله هذا المؤرّخ: كيف تنادون بوجود الاتحاد الاسلامي؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرهما؟ أم تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة؟ أم تؤيده انجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم؟ أم تعضده روسيا؟ أليس ذلك خرقاً في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة؟

والغريب في الامر أنّ هانوتو وهو يهاجم فكرة الجامعة الاسلامية كان يبدو كالحريص على مصلحة المسلمين أكثر من حرصهم هم على مصلحتهم، فهو يقول لصاحب صحيفة الاهرام أنّه كان يجب على رجالكم، سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا في أروبا وتعلّموا بعض علومها أن يهتموا بنشر العلوم العصرية، وأن يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم بين الشرق والغرب بأن يتخذوا أقدام أوروبا واجتهاد ابنائها مثالاً يسيرون عليه، ونموذجاً يعملون بموجبه. ثم يعود فيؤكد لمحدّثه «إنّ الرابطة الوطنية أشد من الرابطة الدينية، وهي التي كانت قاعدة أوروبا الاولى في سياستها، وبها تقدّمت وتمدّنت ونجحت».

ولقد أردت بهذه المقدمة أن أوضّح الهدف الذي دفع هانوتو لكتابه بحثيه عن الاسلام والمسألة الاسلامية. يبدو الأمر في ظاهرة وللقارئ له لأول وهلة وكأنّه يدعو قومه لاتخاذ خط واضح وسياسة ظاهرة تجاه المسلمين، حيث إنّ فرنسا صارت لها أملاك واسعة في بلاد المسلمين. ولا ينبغي وقد أصبح لها ذلك ألاّ تكون لها هذه السياسة المرسومة التي يتبعها موظفوها في تلك الاقطار الاسلامية. ذلك ان الموظفين الفرنسيين في

---

١. ارجع لمجلة الاصالة العدد الخاص عن موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر بحث لنا بعنوان (فرنسا والنهضة القومية الجزائرية) لترى تهجم كاتب فرنسي آخر اسمه سرفيه على الجامعة الاسلامية.

نظر هانوتو قسمين لا ثالث لها: قسم متعصّب تماماً ضد الاسلام، وقسم متعاطف معه ولا وسط بينهما. من أمثال الفريق الأول من يقول: أنّ الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس، ويرى القسم الثاني من الموظفين الفرنسيين أنّ الاسلام قنطرة للامم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح، بل لابد من رعايته وتعضيده.

يبدو إذاً الهدف الظاهري من كتابات هانوتو وكأنّه لا يقصد سوى مطالبة حكومة بلاده «أن تبحث بحثاً علنياً في علاقتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلي هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على العموم اتّباعها من حاكم منا ومحكوم».

لكن الحقيقة التي فطن اليها الاستاذ الامام أنّ هانوتو لم يكتب لينصح قومه بقدر ما كتب تهجماً على العقيدة الاسلامية.

وقال محمد عبده: «لولم يتعرّض مسيو هانوتو الى الطعن في أصل من أصول الدين ما حركت قلمي لذكر اسمه، وكان حظّي من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار حظّ الناظر في أحوال الامم واعمال رجالها، حظّ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم، ولا يهمه أخطأ القائل أوأصاب».

ولم يكن هجوم هانوتو هجوم فرد مغمور، فقد كان آنذاك شخصية مرموقة شغلت عدة مناصب في الحكومة الفرنسية، وكذلك على المستوى الدولي، فضلاً عن مكانته في المجال العلمي. فمنذ دخل وزارة الخارجية الفرنسية كأخصائي في الوثائق سنة ١٨٧٩ بدا نجمه يلمع، حتى إنّه أصبح نائباً في البرلمان الفرنسي منذ سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٨٩ وبعدها شغل منصب وزير الخارجية الفرنسية منذ سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٨٩٦. وكانت سياسته التقارب مع روسيا. أمّا على المستوى الدولي فقد أصبح نائباً من نوّاب رئيس منظمة عصبة الأمم سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٣ أمّا شهرته العلمية فهي غنية عن البيان، فهوصاحب الموسوعات المختلفة في التاريخ.

من أجل هذا كان لكتاباته عن الاسلام في سنة ١٩٠٠ صدى ضخماً، وانبرى الاستاذ الامام للردّ عليها فور قراءتها. فهويقول رحمه الله في رسالته إلى صحيفة المؤيد: «قرأت الساعة مقالة مسيو هانوتو...» وبادر بالردّ عليه. وفي أول مقال كتبه الاستاذ

الامام للرد على هذا المؤرخ الفرنسي أخذ يؤكد على تفنيد ما ادّعاه هذا الاخير أنّ الفرنسيين وهم الشعب الآري المسيحي الجمهوري يحمل إلى الشعب الاسلامي السامي الأصل روح المدنية! فأوضح الاستاذ الامام فضل الاسلام على العالم بأسره.

وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذ الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل، ثم أوضح بعد هذا أنّ الدين الاسلامي ليس ديناً سامياً بل، هو دين كل الاجناس والاقوام.

وانتقل بعدها الاستاذ الامام من مقالته الثانية للحديث عن مسألة القدر في الاسلام. وكان هانوتو قد أشار إلى الطريقة في الاسلام، وكيف أنّ اصحاب الطوائف الاسلامية يلقون الترحيب من جانب المسلمين في كل مكان. قال هانوتو: ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون إلى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا. ثم يمضي هانوتو فيقول: إنّ العالم الاسلامي منقسم إلى طوائف وطرائق لأعداد لها ينخرط في سلكها الالوف من رعايانا المسلمين، ولكن ليس لها في الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا. وغاية الأمر أنّ العالمين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب... هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان، أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وحدهم، منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام. وهذا ما يستوجب الدهشة لأنّ مقدار ما يجبيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ.

ويمضي هانوتو الى القول أنّ بعض الطوائف لها علاقة ودّ وصداقة مع (رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام). لكنه يرى أن بعض الطوائف بلغت شدة العصبية منها مبلغاً عظيماً من ذلك «أنّ الشيخ السنوسي أسس في جهة ليست بعيدة من الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار».

ثم يقول: «كنّا نرى منذ زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينصاعون لأوامر سرية تناقلوها بالأفواه، وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم، والذهاب إلى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو».

وهنا يصل هانوتو الى بيت القصيد كما يقولون، فهو يؤكد «أنّ جراثيم الخطر لا تزال

موجودة في ثنيات الفتوح وطي أفكار المقهورين الذين اتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم. نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة. وبالطبع وإن لم يفصح هانوتو عما يقصد فإنّه يشير إلى حركات المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي وحركة الجزائر الفتاة، ويرى وإن لم يذكر ذلك صراحة على نحو ما فعله سرفيه في كتابه الحركة الاسلامية في مصر وتونس والجزائر، أنّ هناك تنسيقاً بين افكار وآراء مصر الفتاة وتونس الفتاة من جانب، وحركة الجزائر الفتاة من جانب آخر، وبين هذه الحركات الثلاث وحركة الجامعة الاسلامية التي نشطت الدعاية لها آنذاك.

أخذ الامام ـ رحمه الله ـ يفند ما زعمه هانوتو وحمل حملة شعواء على تلك الطوائف والطرف التي أدخلت إلى الدين الاسلامي ما ليس فيه، وأطمعت فيه كل مستعمر.

قال محمد عبده: «لا أنكر أنّ الزمان تجهّم للمسلمين كما كان قد تنكّر لغيره، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون، فبثوا فيهم أوهاماً لا نسبة بينها وبين أصول دينهم...

ويمضى الامام ـ رحمه الله ـ فيقول: ما أضلّ هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلاّ أولئك الدراويش الخبثاء أوالبله الذين يغشون اطراف الجزائر وتونس، ولا يخلو منهم اليوم قطر من اقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام. أمّا لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم لأدّوا فرضهم واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة وأعدّوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر، وأيقنوا في صولتهم علماً أن ليس من الموت مفرّ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها، ونال ما ينال القوي من الضعيف والعزيز من الذليل، لا نقلب جنوبهم لدى هانوتو عقلاً وتحوّل هذيانهم حكمة وعلماً.

ثم يمضي الاستاذ الامام في مقال ثالث عن عقيدة التوحيد التي تهجّم عليها هانوتو يقول: «يظنّ هانوتو أنّ الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه، ولكنّه وهم في ذلك، فانّ الاسلام أفضى بالعبد إلى ربه وجعل له الحقّ أن يقوم بين يديه وحده، بلا واسطة تبيعه رضاءه. قضى الاسلام بأن لا يكون للكون إلاّ قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليهما: مقام الالوهية التي تفرّد بها،

ومقام النبوة التي اختصّ بمنحها من شاء».

ثم يمضي الاستاذ الامام يعيب على ما أدخله بعض المسلمين في الدين من بدع أكلت الفضائل، وحصرت العقائل، ويقول رحمه الله: أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم، واسترجعوا باتّباعه ما فقدوا من آدابهم، لسلمت نفوسهم من العيب ... إلى آخر ما أوردنا. في بداية هذا البحث.

ولا يتسرّب اليأس إلى نفس الامام، وهي التي مضت طول حياتها تبثّ الثقة في النفوس الخائرة، وتدعو الى عدم القنوط؛ لأنّ الله وعد المسلمين النصر إن هم اتجهوا اليه وتخلّصوا مما ران عليهم من ضعف. يقول إمامنا: أما فليعلم كل من يخدع نفسه أنّ الاسلام إن طالت به غيبة فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبه، ويستشهد بقول قسيس انجليزي شهير أسحق تيلرانه (اي الاسلام) يمتد في افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار. ويؤكّد محمد عبده أنّ الاسلام لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا، وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع إلى طهارته، وتنثني به الملمات إلى ما كان عليه لأول نشأته، وتدرك منه الامم منه خير ما ترجو ان شاء الله.

«لو أسلمت الامة الفرنساوية بأمرها، وفي مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على ما نعهده في الجزائر ومداغسكر، هل ترجومن سكان مستعمراتها أن يميلوا إليها، وأن لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها؟ كلا فما ظنّك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد، ولا يرون من المتغلبين عليهم الاّ الجد في إهلاكهم، والدأب في إفنائهم. إنّ القول ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفّف على المغلوب سلطة الغالب، وتدنو به منه، وتهون عليه الرضاء عنه. ولكن هانوتو وأضرابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئاً من هذه الاركان الثلاثة، ولا يزالون يهرقون بما لا يعرفون حتى يصلوا إلى ما كانوا يحسبون: فلينتظروا إنّا معهم منتظرين».

وظلّ قلب محمد عبده معلّقاً بالجزائر، فما إن بادر صاحب جريدة الاهرام آنذاك، وأجرى حديثاً في باريس مع هانوتو استوضح منه الدوافع التي دفعت به إلى ما كتبه عن الاسلام، حتى بادر محمد عبده مرة أخرى يردّ على ردّ المسيو هانوتو.

كان هانوتو قد أفصح لصاحب الاهرام عدم رضاه عن دعوة الجامعة الاسلامية التي قويت آنذاك، وكان قد أوضح لصاحب الاهرام أيضاً أنّ الرابطة الوطنية هي من وجهة

نظره أهم من الرابطة الدينية التي تنادي بها الدولة العثمانية آنذاك. وكان صاحب الجريدة قد سأل هانوتو: اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد أنّهم راضون في تونس، فهل تعتقد ذلك في أهل الجزائر؟

فأجاب هانوتو: أمّا التونسيون فلا خلاف في أنّهم مسرورون بحالتهم!! ويمضي هانوتو يقول: نحن دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مزّق شملها أفراد حكومها. وأمّا نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم، ولم نسألهم إلاّ أمراً واحداً، أي احترام سلطتنا السياسية. ويقول هانوتو: ولا أنكر أنّه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر، وقد شرعنا في ذلك، وسأكتب كثيراً في هذا الموضوع لأنّي ذهبت بنفسي إلى تلك البلاد، ودرست أحوالها، وأملي أن لا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الإصلاح الذي طلبه غيري قبلي، وشرعت حكومتنا في إنفاذه.

وقرأ محمد عبده ردّ هانوتو فبادر يردّ عليه على صفحات المؤيد في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣١٨ هـ (٢٥ يوليوسنة ١٩٠٠ م) العدد ٣٢١٠ وقال رحمه الله: إنّه يرجو من صحيفة المؤيد أن ترسل ردّه مترجماً بالفرنسية إلى هانوتو ليطلع عليه. ونفى محمد عبده في ردّه أنّ سياسة الدولة العثمانية سياسة دينية، بل إنّ هذه الدولة وضعت في بلادها قوانين مدنية، وشرعت نظاماً لطريقة الحكم، وعدد الحاكمين ومللهم، وسمحت أن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها.«والذي أحبّ أن يعرفه مسيو هانوتو أنّ سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية ليست بسياسة دينية، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها، انّما كانت في سابق الايام دولة فتح وغلبة، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة، ولا دخل للدين في معاملاتها مع الدول الأوروبية».

وروى محمد عبده في ردّه قصة طريفة قال فيها: إنّ أحد أبناء جبل لبنان ممن تعلّم في مدارس التبشير في لبنان، كان ساذجاً، فذهب إلى باريس ١٨٨٤ واتصل بأحد السوريين المقيمين في باريس، وطلب منه أن يكون وسيلة في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة الفرنسية لإنشاء مدرسة في لبنان، فقال له صديقه: إنّ ما تخيّلته أنّ فرنسا لا تساعد أحداً دون مقصد وغاية، وأنّ الحكومة الفرنسية وإن كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها، لكن سياستها في الخارج دينية محضة، ويمكن أن

تعرف ذلك من حمايتها لبعثات التبشير. ومضى هذا السوري المقيم في باريس يقول لصديقه: إن كنت تريد إنشاء مدرسة دينية ساعدتك فرنسا، وإلاّ فارجع واشتغل بما يصلح لشأنك الخاص، فرجع الشاب خائباً».

وأراد محمد عبده من ذلك أن يؤكد لهانوتو أنّ فرنسا اتخذت من التبشير ومن تصدير السياسة الدينية وسيلة للسيطرة على البلاد الاسلامية، وليست الدولة العثمانية هي صاحبة هذه السياسة.

وبعدها مضى محمد عبده يحمل قلمه دفاعاً عن تلك البلاد التي سعى المستعمر الفرنسي لتوطيد اقدامه فيها وفي مقدمتها الجزائر. فجاءها سنة ١٩٠٢ وقد مهّدت مجلة المنار لزيارته، فاستقبله أهله استقبالاً حافلاً خالداً. وكوّن مجموعة من المريدين في مقدمتهم الشيخ عبدالحليم بن سماية ومحمد بن مصطفى خوجه الذين تتلمذ عليهما امام الجزائر المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي بلغ إعجابه بالامام درجة لا حاجة بي إلى سرد حديثها في هذا البحث.

وكان الامام ـ رحمه الله ـ يريد السفر إلى المغرب، وحادثه تلميذه رشيد رضا في ذلك، ولكن لم تتم هذه الزيارة وإن كان قد اتصل به عدد من أبناء هذا البلد الشقيق في مقدمتهم الشيخ المهدي الوزاني.

أمّا صلته بالامير عبد القادر والرسائل التي تبودلت بينهما، وما كان يعلّقه الامام على جهاد الامير وحزنه الكثير على وفاة هذا المجاهد الذي رفع السيف في وجه المستعمر الفرنسي، فقد تناولته في عدد من أعداد المجاهد الثقافي. وآمل في بحث قادم بإذن الله أن أتناول دور رشيد رضا وكتاباته وأثرها في الجزائر، والله الموفق.

«١٥»

جمال الدين الأفغاني
والتجديد الإسلامي

الدكتور عثمان أمين
أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

جمال الدين الأفغاني

والتجديد الإسلامي[1]

الحمدالله أولاً وثانياً، كما يقول الشاعر العربي: أحمده أولاً إذ يسّر لي أن أشـارك في هذا الملتقى الفكري بقسنطينة، وأن أظفر بتبادل الرأي مع الصفوة من العلماء والمفكرين من أقطار العروبة والاسلام، ومع الشباب الجزائري الناهض، في الأمـور الخطـيرة الـتي تواجهنا اليوم في توتر والحاح، وأحمده ثانياً إذ سيكون حديثي هذا الصباح، عن جمـال الدين الافغاني، امتداد للخطاب المهم الذي استمعنا اليه أمس من الاخ الكـريم الاسـتاذ مولود قاسم عن «الآنية والأصالة».

والحقّ أنّ هذا الموضوع كان وما يزال يشغلني في كل مـا كتبتـه عـن أعـلام الفكـر الاسلامي، من الفارابي وابن سـينا والغـزالي وابـن رشـد، إلى الافغـاني ومحمـد عبـده والكواكبي ورشيد رضا ومحمد اقبال ومصطفى عبدالرزاق وعباس محمود العقاد.

الاب الروحي لرواد الوعي الانساني في الشرق الاسلامي.

ففي كتاب شعبي صغير نشرته بالقاهرة سنة ١٩٦١، اخترت أربعة من سميتهم، روّاد الوعي الانساني في الشرق الاسلامي، هم: جمال الدين الافغاني، ومحمد عبـده المـصري،

---

١. محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقـد بقـسنطينة في ١٧/٨ جمـادى الثانيـة ١٣٩٠ ه. ١٩/١٠ اوت ١٩٧٠ م.

وعبدالرحمن الكواكبي السوري، ومحمد اقبال الباكستاني.

فقد رأيت أنهم جميعاً قد نادوا «غفاة البشر» -كما يقول عمر الخيام في رباعياته- وقادوا حركة التحرير والتنوير اللازم لتحقيق الآلية وتثبيت الأصالة. وكان هدفهم ايقاظ الوعي الانساني في النفوس، وتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بهم في الداخل والخارج، ورأيت أنّ المبادئ التي دعا اليها كلّ واحد من هؤلاء المفكرين هي نفسها المبادئ الضرورية لقيام وعي للانسان بما هوانسان: كرامة الانسان، ومثّلها الافغاني، وتنوير الأذهان ويمثّلها محمد عبده، وصيحة الحرية ويمثّلها الكواكبي، وفلسفة الانية ويمثّلها محمد اقبال.

ورأيت كذلك أنّ هؤلاء الأعلام جميعاً يشتركون فيما بينهم في سمات واضحة، جعلتهم على اختلافهم في الزمان والمكان ينتمون إلى سلالة روحية واحدة:

السمة الاولى: أنّهم مفكرون «جوانيون» على الأصالة: النظر والعمل عندهم متصلان أوثق اتصال، وهم جميعاً متفقون على أنّ «الدين في أعلى صورة، ليس أحكاماً جامدة، ولا كهنوتية ولا أذكاراً، وانّما ييسر بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذي يحمله أياه تقدم العلوم والتقنية في عصرنا. والدين الصحيح يرده إلى الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب انية في هذه الدنيا، والاحتفاظ بها في الآخرة».

والسمة الثانية: هي أنّهم جميعاً، بعد نجاح دعوتهم لايقاظ الوعي الانساني، أصبحوا في بلادهم من رواد الوعي القومي، والواقع أنّ الدعوة إلى الوعي الانساني لابد أن تسبق الدعوة إلى الوعي القومي خلافا لما يتوهم بعض المتوهمين: فانّك لا تستطيع أن تحرك فرداً من الافراد إلى معنى أو عمل ينفع قومه، ما لم تحرك فيه إنسانيته أولاً. ولا ريب أنّ من لوازم الانسانية الايثار والغيرة، والعمل من أجل المجموع، والتحرر من أسر الانانية، وكل دعوة لا تعتمد على دعوة انسانية يكون نصيبها الفناء. فبالوعي الانساني ترسّخ في النفوس القيم الروحية والمثل العليا والمعاني الجميلة، وبه يشعر الانسان -كما يقول الكواكبي- بأنّ «الحرية أفضل من الحياة واكرم، وان الشرف أعزّ من المنصب والمال».

والوعي الانساني هوالذي «ينبّه إلى الظلم كيف يرفع، ويشير إلى الكرامة البشرية وقيمتها».

والسمة الثالثة: أنّهم جميعاً وقفوا جهودهم على إحياء الشرق الاسلامي، فقد كان ذلك الشرق هوالشغل الشاغل لهم جميعاً، وكان لسان حالهم قول الشاعر العربي:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

وقد كانوا من أبناء جمال الدين الروحيين، وكانوا أبرز أنصاره في الحركة الفكرية التحريرية التي آذنت بأن تؤتي ثمارها دانيات في مختلف الأرجاء.

والسمة الرابعة: أنّهم جميعاً أدباء مفكرون، فكان أدبهم كما قيل بحقّ: «أسرع ذيوعاً، وأهم مدى، وأعظم دوياً وأحكم إصابة للهدف في ميادين التحرر الفكري والانقلاب الاجتماعي والتقدم البشري»، لأنّه أدب «هادف» أو أدب «ملتزم» كما يعبّر الوجوديون اليوم.

ومن هذه الجهة كان لهؤلاء الروّاد في قومهم وزمانهم أثر كبير يندر أن نجد له نظيراً في آداب الأمم الأخرى، وقد يصدق على دعوتهم ما ذكره الكواكبي عن دعوته من أنّها «كلمات حقّ وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غداً بالاوتاد»، والواقع التاريخي شاهد على ذلك، فقد قيل في وصف السيد جمال الدين الافغاني أنّه رجل «يتناول السوط بيمناه، ويوزع الثروة بيسراه!». وقيل عن الامام محمد عبده أنّ دعوته لتحرير الفكر من قيد التقليد تفوق ما صنعته الجيوش من فتح البلدان أو ردّ العدوان. وقيل عن الكواكبي أنّ كتابه «طبائع الاستبداد» كان من أبرز الكتب التي عرفها الادب العربي في العصر الحديث عن الحرية. وقد كان بعيد الأثر في حياة الفكر والسياسة والقومية العربية جميعاً، أمّا دعوة محمد اقبال فقد وصفت في حينها بأنّها ضرب من الجنون، ولكن سرعان ما استجابت لها النفوس، وما لبثت أن أصبحت حقيقة واقعة بانشاء «باكستان» دولة إسلامية مستقلة. وهذا يؤكد أنّ المثالية هي الطريق الصحيح للتجديدية الاسلامية ولكل تجديد انساني.

صورة الافغاني:

بعد هذا التقديم نعود إلى الافغاني، فنقول: هذه صورة مشرقة اللمحات، زاهية القسمات، يسطع منها نور وتنبثق منها نار. إنّنا ها هنا أمام عبقري من عباقرة العصر الحديث، أصبحت شخصيته في نظر الشعوب الشرقية «رمزاً» للكفاح المتواصل من أجل التحرر السياسي، وأضحى اسمه علماً خفّاقاً للاسلام المستنير النازع إلى صون كرامة الانسان، الساعي إلى إيقاظ الشعور بحقّ المواطن، في البلاد المغلوبة على أمرها، أوالواقعة تحت نير الاستعمار الغربي أواخر القرن الماضي.

الاختلاف حول الافغاني

وقد اختلفت الأقوال في شخصية الافغاني، واختلفت في تبيين مرامي أقواله وأفعاله، بل لقد اختلفوا في اسمه ونسبته إلى بلاد افغانستان، فذهب بعض الكتّاب الايرانيين إلى أنّه ايراني، وحاول بعض الاتراك أن يثبتوا أنّه من أصل تركي، كما ذهب بعض الهنود إلى انه نشأ في قرية «شيروت» في بلاد الهند، فترجمت إلى اسعد آباد لأسباب سياسية.

وظاهراً أنّ كتاب الشرقيين يتنافسون في نسبة السيد جمال الدين إلى بلادهم، والحق أنّه لم يكن لجمال الدين وطن يستقر به، فقد كان بروحه ومنازع فكره شرقياً مسلماً، مواطناً للشرق الاسلامي إن لم يتسير له أن يكون مواطناً للعالم كلّه، على غرار «الحكيم الرواقي» القديم.

أمّا آراء الافغاني فكانت ولا تزال موضع جدال واختلاف بين الغربيين والشرقيين، على السواء، فمنذ أواخر القرن الماضي رأينا كتباً عنه بالعربية وباللغات الاجنبية، بعضها يثني عليه ويضعه في صفّ النبياء، وبعضها يطعن فيه ويجرده من كل فضيلة.

ولنبدأ بمصر ـ وقد كان أثره فيها أعظم من أثره في أيّ قطر آخر: نجد كاتباً يخفي اسمه، يؤلّف عنه كتاباً بعنوان: «تحذير الأمم من كلب العجم»! واعفيكم من سماع شيء من ذلك الهراء السقيم. وفي مصر أيضاً نشر عنه كتاب فرنسي بعنوان «جمال الدين الافغاني ودخائل علاقاته مع السلطان عبد الحميد» بقلم جورج كوتشي. ومع الأسف أنّ هذا الكتاب الخطير قد نزعت أوراقه ولم يبق منه في مكتبة الامام محمد عبده الاّ

غلافه! وفي السنين الأخيرة شهدنا حملة مسعورة تريد أن تشوّه صورة الافغاني ومحمد عبده أمام أعين الشباب الاسلامي. وظاهراً أنّ الاستعمار يحرّك بعض ضعاف النفوس في غير واحد من بلاد الاسلام. وواجبنا أن نكون ايجابيين، بمعنى أن ندرس ونتابع الدرس لنجلوا جوانب حياة الافغاني، لا لكي نردّ على المتخرّصين، ولنتركهم وشأنهم كما يقول أديبنا الكبير الاستاذ عمر الاميري.

ايديولوجية الافغاني

جمال الدين الافغاني، في تاريخ الفكر الاسلامي المعاصر، هو الرائد لحركة النهضة العقلية التي قدّر لها أن تزدهر في أرض الاسلام منذ أواخر القرن الماضي حتى يومنا هذا. ولقد ذاعت أفكار الافغاني بفضل عدد من تلاميذه ومريديه الكثيرين، مثل محمد عبده ومصطفى عبدالرزاق في مصر، ورشيد رضا وعبدالرحمان الكواكبي في سوريا، وابن باديس في الجزائر.

ولا ننسى أنّ أثر الافغاني قد تجاوز العالم العربي إلى ايران وتركيا والهند وأندونيسيا، على الرغم من المعوقات وردود الفعل الداخلية والخارجية التي اعترضت الحركة الاصلاحية الجمالية زهاء قرن من الزمان.

لم يبالغ الشاعر الانجليزي (والغرد سكاون بلنت) حين وصف الافغاني بأنّه (رجل ذو عبقرية طاغية) تفجّرت تعاليمه القوية خلال «الظلامية» السائدة آنذاك كبريق يخطف الأبصار.

والتقى به الفيلسوف «رينان» بباريس فترك هذا اللقاء أثراً كبيراً في نفسه عبّر عنه حين قال: «إنّ حرية فكره، ونبل أخلاقه، وصراحته، جعلتني أشعر أثناء حديثي معه بأنّي أمام واحد من معارفي القدماء وقد بعث الحياة مرة ثانية، كابن سيناء أو ابن رشد أو أيّ واحد آخر من أولئك الاحرار الكبار الذين مثّلوا تقاليد الروح الانساني زهاء خمسة قرون».

زار الافغاني كثيراً من البلاد الشرقية الاسلامية، وتعرّض بسبب تعاليمه الثورية الجريئة لاضطهاد السلطات الحاكمة حيناً وللابعاد عن البلاد أحياناً أخرى، وانتهى به

المطاف إلى اسطانبول حيث مات، ولكن تعاليمه الحية بقيت حيــة تلـهم الأجيـال مـن الثائرين.

وكلمتي هنا عن الافغاني ليست بحثاً بالمعني الدقيق، بل هي إشـارات أو ملاحظـات قد تصلح لأن تكون مادة لاستكمال تاريخ الأفغاني، ولتاريخ الحركـات الفكريـة الـتي ظهرت في الشرق الاسلامي منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وامتدت إلى وقتنـا هذا. وهي ضرورية بوجه خاص لفهم النهضة التي بدأت تلقي أضواءها على الجامعات الاسلامية العتيقة في فجر ما سمّاه «ألبرت حوراني» باسم «العـصر الليـبرالي» أوعـصر التحرر، والتنوير.

وعلى الرغم من أنّ الأفغاني لم يؤذن له أن يدخل الازهر، فـإنّ شـهرته كانـت قـد سبقته إلى القاهرة منذ زارها أول مرة سنة ١٨٦٩، وتقاطر طلاب الجامعة الازهرية إلى لقائه، وكان أول مريديه منهم الامام محمد عبده، وبفضل الافغاني تحوّل محمد عبده عـن التصوف إلى المشاركة في الحياة العامـة، وتحـوّل مـن مناصـرة الأشـاعرة إلى مناصـرة المعتزلة.

وأول ما أودّ أن أسوقه من ملاحظات هو أنّ التاريخ الحقيقي لأيّ بلـد أو أيّ أمـة هوتاريخها «الجواني» اذا جاز هذا التعبير، وأعني به ذلك الذي لا يقتـصر علـى رصـد الحركات الظاهرة، والنظر إليها من الخارج، وكأنّه يرصد حركات الاجرام الـسماوية أو يتفرج على مشاهدة مسرحية دون أن يتفاعل معها أو يعانيها من الداخل، واذا جاز لي أن استعير تعبير «المتضمنات» الذي يستعمله الأستاذ جاك بيرك في هذا الصدد، قلـت: أنّ اهتمامي عند الحديث عن الأفغاني إنّما ينصبّ عن المعاني في القاهرة بعد مجيء ذلك العبقري إليها، وتردّده عليها زمناً طال أوقصر. ولكن ممّا لا شك فيه أنّ مثل هذه الواقعة قد تركت آثارها العميقة عند الكثيرين من شباب المسلمين، أزهريين وغير أزهريين.

والمعنى الأول: من معاني هذه الايديولوجية هوالدعوة إلى قيام «نظام نيـابي» لمـصر ولغيرها من البلاد الشرقية، بدلاً من النظم السائدة؛ كالسلطنة أو الامارة أو الخلافـة أو الخديوية أو الملوكية.

وقد كان للافغاني أثر كبير في هذا الاتجاه، وبخاصة في زيارته الثانية للقاهرة سنة ١٨٧٩، ومن المعروف أنّ (محمد عبده) تلميذ الافغاني الأول هوالذي صاغ مبادئ أول حزب وطني ظهر في مصر قبل الحركة العرابية.

والمعنى الثاني: معنى الاشتراكية، والأفغاني أيضاً هوالذي بثّ هذه الافكار لأول مرة في مصر، وفي كتاب المخزومي باشا فصل عن «الاشتراكية الاسلامية» ومدى اختلافها عن الاشتراكية الغربية. يقول جمال الدين: شرّع الاسلام الزكاة درءاً لجشع الانانيين، ودفعاً لحقد الفقراء على أرباب الثراء. ومن أقواله المأثورة في مصر قوله مخاطباً الفلاح المصري: «أنت أيها الفلاح تشقّ الارض بفأسك لتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشقّ قلب ظالميك!»

والمعنى الثالث: من معاني الايديولوجية الافغانية ما تجلى في حملته على الاستعمار، والاستعمار عنده من قبيل أسماء الاضداد وهوأقرب إلى «الخراب» والتخريب، وأدنى إلى الاسترقاق والاستعباد منه إلى «العمار» و«العمران» و«الاستعمار».

والمعنى الرابع: هو بيانه أنّ الدعوة الاسلامية الأصيلة هي دعوة إلى الايمان بحرية الانسان والانكار لفكرة الجبر، والمكتوب والمقسوم كما هي مفهومة لدى بعض المسلمين، وكثير من الغربيين الذين ينسبونها خطأ إلى الاسلام، وهومنها بريء، والافغاني يفسّر «القضاء والقدر» على معنى جديد، معنى مخالف للجبر، ومتفق مع ما يسمّى بلغة المفكرين المعاصرين باسم الحتمية العلمية، أو«العلّية والسببية» وقد صرّح الافغاني غير مرة بأنّ الاعتقاد بالقضاء والقدر، اذا تجرد من شناعة الجبر، تتبعه صفات الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على الصبر واحتمال المكاره.

والمعنى الخامس: هو معنى «العقلانية» التي تميّز بها الاسلام عن سائر الأديان، ويصرّح الافغاني في كثير من المناسبات بأنّ الاسلام «يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل».

فانّ هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلّما خاطب خاطب العقل، وكلّما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل

والبصيرة، وأنّ الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وإطفاء نور البصيرة. «وواضح أنّنا هنا نكاد نسمع صوت أبي العقلانية الحديثة. الفيلسوف الفرنسي ديكارت».

والمعنى السادس: هوالدعوة إلى ما يمكن أن نسمّيه باسم «الجامعة الشرقية» ولا يسعني هنا إلاّ أن أخالف الكثيرين ممّن كتبوا عن الأفغاني، فحصروا دعوته في الاتجاه إلى «الجامعة الاسلامية» فالافغاني إنّما كان يريد وحدة شرقية عامة تكفل لدول الشرق سيادتها وتحرّرها من طغيان الغرب. وكان يريد أن يكون «مواطناً للشرق» كلّه إن لم ييسر له أن يكون «مواطناً للعالم»، على غرار «الحكيم الرواقي» القديم. ولا عجب فقد كان ذلك الشرق هو شغله الشاغل، يهتف باسمه في حلّه وترحاله، وكأنّ لسان حاله قول شاعرنا العربي المعاصر:

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

ولا حاجة بنا إلى الإطالة في بيان أثر مدرسة الافغاني التي سيطرت على الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والادبية في مصر المعاصرة، من محمد عبده إلى سعد زغلول، إلى قاسم أمين، إلى لطفي السيد وعلي عبدالرزاق، لقد أصبحت تضحية الأفغاني ـ في نظر الشعوب الشرقية ـ رمزاً حياً للكفاح المتواصل من أجل التحرر السياسي، وأضحى اسمه علماً خفاقاً للاصلاح المستنير النازع إلى صوت كرامة الانسان، الساعي إلى إيقاظ الشعور بحقّ المواطن في البلاد المغلوبة على أمرها، أو الواقعة تحت نير الاستعمار الغربي.

فدعوته في صميمها دعوة إلى الحياة الكريمة، وارتفاع عن حياة الذلّ والمهانة، وكأنّ لسان حاله ما عبّر عنه الشاعر العربي حين قال:

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

«١٦»

العصبية في فكر جمال الدين الأفغاني

الأستاذ عبد الإله بلقزيز

- المغرب -

العصبية في فكر جمال الدين الأفغاني

«كلّما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصّب فيهم، استرخت الأعصاب، ورثت الأطناب، ورقّت الأوتار، وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلّي، وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها، فما هي إلاّ كالأجزاء المتناثرة، إمّا ان تتصل بأبدان أخرى، بحكم ضرورة الكون، وإمّا أن تبقى في قبضة الموت...».

الافغاني: التعصب

مقدمة

ثمة في الوضع العربي الراهن، وفي ساحته الفكرية على وجه الخصوص، ما يملي الحاجة إلى إعادة طرح وتناول جدل العلاقة بين الانتماء العربي والانتماء الاسلامي للجامعة العربية. فها نحن نجدنا ـ أمام وقائع التطاحن الجارية على الساحة الفكرية العربية سجالاً محتدماً حول الموضوع ـ على أعتاب طوتر من المناظرة تنزلق فيه الخطابات الفكرية ـ على تفاوت درجات هذا الانزلاق ـ إلى تحزّب ضيّق وإلى ارتهان أعمى لقوانين الاستنفار، إذ يخرج الجدل من نطاق المناظرة ليتحوّل حرباً، وفي الحرب متّسع لكل ألوان التضليل والتمويه. وهكذا كلّما كان على الفكر أن يرتضي لنفسه وظيفة تنظير السياسة ـ كممارسة ـ وتبريرها، كلّما ضعفت مناعته النقدية، واتسعت الهوة التي تفصله عن الموضوعية والحقيقة والتاريخ، وكلّما فقد رصانته العلمية هذه

(وهي ليست متعارضة، بالضرورة، مع حاجة التاريخ والناس) كلّما كان أميل للتوظيف في كل المعارك، حتى أقلّها عدالة، وأكثرها عبثية ومفارقة للمعقول[١].

ومرة أخرى، نجد في الوضع العربي ما يجعل هذا الحديث مشروعاً. فالوعي العربي المنشقّ على نفسه بين نصير لـ«الذاتية العربية» وبين مدافع مستميت عن «الذاتية الاسلامية» ما عاد يعلن عن رحابته العلمية والايديولوجية، وما عاد متسعاً لقبول التعايش بين عنصرين كوناً، ولا يزالان يكونان الاجتماع العربي الحديث والمعاصر: التعايش الذي انطوى عليه المجتمع وعاشته الجماعة في الفكر والوجدان قبل أن يرسيه رواد الفكر العربي الحديث تنظيراً وتأصيلاً في الثقافة والمجتمع.

وكثيرة هي الأسباب والعوامل التي تقف وراء نشوء هذا الانقسام وتعمّقه في الوعي العربي الحديث[٢]، ولكن أيضاً، كثيرة هي الفرص المتاحة أمام هذا الوعي لكي يتجاوز ثنائيته الحادة هذه، التي بلغت حدّ الطلاق النهائي، ولكي يؤسّس رؤية أكثر عمقاً وثراءً وتاريخية لمسألة «الذاتية» ومصادرها وهيأتها النظرية والاجتماعية، تفتح الباب أمام حركته ـ والجماعة العربية ـ لولوج قنوات ومسارب العصر دونما شعور بعقدة النقص والدونية الذي يدفعه إلى الاقتداء بالغالب ـ نظامه وفكره وقيمه ـ والاندماج في «كونيته» ودونما شعور بالخوف والعجز الذي يضعه في حالة نكوص أمام التاريخ الحاضر والكفاءة، غير مسحوب، إلى الماضي[٣].

---

١. لنا في بعض «المثقفين» الذين ارتضوا لأنفسهم تسخير أقلامهم للدفاع عن معارك جانبية مثالاً صارخاً على ذلك.

٢. انظر: برهان غليون في، الوعي الذاتي، منشورات «عيون المقالات». الدار البيضاء، الطبعة الاولى ١٩٨٧.

٣. لا شك أنّ الوعي يكون ضعيفاً وقاصراً، ولا تاريخياً في الحالتين معاً، فالاندماج في ثقافة «الآخر» ليس صكاً حقيقياً للمعاصرة والتقدّم، فإنّ أوروبا لا توزّع التقدم على غير أبنائها الذين صنعت وتصنع لهم وبهم حضارة التقدّم. هذا فضلاً عن أنّ مريديها من أبناء «العالم الثالث» ومنهم مثقفونا، لا يفعلون اكثر من أنّهم يستهلكون ولا يملكون عزماً كافياً لمواجهة تحدي العصر. كلا الحالتين يقود إلى الغربة: الغربة عن الحاضر. والمفارقة أنّ أوروبا صنعت أمجادها بنفسها، لا بغيرها ولا بالاقتداء، والماضي العربي ـ الاسلامي صنع أمجاده بنفسه، بحاضره، وبالاجتهاد، وبالانفتاح، على الثقافات العالمية، لا بالانكفاء النكوصي. وكلا النظامين الأوروبي والعربي الاسلامي كان يملك الثقة بالذات والعقل المنفتح. وهذا هو ما يفتقده عقل النخبة ←

واذا كان يتوافر بعض فرص هذا الحل من معطيات الوضع الفكري الراهن، وتحديداً ممّا هوثاو ومنبت من نقاط ومن قواسم مشتركة في خطابات النخب الثقافية، فإنّ في بعض ما خلف روّاد الاصلاح الفكري ـ للقرن الماضي ومطالع القرن الحالي ـ من آثار، ما يسمح لنا بتجديد ربط الصلة ـ التي ما انقطعت يوماً ـ بين أسئلة النهضة وأستئلتنا، ومساهمات روادها في الاجابة، وما نحن مزمعون على صوغ الردود عليه. ففي الكثير من تلك الآثار ما يجعلنا نعترف بقدرة السلف الحديث على حلّ إشكالات العصر والظرفية بكثير من الدقة النظرية والرحابة الفكرية، وبما يستجيب وحاجيات التاريخ الذي عاشوه ـ وفي شروط ربما كانت أسوأ مما نحن فيه ـ بمعاناة ودراماتيكية، ولكن ايضاً بعدة نظرية وارادة مكنتهم من تخطي حالة الانفعال إلى الفعل.

ولا يقع الحديث عن الحاجة إلى ربط الصلة بين فكر رجال النهضة وفكرنا ـ على هذا الصعيد بالذات ـ في مدار الدعوة إلى التجاء للماضي والتماس الجواب من مدونته، وهوما كنّا بصدد التشكيك في جدواه وحجيته، بل يكتسب أهمية من عنصر على الأقلّ:

أولهما: انّنا لا نزال ـ في ما نطرح ونتداول من موضوعات وقضايا ـ ننتمي إلى الحقل الثقافي في الذي شيّدته النهضة، على صعيد أسئلتهم الفكرية، أو على صعيد نوع الإجابات التي قدّموها. وبكلمة: إنّنا لا نزال بفكرنا داخل إشكاليتهم: إشكالية النهضة.

وثانيها: أنّ الاهتمام بإجابتهم ـ على سؤال «الذاتية» أو«الهوية» ـ ليس بدافع التبنّي لتلك الإجابة، أي: ليس بدافع بعثها وإحيائها من زاوية محتواها النظري والمعرفي. وإنّما بهدف الاحتفاظ ـ من تلك الاجابة ـ بوضوحها الايديولوجي، أو بوضوح مقاصدها لديهم هم الذين صاغوها وبالطريقة التي صيغت فيها. فالأمر هنا لا يتعلّق بدعوة إلى أن تبتهل مناسبة الاجابة؛ لتكرارها وترددادها في ظروف حاضرة لها بعض ما يميزها، بل بدعوة إلى تأصيل وتبيئة تلك الرؤية الرحبة التي صدروا عنها ـ وصدرت

الثقافية العربية المعاصرة ـ بجميع أجنحتها ـ فهولا يزال يواجه «الشاهد بالغائب» ويعيش عالة على الماضي العربي ـ الاسلامي، وعلى أوروبا ....، ومن ثمة على نفسه. هكذا يتخلّى عن أن يكون جديراً بأن يرث حضارته العظيمة، وعن أن يكون جديراً بمنافسة أوروبا.

عنهم ـ ومكّنهم اعتمادها من درء خطر انشطار الوعي إلى حرب داخلية لاطائل منها، فيما تدعو الحاجة ـ حاجة التاريخ والفكر أيضاً ـ إلى الإعراض عن النزاعات غير المشروعة أو المبّررة، والالتفات إلى ما يجعل تلك «الذاتية» عصية على التفتيت والتذرر إلى أجزاء متناقضة، ومفتوحة على إنتاج وإعادة إنتاج ذلك التعايش الفذّ بين عناصرها التكوينية، أي: أنّها دعوة إلى التسلّح بهذه الرؤية التاريخية التي كان لهما الفضل في أنّها صاغت وضمنت التعايش ـ في الوعي العربي ـ بين مكونات بدت، في لحظة من التاريخ، وكأنّها متعارضة، وهوالتعايش (أوالتسوية الفكرية) الذي أتاح للفكر العربي، على امتداد القرن الجاري، أن يتطور دون أن يتحكم بتطوره منطق الحرب بين مكوناته ـ كما تبدو نذره الآن ـ بل أن يتطور ويتغذّى من التعدّد والتنوع الذي ينطوي عليه تكوينه.

تلك هي الاعتبارات التي تدفعنا لإعادة طرح سؤال «الذاتية» وتوزّعها بين مكوّنين: إسلامي عربي، من خلال مثقفي النهضة.

أولاً: لقد قصدنا أن نأخذ جمالالدين الافغاني عينة مختارة ـ من ضمن مفكّري النهضة ـ نطلّ من تفكيرها على المشكلة هذه. ولم يكن الأمر اختياراً عشوائياً، بل لاعتبارات واعية يمكن إجمالها في مايلي:

١ ـ عُدّ الافغاني، بحقّ، رائد المدرسة الفكرية العربية ـ الاسلامية النهضوية الحديثة ومؤسّسها الفعلي. فخلال إقامته في مصر والمشرق العربي مارس أبلغ تأثير على لفيف من التلامذة الذين أتيح لهم ان يؤسسوا ـ إلى جانبه ـ أو بعد وفاته تياراً نهضوياً عريضاً بمصر والشام، تحرك في إطار المشكلات والقضايا التي أثارها أو صاغها «السيد» درساً وشرحاً في «الأزهر» والصحافة... الخ. واذا كان محمد عبده وأديب إسحاق مثلاً، قد تداولا ما أرسى الأفغاني مداميكه النظرية (وبصرف النظر عن طبيعة المواقف السياسية التي اتخذاها قبل أو بعد) فإنّ جيل لطفي السيد ورشيد رضا ثم اللاحقين يتصل إنتاجاً وتفكيراً بموضوعات المؤسس. وهذا إنّما يراد به القول: إنّ الاطار الذي رسمه الافغاني لموضوعات التفكير النهضوي ظلّ الاطار الاشكالي الجامع لعمل المريدين

المباشرين، ومن يعمل في نطاق مدرستهم الفكرية من الاتباع. ولا نسوق الأمر هنا من باب التعميم التعسّفي غير المستند إلى دليل، إذ إنّ المتصفح للمتن النهضوي يقف حقاً على هذه الحقيقة (اتحدث هنا بالتحديد على الصعيد النظري الاشكالي)، بل التيار الليبرالي العربي (خصوصاً في مصر) ـ وقد وجد في كثير من موضوعات الشيخ محمد عبده نقطة انطلاقة ـ الذي بدأ منذ العقد الثاني من القرن الحالي وكأنّه يغادر الساحة التي هيمنت عليها موضوعات الافغاني ومعادلاته الفكرية، سرعان ما سيعرف عوداً تراجعياً إلى «البيت الفكري» لـ «السيد». ولعلّنا نجد في كتابات طه حسين والعقاد المتأخرة شاهدنا القاطع على ذلك.

إنّ أهمية هذه الزيادة (أوهذا الدور التأسيسي على المستوى الاشكالي) ـ وصورتها الجلية في ما يتصل بحديثنا في ارتباط الخطاب النهضوي في مجال الانتاج الفكري السياسي، بموضوعات الافغاني ـ هي ما يجعل احتفالنا بالافغاني، وبقضية العصبية في تفكيره، يكتسب كامل مصداقه النظري. بل نزيد على هذا بالقول إنّ له فضل المساهمة الوازنة في تأسيس الاشكالية النهضوية، وصياغة عناصرها النظرية، فإنّ له ـ في حدود ما نعلم ـ فضل صياغة وبلورة المسألة الجنسية (المسألة القومية) في الفكر العربي الحديث. وليس يهم أن يُحْتَجّ علينا هنا بالقول إنّ عمله ـ على هذا الصعيد ـ كان مسبوقاً بمواقف وكتابات لغيره في الموضوع. فالأمر هنا حجة للرجل، لا حجة عليه، إذ هو دفع بهذا المكتوب إلى أن يصبح مشكلة المشاكل في الفكرالسياسي العربي الحديث، مخرجاً إياه من إطار الإثارة إلى ضفة الاشكالية.

٢ ـ ليس بخاف أنّ مسالة «الجنسية» أو«الذاتية» القومية، شأن نظري سياسي، بقدر ما هي شأن معرفي تاريخي إذ لا يتعلّق الأمر ـ في حالة السجال الذي دار في حينه بين أنصار «الذاتية العربية» وأنصار «الذاتية الاسلامية» ـ بالبحث فقط في واقع هذه «الذاتية» أو«حقيقتها» أوفي تكوينها التاريخي، ووجهة انتسابها إلى هذه الدائرة أوتلك، بحثاً يعتمد التاريخ أسانيد، ومرجعاً وفيصلاً في الحكم، أي: أنّ الأمر لا يتخذ هنا منحى البحث النظري المتجدّد من اعتبارات الظرفية التي يجري فيها، الهادف إلى تثبيت

حقائق ما والانتصار لها ضد التغليط أوالغلط أوالالتباس. بل الأمر تعدّى هذا الصعيد ـ الذي كان بالكاد جنينياً وغير مكتمل الهيئة والعدة ـ إلى الارتباط بالصراع المحتدم وحاجاته وفروضه. فالسجال ذلك أتى تعبيراً عن جدول اجتماعي وسياسي قائم بقدر ما كان جزءاً منه وعنصراً فاعلاً في تحريكه وإدارته. كانت المعركة الداخلية التي فتحها الاستعمار بسياساته التقسيمية الطائفية والانفصالية ـ التي اتخذت الاقليات والوجاهات المحلية والنخب الحديثة مطية لها ـ هي الإطار الذي رسمت فيه وارتسمت ملامح وحدود التدخّل الفكري للهيئة المثقفة، أوهي الإطار الذي تحكم في ـ بقدر ما لجم ـ عملها النظري. لذلك أتت الكتابة النهضوية في موضوع «الذاتية» ـــ مع الافغاني وعبده والكواكبي وفرح انطوان... الخ ـ تتحرك في دائرة سياسية محددة بأحكام الظرفية تلك، ومشدودة إلى أهداف، تقع منها الاجابة على حاجات الصراع، وتحدي الاستعمار، والتأخّر عن موقع القلب أو المركز. ولذلك أيضاً لا نستطيع النظر إلى تلك الكتابة، ولا ان نحاكمها لا بما هي كتابة سياسية، لا تنزع إلى التحقيق والتنظير ـ إلاّ لماماً ـ بقدر ما هي تنزع إلى إعادة هيكلة الفكر والذات بما يجعلهما أهلاً لمواجهة مستجدات المرحلة واستحقاقاتها.

وحيث إنّ المسألة تتخذ هذا المنحنى السياسي نستطيع القول دون تضخيم أومبالغة إنّ الافغاني هورجلها الأجدر[1] من ضمن مفكّري النهضة، وجدارته وأهليته للخوض في قضية كهذه، متأتاة من تكوينه السياسي الفذّ والموسوعي، ومن معايشته الدقيقة والتفصيلية لتطورات الحياة السياسية والفكرية في مجموع العالم الاسلامي، بل ومن واقع انخراطه في الصراع كمناضل سياسي ضد الاستعمار، عرف ـ معرفة الخبير ـ موقع ومكانة «المسألة الجنسية» (القومية) في ذلك الصراع، والأهداف التي يروم الاستعمار تحقيقها من وراء إثارته المسأله أورعايته قواها المحلية. بل ألاّ يسعنا هنا ـ ونحن في

---

١ ـ وحتى لا يساء فهمنا في هذا الحكم، نؤكّد هنا أنّنا نتحدّث عن فترة لم تزل كتابات الكواكبي القومية لم تظهر بعد.

معرض تبيان جدارة الرجل لتناول الموضوع ـ إلاّ الإشارة والتنبيه إلى أنّ المسألة القومية في هذه الفترة بالذات لم تكن قد أخذت بعدُ ذلك المنحني الذي أخذته إبان سياسة التتريك، والذي جعل القومية العربية عملة متداولة وقاسماً مشتركاً لدى معظم من تناظروا في الموضوع، بل كانت لا تزال قضية متصلة بالصراع ضد الاستعمار، وهذا ما يضفي على مساهمات الافغاني، قيمة مضاعفة، فحين ينتصر الرجل للتعصّب العربي والعصبية العربية ـ وهوأعلم الناس بالرابح والخاسر في ذلك ـ فإنّه يصدر في الواقع عن مواقف وحسابات تنصف ماضي «الذات» وتستشرف مستقبلها وتنحت أسلحة ومعاول ذلك المستقبل.

٣ ـ من يقرأ آثار الافغاني لا شك يلاحظ أنّه «راوح» بين الدفاع عن «الذاتية الاسلامية» والدفاع عن «الذاتية العربية» دون أن يضعها موضع تناقض كلي. والواقع أنّها ليست مراوحة بالمعنى الحرفي بما يجعلها تفيد التذبذب أوالتردد أوعدم الحسم، بل هي إلى وقائع التاريخ الذي عاشه، وأحداث الصراع الذي شارك فيه أقرب منها إلى وضوح ذهني أونظري أو إلى اختيار فكري وعقائدي ما هكذا تبدت صلة بـ «الذاتيتين» ـ اذا صحّ التعبير ـ في شكل انتقال من الأولى إلى الثانية مع الإبقاء على الأولى، وفي شكل عودة من الثانية إلى الاولى مع الابقاء على الثانية، وهي حركة كان مدفوعاً بالتغيرات الحاصلة في شروط الصراع مع الاستعمار، والادوات والوسائل المفترضة للارتقاء إلى مستوى تلك الشروط المتغيرة، مثلها هي ناشئة ـ أيضاً ـ عن نضج فكري وخبرة ومراس غنيين في التعامل مع موضوعات شائكة وبهذا الحجم من التعقيد والخطورة في آن واحد.

ويهمّنا من كل هذا أن نثير الانتباه إلى أنّ هذا «الازدواج» في تفكير الرجل يمنح نصوصه قيمة استثنائية، وذلك بمعنيين: بمعنى أنّ ذلك التوتر يشكّل عنصر إخصاب وزخم للنصّ الافغاني في موضوع «الجنسية» (القومية)، توتر يخرج النصّ من بداهته، ويحمله على تفكير قَلِق غير سطحي ولا جاهز النتائج، وبمعنى: أنّ هذا الازدواج الذي عاشته الثقافة العربية ككل ـ وتعيشه الآن ـ قد لخّصه الافغاني في تفكيره ونصوصه،

بحيث نستطيع ان نقرأه (نعني الازدواج) من خلال عيّنة مفردة، كان لها الفضل في أنّها لم تدعه معلّقاً دون جواب - أي أنّ الأهم في كل هذا هو خبرة الافغاني في التعامل الفكري والوجداني - مع طرفي المعادلة، الخبرة التي نضجت ونمت في سياق الصراع - في وعيه - بين طرفيها، وهو عينه الصراع الذي لا يزال يحتدم الان دون آفاق حقيقية.

٤ - قد تكون فرادة الافغاني - من دون سائر الذين تناولوا موضوع القومية في عصره... وربما راهناً - في تلك الروح الفذة، روح المصالحة بين عنصرين ومبدأين أساسين في تكوين الجماعة العربية، وهي التي سمحت له بتأسيس مقدمات رؤية تركيبية لـ «الذاتية» تتجاوز عن انشطارها الداخلي إلى كتلتين مغلقتين وعصيتين على التعايش، بل التَّجَاوُز.

ففي نصّ الافغاني (وخصوصاً «الخاطرات» وبعض مقالات «العروة الوثقى») نعثر على ذلك التركيب الخلّاق بين الاسلام والعروبة، تركيب كان يعي الافغاني أهميته ووظيفته في الصراع الدائر مع الجبهة الاستعمارية. وكان يدرك الحاجة إليه، ليس فقط لتجريد الاستعمار من أداة كان يراد بها فكّ «العصبية الاسلامية» وإفراغ العروبة من محتواها الوطني المعادي للاستعمار، بل أيضاً لتكريس الاعتراف بهذا التركيب المتنوع بصفة حقيقة معاصرة... وتجد في التاريخ ما يبّررها ويسندها - وقد يكون للافغاني فضل أرساء هذه العلاقة من التعايش التركيبي في الفكر العربي المعاصر، أو بالأحرى في أواسط قطاع عريض من المثقفين العرب الذين ما انفكوا يصدرون في تفكيرهم عن هذا التركيب.

٥ - وثمة اعتبار قد لا تكون له كبير اهمية، ومع ذلك نثيره، ويتعلّق بانتماء جمال‌الدين الافغاني - فقد يضفي القومي غير العربي[1] (الافغاني أوالفارسي)[2] أهمية

---

١. لنتجاوز هنا عن كون الأصل عربياً، إذ هو ينحدر من الامام علي بن أبي طالب كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد عمارة في تحقيقه لأعمال الأفغاني الكاملة. (أنظر: الجزء الأول من الأعمال الكاملة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الاولى ١٩٧٩، ص ٢٨) إلاّ أن إشارتنا في النصّ لا تعني بهذا الجانب، بقدر عنايتها بموطنه السياسي والاجتماعي.

٢. في تحقيق الدكتور عمارة المشار اليه وفي أسانيده الدقيقة والموضوعية ما يشجع على القول بأفغانية جمال الدين انظر نفس المصدر ص ١٩ - ٢٨.

مضاعفة على مواقفه من قضية «العصبية العربيـة» ومـشروعيتها ووظائفهـا الـسياسية والاجتماعية والثقافية. فها نحن أمام رجل يعطي العروبة من التقدير والتنويه ما لم يمنحها اياه أكثر المتاجرين بها من المثقفين ورجال الحكم في العالم العربي، وفيها سيل الـدعوات الانفصالية والانعزالية عن العروبة ينهمر راهناً من دون انقطاع في لبوس «قومي» كاذب أوطائفي أومذهبي من قبل من كانوا أكثر تعصّباً لهـا، وهوموقـف يحـسب للافغـاني في خانة الموضوعية المتجردة من الحسابات العـصبوية الـضيقة، والمفتوحـة علـى التـاريخ حقائق واحتمالات.

إنها ـ باختصار ـ أهم ما يحملنا من اعتبارات على الاهتمام في هذه الدراسة بقضية «الجنسية» في فكر جمال‌الدين، فكيف اذن انطرحت في هذا الفكر؟ ما المسار الذي قطعه تفكيره فيها؟ ثم ما العوامل المتحكّمة في ذلك المسار والمفسّرة له؟

ثانياً: لنلق نظرة ـ اذن ـ على معطيات فكر الافغاني في العصبية الجنسية.

١ ـ في مفهوم التعصب

للافغاني مفهوم للتعصّب نجده ضمنياً في العديد من النصوص، مثلمـا نجـده صـريحاً ومبيّناً في نصوص أخرى. وهوفي الحالة الثانية مفهوم يتكـرر في تعريفـات وتحديـدات مختلفة، لكنّها منسجمة ومتكاملة لتؤدي المعنى الواحد الذي أراده لها صاحبها، فهو(نعني التعصب): «قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصبة، وهـي قـوم الرجل الذين يعزّزون قوته ويدفعون عنه الـضيم والعـداء، فالتعـصّب: وصـف الـنفس الانسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها، والذود عن حقـه»[١]. اي أنّ التعـصّب طبيعة في الناس، به تتكون الجماعة، وهو قوامها، وعنه تحصل نهضتها وشوكتها، إنّه هنا قانون الجماعة المتأتي من قانون الطبع فيها. لكنّه ايضاً «يطلق ويراد منه: النعـرة علـى الجنس، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد»[٢]. اي انه هنـا مـشتق مـن عنصرين: عنصر القرابة والمشاركة في النسب، وعنصر الانتماء إلى الاجتماع الواحد: إلى الفضاء الثقافي والسياسي والمدني الواحد. وهي العناصر الـتي تخلـق في اجتماعهـا أوفي

---

١. العروةالوثقى الاعمال الكاملة، الجزء ١ ص ٤٠.

٢. الصدر السابق ص ٤١.

أحديتها النعرة. بما هي انتصار للرابطة ومدافعة عنها. فالتعصّب في الحالة هذه اذن يخرج من التعريف الجوهراني الطبيعي أو الطبعي إلى التعريف التاريخي أو الاجتماعي (الرابطة).

لكن بمقدار ما يشير التعصّب إلى رابطة جنسية (قومية) اجتماعية مدنية، فهويشير أيضاً إلى رابطة ثقافية روحية، قد تدخل هي الأخرى في تكوين لحمة الرابطة الأولى وتعزيزها، أو في استيعابها ضمن رابطة أشمل وأوسع، إذ «توسّع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً»[١]، فصلة الدين هنا ـ التي تحقّق ذلك الالتحام بين جماعات قد تكون ملتحمة سلفاً برابطة الجنس أو الاجتماع هي الوجه الآخر لذلك التعصّب. وليس ينطوي الأمر هنا ـ في ما نعرض ـ على تفاضل أو أرجحية لهذه أو تلك من العصبيات أو من الاسباب الدافعة إلى قوة هذه دُون الأخرى، بقدر ما ينطوي على أهمية الاحتفال المبدئي بالعصبية كرابطة تصنع بالجماعات ووحدتها: «فإنّ لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات وكشف الكمالات لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب»[٢].

التعصّب اذن، مطلوب في ذاته، وبقطع النظر عما هو منه يشتق مصادره، وهو مطلوب لحاجات ضاغطة هي حاجات الجماعة: حاجتها في أن تتقوم كجماعة، وحاجتها في تحصيل أسباب وحدتها وضمان تماسكها الداخلي، وحاجتها في ردّ تحدي الانفراط أوالتشظي والانصهار في غيرها، وحاجتها لالتماس وسائل النهضة والتقدم... الخ. لكن التعصب ـ شأنه شأن غيره ـ قد ينقلب إلى ضده متى صيغ في أشكال وأطر وعلاقات تنزع إلى الشطط بنزوع الجماعة إلى محورة العالم حول ذاتها. فللتعصّب «حدّ اعتدال وطرفا إفراط وتفريط»، والخروج عن حدّ الاعتدال هذا خروج بالتعصّب عن معناه وعن وظيفته، فالإفراط فيه «مذمة تبعث على الجور والاعتداء»، وذلك أنّ «المفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حقّ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق

---

١. المصدر نفسه.

٢. المصدر نفسه.

الكرامة، وينظر إلى الاجنبي عنه كما ينظر إلى المهمل، لا يعترف له بحق ولا يرعى له ذمة، فيخرج بذلك، عن جادة العدل، فتنقلب منفعة التعصّب إلى مضرة»[١]. يتحول التعصّب هذا إلى شوفينية بغيضة، تنتج كل أشكال الميز العنصري ضد الجماعات الاخرى، وتعيش على أوهام التفوق والانتخاب الطبيعي أو الالهي، وقد يكون ذلك مدخلها إلى الانهيار الذاتي والتوقف عن العطاء، أوالى الحروب الامبراطورية التوسعية الجنونية التي قد ترتد وتنقلب عليها عند عتبة ما من التطور، فضلاً عن أنّ هذه النزعة ترسي «مدنية» قهرية لا روح فيها ولا قوام «شأن «المدنيات» الاستبدادية».

وكما أنّ للتعصّب الجنسي درجات يتحدد وضعه وطبيعته باختلاف كل منها، فكذلك في التعصب الديني ما يجعله مطلوباً، وما قد يجعله بغيضاً ومبغضاً، إذ «قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي، فيفضي إلى ظلم وجور، وربما يؤدي إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم وسحق وجودهم»[٢]، وهذا عين ما يحدث في الحرب الصليبية على المشرق، وفي الحرب المسيحية ضد مسلمي الاندلس[٣].

وإجمالاً، لا تقوم الأمم والدول[٤] ـ بحسب الافغاني ـ إلاّ بالتعصب ـ القومي اوالديني ـ ومن هنا ضرورته والحاجة المكينة اليه. وهذا ايضاً ما يفسر أهمية الموضوع في فكر الافغاني، وضغطه المستمر في نشاطاته السياسية، والصحافية والفكرية.

لكن الحقيقة تقتضينا القول إنّ الالمام بموقف الافغاني من التعصّب والعصبية يستدعي عدم الاكتفاء بالتعريف العام، ومتابعة دعوته الفكرية والسياسية في هذا الاطار من خلال محطتين اساسيتين دافع في كلّ منهما عن موقف مختلف، وكان لدفاعه ولموقفه ما يبرره أو يفسره في سياق المعطيات السياسية والتاريخية والفكرية التي عاشها، وأثرت فيه

---

١. المصدر نفسه. ص ٤١
٢. المصدر نفسه. ص ٤٢.
٣. المصدر نفسه. ص ٤٣.
٤. المصدر نفسه. ص ٣٧.

والمحطتان اللتان نعنيهما بهذا الحديث هنا: الوحدة الاسلامية (الجامعة الاسلامية) والعصبية الجنسية، الوحدة القومية (ومنها العربية).

٢ ـ العصبية الاسلامية: الوحدة الاسلامية

ارتباط دفاع الافغاني عن العصبية الاسلامية ودعوته إلى الوحدة الاسلامية ـ في مرحلة أولى ـ برفضة للعصبية الجنسية ـ ولمشروعيتها وحجيتها وأهليتها لتكوّن الامم والدول، أو لمنافسة العصبية الدينية أوالاستعاضة عنها. وقد بنى موقفه هذا ـ فضلاً عن تأثير عوامل سياسية سنأتي على ذكرها فيما بعد ـ على ما رأى فيه حكماً للدين قاطعاً في الأمر، وتأكيداً من العقل غير منازع فيه.

فالتعصّب للجنس ليس ـ بحسبه ـ طبيعية في النفس جبلت عليها الافعال والأفكار والارادات والممارسات، وانّما هوضرورة مفروضة قد يدعو اليها الطارئ من الحاجات والعارض منها، «فلوزالت الضرورة لهذا النوع من العصبية، تبع هوالضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب»[١]، إنّه ـ اذن ـ وفي أحسن أحواله ليس إلاّ «من الملكات العارضة على الانفس». أما متى تزول هذه الضرورة وينتفي مفعولها، فذلك ما يشرطه الافغاني باحتكام جموع الانفس والاجناس إلى سلطة أعلى هي الله، وهي مبدأ الشعور العام بالاطمئنان إلى الحقوق ومسوغ الاستغناء عن عصبية الجنس.

واذا كان العقل قد قرر أنّ التعصب للجنس مما يعرض للجماعات في معاشها، وأنّه ليس يتأمل على سبيل الطبع والطبيعة، فإنّ الدين بدوره ـ والشارع الاسلامي ـ حثّ على وجوب الإعراض عن هذا التعصب، والانتباه إلى غيره مما يشد أزر الجماعة ويضمن تماسكها. وهكذا وبوحي من الحديث الشريف: «**ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية**»[٢]. ينتهي الافغاني إلى القول بأن «لا جنسية للمسلمين لا في دينهم»[٣] وعلى ذلك كلّه لم تتأسس العلاقة

---

١. مقال: الجنسية والديانة الاسلامية. العروة الوثقى، الاعمال الكاملة ج ٢. ص ٣٤.

٢. استشهد به الافغاني في نفس المقال. ص ٣٥.

٣. مقال: الوحدة والسيادة. العروة الوثقى، الاعمال الكاملة ج ٢ ص ٢٦.

بين الأجناس داخل الاسلام ـ كما يرى الافغاني ـ [1] على مبدأ الارجحية النسبية أوالانسابية مهما تفاوتت آثار هذه الأجناس، بل هي انعقدت على الخضوع للشرع والأمتثال للأمر الالهي. بحيث صار بمكنة الواحد أن يقوم بأمر المسلمين دون استناد منه في ذلك إلى مرجع الحسب والنسب.

هذا الامتياز الذي يخلقه ويقود اليه الانتماء إلى رابطة الاسلام والعمل بأحكامه هوما يفسّر إعراض المسلمين، على اختلاف اقواهم عن الاهتمام بما يربطهم من روابط خارج دائرة المعتقد «فإنّ المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة»[2].

والتأكيد على هشاشة الرابطة القومية أمام رابطة المعتقد، بل التنويه بهذه الثانية وبالشكل الذي تم به ليس إلا تقريراً أزاده الافغاني مدخلاً نظرياً «للحديث عن قضية سياسية شغلته كثيراً، وكانت في حضورها الاشكالي وحجم ذلك الحضور من أخصّ ما ميزه: (دعوة فكرية ونشاطاً سياسياً) ونعني بها قضية الوحدة الاسلامية التي ارتبط بها اسمه، كمالم يرتبط بها اسم قبلاً أو في ما لحق.

يعبّر الافغاني عن الحاجة الواحدة الاسلامية بصفتها حاجة متأتية من اجتماع عاملين: الأولى: ويتصل بطبيعة الاجتماع الاسلامي الذي يرسم له الامر الالهي وضعاً واحداً ووحيداً، هوالوحدة، وهووضعه الشرعي. أما الثاني: فمردّه إلى الأخطار التي كانت تحدق بـ «الممالك الاسلامية» من طرف الاستعمار لتملي هذه الحاجة بصورة ضاغطة.

أ ـ أنّ الوحدة ـ بنظر الافغاني ـ هوالوضع الطبيعي (والمقبول) للمسلمين، فوحدتهم في اعتقادهم المشترك، في انتسابهم إلى عقيدة واحدة، بيد أنّ هذه الوحدة في الاعتقاد (اي المتأتية من الانتساب إلى الدين الواحد) غير كافية، فقد تحصل أيضاً في

---

١. الجنسية والديانة... ص ٣٥.

٢. المصدر نفسه. ص ٣٥.

حال التفرق والتشتت السياسي والكياني، وهوما كان في التاريخ الاسلامي منذ انفـراط الخلافة في بغداد وتوزعها إلى عباسية وفاطمية وأموية (في الاندلس) وماجرّ اليه ذلـك من وقائع الانقسام والتفكّك. فالاعتقاد المشترك ليس إلاّ أساساً تكوينياً لها. ولكن بقدر ما هو أساس لها، بقدر ما هو باعث عليها. ذلك أنّ نشر المعتقد أو حمايته يفترض كيانـاً للاسلام موحّداً يقوم بتطبيق الأمر الالهي. هكذا تتجاوز وحدة المـسلمين اشـتراكهم في المعتقد ـ بعد أن تستوعبه ـ إلى قضية سياسية.

واذا كان في عقيدة المسلمين «اوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض»[١]، فانّ في هـذه العقيدة ما يجعل ذلك الارتباط شرطاً من شروط الاعتقاد، أي ما يجعل الوحدة السياسية الاسلامية ـ بنظر الافغاني ـ ذات علاقة بالأمر الالهي، ذلك أنّ «الاتفاق والتظافر على تعزيز الولاية الاسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين...»[٢] بل إنّ المسلمين «بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان... وهوفرض عين على كلّ واحد منـهم إن لم يقم قومه بالحماية عن حوزتهم، كان على الجميع أعظم الآثـام»[٣]. هكـذا يطـوق الافغاني مخاطبيه من المسلمين بسلطة النصّ الديني وأحكامـه، مرتفعـاً بقـضية الوحـدة الاسلامية إلى درجة التقاطع بين الحاجة والمقدس، بل هكذا يعلن أنّ هذه الحاجـة مـا انطرحت على المسلمين إلاّ بمقدار ما ابتعد تاريخهم عن الاسلام الاصل.

ب ـ وكما أنّ الوحدة عنده هي الوضع الطبيعي للمسلمين كما قـضى بـذلك الامـر الالهي، فهي أيضاً الردّ الوحيد والصحيح على التحدي الاستعماري الزاحف على الممالك الاسلامية والمستوطن فيها، واذا كانت مخـاطر الاسـتعمار تكمـن في احـتلال أراضـي المسلمين وانتزاعها من أهلها، وفي استعبادهم وحكمهم[٤] وكسر شوكتهم السياسية، فإنّها

---

١ . اسباب تخلف المسلمين، العروة الوثقى، الاعمال... ج ٢، ص ٦٢.

٢ . الوحدة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٧.

٣ . أسباب تخلف المسلمين، ج٢، ص ٦٢.

٤ . وهوكما اكد الافغاني في العديد من المناسبات أمر معارض للتعاليم الاسلامية، ص ٢٦ مثلاً.

تكمن أيضاً في ضرب وحدتهم الدينية وعقيدتهم[١]، لما قد يكون لها (أي العقيدة) من أثر في إعادة انتاج شعورهم بالحاجة إلى الوحدة.

إنّ هذه الحاجة إلى درء الخطر الاستعماري هي ما دعا الافغاني إلى سلوك جميع السبل ـ على تناقضها ـ من تأسيس جمعية «العروة ا لوثقى» ذات الطابع السياسي الثوري المستقل عن الدول الاسلامية، إلى الدعوة لاتحاد فارس وافغانستان، (مع كيل المديح لايران وأهليتها لتوحيد العالم الاسلامي)[٢] إلى عقد الرهان على الامبراطورية العثمانية والسلطان عبدالحميد بالذات[٣]. وهي سبل لم يكن الرجل معنياً بتعارضها أمام الخطر الاستعماري، بل إنّ هذا الخطر هو ما دفعه ـ بصورة أساسية ـ إلى دعوته الشهيرة إلى «الجامعة الاسلامية».

وإجمالاً، اذا كان الافغاني قد ارسى دعوته إلى الوحدة الاسلامية على أطروحته حول العصبية الدينية (فضلاً عن واقع الظرفية الاستعمارية)، واذا كانت العصبية الدينية لا تستقيم ـ في رأيه ـ إلاّ متى فكّكت فيها العصبيات الفرعية (الجنسية، القومية) وأسقطت شرعيتها في قيام الاجتماع، فنحن نجد ـ رغم ذلك ـ في العديد من نصوصه، خاصة المتأخرة منها، دفاعاً عن العصبية الجنسية وعن الضرورة اليها، ودفاعاً صريحاً عن العروبة ورابطتها... الخ. فهل يتعلّق الأمر بتناقض في الفكر أم تردد أم تحول؟ ثم كيف نفهم هذا الانتقال في التعاطي مع قضية العصبية والتعصّب؟ لنستعرض أولاً معطيات فكره حول العصبية الجنسية.

٣ ـ العروبة والتعصّب للجنس

التعصب للجنس سبب من أسباب رقي الامم وتنافسها في طلب المجد[٤]، وسبب من

---

١ . الانكليز والاسلام. العروة الوثقى. الاعمال. ج ٢ ص ١٤٣، وكذا مقال التعصب، نفس المجلد ص ٤٤.

٢ . دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الافغان، العروة الوثقى. الاعمال، ج ٢، ص ٢٦٥/٢٦٩.

٣ . المسألة الشرقية. الخاطرات. الاعمال، ج ٢ص ١٧/١٩.

٤ . التعصب. العروة الوثقى، الاعمال، ج ٢، ص ٤١.

أسباب تكون الدول وقيام سلطانها[1]. وعلي هذا فهو قوام الاجتماع الانساني، شأنه شأن التعصب للدين كما سبق واشرنا إلى ذلك أنّ هذه العلاقة الشرطية، التي يقيمها الافغاني، بين التعصب القومي وبين نشوء الدول ونهوض الامم، هي التي تفسر ـ في رأيه ـ إخفاق العرب في تكوين دولة لهم قبل الاسلام، فعصبيتهم لم تجتمع، بل توزعت في القبائل[2] فانتجت عصبيات فرعية ما كان لها أن تقود إلى غير الحروب الداخلية، وكما حصل للعرب قبل الاسلام وحصل لهم إبان الخلافة العباسية حين ارتضوا تعويض عصبيتهم الجنسية بعصبية غيرهم من الأغراب على صعيد الحكم، وتحديداً على صعيد مناصب سياسية هامة. مما فتح الباب أمام الفساد والتفسخ وقاد إلى تدهور السلطة. وهكذا نخلص ـ مع[3] الافغاني ـ إلى القول إنّ العصبية الجنسية تشكّل مدخلاً ضرورياً وشرطاً أساسياً لتأسيس كيان سياسي اجتماعي مطابق لحاجات الجماعة والجماعات المرتبطة به، وإنّ قوة أو ضعف ذلك الكيان تتقرر تبعاً لقوة أو ضعف تلك العصبية. لقد عبّر الافغاني ـ في العديد من نصوصه ـ عن مواقف مؤيده ومنحازة للعروبة ورابطتها ولسانها وآثارها الفكرية والسياسية والحضارية. وكثيراً ما أتى دفاعه عنها في سياق سجال مع خصوم لها[4] كان حاداً ومعبراً ـ في حدته ـ عن تقدير الافغاني لهذه الرابطة الاجتماعية الثقافية، وإعجابه بآثارها في التاريخ الاسلامي.

ويعزو الافغاني قوة العرب والعروبة ومكانتهما وموقعهما المتميز في التاريخ العالمي إلى عناصر ثلاثة: الآداب، والاخلاق، لسان الآثار الحضارية:

لم يخف الافغاني انبهاره بالدور الريادي للعرب في نشر الاسلام وتوسيع رقعته سواء

---

١. عصبة الجنس وعصبة الدين. الخاطرات، ج ٢، ص ٣٧. انظر أيضاً: مقالاً: رجال الدولة وبطانة الملك. ج٢، ص٤٧.

٢. المصدر نفسه، ص ٣٧.

٣. المصدر نفسه، ص ٣٨

٤. الأتراك مثلاً، اوبعض المستشرقين مثل رينان.

بالحرب أو بالسلم، كمالم يخف انبهاره بحركة التعرب واسعة النطاق الـتي دخلتـها اقـوام كثيرة عن طواعية وطيب خاطر، واكبر عامل وراء هذا التعرب الاختياري مـن اولئـك الاقوام يرجع في نظر الافغاني إلى «الفضائل الاخلاقية والصفات العالية التي كانت تأتي بها العرب. مع بأسهم وشجاعة أبطالهم[١]». ولأنّ لهذه الفضائل «السلطة الادبية على من يتخلّق بهـا» فقـد «انعطفـت قلـوب الامـم علـى استحـسان الوافـدين مـن العـرب لبلادهم...[٢]»، ولم ينتظروا أن يكون التعرب فعلاً إكراهياً قسرياً حتى يلجوه.

وبما أنّ «الاعجاب بآداب قوم، باعث على حـب التقـرّب منـهم» وبمـا أنّ «اعظـم وسائل التقرب: التفاهم» فقد تبارت الاقوام تلك في تعلّم اللسان العربي[٣]. هكـذا نـصل إلى العنصر الثاني المتعلق باللسان العربي.

لاتتأتى قوة اللسان العربي وقيمته وتأثيره من قوة العرب العسكرية كما جاء وقـائع الفتح تعبّر عنها، وانّما هذه القوة كامنة فيه كلسان، ذلك أنّ ما وجد في اللـسان العـربي من اللآداب الباهرة والحكم والامثال والمواعظ... هو الذي أحله من انتشار هذا المحلّ»، فاذن «لـيس للفـاتحين أدنى دخـل فيـه [في انتـشار اللـسان]. ولا اتخـذوا لـه اسـباباً ووسائل»[٤]. ولعلّ «الغريب» في حديث الافغاني عن اللسان العربي، هوعـدم ربطـه لـه بالاسلام لتفسير كل تلك الخصال فيه، عكس ما درج عليـه في موضـوعات أخـرى لم يرلها مكاناً وقيمة الا في علاقتها بالاسلام، فههنا نراه منبـهراً بهـذا اللـسان حـتى قبـل الاسلام، معدداً مزاياه ومشيداً بآثاره وادواره الادبية والفكريـة والتجاريـة[٥]. بـل لعـلّ «الاغرب» من ذلك كله ان يقول الافغاني في حـق العـرب واللـسان العـربي، وهـو في

---

١ . العروبة والتعرب. الخاطرات، ج ٢، ص ٣١٦.

٢ . المصدر نفسه، ص ٣١٥.

٣ . المصدر نفسه، ص ٣١٥.

٤ . فعاليات آداب اللسان، الخاطرات، ص ٣١٧.

٥ . المصدر نفسه، ص ٣١٧.

معرض الردّ على دعوات تتريك العرب: «كيف يعقل تتريك العرب، وقد تبارت الاعجام في الاستعراب، وتسابقت، وكان اللسان العربي لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات واكبر المفاخر؟ فالامة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان، مالا يحتاج إلى دليل أو برهان[1]». إنّه بحق، اكبر تنويه، من رجل لم يعتد أن يداهن باللغة العربية وأهلها.

ويكاد الافغاني يقيم تلازماً بين نجاح الكيان الاسلامي وبين اعتماد هذا الكيان اللسان العربي لسانا رسمياً له. والشاهد على ذلك ما قاله بصدد إهمال الدولة العثمانية قبول اللسان العربي لساناً للدولة، واعتباره هذا الاهمال ـ الذي كان قد حذّر منه السلطان محمد الفاتح ـ سبباً من أسباب انهيار دولتهم[2]. ومردّ هذا التلازم ـ في نظر ـ الافغاني ـ إلى أنّ معرفة اللسان العربي وآدابه هي المدخل إلى معرفة الاسلام وأحكامه، وهذه وحدها قمين بتوسيع رقعة الاسلام، أو على الأقلّ ضمانة وحدته واستمراره ضمن من دانوا بالاسلام.

وكما تشتقّ العروبة مصادر قوتها من الآداب والاخلاق واللغة، فهي تشتقها أيضاً من آثارها الحضارية المدنية والفكرية. ولم يكن الافغاني في حاجة إلى كبير عناء كي يدلّل على هذه الحقيقة، لذلك نراه يلتجيء إلى شهادة تركي (ضيا باشا)، في مفكراته، على آثار العرب المادية والأدبية في كل البقاع التي خضعت لسيطرتهم، مقارناً اياها بما خلّفه الأتراك من آثار هزيلة، منتهياً إلى الاشارة الضمنية الى أثر تلك المنجزات في تعزيز وتوطيد رابطة العروبة، قائلاً : «فالمسلم، أوالمسيحي، واليهودي، في مصر والشام والعراق، يحافظ كلّ منهم قبل كلّ شيء على نسبته

---

١. المسألة الشرقية، ج ٢، ص ١٦.
٢. بين العرب والاتراك. الخاطرات. ص ٣٢٠.

العربية، فيقول: «عربي» ثم يذكر جامعته الدينية»[١].

وقد تكون آثار العرب الفكرية اهم ما أخذ باهتمام الافغاني واستدعى إعجابه الشديد. ولم يفته ـ وهو يردّ على محاضرة لرينان خصصها للقذف في العرب ومساهمتهم في الاسلام ـ أن يستعرض مساهمات العرب الفكرية على الصعيد الاسلامي والعالمي (وتحديداً دورهم في نقل العلوم والفلسفة اليونانية إلى الغرب)، وأصالة وريادة تلك المساهمات قياساً إلى عصرها، مستخلصاً من ذلك تهافت الدعوى الاستشراقية الزاعمة أنّ «الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة، والفلسفة»[٢].

وبالجملة لا شيء يعبّر أبلغ تعبير عن وعي الافغاني بأهمية رابطة العروبة وأصالتها أكثر من كتاباته حول مصر ودور ومكانة مصر في العالم الاسلامي. فمصر ستكون ـ كما توقع لها الافغاني ذلك ـ كبرى الممالك الشرقية ومركزها الذي تدور حوله. وحكم كهذا لا شك يأخذ عروبة أرض الكنانة عنصراً أساسياً فيه، إذ هي وحدها ما يميز هذا الكيان عن تركيا أو ايران كمركزين اسلاميين كبيرين.

ثالثاً: دارت موضوعات الافغاني في التعصب، حول أطروحتين: التعصّب للدين، ومنه موقفه الداعي إلى الوحدة الاسلامية، والتعصّب للجنس، ومنه اعترافه بوجود أمة عربية تجمعها رابطة قومية متميزة. لكن الانتقال ـ في فكر الافغاني ـ من الدفاع المستميت عن العصبية الدينية مع ما في ذلك من إنكار صريح للعصبية القومية، إلى الاعتراف بهذه الأخيرة، وبامكان تعايشها مع الأولى، يثير اكثر من سؤال: هل هوتحول في فكر الرجل، أم تذبذب وارتباك، أم دعوة اقتضتها ظرفية طارئة، أم غير ذلك مما دفعه إلى هذا الموقف؟ ودون أن ندخل في التفاصيل سنحاول

---

١. المصدر نفسه . ص ٣١٩.

٢. ردّ على رينان ج ٢ ص ٣٢٢.

هنا أن نعرض بوجه عام الأسباب التي دعته إلى طرح وصوغ مواقفه تلك في محطاته المشار اليها أعلاه، لننتهي إلى تسجيل بعض الخلاصات المتعلّقة بالموضوع، وذات العلاقة بالوضع الراهن.

١ ـ لم يحفل الأفغاني في مرحلة أولى بالعصبية القومية بسبب من انشداده إلى معركة أوسع هي معركة انجاز الوحدة الاسلامية كردّ على الخطر الاستعماري المهدد لـ «الممالك الاسلامية». وقد يكون من المفهوم تماماً هذا الاعراض منه عن الاهتمام بالمسألة القومية فيما هومدفوع بالآمال العظيمة في إنهاء هذا الخطر على صعيد إسلامي أوسع، تشترك أطرافه ومكوناته في وقوعها جميعاً في دائرته (نقصد الخطر)، فأمام هذا الرهان، كانت تبدو للافغاني الدعوات القومية دعوات تقسيمية وانفصالية، ومن ثمة فهي بنتائجها تصبّ الماء في طاحونة الاستعمار، وتسمح له بفكّ التعبئة الاسلامية من الداخل، وبفتح جبهات من الصراع هامشية تتحول إلى موطئ قدم للسياسة الاستعمارية كما حصل في الهند وسجّله الافغاني. والحق أنّ الأفغاني في دفاعه عن الجامعة الاسلامية كان يرسم لدعوته حيزاً متميزاً عما عداه.

إذ كان يضفي عليها طابعاً تحررياً معادياً للاستعمار[١]، مما جعلها دعوى غير قابلة للتوظيف في معركة صراع مفتعلة مع الفكرة القومية. لا، بل إنّ هذا المضمون التحرري لذلك الشعار هو ما سيشكل مقدمة للأفكار القومية اللاحقة للافغاني، وما سيدفعه دفعاً في اتجاهها.

٢ ـ اذا كانت ظرفية الضغط الاستعماري على العالم الاسلامي في أساس الموقف السلبي للأفغاني من الفكرة القومية، فإنّ ثمة أسباباً فكرية ايضاً وراء ذلك الموقف،

---

١. أنظر محمد عمارة في تحقيقه لأعمال الافغاني الكاملة ج ١ ص ٦٦. ولا يفوتنا هنا التنويه بهذا التحقيق وبسائر التحقيقات التي انجزها محمد عمارة لروّاد الفكر النهضوي، وهوعمل جبار وضخم يشكر عليه صاحبه.

ومنها على الخصوص عدم نضج الوعي القومي للافغاني بدرجة كافية في المرحلة الأولى تلك. والمتصفح لأعمال الافغاني يلاحظ تفاوتاً كبيراً بين مواقفه من القومية في مقالات «العروة الوثقى» وكتابه «الخاطرات» كما يسجّل ذلك - بحق - محمد عمارة في تحقيقه لاعمال الافغاني[1]. ففي نصوص «العروة الوثقى» كان الرجل لا يزال موزّعاً بين موقف عدائي للقومية وبين اعتراف بها خجول وغير حاسم. وقد لا يصح تبرير هذه الحالة الفكرية ـ في «العروة الوثقى» ـ والتماس بعض العذر لصاحبها بالقول: «إنّ ورود أغلب هده الأفكار، ومعظم هذه النصوص في (العروة الوثقى) يجعلنا لا نحسبها جميعاً على جمال الدين، وخاصة إذا علمنا أنّه كان يدير سياسة الجريدة، باسم تنظيم أممي تنتشر قواعده من الهند إلى مصر، متخطياً قوميات المسلمين[2]». والتبرير هنا لا يصح، ليس فقط لأنّ هذه النصوص موقّعة باسمه، مما يجعله يتحمّل مسؤوليتها كاملة، وليس فقط لأنّ عمله في «العروة الوثقى» مجلة وتنظيماً اختيار فكري طوعي وواعي، وإنّما أيضاً لأنّ هذا التحفّظ في نسبة أفكار تلك النصوص إليه شخصياً، قد يشرع الباب أمام صنوف أخرى من التحفظ قد تتعلّق بنصوص أخرى نحسبها كاملة على الافغاني وعليه. لذلك نحجم عن الاطمئنان إلى هذا التبرير، خالصين إلى القول بأنّ أنسب حكم في حقّ هذه النصوص هو الذي يرى فيها تلك النصوص الفكرية التي كان يصدر فيها الافغاني عن خطاب إسلامي لما ينفتح بعد على البعد القومي لاسباب سياسية وفكرية.

٣ ـ تأسيساً على ما سبق، نستطيع القول: إنّ احتكاك الرجل التدريجي بالمسألة القومية ومعايشته وقائع النضال القومي لشعوب عديدة (اشار هونفسه إلى بعضها: المانيا، ايطاليا)، وتعمّقه في فهم الظاهرة الاستعمارية وأهدافها الاقتصادية والسياسية، وإعادة

---

١. المصدر نفسه. ص ٧٤.

٢. المصدر نفسه. ص ٧٤.

قراءته للتاريخ الاسلامي ولموقع العرب فيه... الخ. كان له عميق الأثر في إنضاج وعيه القومي، وفي حسم تردّده تجاه المسالة القومية، وهوتطور حصل تدريجياً ـ كما قلنا ـ لكنّه ظهر جلياً أواخر حياته، وبالذات في كتابه القيّم «الخاطرات». فههنا سنقف حقاً على اول مفهوم عربي للقومية يتخطى بها البعد العرقي (الذي لا معنى له كما تفيدنا بذلك الانتروپولوجيا المعاصرة) إلى البعد الثقافي ـ اللغوي («جامعة اللسان»)[١]، وسنقف بالتالي على مساهمة فكرية ريادية في تأسيس الاشكالية القومية في الفكر العربي الحديث، بل انّنا نستطيع أن نحدّد مساهمته القومية قياساً إلى القوميين العرب في مطلع القرن الحالي (بعد وفاته) بدقّة قائلين ـ مع د. محمد عمارة ـ [٢]بأنه اذا كان هؤلاء القوميون قد تميزوا برفضهم لسياسة التتريك التي نهجها العثمانيون في أواخر عهدهم مع تعاظم النزعة الطورانية، واذا كانوا قد طالبوا بـ «اللامركزية» في الحكم واستقلال التعليم في الولايات العربية، فإنّ الافغاني ذهب أبعد من ذلك (وقبل ذلك) إلى مطالبة الدولة العثمانية بالتعرّب، بل وأفصح عن رغبته في تعريب تركيا كأمة، وهو مالم تعلنه المطالب العربية بعده[٣] والتي ظلّت في مواقع دفاعية، بل وتحت تأثير الاغراءات الاستعمارية!

٤ ـ وقد يكون ثمّ اعتبار سياسي آخر ـ إلى جانب نضج وعيه القومي طبعاً ـ حدا به إلى التعبير الصريح عن موقفه القومي. ونحن نسوقه هنا على سبيل الاحتمال،

---

١. يقول الافغاني ـ في الخاطرات ـ عن اللسان ودوره في قيام الامم وحفظ كيانها: «إنّه من اكبر الجوامع التي تجمع الشتات، وتنزل من الامة منزلة اكبر المفاخر، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها محكومة، وترقّبت الفرص، ونهضت بعد دهر فردّت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها اليها، والعامل في ذلك انّما هو اللسان قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم، وظلّوا في الاستعباد ما شاءالله».

٢. ج١، ص ٩٤.

٣. يمكن ايراد هذه المقولة للجابري في حقّ الافغاني دون التزامها حرفياً: «إنّ رائد السلفية هنا (=الافغاني) يبدوأكثر تعصباً للعروبة من رائد القومية العربية (الكواكبي) الذي جابه سياسة التتريك» الخطاب العربي المعاصر. ص ٧٠. الاستفهام من عندي.

دون أن ندخل في تفاصيل الاستنتاج، ويتعلّق هذا الاعتبار في رأينا بفشل رهانه على وحدة اسلامية في الأفق المنظور، وشعوره بضغط الحالة الاستعمارية التي تستدعي ردوداً ممكنة وواقعية.

لقد سبق أن أشرنا إلى أنّ الافغاني أسس ـ مع مريده الشيخ محمد عبده ـ جريده «العروة الوثقى» لتكون ناطقاً باسم تنظيم سياسي اسلامي. وأنّه راهن ـ إلى جانب هذا التنظيم ـ أيضاً على ايران والدولة العثمانية عساهما ينهضا بمهمة الوحدة الاسلامية. لكن هذه الرهانات سرعان ما بدأت في التلاشي: توقّفت «العروة الوثقى»، وصدم الافغاني من موقف الشاه والسلطان العثماني، فيما كان قد وطّد الاحتلال الاستعماري ركائزه في العديد من البقاع الاسلامية، وتداعى التضامن بين المسلمين، وبدأ الاستعمار يوظّف التعبيرات القومية في سياسته (الهند، المشرق العربي ...) وأخذت الآمال العظيمة التي بناها «السيد» تخفت ويخفت معها رهانه على الوحدة الاسلامية.

كانت مصر في هذه الفترة قد تعرّضت للاحتلال وكانت قد أعطت تجربة فذّة في النضال (ثورة عرابي)، وكانت فوق هذا وذاك البلد الذي اعطى الافغاني آمالاً أخرى عظيمة. أليست هي معقل العروبة، وقلب الجغرافيا العربية، وحاضنة اكبر قواها البشرية، ومهد التجربة التحديثية مع محمد علي وابراهيم باشا (التي نوه بها الافغاني في اكثر من مناسبة)؟ إنّها فعلاً كل هذا كما رآه وأدركه، لذلك رأى في عاصمتها تلك التي ستصبح «كرسي مدينة لاعظم الممالك الشرقية»[1]، ولذلك عقد عليها الآمال وخصّها بأعظم نصوصه السياسية.

فنحن نرى في هذا الانتقال في الرهان، من رهان على تركيا وايران إلى رهان على مصر وشعبها (وربما الخديوي ايضاً)، ما يفسّر سياسياً حضور المسألة القومية في فكره

---

١. الخاطرات.

خلال الفترة الاخيرة من حياته. فمصر وحدها وقبل غيرها ـ حتى لا نقول دون غيرها ـ هي ضامنة الحلّ القومي العربي...، ولحسن حظّ الافغاني لم يجر التاريخ عكس ما اعتقد، إذ لم تلبث مصر أن كانت المعقل الفعلي للدعوة القومية العربية وللنضال ضد بقايا الاستعمار وأحلافه الجديدة، وحاملة لواء الدعوة الوحدوية، رغم كل الأخطاء والخطايا والنكسات، وحين نكست، نكست معها أعلام العرب ليدخلوا جميعاً عصر الطوائف والكيانات القزمية الهشة، والحروب الفئوية والحزبية الانتحارية.

ماذا يبقى من الافغاني؟

ليس يهمّنا ـ بالتأكيد ـ في هذا الباب، أن نستعيد الافغاني كمعرفة أو كاجابة نظرية على مسألة «الذاتية»، إذ ثمة ما يفصلنا عنه على هذا الصعيد المعرفي الصرف. لكن هناك الكثير مما يصلنا به: رؤيته إلى الموضوع، وطريقة طرحه له، بل ـ وأساساً ـ الأسباب التي دعته إلى طرقه، نعم، لقد عاش الأفغاني في وضع قريب الملامح والمعطيات من وضعنا الراهن: التحدي الغربي والمطامع الاجنبية التداعي السياسي والتفتّت الكياني، الانفسام الحادّ في جسم الجماعة، انشطار النخبة الثقافية إلى نخبة حديثة علمانية ليبرالية ونخبة تقليدية محافظة، بدايات الانقسام الطائفي والمذهبي في المشرق، ملامح الصراع الأولي بين قومية عربية ورابطة اسلامية، الصراع بين العلم والدين بين القديم والجديد... الخ. وبكلمة، عاش الافغاني فترة اهتزاز كل الثوابت والمبادئ والقواعد التي نظمت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، العربية الاسلامية، لفترة طويلة، تحت تأثير الاختراق الغربي الشامل، والتي انتجت فضاءً عريضاً من الثنائيات.

عصر كهذا بتحدياته الضخمة، لم يهرب من بين أصابع الافغاني دون أن يدوّنه، ويصوغ عليه الردود، وكان اكبر هذه الردود على الاطلاق هو نداؤه للوحدة ومواجهة الاستعمار. وهو نداء كلّفه كثيراً من الجهد النظري ـ والعملي ـ حتى ينجح في انتاج تركيبة توليفية بين المتناقضات أحياناً. والارتقاء ـ احياناً أخرى ـ بهذه «المتناقضات»

إلى درجة من التركيب انصهارية لا تتعرّف فيها الأجزاء على ذاتها مستقلة وبمعزل عن الكل الذي يشدها إليه. تلك كانت حال مسألة «الذاتية» التي تجاوز فيها الافغاني الأخذ بطرف من أطراف المعادلة دون الآخر. وتلك كانت حال الثنائية: علم ودين، والثنائية: قديم وجديد، التي وجدت جميعها في فكره حلاً تركيبياً (ولا نقول: توفيقياً تلفيقياً) سمح لها بالتطور دون صدام أو تضاد علني.

رجل التسوية هو اذن. التسوية التي تضمن (وقد ضمنت فعلاً) شيئين اثنين:

أولهما: صهر جميع التناقضات ـ الزائف منها والصحيح ـ ذات الطابع الثانوي ـ بلغة السياسة ـ لمواجهة التحدي الاستعماري، وكذا قطع الطريق على الاستعمار حتى لا يستفيد من تلك التناقضات أو يوظّف بعض أطراف الصراع لخدمة سياسته التقسيمية[١].

وثانيهما: تمكين تلك المتناقضات من فرص تاريخية لاختبار مدى تعارضاتها ومدى إمكانية تعايشها دون صدام، وفتح الطريق أمام تطورها السلمي، إنّها بحق، سياسة تتسع للحوار والاعتراف المتبادل، وتنبذ الانكار والاستبداد، وواحدية الوجود والرأي.

وليس غريباً البتة أن نكون في حاجة إلى الافغاني، لأننا أولاً ما نزال نعيش في عصره رغم مسافة القرن ـ الاّ قليلاً ـ التي تفصلنا عن وفاته، وما تزال الاوضاع متشابهة ـ وقد زادت سوءاً وكارثية ـ تهدد باطاحة هذه «المدنية» العربية المستوردة كالحليب المعقم. ولأننا ما نزال نعيش في اطار الاشكالية التي أرساها هو وجيله: اشكالية النهضة، دون أن نتخطّ حدودها، لكن كيف تكون في حاجة اليه ونحن نعيش عصره ونتحرك في دائرة إشكاليته؟ إنّنا باختصار، في حاجة إلى رؤية رحبة كرؤية الافغاني تعيد بناء ما تصدّع، وتسمح بشق طريق لتطور الفكر العربي والوعي العربي وتجاوز انقسامه الحادّ.

---

١. عالجنا هذه المسألة في دراسة نشرت لنا في مجلة (الوحدة) بعنوان: «في نشوء واخفاق الدعوة العلمانية في العالم العربي». العدد ٢٦/٢٧، تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٦.

نعم، لقد انهارت التسوية الفكرية التي أرساها الروّاد ـ ومنهم الافغاني ـ وبات الأفق مفتوحاً على احتمالات حروب النبذ والانكار، والتخوين والتكفير، والاتهامات السطحية، والمهاترات المذهبية ... وعلى اغتيال الفكر والمفكّرين[١] وحرية الرأي، وبكلمة: على الانتحار الجماعي. وليس ممكناً لأحد في شروط حرب الوعي هذه أن يحصد إلاّ الدمار. إذ هي حرب عبثية بجميع المقاييس، وغير خاضعة لآلية الحسم، فكل طرف فيها يصدر عن مرجعية لها وجود حقيقي لا يمكن إنكاره. وأمام انهيار كهذا لتلك التسوية، لا يبقى أمام الوعي العربي إلاّ أن يخطوخطوة نوعية نحوتأسيس فضاء لحرية الفكر يتسع للحوار والاعتراف، والأخذ والعطاء والاختلاف توصّلاً إلى صيغة من التركيب جديدة.

---

١. كاغتيال العديد من المفكرين والكتاب والصحفيين في لبنان وفي غيره من البلاد العربية.

«١٧»

جمال الدين الأفغاني
دراسة في مرتكزاته الاصلاحية

الاستاذ جعفر عبدالرزاق

جمال الدين الأفغاني

دراسة في مرتكزاته الاصلاحية

يعدّ جمال‌الدين الافغاني حامل مشعل النهضة الاسلامية الحديثة. لقد عاش الأفغاني في عصر بدأ الاستعمار الغربي ينشب مخالبه في العالم الاسلامي، وهويستشعر الخطر المحدق بالمسلمين، في حين كان يرى الملوك والسلاطين غير مبالين بالدور التاريخي الحساس الذي عليهم القيام به في تلك الفترة. كان يتحرّق ألماً ... ينصح، يخطب، يسدّد، يكتب، يحاضر في سبيل ايقاظ المسلمين من سباتهم العميق.

كان يتجول في بلاد المسلمين حاملاً مشعل الهداية والوعي، وتحمّل من أجل ذلك الكثير، فما كان يدخل بلاداً من بلدان المسلمين إلاّ واستقبل كالملوك، ولكن كان يغادرها هارباً أومطروداً، بعد أن يوقد شعلة الثورة في ابنائها. فعاداه الملوك والسلاطين بعد أن يئسوا من تدجينه، فقد غادر اسطنبول بعد أن أحدثت أفكاره ضجة حتى أتهم بالكفر وطرد من إيران بتهمة تحريضه على اغتيال الشاه بعد أن عرضت عليه الصدارة. ونفي من مصر بعد وشاية وشكاية لدى الخديوي، لكنّه لم يهدأ ولم يتهاون، بل بقي يزأر حتى عندالملوك والقياصرة، وبقي حلم الإصلاح يراود ذهنه إلى أن مات بالسرطان في إسطنبول.

أمراض العالم الاسلامي

لقد كان الافغاني يشخّص أهم المشاكل التي كان يعاني منها العالم الاسلامي، وهي:

١- دكتاتورية واستبداد الحاكم والسلاطين.

٢- الاستعمار الاجنبي.

لذلك كان يتحرك ويجاهد ضدهما بشدة، وكان يعتقد بأنّ الكفاح ضد هذين العاملين المخرّبين يأتي عن طريق (الوعي السياسي)، وضرورة اشتراك المسلمين الجدي في (النشاط السياسي).

لقد استطاع أن يجوب أقطار العام الاسلامي ويراقب أوضاعها عن قرب، يدرس مجتمعاتها وحكوماتها، فقد زار افغانستان وايران والعراق ومصر وإسطنبول والحجاز، ولم يستقر في بلاد واحدة. فكان يتصل بعلمائها وسياسيها والوزراء والسلاطين والملوك حتى يتعرّف بصورة مباشرة على طبيعة العلاقات والتصورات التي تتحكم في هذه الاجواء، وماهية العوامل التي تؤثر في صنع القرارات، ومنشأ المظالم التي يتعرض لها المسلمون.

ولم يكتف بذلك، بل مدّ بصره نحوالاقطار الاوروبية أو القوى العظمى آنذاك، فزار روسيا القيصرية، ولندن عاصمة الامبراطورية البريطانية، وباريس التي كانت تتحكّم في رقاب الملايين من المسلمين. وقد ساهمت جولاته في البلاد الاوروبية في زيادة اطلاعه على العالم الحديث، واكتشف حقيقة المدنية الاوروبية، وأهداف رؤساء المدنية الدكتاتورية والاستعمار.

ولعلّ اسم البلاد التي حدثت فيها انتفاضات فكرية وسياسية هي الهند ومصر واسطنبول اضافة إلى بلده ايران، ونظرة في جولاته ونشاطاته السياسية فيالبلاد التي زارها، ستعطينا المصاديق حول طبيعة الاهداف التي تحرك ضدها الافغاني، وهي الاستبداد الداخلي والاستعمار الاجنبي، وسنجدها واضحة في تعامله مع الملوك والسلاطين، أو في توعيته للشعوب المسلمة.

لقد مكّنته دراسته في النجف الاشرف في أوائل شبابه من الاحاطة بشتى العلوم، حيث كانت النجف يومذاك في أوج نهضتها العلمية، تزدهر فيها الدراسات الفلسفية والكلامية والاصولية. وقد عاش الافغاني في هذا الجو الفكري، وتشبّع منه ذهنه.

في بلاد الافغان: التجربة الاولى في السياسة

دخل الافغاني في عالم السياسة والحكومة وهـولم يتجـاوز ٢٥ عامـاً، حيـث تـولّى منصب الوزير الاول لدى الامير محمد اعظم خان، وعظمت ثقة الامير به، فكان يلجـأ لرأيه في عظائم الامور ومادونها وذلك عام ١٨٦٤ م.

ولكن لم تسر الامور على ما يرام، فقـد نـشبت الخلافـات والحـروب بـين الامـير واخوته حتى اضطر الامير للهرب إلى ايران، ولم يصب الافغاني بشيء، لكنّه لم يـستطع المكوث في بلاد الافغان أكثر من ثلاثة اشهر بعد هروب الامير، فغادرها متوجّهاً للحـج عبرالهند حيث اشترط عليه أن لا يمر بايران.

لقد كان الافغاني يعتقد بأنّ بامكانـه أن ينـشر أفكـاره عـبر الايحـاء بهـا للامـير، وتشجيعه على العدل والمساواة بين الرعية ومحاربـة الظلـم. وقـد اسـتطاع أن يكـسب احترام الامير محمد اعظم خان، ولكن اضطراب الامور بسبب اختلاف الاهواء والصراع حول السلطنة بددت أحلامه، فارتحل باحثاً عن مكان آخر (١٨٦٨ م).

ولعلّ الشرط الذي فرض عليه يعطينا فكرة عن اهمية الدور الـذي كـان يقـوم بـه الافغاني لو التقى بالامير وحصل على دعم الحكومة الايرانية، فيمكنه تجنيد الآلاف من الافغان المقيمين في خراسان آنذاك، وهم مشهورون بالقتال والفروسية.

ولوتهيأت تلك الفرصة للأفغاني لزيارة ايـران لحـدثت تغـييرات عميقـة في تـاريخ أفغانستان، أولكان تأثيره على إيران نفسها قد بدأ في مرحلة مبكرة وليس كما حـدث بعد فترة طويلة من الزمن.[١]

وبقيت تلك الفترة راسخة في ذهن الافغاني، فقد كتب عن أوضاع وأحوال أفغانستان التاريخية والجغرافية والسياسية عند ما استقر في مصر، فقد تطرق في كتابه (تتمة البيـان في أمة الافغان) إلى تلك الفترة التي عاشها وسلط الأضواء على التدخلات الأجنبيـة في السيطرة على مقدرات أفغانستان.

---

١ . السيد جمال الدين وأفكاره، مرتضى مدرسي جهاردهي، ص ١٦.

وكان له اهتمام كبير بافغانستان، فقد خصّها بمقالات كثيرة بعضها نشر في صحيفة (العروة الوثقى) وبقي لقب (الافغاني) يلازمه إلى أن قضى نحبه.

في الهند

استقبلته الحكومة الهندية بحفاوة وإجلال. غير إنّها لم تسمح له بطول الإقامة[١]. وكانت تلك زيارته الاولى للهند، فلقد كان رجال الحكومة الهندية مطلعين على كل الأمور وجزئياتها فيما يتعلّق بدور الافغاني في افغانستان، وكانون يخشون أن يتكرر الأمر في الهند أيضاً. حيث إنّ الافغاني لم يكن يتوانى في توعية الجماهير المسلمة وإنهاضها ضد الظلم والاستبداد. ولعلّ صورة الثورة الافغانية كانت ماثلة أمامهم عندما يرون أويسمعون باسم الافغاني. لقد وضعت الحكومة الهندية الجواسيس حوله لمراقبة كل تحركاته في فترة الشهر التي قضاها هناك.

وحاولت أن تكسبه إلى جانبها بالاستقبال العظيم الذي جرى له، وخصّصت له منزلاً للإقامة، مع إنّه طلب أن يستقر لدى صديق افغاني كان يعمل بالتجارة، عندما شعر بأنّه غير مرغوب فيه، خاصة بعد أن سألوه: «ما المدة التي تنوي قضاءها في الهند؟»[٢] فلمّا أجاب: بحدود الشهرين وافقت الحكومة على ذلك ووضع شرطي بباب المنزل لتفتيش الزائرين.

وما أن حلّ الافغاني في الهند حتى تقاطرت جموع المسلمين على زيارته والاستماع إلى أحاديثه وخطبه، والسؤال منه عمّا كان يشغل بالها من المسائل. لقد ملأ عليهم مشاعرهم وعواطفهم، واستطاعت أفكاره وكلماته أن تثير فيهم التساؤلات عن معاني الحياة والاستقلال والحرية، وأصبحت كلماته تتداول في المجالس والأوساط الشعبية. ولم يمض أسبوع على إقامته، حتى شعرت الحكومة بالخطر حيث أرسلت إليه أحد رجالها ليبلغه: «أننا قد أعددنا أنفسنا لإقامتكم لمدة شهرين، ولكن يبدو أنّ الجو لا يساعد

---

١. لمحات إجتماعية، ص ٢٧٣

٢. السيد جمال الدين وأفكاره، ص ٢٩

على بقائكم تلك المدة»[١] فأجاب: «أنا لم آت للهند لأخيف الحكومة فليس لي تلك القوة حتى أقوم بثورة، ولا أنا منتقد لما تقوم به الحكومة، فهل تخاف الحكومة من سائح يمر ببلادها؟ إنّ الحكومة تخاف من الذين يزوروني وهم أعجز مني. إنّ ذلك يثبت أنّ الحكومة صغيرة أو عاجزة، وإنّها فقدت شوكتها. إنّ العدالة والأمن الإجتماعي لا يحكمان في هذا البلد، في الحقيقة إنّ الحكومة هنا أعجز من الشعب». ثم وجه خطابه لجموع الحاضرين من الشعب: «أيها الناس! أقسم بالحقّ والعدالة، أنّ عدد رجال الحكومة لا يزيد عن عدة آلاف رجل، ولكنّكم مئات الملايين، فلو كان واحد منكم بقدر بقة لهز طنينكم آذان الحكومة، ولوصل صوتكم إلى رئيس وزراء بريطانيا غلادستون»[٢]

الزيارة الأولى لمصر (١٨٦٩)

توقّف الأفغاني في مصر عند ما كان متوجّهاً إلى اسطنبول لمدة أربعين يوماً[٣]. وكان يتردد على الجامع الازهر، ويراقب من بعد الدروس والحوزات العلمية[٤]. وكان الطلبة السوريون أول الطلاب تعرّفاً به واستئناساً لأفكاره، حيث كانت لديهم معرفة أكثر بالقضايا الاجتماعية والسياسية من سائر الطلاب[٥]. فانعقدت علاقات قوية معه حتى وصلت إلى تدريسه لبعض العلوم الاسلامية في الجامع الازهر، مع أنّ قوانين الأزهر تمنع الاجنبي من ممارسة التدريس، ولمن يكون يحمل منصباً أو سمة معيّنة.

لم يقنع السيد الافغاني بذلك النمط من الحياة، حيث كان يريد أن يمارس دوراً أكبر، فيمم شطر إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية آنذلك.

وصل الافغاني اسطنبول في عام ١٨٧٠ واستطاع أن يقابل الصدر الاعظم عالي باشا،

---

١. المصدر السابق، ص ٣٠

٢. المصدر السابق، ص ٣١

٣. لمحات اجتماعية، ص ٢٧٣

٤. السيد جمال الدين وافكاره ص ٣٢

٥. المصدر السابق، ص ٢٣

فنال عنده حظوة، حتى عيّنه عضواً في مجلس المعارف الاعلى [١] ولم يطل المقام بـه حـتى اصطدم مع شيخ الاسلام حسن فهمي، وهوبمثابة المفتي الاعظم للامبراطوريـة العثمانيـة بسبب حسده له، حيث شنّع ضده وأمر ائمة الجماعـات بالحـديث عـن أفكـار الـسيد (الإلحادية)، وإنّه يعتبر النبوة نوعـاً مـن الفـن [٢] وأصـبحت القـضية حـديث المجـالس، وانقسمت الصحف بين مؤيدة ومعادية. وطالب الأفغاني بمحاكمة شـيخ الإسـلام علـى الإفتراءات والاكاذيب التي تحاك حوله، فوصلت الأمور إلى درجة خطيرة اضـطر فيهـا الصدر الأعظم أن يطلب من السيد الأفغاني مغادرة اسطنبول مع أنّه كان يؤيـد أفكـاره الجديدة في محاولة للقفز نحوالعلوم الحديثة والتقدم، ولكنّه لم يكـن باسـتطاعته الوقـوف أمام شيخ الاسلام حفاظاً على منصبه.

استقراره في مصر (١٨٧١)

وصل السيد جمال الـدين الافغـاني إلى القـاهرة وكانـت تمـوج يومهـا بالأحـداث والتيارات، ما بين أوروبا الزاحفة ببريق مدنيتها وصـعودها المـادي، والآسـتانة حيـث الانتماء التاريخي السياسي وحلم بقاء الاسلام والمسلمين، وما بين أمة تريد حقوقهـا في الحرية الحقيقية والعدالة، وقصر الخديوي المتردد بـين الخـوف علـى الـسلطة وأحـلام الامبراطورية التي غذّتها جغرافية مصر ومركزها العظيم. [٣]

لقد سبق الافغاني صيته وشهرته، وخاصة المقالات التي كتبت حول موقفه من شـيخ الإسلام في العاصمة اسطنبول، فقابـل رئـيس الـوزراء ريـاض باشـا، وأخـذ الأدبـاء والمتنورون يزورونه للاستماع إلى أحاديثة العلمية، ويحضرون مجالسه ودروسه.

في مصر أدرك الأفغاني حجم المؤامرة الاستعمارية على بلاد الإسلام، وتكالب القوى الاجنبية للسيطرة على ثروات المسلمين، فقد تدخلت بريطانيـا وفرنـسا علنـاً بعـد أن

---

١. لمحات اجتماعية، ص ٢٧٣

٢. لمحات اجتماعية، ص ٢٧٣، السيد الأفغاني وأفكاره.

٣. مجلة العالم، العدد ٥٥، لندن.

أعلنت الحكومة المصرية عجزها عن تسديد ديونها لهاتين الدولتين، حيث أصبح في الوزارة وزيران أجنبيان أحدهما فرنسي والآخر بريطاني[١]. إثر ذلك شعر الأفغاني بأنّ الخديوي إسماعيل عازم على تسليم مصر بأيدي الأجانب، فأخذ يطالب بخلعه، وسلك كل الطرق لتحقيق ذلك، فبالاضافة إلى استثارته الجماهير، قابل رئيس الوزراء شريف باشا ونصحه بأن يحمل إلى الخديوي رغبة الناس في تنازله عن العرش[٢].

ولقد أثار بعض الكتّاب[٣] الشبهات والتساؤلات حول تلك القضية بعد أن عزل الخديوي بأمر من السلطان عبد الحميد في ١٨٧٩/٦/٢٦، حيث أشاروا إلى وجود علاقة وارتباط بين الأفغاني وجهة أخرى كان لها مصلحة في عزل الخديوي.

شعر الأفغاني بأنّ إحدى العقبات قد أزيلت من تحقيق الاصلاح بعزل الخديوي اسماعيل، فأراد أن ينفذ بقية افكاره الاصلاحية، والتي تتمثل بمشاركة الشعب في صنع القرار وإدارة شؤون البلاد، وذلك عبر صياغة دستور جديد وتأسيس نظام نيابي يتمثّل بمجلس الشورى، فقابل الخديوي الجديد توفيق، محاولاً إقناعه بذلك، شارحاً له فوائد هذا النظام على تقدم واستقرار البلاد، وإنّ من الخير أن يشارك الامة في ادارة البلاد[٤]. لقد أراد الافغاني أن يتفادى حالة الصدام بين الأمة والحكومة والتي كانت ستنفجر في يوم ما اثر المظالم التي تتزايد والنهب الاستعماري الذي تكالب على مصر، ولكن الخديوي شعر بالخطر على سلطانه وصلاحياته المطلقة من تأسيس برلمان واجراء انتخابات، فأمر بطرد الافغاني وتسفيره على ظهر باخرة كانت متوجّهة للهند.

لقد أراد الافغاني أن يحقق قسطاً من العداله للناس مقلّلاً من حجم الاستبداد الذي

---

١ . لمحات اجتماعية، ص ٧٢٢

٢ . المصدر السابق، ص ٢٧٩.

٣ . آثار د. علي الوردي، هذه المسألة في حديثه عن حياة جمال الدين الأفغاني ولم يستطع أن يدعم قوله بدليل واحد.

٤ . خاطرات جمال الدين الافغاني، للشيخ محمدعبده، من اصدار دار الهلال، ص ٦٢، وكذلك لمحات اجتماعية، ص٣١٤.

كان يتّسم به السلاطين والملوك، ولعلّه أراد بالنظام النيابي أن يبني الاسس الاولى لإصلاح شامل، ولكن قد لا يعدو ذلك سوى نوعاً من الترقيع، فقد تأسّس النظام النيابي في مصر بعد ذلك، وكما توقّع، ولكن لم تتغيّر أحوال المجتمع ولا تحسنت أوضاعه المادية والمعنوية، فهولم يهتم بكليته بالجماهير المستضعفة وتوعيتها باعتبارها المادة الرئيسية لأيّ تحرك ثوري، فكان يرى بامكانية التعايش مع هذه الانظمة الاستبدادية، أو على الاقلّ تحييدها في الصراع بين الامة والاستعمار الخارجي، لكنّه لم يوفق في ذلك. لقد كان يريد لحركته الاصلاحية أن يقوم من خلال المفاصل الحيوية في النظام، فاعتمد نصيحة الملوك والسلاطين علّهم يرعوون، ولكن يبدو أنّه لم يوفق في ذلك أيضاً، وكان يحاول إيصال أفكاره الثورية لعلماء المسلمين باعتبارهم القاعدة الجيدة لمكافحة الاستعمار والدكتاتورية.[١]

فاستطاع التأثير بصورة خاصة على علماء الشيعة، حيث إنّهم كانوا يتمتعون بموقع ومركز جيدين في نفوس جماهيرهم التي تطيعهم وتسمع لما يقولون.

ولعلّ القوى الاستعمارية شعرت بخطر أفكار الافغاني فحاولت أن تضع العوائق بينه وبين الناس، وأن تشكّك الحكومات بنواياه، فقد كان للقنصل البريطاني (مستر فيفيان) دور كبير في إثارة الخديوي توفيق عليه حتى أمر باخراجه.[٢]

الافغاني والاحزاب السياسية

يبدو أنّ الافغاني كان يشعر من بعيد بأنّ التغيير الكامل الذي كان يرغب به لا يتحقّق بنصح السلاطين فقط، بل يجب السعي لايقاظ الجماهير وتوعيتها باستخدام كل الوسائل الممكنة، فكان يرى أنّ الاحزاب السياسية هي واحدة من هذه الوسائل حيث أنّ (تأسيس الاحزاب السياسية في الشرق أفضل وسيلة لتقدم الامم الاسلامية، وهي

---

١ . الحركات الاسلامية، ص ٢٥.

٢ . الثائر الاسلامي جمال الدين الافغاني، للشيخ محمد عبده، من اصدار دار الهلال، ص ٦٢ وكذلك لمحات اجتماعية، ص ٢٨٣.

الدواء لكل الآلام».[١]

ويقيم هدف الحزب السياسي ومسيرته في الأمة فيقول: «يقوم الحزب السياسي بتوحيد الكلمة، يقرّب القلوب، يبادر للعمل الصالح بكلّ إخلاص، في سبيل تحرير الامة من الاستبداد والحصول على حريتها»[٢]. ولكي يبعد الافغاني عن الاذهان صورة الأحزاب السياسية المتصارعة على السلطة مستخدمة كلّ وسائل الكذب والخداع. واذا وصلت للسلطة مارست الدكتاتورية التي كانت تنتقدها، ولكنّه كان يدرك كل ذلك، ولكن «الضرورة التاريخية في الشرق كما هي في الغرب، فسيتعلّم الناس ضرورة رفع اصواتهم وينادون بالحرية واستقلال بلادهم، يتقدمون في طريق الفداء والتضحية من اجل وطنهم، فعليه سيكون تشكيل الأحزاب في الشرق سبباً لايجاد القوة والوحدة والانسجام، وسيكون سبباً لنجاتهم من التفرقة والتشتت»[٣].

تجربته الذاتية

لقد كانت الآية الكريمة ﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ هي المنظار الذي يرى فيه الافغاني طريق اصلاح النفوس وتزكية القلوب، وكان يرى أنّ نهضة الاصلاح تبتدئ من الافراد، وليس أقوم للأفراد من التوجّه لله سبحانه وتعالى والعروج في مسالك الهداية والرشاد، فكان يوصي من يلتقي به «إنّ العلاج الوحيد لنا ينحصر بأن يحذو المسلم طريق القرآن وتعاليمه، والاقتداء بالمسلمين في صدر الاسلام، والسير في الوصول إلى صفاء النية والاخلاص».[٤]

فاصلاح النفوس يحتاج إلى خطوات تسبقها، لاتنعدم فيها السبل، والمران على الاخلاق الفاضلة يجعل القيم العليا مغروسة في النفوس، مطبوعة في القلوب لتصبح ديدن

---

١ . السيد جمال الدين وافكاره، ص ٣١٤.

٢ . المصدر السابق، ص ٣١٥.

٣ . المصدر نفسه.

٤ . المصدر نفسه، ص ٢٦١.

المتمسّكين بها، ويجب الابتعاد عن الزينة الظاهرية والركض وراء الدنيا وشهواتها، من خلال هذه النظرة بادر السيد الافغاني إلى تأسيس حزب سمّاه (الحزب الوطني الحر) سعى من خلاله لتشجيع الافراد المنتمين اليه على سلوك الاخلاق الفاضلة واصلاح النفوس، وجذب الآخرين اليه، ونشر حبّ الخير والمساعدة بين طبقات الشعب.

والحقيقة أنّ الذي أسسه الافغاني ليس حزباً بالمفهوم السياسي الحديث، بقدر ما كان تجمّعاً أو جمعية خيرية ذات أصول دينية، أي دعوة الناس للإسلام والتمسّك بتعاليمه وفرائضه من خلال تشجيع أعضائه على مساعدتهم للناس من التشدّد في الزهد والابتعاد عن الدنيا، حيث اشترط الافغاني شرطين على الاعضاء المنتمين:

الأول: أن يقوموا ببيع الآثاث اللوازم الزائدة عن الحاجة والتي تعتبر من الكماليات في السوق، وايداع المبلغ الحاصل في صندوق (الحزب).

الثاني: أن يتعهّد العضو بقراءة حزب واحد من القرآن في اليوم على الاقلّ.

وقد تكون الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسود المجتمع المصري آنذاك أثرها في تفكير الافغاني، حيث كان التباين الفاحش بين الثروات التي يكسدها بضعة إقطاعيين، والملايين الكادحة من الشعب المصري التي لاتجد القوت اليومي. إضافة إلى استشعار الافغاني بالخطر من غزو الحضارة الغربية وانتشار مفاهيمها بين الطبقات المثقفة. فأراد انتشال المجتمع من هذه الثقافة المنحطّة، وأن يغرس فيهم مبادئ الاسلام الاصيلة لتستطيع بناء الاسس اللازمة للشخصية القوية التي لاتهزها الازمات، ولاتزلزلها المشاكل والصعوبات. وكان يلزم أعضاء الحزب بتسجيل كلّ أعمال الخير التي يقوم بها، من اقامة الفرائض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاحسان بالفقراء وقضاء حوائج الناس، وعيادة المرضى، وأداء الحقوق المالية في الاسلام وغيرها.[1]

ومع أنّ (الحزب الوطني الحر) لم يكن حزباً سياسياً، واقتصرت نشاطاته على المسائل الاجتماعية والفكرية، إلاّ أنّه أقلق الدوائر الاستعمارية، وخاصة البريطانية التي كانت

١ . المصدر السابق، ص ٢٦٤.

تهيمن على مقدرات مصر، وتضع الخطط لاستمرار نفوذها وسيطرتها على المجتمع المصري وثرواته، مما يجعلنا نلتفت للجانب السياسي الذي افرزه عمل الحزب الوطني بصورة غير مباشرة.

جاء في تقرير (اللورد كرومر) المستشار المالي البريطاني في مصر آنذاك والذي أرسله إلى لندن، وبعد أن تطرّق إلى أنّه قد انخفض نشاط التجارة البريطانية في مصر بمعدل ٣٥٪ اضافة إلى عدم تعاون الموظفين المصريين مع الادارة البريطانية، وأنّ عمل المبشّرين قد أدنى حد له، وذهبت جهود (٣٥ عاماً) هدراً قال: «بالنسبة للاوضاع الجديدة لم يشاهد خلالها نشاطات ضد السياسة البريطانية، ولكن الفت انتباه المسؤولين بأنّه لواستمر الحزب الوطني عاماً آخر، ويبقى نفوذ السيد جمال الدين الافغاني كما هوالحال في غربي آسيا وشمالي آفريقيا، ويبقى هويعيش في مصر براحة بال، فليست تجارة وسياسة بريطانية ستضمحل في قارة افريقيا فحسب، بل إنّ الخوف على سيادة أوروبا قاطبة على هذه المنطقة، نتيجة تأثير هذا الحزب الغريب الذي سيكتسب وجوداً تاريخياً، ويبقى أثره على جبين العالم».

ويضيف في تقرير آخر «أنّ الحزب الوطني أصبح مانعاً أمام تقدّمنا بشكل يفوق التصور، ويجب أن يبادر إلى تشتيت أعضائه بأسرع وقت».

وفي تقرير ثالث يقول: «أنّ الحزب الوطني هو أفضل دليل على القدرة المحيرة للعقول لدى العرب عند ما استطاعوا قبل ١٣ قرناً أن يستولوا على ثلث المعمورة في زمن لا يتجاوز ثلث قرن»[١].

ويكتب أحد المبشّرين تقريراً إلى مجمع الكنائس (سانت بول) في لندن، حيث يقول: «في تصوري ليس اعجب من هذا الأمر، حيث هزم سبعمائة مليون من ابناء الانجيل مع قدرتهم وعلمهم بالطبيعة البشرية أمام ٤٠ فرداً والذين هم أتباع احد المتصوفة الايرانيين»[٢]

---

١ . المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٢ . المصدر السابق، ص ٢٦٦.

وإثر توالي هذه التقارير على عواصم النفوذ الاستعماري، والتي بلاشك زرعت في قلوبهم الخوف والقلق، ورأوا أنّ جهود قرون ستذهب أدراج الرياح فيما لونهض لقيادة المسلمين من ينهج الاسلام وتعاليم القرآن، فلم تنم لهم عين، ولم يغمض لهم جفن، حتى أصدرت الدائرة العرفية في مصر أمراً بطرد الافغاني واعتقال اعضاء الحزب، وطرد الاخرين من وظائفهم، لتنتهي بذلك تجربة رائدة في العمل الاسلامي قبل قرن من الزمان.

ويشير بعض الكتّاب إلى أنّ الافغاني بعد تأسيسه للحزب الوطني الحر أخذ يقابل الوزراء والقناصل ومراسلي الصحف الاجنبية، يحدّثهم باسم الحزب، وقد ترجمت مقتبسات من أقواله في الصحف البريطانية في لندن، مما جعل بعض وزراء بريطانيا يهتمون بها ويتناقشون حولها».[1]

كما أنّ وثائق وزارة الخارجية البريطانية تشير إلى احساس القنصل البريطاني بخطر السيد الافغاني على مصالح بريطانيا، حيث كتب عنه «لقد علمت من الخديوي توفيق بأنّه منذ مدة لفت انتباهه نشاط يقوم به أفغاني يدعى جمال الدين، يثير في الناس الحماس نحو الثورة والعصيان... ولا زال مصراً على عقد جلسات سرية ليبثّ فيها تعاليمه الضالة مما جعل الخديوي يضطر إلى انذاره بوجوب مغادرة مصر خلال ٢٤ ساعة ... إنّ رصانة منطقه وقوة خطابته تجعل المستمعين له تحت تأثيره، ولا يزال يثير الحماس ضد الأوروبيين وخاصة الانكليز حيث يظهر حقداً دفيناً تجاههم»[2]. ويعتبر البعض أنّ هذا الحزب هو الأب الشرعي لثورة عرابي عام ١٨٨١ حيث كان يضم وجوه الرأي والفكر وأحرار السياسة والجيش.[3]

---

١ . لمحات اجتماعية، ص ٢٧٩.

٢ . في تقرير كتبه فرانك لاسل المندوب السياسي البريطاني إلى وزير الخارجية سالسبوري وذلك في ١٨٧٩/٢/٣٠، يراجع السيد جمال الدين وافكاره، ص ١٧٧ و١٧٨.

٣ . مجلة العالم، عدد ٥٥، لندن.

في الهند مرة أخرى

استقر الافغاني في الهند هذه المرة ثلاثة أعوام، دخل في معترك الصراع الفكري القائم آنذاك بين التراث الديني للمسلمين والغزو الاوروبي بحضارته وأفكاره وقيمه الجديـدة، وقد وقف الافغاني بكل صلابة مدافعاً عن الاسلام وتعاليمه، موضّحاً اهدافها وغاياتها، ووقف بحزم أمام التيار التوفيقي الذي كان يقوده السيد احمد خان الذي حاول أن يجمع بين الدين من جهة والحضارة الاوروبية من جهة، داعياً المسلمين لتبنّي قيمها واخلاقهـا وأفكارها، وقد أحدثت أفكار احمد خان ضجة كبرى حتى هاج رجال الـدين والعامـة ضده[1].

وقد سمّي حركته بالدهرية (من الدهر) أو(الطبيعة). ولـمّا وصل الافغاني للهند كـان يتوقع الجميع أن يقف الى جانب السيد احمد خان باعتباره يحمل أفكاراً عـصرية مثلـه، وأنّه يؤمن بالعلوم الحديثة، ولكنّه لم يفعل ذلك، بل فعل الضد منه، وقد ألّف كتاباً أسماه (الرد على الدهريين) واتهمه وأتباعه بالعمالة للبريطـانيين، وتـرويج اخلاقهـم الـسيئة لافساد عقائد المسلمين، ولكي يزيل منهم الاعتزاز بدينهم فتخمد حياتهم ويتبدد شملهم، وبذلك تكون الغلبة للانكليز عليهم[2].

ولم يقتصر في ردّه على الدهريين، بل تعرّض لجميع المبـادئ الحديثـة؛ كالداروينيـة والاشتراكية والشيوعية. وقد لاقى كتابه رواجاً كبيراً بين المسلمين لأنهم كـانوا بحاجـة إلى وقفة قوية أمام هذه الافكار الواردة.

ولقد ورد في الكتاب بعض التوقّعات السياسية التي تنبأ بهـا الـسيد الافغـاني، فقـد تطرّق للتقدم والتمدن الذي ستحوزه اليابان بعد أن استطاعت ان تقهر روسيا القيـصرية في الحرب. وان تلك المرحلة هي مقدمات لاضمحلال الامبراطورية الروسية. كما أشار إلى أنّ الافكار المادية تنتشر في روسيا بسرعة، وأنّها ستحدث تغييرات وتشعل النار في تلك البلاد، وحدث ما توقّعه، حيث قامت ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ على يد الـشيوعيين

---

١ . زعماء الاصلاح لاحمد امين، ص ١٢٥.

٢ . لمحات اجتماعية، ص ٢٨٥.

الروس[١]. وعندما كان السيد الافغاني في الهند حدثت ثورة عرابي في مصر، وكان يقيم في مدينة (حيدر آباد دكن) فارتأت الحكومة البريطانية في ا لهند أن ينقل منـها إلى مدينـة كلكتة لعزله عن الاتصال بالاحداث؛ لما كان له دور وتأثير على الساحة المصرية حـتى تم القضاء على الثورة حيث سمح له بمغادرة الهند.

قيادة النهضة الاسلامية في باريس

في عام ١٨٨٢ عند ما وصل الافغاني إلى باريس كان يحمل في ذهنه أن يطرق سبيلاً آخر في إنهاض المسلمين، وهو باب الصحافة، فاستدعى تلميده محمد عبده من بـيروت حيث كان منفياً بعد اشتراكه في ثورة عرابي باشا وأصدر صحيفة (العروة الوثقي).

لقد أحدث إصدار العروة الوثقى ضجة كبرى في الاقطار الاسـلامية، حـتى أعلنـت الدوائر الاستعمارية الحرب عليها، وبدأت مطاردة الجريدة وقرآئها إلى أن توقّفـت عـن الصدور بعد ١٨ عدد فقط. وكان في بعض البلاد يعتبر حيازتها جرماً يستوجب السجن. وكان الناس يجتمعون لقراءتها ويتهادونها فيما بينهم ويتناقشون في مواضـيعها[٢] ووصـل تأثيرها إلى العراق ايضاً. لقد كان السيد الافغاني يرسـلها مجانـاً إلى الـشرق (ليتـداولها الأمير والحقير والغني والفقير) كما جاء في افتتاحية العدد الاول. وعلى قصر عمرها فقد احتلّت العروة الوثقى مكانة مرموقة لم تصل اليها صحيفة من قبـل، وأخـذت مقالاتهـا تترجم إلى اللغات الاخرى، وبلغ تأثيرها حتى قال احدهم: «يوشك أن تقع ثـورة مـن تأثير هذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا[٣]. كان الافغاني يركّز هجومه علـى الاستعمار الاوروبي وغزوه للبلاد الاسلامية، ويتطرق إلى تحليـل الاوضـاع الـسياسية والصراع بين القوى الكبرى آنذاك على بلاد المسلمين مـسلّطاً الاضـواء علـى الخطـط والمشاريع المرسومة لذلك.

---

١ . السيد جمال الدين وافكاره، ص ٥٨، ٥٩.

٢ . جمال الدين الافغاني، قدري قلعجي، ص ٦٥.

٣ . لمحات اجتماعية، ص ٢٧٨، نقلاً عن (سفيرالله) عبد المنعم شميس، ص ٦٥.

وكان بريطانيا (العظمى) التي تسيطر على أجزاء واسعة من العالم الاسلامي من الهند إلى مصر، تخشى دخول (العروة الوثقى) للبلاد الاسلامية الواقعة تحت سيطرتها[١]، فأخذت تعاقب من يستلمها أو يقرأها. وذلك دليل على طبيعة الدور الذي كانت تؤديه هذه الصحيفة في إيقاظ المسلمين.

ولم يكتف السيد الافغاني بذلك، بل يبدو أنّ له يداً في رسائل التهديد التي كانت توجّه للشخصيات المتعاونة مع الاستعمار البريطاني، فقي وثائق الخارجية والبريطانية وردت عبارات تتهم السيد الافغاني بأنّه كان وراء خطابات التهديد، فالسفير البريطاني في فرنسا (لورد لاينز) يكتب لوزير خارجيته (بأنّ السيد جمال الدين وراء الخطابات التي أرسلت إلى مصر وتهدد خديوي مصر شريف باشا والسيد ادوارد مالت والسرالوين وود، وطلب الحصول على معلومات حول المذكور من الشرطة الفرنسية).

وبالفعل فقد أجابت الشرطة الفرنسية في رسالة من رئيسها إلى مدير القضايا الجنائية في لندن، حيث زوّده بمعلومات عن الافغاني ومحلّ إقامته، والاشخاص الذين يقابلهم، ووضعه المالي وسلوكه[٢].

ويبدو أنّه كان وراء هذه الخطابات، إذ جاء في أحد التقارير (بأنّ مصدر هذه الخطابات فرنسا، وبدون توقيع، ومكتوبة بلغة إنشائية تتطابق وأفكار وآراء الافغاني)[٣]. ولا يعلم الهدف من وراء هذه الخطابات التهديدية.

تناولت العروة الوثقى موضوعات عدة، مثل المقاومة ضد الاستعمار البريطاني، فكانت تتحدث عن جرائم الاستعمار في الهند ومصر، وتثير المسلمين ضده، وتدعوهم إلى الجهاد. وكان الافغاني يثير في الناس روح الجهاد، فقد خاطب المصريين بقوله: «أيها المصريون! هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم، وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدوعلى زمام التصرف فيها غيلةً واختلاساً».[٤]

---

١. لمحات اجتماعية.

٢. كتب رئيس الشرطة الفرنسية الرسالة في ١٨٨٣/٧/٦.

٢. في رسالة كتبها ادوارد مالت المندوب السياسي في القاهرة إلى وزير الخارجية ١٨٨٣/٥/٢٢.

٤. مجلة العالم، العدد ٥٥، لندن.

وكان ينتقد العملاء السياسيين في مصر والسودان، وكان يؤيد ثورة المهدي وجهاده ضد الانكليز، ويهاجم السياسة البريطانية، ويناشد الدولة العثمانية بأن لاتشارك بجيش مع البريطانيين ضد المهدي.

وبقيت الوحدة الاسلامية إحدى هموم السيد الافغاني، فكان يثير في المسلمين روح التعاون والتآخي، والمحبة ويذكرهم بأنّ «أقوى رابطة تربط المسلمين هي الرابطة الدينية»[١] وأنّ الدول الاستعمارية بادرت إلى نشر أفكارها الالحادية والإباحية من أجل فكّ هذه الرابطة.

إنّ الوحدة الاسلامية عندالافغاني لم تكن قضية سياسية مرحلية، بل اعتبرها جزءاً من الاصول السياسية التي يدعو إليها الاسلام، وهي أمر ضروري سياسياً وحضارياً (هل آن الأوان ليصبح العالم الاسلامي من أدرنة إلى بيشاور دولة اسلامية متصلة الارض، متحدة العقيدة، تجمع أهلها القرآن...)[٢].

ويظهر أنّ السيد الافغاني كان أول من رفع شعار الوحدة الاسلامية امام الغرب، ولم يكن المقصود من الوحدة، الوحدة الدينية بين المذاهب، والذي كان أمراً غير عملي، إنّما الوحدة السياسية وتشكيل الصفّ الواحد للمسلمين أمام العدو المستعمر.[٣]

كان الافغاني يعتقد بأنّ الوقوف أمام حكومة مصممة على تحطيم الاسلام يتطلب اللجوء إلى القوة، ولذلك توصل إلى أنّ الاسلام هودين الكفاح والعمل، وكان يؤكّد على فريضة الجهاد.[٤]

الافغاني في ايران

وصل الافغاني ايران عام ١٨٨٦ بدعوة من ناصرالدين شاه، ولمّا وصل طهران

---

١. المصدر السابق.

٢. المصدر السابق.

٣. الحركات لاسلامية، ص ٣٣.

٤. المصدر السابق، ص ٣٥.

تزاحم حوله الامراء والمجتهدون والكبراء، حيث سبقته شهرته من خلال صحيفة العروة الوثقى. إضافة إلى أنّ افكاره وآراءه كانت متداولة وتناقش في الاوساط المثقفة والحكومية. التقى الافغاني بناصرالدين شاه الذي عرض عليه أن يساعده في وضع ايران على طريق التقدم، فكان ضمن ما قاله الافغاني له (إنّ خراب ايران وذلّ وشقاء الايرانيين التعساء تعود إلى الذات السلطانية نفسها). لقد كانت أحلام الحداثة والعصرنة تراود ناصرالدين شاه بعد زيارته المشهورة إلى اوربا، فأراد أن يقلّدها في دساتيرها وقوانينها، فطلب من السيد الافغاني أن يقوم، وبالفعل باشر بكتابة دستور جديد[1] فلمّا قرأه الشاه وجد أن صلاحياته محدودة بقدر كبير، وأنّه خاضع لمجلس الشيوخ ومجلس النواب فسأله قائلاً: «كيف يمكن أن اكون ملكاً وأستاوى مع العامل؟». فأجابه السيد: «ايها الملك! لتعلم أنّ تاجك وعرشك وأوامرك واركان سلطانك ستكون أقوى بمعية الدستور. إنّ العالم والعامل والفنان اكثر فائدة للبلاد من مقامك وعظمتك. اسمع مني قبل فوات الاوان، ولا تفرط بهذه الفرصة الثمينة بأن تكوّن في ايران حكومة دستورية، لتهدم حكومة الاستبداد»[2].

ولم تكن هذه الافكار قابلة للتحمل من قبل سلطان مستبد يدّعي أنّ البلاد والعباد ملك له ولآبائه. كما أنّه فتح أذنيه للشكايات التي يسعى بها الصدر الاعظم ضد الافغاني. حيث كان يوسوس له بأنّ السيد يرد القضاء على مملكتك فاوغر صدره، ولما شعر الافغاني بالخطر محدق به ترك طهران متوجهاً إلى ضاحية شاه عبد العظيم جنوب طهران، حيث أقام في قرب المرقد المقدس، وهناك أعلن عداءه الصريح للشاه وحكومته، وأخذ يخطب في اهل البلدة والزوّار الذين يفدون إلى المرقد ذاكراً لهم المظالم التي تحلّ بهم، ومظاهر التفسخ المحيطة بهم، ويحرّضهم على الثورة.[3]

وصار الكثير من المعادين والمظلومين والناقمين يجتمعون معه في المرقد المقدس،

---

١ . السيد جمال الدين وافكاره، ص ٩٧.

٢ . المصدر ا لسابق، ص ٩٨.

٣ . لمحات اجتماعية، ص ٢٦٩.

فأصحبت بؤرة ثورة تهدّد وجود الشاه وتنذر بقيام انتقاضة شعبية لا تعرف لها نهاية. وبقي الافغاني على تلك الحالة سبعة أشهر.[١]

لم يستطع ناصرالدين شاه الصبر، فأوعز إلى جلاوزته بطرد الافغاني، حيث أخذ قهراً وسيق إلى الحدود العراقية.

ويعتقد بعض الباحثين أنّ أسباب إخراج السيد الافغاني من ايران هي:

١ ـ الخطابات الحماسية والمحاضرات الثورية التي كانت تنبّه الشعب إلى حقوقه المضيعة.

٢ ـ معارضة السفير البريطاني بوجوده، وإحساسه بالخطر من بثّ أفكار التحرر والاستقلال.

٣ ـ سعاية عدد من العلماء من وعّاظ السلاطين وبعض موظفي الحكومة، حيث كانوا يخشون على مواقعهم من نفوذ السيد الافغاني، وكانوا يتهمون السيد بأنه عدو للدين والوطن، ويدافعون عن الشاه من أجل الحصول على مزيد من الانعام[٢].

يبدو أنّ السيد الافغاني كان يعتقد بأنّ الظروف مهيأة للقيام بثورة، لكنّه لم يوضّح كيف يمكن القيام بها، ولم يظهر نشاطات تمهّد لهذا الطريق. فقد طلب منه الشيخ هادي نجم آبادي وهومن العلماء المثقفين في ايران، في بداية وصوله اليها أن يتجنّب طرح المفاهيم الثورية بصورة مباشرة وقاطعة، لأنّ الاذهان غير مستعدة لتقبلها، وحذّره من اتهامه بالكفر، واقترح عليه ان يبدأ نشاطه على شكل اعطاء دروس في تفسير القرآن الكريم ليكون له عدة من الطلاب الداعين، حيث يعرّفهم بالحقائق ويربّيهم على العقل النير ليكونوا مقدمة لتحول أساسي، لكن السيد الافغاني رفض هذه الفكرة، وقال له: «إنّ ايران تحتاج إلى ثورة، واذا لم تحدث ثورة فإنّ اسم ايران والايرانيين سيضمحل».[٣]

ولعلّ احساس الشاه ببوادر الثورة هو الذي جعله يفكر بطرد السيد بتلك الطريقة

---

١. المصدر السابق، ص ٢٦٩.

٢. شهراء علماء الشيعة في القرن الاخير، علي رباني خلخالي، ص ٩١.

٣. السيد جمال الدين وافكاره، ص ٩٦.

المهينة بعد أن أدى خدمة عندما بعثه كوسيط لدي قيصر روسيا من قبل. ولعلّه شعر بذلك عندما علم أنّ الافغاني أخذ يكاتب الشخصيات والمثقفين في طهران وبقية المدن الايرانية، وكان يثير فيهم عوامل الاحساس بالظلم وضرورة تغيير الاوضاع. اذن هو لم يكتف بالخطابات في المرقد المقدس، بل كان يتحرك على نحو أوسع وأشمل.[١]

الافغاني في روسيا

زار السيد الافغاني روسيا مرتين الاولى في بداية وصوله إلى ايران، وبعد أربعة أشهر وبضعة ايام. وصل الافغاني إلى (لينينغراد) وكانت تسمى (بطرسبورغ). ولم تكن الامور آنذاك قد وصلت إلى درجة القطيعة مع الشاه، حيث إنّها وصلت إلى تلك الحالة بعد الرجوع إلى ايران ثانية.

كانت للأفغاني علاقة صداقة مع (كاتوكف) الذي كان من الصحفيين البارزين والصديق الحميم للقيصر. كان في ذهنه أن يهيأ الارضية المناسبة لاثارة الحرب بين الروس والانكليز لانقاذ الهند من براثنهم. وحاول الحصول على مقابلة مع امبراطور روسيا إلاّ أنّ الاخير رفض استقباله، لأنّ الروس كانوا غير راغبين في خوض معركة أخرى لأنّهم كانوا قد انتهوا وشيكاً من حربهم مع العثمانيين، وحالتهم المالية في اضطراب شديد[٢]. ولم يفلح إلاّ في مقابلة الملكة فقط، إلاّ أنه قابل مدير وزارة الخارجية الروسي (زنويف) الذي لم يبد تأييداً للأخذ بآرائه.

لم يكن جواسيس بريطانيا غافلين عن تحركات السيد في موسكو وبطرسبورغ، وكانوا يتعقبونه ويلاحقون تحركاته لمعرفتهم بعدائه لبريطانيا وأنّه يريد شيئاً ما[٣].

كتب السيد الافغاني مقالات عديدة ومهمة نشرت في الصحف الروسية، تناول فيها السياسة الخارجية لافغانستان، ايران، الامبراطورية العثمانية، الروسية والبريطانية، وكان

---

١ . المصدر السابق، ص ١٣٤.

٢ . المحات اجتماعية، ص ١٩٣، والسيد جمال الدين وافكاره، ص ١٦٠، نقلاً عن مذاكرات السيد حسين عدالت الذي كان يسكن في بطر سبورغ آنذاك.

٣ . السيد جمال الدين وافكاره، ص ١٦٠.

يواصل هجومه ضد الاستعمار والسياسة الاستعمارية، ولم تكن روسيا آنذاك تملك مستعمرات، لذلك وجد المجال مفتوحاً أمامه، إضافة لما وجده من ترحاب واستقبال من قبل الشخصيات الحكومية والسياسية والمثقفين.[١]

ويبدو أنّ الافغاني استطاع مقابلة القيصر، ولكن بعد مضي سنتين على اقامته في روسيا، فقد دعاه القيصر نقولا إلى بلاطه لتبادل الحديث، واستقبله استقبالاً حاراً، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه، فأجاب: «لقد اقترحت على الشاه أن تقام حكومة مقيدة بالدستور، فلم يقبل، فكرهته، ولم يعد باستطاعتي مساعدته».

فقال له القيصر: «أنا أعطي الحق للشاه، فأيّ ملك حاكم يقبل أن يعطي الامور بأيدي الفلاحين والعمال؟!».

فأجاب السيد بجرأة: «أيها الامبراطور! صدقني، اذا كان ملايين العمال والفلاحين أصدقاء للسلطة أفضل من أن يكونوا اعداء لها يخفون حقدهم في صدورهم، ويتحينون الفرصة للانتقام».

عندها بدى الغضب على وجه الامبراطور، وقلّل من حديثه، ثم نهض وترك المجلس وودع الافغاني ببرود، ثم أوصى باخراج الافغاني بلطف لكي لا ينشر بذور الحرية والديمقراطية بين المسلمين في روسيا.[٢]

لم يكن الافغاني يهاب سلطاناً أو قيصراً، وكان طموحه في نشر أفكاره، واقناع الآخرين بضرورة الحصول على الحريات والمشاركة في الحكم، يشغل باله، ولم تقف امام طموحاته هيبة السلاطين أو رغد العيش أو التهديد بالتشريد والسجن، ولم يحل دون مقارعته للظلم والاستبداد أمر سوى الخوف على بلاد الاسلام من الوقوع تحت قبضة الاستعمار الاجنبي المباشر، فهو مع عدائه وتهجمه على ناصر الدين الشاه إلاّ أنّه وافق على دعوته بالسفر إلى روسيا مرة أخرى عند ما التقاه في فيينا، وكان في طريقة إلى

---

١ . المصدر السابق، ص ٩٤.

٢ . المصدر السابق، ص ٩٤.

لندن. فقد طلب الشاه منه أن يذهب إلى المسؤولين في الحكومة القيصرية لتهدئة الاوضاع بعد أن ثار غضبهم بصدد الامتياز الذي منحه ناصر الدين شاه للانكليز في الملاحة في نهر الكارون[١]. لقد كان السيد الافغاني هوالمحرك لهذه الضجة، إذ كتب مقالاً في صحيفة المانية حول المنافع التي سيجنيها البريطانيون، والمضار التي ستعود على الروس من إعطاء الامتياز المذكور، فكان يريد إيقاع الوقعية وبذر بذور الشك والريبة لتصل إلى مرحلة الحرب بين روسيا وبريطانيا، لكنّه عند ما شعر بالخطر يتهدد بلداً اسلامياً كايران قبل الوساطة وسافر إلى روسيا لتبديد القلق الذي يساور الروس، ونجح في ذلك، حيث عاد إلى ايران مرة أخرى في أواخر عام ١٨٨٩[٢] ليطرد منها بعد أشهر قليلة.

لعلّ هناك بعض التساؤلات حول موقف الافغاني تجاه ناصرالدين شاه، وكذلك اختيار الاخير له في تلك المهمة. لماذا اختار ناصرالدين شاه الافغاني لهذه المهمة؟ هل كان يريد أن يشرفه بمقام اكبر واهتمام أعظم؟ مع أنّه ضاق ذرعاً به عند وجوده في ايران. هل صحيح أنّه لم يجد شخصاً مناسباً لهذه لمهمة كما يقول البعض؟[٣] ألم يكن يعلم بأنّه هوسبب التشنّج والاستياء الروسي تجاه ايران؟ ألم يكن يعلم أنّ الامر من تدبير الافغاني نفسه؟ فلماذا يبثّه ليفشل ما خطط له هو؟

كذلك موقف الافغاني نفسه، فهولم يكن مرتاحاً لتصرفات الشاه، خاصة وأنّه قابل افكاره واقتراحاته ببرود إن لم يكن رفض. لماذا وافق بهذه المهمة التي جعلت الضغوط تتوجه إلى ناصر الدين شاه، وهوما ينسجم مع تصورات وحركات الافغاني؟ لماذا لم يشترط على ناصر الدين شاه شروطه بقبول الاصلاحات لقاء قيامه بهذه المهمة؟ لماذا يفوت هذه الفرصة من يده؟ أم أنّه خشي أن تصل الامور الى مالايحمد عقباه فتقوم روسيا بالتهام اراض ايرانية جديدة كما فعلت من قبل؟ لعله آثر أن يحافظ على كيان

---

١. المصدر السابق، ص ١٦٣.

٢. لمحات اجتماعية، ص ٢٩٥.

٣. المصدر السابق، ص ٢٩٤.

بلده وسيادته ويسوّي الامور مع الجارة الشمالية على أن يفرض شروطه في وقت تحتاج الاوضاع إلى تهدئه وليس إلى غليان وعصيان، وكما يبدو فإنّ الافغاني تناسى عداوة الشاه له، والموقف الشخصي تجاهه؛ حفاظاً على بلده من الاستعمار الخارجي الذي لم يزل يحارب ويهاجم نفوذه في كل بقاع العالم الاسلامي. لعلّه أدرك أن الامور ستتغير دون حاجة له، إذ أنّ افكاره وآراءه انتشرت في ايران، ووجدت عقولاً تحملها ونفوساً تهفو إليها، وقد صدق ظنّه إذ سرعان ما نشبت ثورة التنباك، ثم اغتيل ناصرالدين شاه، ثم قامت ثورة الدستور التي جاهد من اجلها.

في العراق

عاد الافغاني إلى العراق بعد أن تركه عند ما كان شاباً يافعاً، بعد أن تلقّى علومه الاسلامية في الحوزة في النجف الاشرف... التي وجد فيها من الرجال العظام ما سيكون لهم دور تاريخي في مستقبل العراق، ويبدو أن القدر قد هيأ للافغاني جزءً كبيراً من هذا الدور الذي سيترك بصماته على ايران والعراق.

لم يتركه ناصرالدين وشأنه حتى بعد مغادرته الاراضي الايرانية، بل اتصل بالباب العالي العثماني يستعديه عليه ويثير فيه الشك والريبة تجاه الافغاني، فأمر السلطان عبد الحميد والي بغداد أن يراقبه ويحدّ من تحركاته[١]. إلاّ أن الافغاني لم يكن يقنع بالسكوت والقعود بالبيت خوفاً من السلطان، بل اتصل ببعض العلماء الذين يتوسّم فيهم قرباً لأفكاره وآرائه، فالتقى بالشاعر عبد المحسن الكاظمي، والسيد محمد سعيد الحبوبي. وكان يجتمع ببعضهم في سرداب تحت الارض خوفاً من عيون الوالي. ولعلّه قد بثّ أفكاره وتناقش معهم حول سبل النهوض، فأجج فيهم روح المقاومة والثورة، وكانوا قد قرأوا له من قبل في (العروة الوثقى) التي نشرت افكاره، وقد زار النجف سراً والتقى ببعض علمائها.

وقد كان لصداقته مع عبدالرحمن الكيلاني دورها في انفراج الأمور، إذ توسط له لدى

---

١. السيد جمال الدين وافكاره، ص ٢٨١، نقلاً عن صادق نشأت (جمال الدين الاسدآبادي) ولمحات اجتماعية، ص ٢٩٧، نقلاً عن (ذكرى الافغاني في العراق)، عبدالمحسن القصاب، ص ٨٥.

الباب راجياً السماح له بالسفر إلى البصرة، فوافق على ذلك[١]، بقي الافغاني مدة من الوقت حيث اضطربت الامور في ايران واشتعلت ثورة التنباك ضد ناصر الدين شاه، فكتب رسالة مطوّلة للميرزا الشيرازي في سامراء يشجب فيها سياسة الشاه ومظالمه ضد الشعب الايراني المسلم، ويدعوه لممارسة دوره التاريخي حيث يقول: «إنّ الامة الاسلامية تضعك نصب عينيها، فعندما تحلّ مشكلة تراها تنظر اليك، إنّها تعلم أن السعادة والفلاح والحرية تاتي من بين يديك، إنّ الامال معلّقة فيك»[٢]، ويضيف، «لقد وضع الله كرسي رئاستكم في قلوب الناس ليقوي في ذلك عمود العدل، وتضاء طريق الحق».

وعن دور العلماء في النهوض بالامة وتأثير تقاعسهم على اوضاعها يقول: «كلّما تقاعس العلماء عن أداء واجبهم أو تركوا النهي عن المنكر، فإنّ عوام الناس سيصيبها التردد وسوء الظن ويخرج كلّ واحد منهم عن دينه ويعود إلى عقائده الاولى، وينحرف عن الطريق الصحيح».

وعن الوضع الايراني يقول: «بعد هذه المقدمات أذكركم بأنّ الشعب الايراني الذي تحمل هذه المصائب التي جعلت الكفّار يطمعون بهذا البلد الإسلامي ويغير الأجانب على حقوق المسلمين، ولكنّهم يروك ساكتاً، مع إنّ المسؤولية التي بعهدتكم كبيرة إلاّ أنّكم لم تنهضوا... إنّ الايرانيين يتساءلون لماذا بقي حجة الاسلام ساكتاً تجاه هذه الأحداث؟» .

ثم شجّعه على اتخاذ موقف حازم وبيّين له أنّ الشعب رهن إشارته ومستعد لطاعة ما يأمر به.

فيضيف: «إنّ جميع الناس مسلمة اليك أمرها وتنتظر أوامرك، إنّ أمرك مطاع عند

---

١ . السيد جمال الدين وافكاره، ص ٢٨٢، نقلاً عن صادق نشأت.

٢ . لم نستطع الحصول على النص الاصلي للرسالة وهي بالعربية، فاعدنا ترجمة مقتطفات من النص الفارسي المنشور في عدة كتب مثل (التاريخ السياسي المعاصر لايران، جلال الدين مدني ص ٢٧، وكتاب (شهداء علماء الشيعة)، ص ٩٣ ـ ٩٩.

المسلمين، ولن يقف أحد مقابل حكمتك. يمكنك جمع الناس بكلمة واحدة وتشكّل منهم صفّاً تقف به أمام أعداء الله والمسلمين، ولتقضي على شر الكفّار... إنقذهم من هذه الحياة البائسة، ليكون الدين عند أهل الرأي ما يتشرف ويتباهى به، وأنّ الإسلام سيبقى محبوباً لديهم عند ما يرون أنّ الإسلام لديه هكذا قادة ذوي مقام شامخ» ثم يضيف: « يجب قول الحقّ، أنت زعيم الشيعة، أنت كالروح في جسم المسلمين، ولا يمكن لأحد أن ينهض بهذا الأمة دونك، وهي لا تطمئن لسواك فإذا نهضتم لنيل الحق فالجميع يسند قيامكم».

ثم يسلّط الضوء على ضرورة اتخاذ القرار التاريخي فيقول:« من لهذا الأمر غيرك؟ هل يوجد رجل أحقّ بهذا الأمر من الذي اختاره الله في القرن ١٤ من بين الناس ليكون برهان الدين، والحجّة على الناس».

ثم يتطرّق إلى الغارة التي شنّها الأجانب على ايران ويفصل المنافع التي تجنيها الدول الاستعمارية بسيطرتها على الثروات الاستراتيجية بعد أن حصلت على الامتيازات المتنوعة للعبث بأرض الاسلام، ويدلّ على عقلية الأفغاني ونظرته البعيدة، وتوجّسه من وضع المفاصل الاقتصادية بأيد أجنبية وبيعها بخيانة الشاه حيث يتطرق لطرق المواصلات والمناجم والأبنية والفنادق والمزارع، إضافة إلى انحصار تجارة التبغ من الزراعة والجني حتى التسويق والتصدير، وتطرّق للصناعات الجديدة كالصابون والشمع والسكّر وصناعة الخمور. ولم ينس أن يذكر الدور الاقتصادي الكبير الذي تقوم به البنوك التي أسست من قبل الشركات الأجنبية. والأفغاني لم يتعرض للمصالح البريطانية فقط بل أنحى باللائمة على الشاه بوضعه النصف الآخر من البلاد تحت تصرّف الروس ليضمن سكوتهم.

ويبدي خوفه من فوات الأوان فيقول: «يجب أن لا تذهب هذه الفرصة سدى، ويجب أن يوضع حدّ لهذه الاتفاقيات والامتيازات في حياتك ووجودك ... أنت تعلم أنّ صدور علماء ايران قد ضاقت وهم ينتظرون سماع كلمة واحدة منك... كيف يجوز لشخص أن يترك البلاد والشعب على هذا الحال وقد حباه الله بهذه القدرة؟» ثم يطرح

ردود الأفعال الخارجية والداخلية فيما لوتحرك الميرزا الشيرازي، فيقول له: «إنّ الدولة العثمانية ستكون في ارتياح لقيامكم، وستساعدكم لأنّها تعلم بأن تدخل الأجانب في ايران سيعود بالضرر عليها... كما أنّ بعض القوّاد والوزراء الحانقين على الحكومة سيستقبلون نهضتكم بسرور ... أمّا العلماء فانّهم ينتقدون سياسة الشاه لكنّهم غير مجتمعين مع بعضهم، فكلّ يدور في محوره محافظاً على رئاسته، وليسوا مستعدين للاتحاد مع بعضهم ليشكّلوا قدرة اجتماعية تستطيع أن تدفع ضرر العدو وتحافظ على البلاد. إنّ تشتت الآراء هو العلّة الا صلية لهذا العجز عن المقاومة، ولكنك تملك القدرة على التأثير عليهم، لتوحد القلوب المشتتة، ليذهب اختلاف الكلمة. إنّ كلمة واحدة منكم ستكون سبباً للوحدة وإزالة هذه البلايا المحدّقة بالبلاد...».

لقد أحدثت هذه الرسالة ضجّة في المدن العراقية، وخاصة في النجف، ووصل تأثيرها إلى لبنان، وأخذ الناس يستنسخونها ويتداولونها[1]. وقد كانت واحدة من الرسائل المهمة التي أتت الميرزا الشيرازي فاتخذ قراره التأريخي باصدار الفتوى الشهيرة بتحريم التنباك عام ١٨٩١ والتي تنصّ «بسم الله الرحمن الرحيم، اليوم استعمال التنباكووالتوتون بأي نحوكان في حكم محاربة إمام الزمان صلوات الله وسلامه عليه» حيث اضطر بعدها ناصر الدين شاه لإلغاء الامتياز من الشركة البريطانية (ريجي).[2]

ولم يكتف الأفغاني بهذه الرسالة، بل كتب العديد من الرسائل إلى علماء ايران يستحثّهم فيها لجمع الشمل والاتحاد، ويذكّرهم فيها بأنّهم حماة الشريعة المحمدية ويستصرخهم بالنهوض ضد الظلم والاستغلال، والوقوف مع الشعب مقابل الإستبداد.

يعتقد البعض بأنّ رسالة الأفغاني لم يكن لها تأثير على الميرزا الشيرازي، وأنّه أصدر الفتوى قبل أن ترد الرسالة إليه[3] ولكن المعروف بأنّ السيّد كتب الرسالة عندما كان في البصرة، وذلك في أوائل عام ١٣٠٩ هـ، وقد سافر اثرها إلى لندن حيث أسس صحيفة

---

١. المصدر السابق.

٢. التاريخ السياسي المعاصر لايران، ص ٣٠.

٣. يميل د. علي الوردي لهذا الرأي معتمداً قول محسن الأمين، أنظر لمحات إجتماعية، ص ٢٩٩.

(ضياء الخافقين) في شهر رجب ١٣٠٩ هـ.[١] بينما الثابت أنّ الفتوى صدرت في الأول من جمادى الاولى ١٣٠٩ هـ.[٢] ويرى (الميرزا لطف الله الأسد آبادي) وهو إبن أخت الأفغاني بأنّه قد كتب الرسالة للشيرازي في نهاية ١٣٠٨ هـ.[٣]

الأفغاني في لندن

لعلّ من الغريب أن يذهب الأفغاني إلى عاصمة الإمبراطورية التي طالما هاجم سياستها واستغلالها للشعوب المسلمة، ففي الوقت الذي كانت بريطانيا تخشى من تحركاته وتمنع (العروة الوثقى) من الدخول للبلاد الإسلامية التي تسيطر عليها، نراها تستضيف في لندن وتفسح له المجال بالقاء الخطابات والمحاضرات في المجالس، ويكتب في الصحف ضد ناصر الدين شاه الذي كان يمنح الإمتيازات للشركات الأفغاني وتأثيره على المسلمين والسلاطين والحكومات، فأرادت أن تجلبه إلى جانبها من خلال التعامل معه على أسس (عقلية) جديدة لما تعرفه من السيد احترامه للعقل والمنطق. وبالفعل استطاعت بريطانيا أن تقلّل من ذلك العداء الذي كان يكنّه ضدّها، فأخذ يلتقي بالسفراء والوزراء، ويكتب في صحيفة (ضياء الخافقين) التي كانت تقوم بنشرها شركة بريطانية باللغتين العربية والإنكليزية[٤] كما كان يكتب في جريدة (القانون) التي تهاجم الشاه والحكومة الايرانية، وكانت تصل إلى ايران سراً حيث توضع في بالات البضائع المستوردة، كما كانت تصل العراق حيث يقرأها الذين يجيدون الفارسية خاصة بين طلبة العلوم الدينية والعلماء، ومن الممكن القول: إنّ هذه الجريدة مهّدت الجولحركة (المشروطة) أوثورة الدستور التي حدثت عام ١٩٠٥ بعد حين.[5]

---

١. السيد جمال الدين وأفكاره، ص ٢٣٠ عن السيد حسن تقي زادة

٢. التاريخ السياسي المعاصر لايران، ص ٢٩.

٣. السيد جمال الدين وافكاره، ص ١٩٩، نقلاً عن (شرح أحوال وآثار السيد) للميرزا لطف الله الاسد آبادي ابن اخت السيد الأفغاني.

٤. لمحات إجتماعية، ص ٣٠٠.

٥. المصدر السابق، ص ٣٠٠.

لقد زار الأفغاني لندن من قبل وذلك عام ١٨٨٥ وبقي فيها ثلاثة أشهر قابل فيها وزير شؤون الهند راندولف تشرشل بدعوة من صديق بريطاني للافغاني يدعى (بلنت) حيث كان يعتقد أنّ الأفغاني وإن كان خصماً لدوداً للاستعمار البريطاني غير أنّه في خصومته ليس ذا تعصّب أعمى، وإنّه يرحّب بأي إتفاق شريف مع بريطانيا إذا كان ذلك ممكناً[١] وحاولت بريطانيا أن تبعثه ضمن وفد بريطاني إلى السلطان عبد الحميد لإقناعه بعقد حلف ضد روسيا مؤلف من بريطانيا وتركيا وايران وافغانستان[٢] وحدث أن غيّر رئيس الوفد رأيه وقرر عدم استصحاب الأفغاني معه مما أثار غضبه فترك لندن.

الافغاني والمهدي السوداني

عند ما كان الأفغاني يصدر العروة الوثقى حدثت ثورة المهدي في السودان فكتب عنها الكثير موضّحاً الأخطاء، وسوء التصرّف التي ارتكبها الجنرال غوردون في السودان، وكان يدبج مقالاته بالادلّة الناصعة مما جعلها محط أنظار السياسيين الأوروبيين، وخاصة وزير الخارجية البريطانية غلادستون الذي اعترف بالأخطاء التي ارتكبتها بريطانيا في مصر و السودان. فدعا الافغاني الى لندن للتشاور معه حول الامر، خاصة وأنّ المهدي السوداني كان أحد تلامذته. التقى هناك بكبار السياسيين، وقابل اللورد ساليسبوري الذي عرض عليه أن يتولى زعامة السودان ويكون ملكاً عليها بعد القضاء على ثورة المهدي، فأجابه: أنّ هذا العرض لدليل على الجهل السياسي، أيّها اللوردا دعني أسألك، هل أصبحتم تملكون السودان حتى تنصبوني ملكاً عليها ؟! مصر للمصريين، وكذلك السودان فهي جزء لا يتجزّأ من الخلافة العثمانية، ولا يزال صاحبها حياً ولديه القوة المادية والمعنوية، ويستطيع أن يصلح الأمور بكل سهولة. اذا كانت بريطانيا راغبة في تحسين أحوال الناس فلتتوجه إلى ايرلندا أولاً فهؤلاء أقرب اليكم، وتوجد صلات عميقة بينكم وبين الايرلنديين، وهي تساعد على الاتفاق فيما بينكم،

---

١. المصدر السابق، ص ٢٨٨، نقلاً عن أدوارد براون.

٢. لمحات اجتماعية، ص ٢٨٩، نقلاً عن أدواردبراون وكذلك (السيد جمال الدين وأفكاره)، ص ٢٢٦، نقلا عن السيد حسن تقي زادة

وهي أقوى من الاتفاق الذي تريده مع مصر والسودان وبقية دول الشرق الاوسط[١].

تعجّب اللورد ساليسبوري من هذا الجواب وهوالسياسي المعروف، وأحدثت هذه التصريحات للأفغاني ضجّة في الصحف البريطانية، خاصة تلك التي كانت تقف إلى جانب الايرلنديين، وأخذت تتداول بين طلاب الحرية في المحافل السياسية.

كان الأفغاني يعتقد بأنّه لو إستطاع المهدي أن ينجح في فتح أراضٍ أخرى، فانّ جميع المسلمين سيطيعونه، وكان يخشى أن لا يقف السودانيون جميعهم معه. وكان يقول إنّ الناس قد سئمت الظلم والاستغلال، فأصبح ايمانهم بالمهدي الموعود قوياً، فاذا حقّق المهدي هذه الآمال فسيصبحون جميعاً تحت لوائه وطاعته.

يبدو أنّ أقوال الأفغاني لساليسبوري وصلت عاصمة الخلافة العثمانية، فوجّه فيها السلطان حرصاً شديداً على وحدة المسلمين تحت لواء الامبراطورية العثمانية، فوجّه الدعوة للافغاني بالحضور إلى اسطنبول، فامتنع أول مرة، وبعد الالحاح غادر لندن إلى اسطنبول.

مع السلطان عبد الحميد في مشروعه

استقبل الأفغاني بحفاوة في اسطنبول وسكن قرب قصر السلطان عبد الحميد، وعرض عليه مشروعه، وفي ايجاد اتحاد قوي بين الشعوب الإسلامية ليكون أساساً لبناء الجامعة الإسلامية[٢] وإعادة مجد الأمة الاسلامية وقدرتها وهيبتها.

لقد كان هذا العرض متفقاً مع ما كان يطمح إليه الأفغاني طوال حياته، فتقبّله قبولاً حسناً، وشكر السلطان على حسن ظنّه به، وبالفعل باشر بعقد جلسات خصوصية مع السلطان لوضع الاسس التي سيتحرّك عليها من أجل إقامة هذا الاتحاد. وبالفعل وضع مسوّدة ذلك المشروع وتعهّد على نفسه دعوة علماء الشيعة والسنّة لهذا المشروع، كما عرض السلطان إعطاء العتبات المقدسة الواقعة في العراق لتضم إلى الحكومة الايرانية

---

١. السيد جمال الدين وأفكاره، ص ٦٤، نقلاً عن (خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني)، محمد المخزومي.

٢. السيد جمال الدين وأفكاره، ص ٢٠١، نقلاً عن ابن اخت الافغاني.

مقابل موافقتها على الدخول في (الجامعة الاسلامية)[١] واقترح السيد أن يعقد أولاً مؤتمر في اسطنبول يجتمع فيه مندوبو الحكومات والشعوب الاسلامية للتباحث حول الموضوع، ويرجع إليه في حلّ المشاكل والقضايا العالقة.

كان هدف السيد الأفغاني من المؤتمر الاسلامي هوجمع شمل الحكومات المسلمة في مشروع لإعادة الجهاد المقدّس في كل البلاد الاسلامية في حالة تعرّض إحداها لأيّ عدوان من دولة أوروبية، ومقاطعة البضائع الاوروبية[٢].

باشر السيد الأفغاني بالكتابة إلى العلماء والثوريين في كل البلاد الاسلامية من الهند وأفغانستان إلى مراكش ومصر، دعاهم فيها إلى أحياء الاسلام ودولة الاسلام. وقد بلغت حدود ٥٠٠ رسالة[٣] وبلغات مختلفة. وقد أتته أجوبة من جميع الذين راسلهم، وضمت البعض منها هدايا وأدعية للسلطان عبد الحميد. اطلع عليها السلطان وسربها كثيراً وشكره على هذه الجهود التي يبذلها من أجل الاسلام والمسلمين.

وقعت إحدى هذه الرسائل المرسلة إلى أحد علماء الشيعة بأيدي القنصل الايراني ببغداد، فأرسلها إلى ناصر الدين شاه موضّحاً له بأنّ السيد جمال الدين اتفق مع أغلب العلماء لتسليم ايران للسلطان العثماني تحت ستار الوحدة الاسلامية[٤]. فأرسل ناصرالدين شاه أمراً إلى سفيره في البلاط العثماني يأمره بالقاء القبض على الايرانيين الثلاثة الذين تعاونوا مع الأفغاني في كتابة الرسائل وتسفيرهم إلى ايران، حيث أعدموا في تبريز.

بعد اغتيال ناصرالدين شاه من قبل أحد تلامذة الافغاني المدعو محمد رضا الكرماني بحيث صرخ عند إطلاق الرصاص (خذها من يد جمال الدين). اتهم الأفغاني بأنه وراء الاغتيال، فطلبت الحكومة الايرانية تسليمه إليها، إلاّ أنّ السلطان العثماني رفض بحجة أن السيد أفغاني وليس ايراني، والظاهر أنّه خشي من تسليمه كما سلّم الثلاثة من قبل،

---

١. المصدر السابق، ص ٢٠٣.
٢. المصدر السابق، ص ٢٠٤.
٣. المصدر السابق، ص ٢٠٥.
٤. لمحات اجتماعية، ص ٣٠٦، نقلاً عن (جمال الدين الاسد آبادي) لصادق نشأت، ص ١٠٤.

فالتجأ للسفارة البريطانية حيث إنّها كانت مسؤولية عن الرعايا الافغان، لعدم وجود سفارة أفغانية في اسطنبول. فأرسل عليه السلطان راجياً منه أن يتخلّى عن فكرة مغادرة اسطنبول فاستجاب لطلبه، إلاّ أنّ الحكومة الايرانية لم تترك المطالبه به.

لم تبق الأمور على ما يرام بين الأفغاني والسلطان عبد الحميد، فقد سادها الفتور بعد اغتيال ناصر الدين شاه، واتهام الافغاني بذلك، مع أنّه كان ينكر ذلك. وساهم في هذا الفتور شيخ الاسلام أبوالهدى الصيادي الذي كان يحقد على الافغاني ويحسده على مكانته ومقامه.

وفاة الأفغاني

من المعروف أنّ الأفغاني توفّي أثر إصابته بالسرطان في فكّه، حيث بدأ يشعر بألم في أسنانه، فأشار عليه الطبيب بقلعها، ولـمّا قلعت زاد الألم عليه، واجريت له ثلاث عمليات استأصل فيها جزء من الفك الاسفل واللسان، إلاّ أنّها لم تفلح في تسكين آلامة، فظلّ يعاني من الآلام الشديدة بضعة اشهر حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٨٩٧/٣/٩[١].

وهناك قول يشير إلى أنّ الافغاني مات مسموماً، ويتهم السفير الايراني ناصر الملك في اسطنبول[٢] وهوقول غير مدعم بالأدلة والبراهين، دفن في مقبرة (شيخلر مزار للي) باسطنبول، ولم يحضر جنازته سوى اثنان، حيث حمله أربعة حمّالون، فكان تشييعاً بسيطاً لرجل هزّ العالم الاسلامي طوال سنين، وأيقظ المسلمين من سبات طويل، ثم نقلت رفاته عام ١٩٤٤ إلى أفغانستان.

---

١. لمحات إجتماعية ص ٣٠٨.

٢. السيد جمال الدين وأفكاره، نقلاً عن الميرزا لطف الله آبادي. كان السيد مولعاً بتدخين السكاير بافراط وولع عجيبين ولعل ذلك من اسباب إصابته في فكه ولسانه واسنانه.

«١٨»

منهج
التحريض السياسي عند الافغاني

الاستاذ يوسف هادي

منهج التحريض السياسي عند الافغاني

المقدمة (أ)

نقرأ الحاضر من خلال التاريخ، هل نريد استخلاص قوانين تتحكم في العلاقة بين الاسلاميين والاغتيال؟ وهل هناك أصلاً علاقة بين الاثنين؟ هل من علاقة بين حرية الاجنبي على أرض الوطن أو الانفتاح سياسياً كان ام اقتصادياً على الاجنبي وبين اغتيال الحاكم الذي منح تلك الحرية اوالانفتاح؟

ما العلاقة بين اغتيال رأس السلطة وبين فساد الجهاز الاداري للدولة والخراب الاقتصادي فيها؟

هل هناك ضرورة لوجود محرّض ليندفع المنفّذ نحوالهدف وليكون الثلاثي:

المحرِّض: جمال الدين، القاتل: الكرماني. القتيل: ناصرالدين شاه

او: المحرِّض: الدكتور عمر عبد الرحمن. القاتل: الاسلاميون. القتيل: السادات.

او: المحرِّضون (اوالمشجّعون، لافرق): ثلاثة من شيوخ الازهر. القاتل: سليمان الحلبي. القتيل: الجنرال كليبر.

لقد قيل في الشيوخ الثلاثة الذين علّقت رؤوسهم إلى جانب الخشبة التي صلب عليها الحلبي أنّهم قد علموا بنيّة الحلبي على القتل ولم يفشوا سرّه. هل كان دورهم هو هذا فقط؟

واذا كان هناك تحريض أو افتاء بالقتل فهل كان كافياً لتنفيذ القتل، أم أنّ قناعة ما لدى القاتل تجعله يقدم على عمله حتى من غير تحريض؟

وماذا عن عمليات التعذيب التي تمارسها الاجهـزة الحكوميـة عـادة ضـد المعـتقلين السياسيين هل تؤدي إلى الحاق الهزيمة بنفوس المعذّبين كما هوالمرجومنها، أم إلى نتائج عكسية؟

المقدمة (ب)

لأسباب موضوعية وجيهة سندرس بالتفصيل حالة اغتيال ناصر الـدين شـاه، فـلا فرق في استخلاص النتائج أن تكون الحالة قد مضى عليها أكثر من تسعين عاماً أو اكثر من ذلك.

ففي التحقيق الذي أجري مع خالد الاسلامبولي قال: إنّ أحاديثه مع رفاقـه: «كنّـا نتكلّم في القوانين التي تحكم البلاد، وإنّ زماننا مشابه لهذا العصر، اقصد: عصر التتـار». (الاسلامبولي، رؤية جديدة ص ٩).

الهموم اليومية لقبلة العالم ناصر الدين شاه

«إنّ ما سمعته عن سبب غضب الشاه في اليوم الثاني لوصولنا إلى هنا لـيس مـسألة خراسان أو اذربايجان أو كل اراضي ايران. السبب هو أنّ (فخر الدولة) قد قامت بجلب فاطمة وهي جارية زوجته (امينة اقدس) وكانت معه في سفره هذا، وقدّمتها للشاه الذي ضاجعها، وعند عودتها قامت أمينة أقدس بفحص (...) فاطمة فاتضح أنّ غشاء بكارتها قد أزيل، عندها قامت بضربها ضرباً مبرحاً، وقد قامت فاطمة من جانبها بابتلاع مـادة الأفيون، وظلّ الشاه ساهراً تلك الليلة على معالجة فاطمة، ولذا كان فكره مشغولاً».

روزنامه خاطرات ص ٤٢٣ .

«كان لـ(ببرخان) وهوقط ناصر الدين شاه، ممرضـة خاصـة وخـادم خـاص، كـان مواظباً صباح مساء على أن يقدّم له في كل وجبة صحناً من الدجاج المشوي.

كان طعام ببرخان يوضع في صحن خاص كما هو الوضع بالنسبة لطعام (قبلة العالم). الشاه ـ بعد أن يفحص من قبل المدعو أمين السلطان ـ المشرف على مطبخه ـ مخافة أن يكون غير مستساغ أو أن احد الأعداء دسّ فيه سماً. كما كان الخـادم الخـاص بـالقط

المذكور يضعه في عربة خاصة ليدور به في الحديقة للنزهة».

داستانهای از عصر ناصرالدين شاه ص ٢٦٨.

«استدعاني الشاه عصر هذا اليوم، فتشرفت بالحضور، علمت أنّ القط الخاص به المسمى ببرخان قد فقد، كان مشوّش البال، وليس لديه رغبة في تناول طعام العشاء في الخارج هذه الليلة».

روزنامه خاطرات ص ٢٢.

«غادر الشاه طهران إلى منطقة طرقبة، كانت حجته الظاهرية هي حرارة الجو في المدينة، وحجة أخرى هي اكتشاف معدن الذهب هناك. إلاّ أنّ السبب الحقيقي هولاجل مضاجعة جارية زوجته. وعلم أنّ مليجك (احد شباب البلاط) ورجلاً آخر قد شاهداه، وهذا شيء قبيح.

كان الشاه قد تعلّق بها، ولم يكن يجرؤ على مضاجعتها في المدينة لوجود امينة أقدس، ولذلك وبحجة الذهاب مع مليجك للنزهة أخذوا معهم عدة جواري كانت من بينهن هذه الجارية.. فإنّ مكّنته من نفسها هذه الليلة ـ إن شاء الله ـ فسنعود غداً إلى المدينة، وإلاّ اضطررنا للاقامة هنا عشرة ايام أخرى»

روزنامه خاطرات ص ٢٧٨.

«٣ ذوالحجة ١٣٠٢هـ: تحسّن مزاج الشاه، فقد نزف دم بواسيره وارتاح».

«٧ ذوالحجة ١٣٠٢: تشرّفت بمقابلة الشاه صباحاً، حالته سيئة؛ لأنّ الدم قد نزف كثيراً من بواسيره».

روزنامه خاطرات ص ٤٣٤.

يوم استقرت طلقات مسدس قاتله الميرزا رضا الكرماني تحت ثديه الايسر، وتركته يتشحّط في دمه، كان يستعد للاحتفال بالعيد الخمسين لجلوسه على عرش ايران، حيث كلّفت حاشيته بإعداد الترتيبات الخاصة بالاحتفال.

ارتقى العرش بعد وفاة أبيه محمد شاه عام ١٢٦٤هـ (١٨٤٨). وعمره آنذاك سبعة عشر عاماً، وكانت الاوضاع العامة مضطربة في أغلب المناطق الايرانية، ولحسن حظّه فقد سلّم رئاسة وزارته لـ (اميركبير) واسمه الميرزا تقي خان، الذي عرف عنه فيما بعد أنّه

اكفأ رئيس وزراء عرفته ايران في تاريخها الحديث، واعتبره اللورد كرزت واحداً من شخصيات القرن التاسع عشر[١]. على الرغم من المدة القصيرة التي قضاها في الحكم (ثلاث سنوات وشهرين).

فقد استطاع (اميركبير) إضافة إلى تنظيمه للجيش الذي انخفض عدد أفراده، وكان الباقون مجموعة مهلهلة من حيث الترتيب والهيئة، وإضافة إلى تنظيمه الامور المالية للدولة ذات الخزانة الخالية تماماً، فقد قام بعدة إصلاحات ظلّ صداها يتردد لسنوات عديدة بعد رحيله عن هذا العالم.

قام بتأسيس مدرسة دارالفنون بطهران للتدريس وفق الأساليب والطرق الحديثة، وأرسل مجموعة من الطلبة الايرانيين إلى أوروبا للدراسة، وأصدر الرسمية للبلاد وكانت تصدر اسبوعياً باسم (وقايع اتفاقية) كما ساعد على ترجمة ونشر الكتب الاجنبية، واستخدم مجموعة من الخبراء الاجانب.

واستثمرت البلاد على عهده مجموعة من ثرواتها الطبيعية، كالنحاس والحديد والقطران. كما قام بانشاء مصانع للنسيج والسكر وآنية الزجاج والورق، كما ازدادت تجارة ايران مع العالم الخارجي، كما أنّ الامن والحماية التي وفّرتها الدولة للمزارعين أدّيا إلى عمارة البلاد.

إلاّ أنّ الاهم من كل ذلك هو دوره في الحد من النفوذ الجنبي في البلد، وقضاؤه على الفساد الاداري الذي كان مستشرياً بين الموظفين على اختلاف درجاتهم.

بعد أربعة أشهر من تسلّمه لمهام منصبه، وبسبب ما أبداه من نزاهة في إدارة شؤون البلاد، جرى التآمر لقتله من قبل مجموعة من ذوي النفوذ، بالاشتراك مع بعض الموظفين الروس والانكليز حيث حرّضوا عليه مجموعة من الجنود الاذربايجانيين للثورة عليه والمطالبة بعزله وقتله، إلاّ أنّ الشعب هناك ثار بوجه أولئك الجنود «وحين عاد امير كبير إلى البلاد خرج الناس لاستقباله وهم ينحرون الذبائح، وقد استقبل استقبالاً ملكياً كان

---

١. ايران وقضية ايران ج ١، ص:٥٢٧.

سببا في سعادة الشاه.. أنّه لم يحدث في هذا البلد وفي أيّ وقت أن حدثت تظاهرات كهذه تأييداً لوزير من الوزراء»[١]

لم ترق تلك الاوضاع رجال البلاط من أعدائه، فقاموا بتحريض الشاه عليه، بالاتفاق مع والدة الشاه المسماة ب (مهد عليا) ـ فقتل بأمر من ناصرالدين شاه في أحد حمامات مدينة كاشان.

وصف أحد السفراء الاجانب إصلاحاته، فقال: «لقد صنع في سنوات قليلة عملاً يصنع في قرون، وبقدرة نبوغه صنع عصراً جديداً في تاريخ بلاده. ولوكان العمر قد امتدّ به لوضع في مصاف أولئك الذين يرى الناس فيهم أنّهم قد أرسلوا من قبل الله لأداء دور معيّن في خدمة الناس».[٢]

وكتب السير برسي سايكس: «كان قتله كارثة على ايران؛ لأنّه قد أدى إلى إيقاف عجلة التقدم والرقي الذي حصلت ايران عليه بشقّ الانفس، كما كان لقتله آثار مشؤومة على العلاقات بين ايران والعالم الخارجي».[٣]

إنّ الحديث عن رئيس الوزراء هذا مهم جداً لما سيأتي من أحداث كان الناس يقارنون فيها بين أعمال هذا الرجل الخيّرة وبين ما سيقوم به رجال البلاط والجهاز الحاكم من انتهاكات خطيرة لحقوق الوطن والناس، كانت السبب الذي دفع ميرزا رضا الكرماني إلى قتله بتحريض من السيد جمال الدين الأفغاني. حيث سنقرأ أيضاً في رسائل الأفغاني التي كان يحرض فيها على الثورة ضد الشاه نماذج من الانتهاكات والمظالم التي كان يقوم بها رجال الجهاز الحاكم ضد أبناء الشعب، ممن وردت بعض أسمائهم على لسان الكرماني أثناء استجوابه بعد قتل الشاه. ونرى لزاماً هنا أن نعرّف

---

١. تقرير لسفير انكلترا آنذاك بالمرستون وجهه إلى وزير الخارجية البريطاني. انظر: ايران در برخورد با استعمارگران، ص ٢٤٠.

٢. المصدر نفسه، ص ٢٤٧

٢. المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

القراء ببعض هؤلاء ممن ستتكرر أسماؤهم في هذا البحث، أو ممن ذكروا على لسان الأفغاني والكرماني.

محمد حسن خان الملقّب باعتماد السلطنة:

درس في مدرسة دارالفنون، وذهب إلى باريس بعد ذلك مع سفير ايران، فبقي هناك أربع سنوات، عيّنه ناصرالدين شاه مديراً عاماً لدار الطباعة والترجمة لعموم ايران، ثم وزيراً للمطبوعات والترجمة. بقي ملازماً لناصرالدين شاه في الحلّ والترحال حيث كان يقرأ له الصحف الاجنبية، إذ كان يعرف اللغة الفرنسية، كان له فضل في خدمة الثقافة الايرانية، كما كتب عدة مؤلفات جغرافية وتاريخية استعان بها بفريق من المعاونين. إلاّ أنّ أهم كتاباته هو(يومياته) التي دوّن فيها يوماً بيوم الحياة الداخلية للبلاط والحكومة والاعيان، وقد طبعت فيما بعد واسمها (روزنامه خاطرات اعتماد السلطنة) ولقبه هذا (اعتماد السلطنة) منحه اياه الشاه نفسه. لاتخلو يومياته تلك من نقد لاذع وسخرية أحياناً، وعبارات مبطّنة ضد الشاه ورجال البلاط، ومهما يكن فهومن رجال البلاط.

زبيده خانم (امينة اقدس):

«من كردستان وواحدة من زوجات الشاه العزيزات، وعلى الرغم من كونها عارية عن الجمال إلاّ أنّه كانت لها منزلة خاصة. وكانت معروفة بالامانة والاستقامة، ولذلك فقد لقّبت بأمينة اقدس. كان الشاه يضع جواهره الخاصة به لديها، كما يضع لديها المسكوكات الذهبية التي تهدى له حيث تنقل في نهاية كل سنة إلى الخزانة. عميت عيناها في أواخر حياتها»[١] ويعزو فيفريه الطبيب الخاص للشاه أحد أسباب طول مرض عينها، وبالتالي عماها إلى أنّ مجموعة من المنتفعين كانوا يستفيدون من طول ذلك المرض[٢].

---

١. رجال عصر ناصري، ص ٢٤٠

٢. سه سال در دربار ايران ٢٢٣.

كان لأمنية اقدس هذه اخ من العاملين المقرّبين في البلاط، وقد رزق بولد اسماه غلام علي، وفي أحد الايام وقع نظر الشاه على ذلك الطفل، فأغرم به، وأصبح هذا الطفل أشهر شخصية في البلاط، حتى إنّ كبار شخصيات الدولة والبلاط كانوا يتقربون إلى الشاه بواسطته. كما كانت الهدايا تقدّم له تملّقاً وتزلّفاً للشاه نفسه، وقد أطلق الشاه عليه لقب (مليجك) للتحبّب، وشاع عنه لقبه الذي يربط بينه وبين السلطان وهو(عزيز السلطان).

غلام علي خان (عزيز السلطان) (مليجك):

«خصّص الشاه لخدمته عدة خادمات وجواري، اضافة إلى ثلاثين طفلاً ليلعبوا معه ويؤنسوه» وحين يدخل أحد غرفته يرى نفسه وكأنّه في دكان لبيع لعب الاطفال. كما عيّن له ممرضتين: احداهما بيضاء اسمها (جوجرغ) و الأخرى سوداء واسمها (گل چهره) للمحافظة عليه. وخصص اثنين من الخصيان أيضاً لخدمته هما عبد خان واغا بشير.

وعيّن له أيضاً اثني عشر مرافقاً يأتمرون بأمره، وكانوا يرتدون اللباس الاحمر ذي الياقيات والاكمام المطرزة، تترواح أعمارهم بين ٩ ـ ١٢ سنة.

واختار له فرقة موسيقية من الصبيان أيضاً بقيادة علي اكبر خان (مزيّن الدولة) الرسّام الذي له حظّ في فن الموسيقى أيضاً.

كما انتخب له خمسين جندياً هم زبدة الحرس الملكي الخاص برئاسة أرشد الدولة»[١].

ولقد بلغ من عشق الشاه لهذا الطفل أن تمر أيام طويلة لا ينشغل بال الشاه الا بمليجك هذا. نقرأ في روزنامه خاطرات ص ٣٧٢، في ٥ ربيع الاول ١٣٠٢: «هذه الايام، ينحصر تفكير الملك بعشق مليجك فقط». كان عمر الشاه يومئذ ٥٥ عاماً.

وحدث مرة أن سقط أحد أسنان مليجك، فأخذه الشاه وأمر بأن يطلى بالذهب ويوضع في المتحف[٢].

---

١. يادداشت‌هايي از زندگاني خصوصي ناصرالدين شاه، ص ٩١.

٢. روزنامه خاطرات، ص ٦١١، في ١٤، جمادى الأولى، ١٣٠٥.

وحين مرض وعوفي من مرضه، أطلق الشاه سراح ٤٨ سجيناً من سجن (انبار) بينهم ٧ أو٨ من البابية والبقية لصوص، وفي نفس ذلك اليوم قام اثنان أو ثلاث من اولئك اللصوص بارتكاب أعمال سرقة[١].

يلخص المدعوحكيم الممالك وهوطبيب ومن حاشية الشاه الوضع العام لمليجك وسلطته على الشاه بأبيات قرأها على مسامع اعتماد السلطنة كاتب (روزنامه خاطرات) وهي:

اذا عشق الشاه على اكبر سنّه	فسيكفيه عشق مليجك وآل مليجك
ولا عجب اذا ضاعت (مرو)و(سرخس)	فيكفي عشق مليجك وخال مليجك
ان كل الجواهر التي في خزانة السلطان	حق لمليجك ومال لمجيك
وكل ما في الاصطبلات من حيوانات	ملك لمليجك ومال لمليجك[٢]

وحتى حين كان الشاه يسافر إلى اوربا كان يأخذه معه، ويلتقط الصور التذكارية معه هناك، ويقدّمه معه إلى الملوك الذين يلتقي بهم.

حدث مرة أنّ الخصي عبدالله وهوالغلام الخاص لمليجك طلب منه شالاً (فجاء مليجك بالعريضة وطلب إلى الشاه توقيعها، ورفض الشاه ذلك، فقال له مليجك:...وابن ... ضع امضاءك هنا! عندها ثارت الغيرة الملكية فأمر أن يضرب الخصي ومليجك بالعصي، إلاّ أنّه سامحهما فوراً، فرأيتهما بعد ساعة وهما يضحكان»[٣]

يروي اعتماد السلطنة في يومياته هذه الواقعة التي يختمها بالدعاء الفاضح بعد الواقعة، فيقول في زيارة الشاه لمدينة تبريز، وكيف أنّ عزيز السلطان (مليجك) سبقه إلى هناك مع مرافقيه: «كان الناس في الشوارع ينتظرون قدوم الموكب الملكي، غير أنّ عزيز

---

١. المصدر نفسه، ص ٣٧٠، في ٢٠ صفر ١٣٠٢.

٢. المصدر نفسه، ص ٣٥٠، في ١٦ شوال ١٣٠١.

٣. المصدر نفسه، ص ٤٠٣ في ٢٣ رجب ١٣٠٢. والفراغ الموجود في النص ممسوح في اصل الكتاب. وبالتأكيد فأن الكلمتين الممسوحتين بذيئتان.

السلطان سبقه في القدوم إلى المدينة، وكان يركب عربة معه ٢٠٠ فارس. كان مرافقوه يتقدّمون الموكب وبأيديهم الهراوات والعصي يطلبون إلى الناس أن ينهضوا ويقفوا احتراماً له، فاضطر الناس للقيام.

أمّا القائد العام العسكري لمنطقة اذربيجان فقد أعطى أوامره بتنكيس الأعلام، وأن يقوم الجنود المصطفون برفع أسلحتهم علامة التحية (حالة تأهب).

تألّم أهل تبريز كثيراً لهذا الأمر، ودمدموا بكلام سيء. حفظ الله وجود الشاه من شر أمينة اقدس (عمة مليجك) والخصي عبدالله، وأهلك من سبّب فضيحة الدولة والامة»[1]

ظلّ السلطان:

ابن الشاه الكبير، كان يمنّي نفسه أن يكون ولي عهد أبيه، إلاّ أنّ ذلك لم يحدث بسبب كون أمّه ليست من الاميرات[2] عيّنه ابوه حاكماً على «اصفهان وشيراز وكرمانشاهان وكردستان وعربستان ولرستان وبروجرد وعراق وگلبايگان وخونسار ويزد»[3]. اشتهر بقساوته واعتداءاته على أعراض وأرواح وأموال الناس، دون ان يكون هناك رادع يردعه، ظلّ طوال حياة أبيه يحاول نيل وزارة الدفاع واستلابها من أخيه (نائب السلطنة) فلن يفلح، اشترى بعض الاسلحة من الخارج لتطوير الجيش، إلاّ أنّ الفساد الاداري في المؤسسة العسكرية ـ كما هو في المدينة ـ أفشل كل تلك المحاولات، وبقيت ايران بغير جيش، إلاّ من القوات الخاصة بالشاه، وببعض كبار الشخصيات.

«حين قدم جمال الدين الأفغاني إلى اصفهان استقبله استقبالاً لائقاً، وطلب إليه أن يسعى في أن يكون ولياً للعهد.

---

١. المصدر السابق، ص ٧٢٩ في ٤ رمضان ١٣٠٦.

٢. ايران وقضية ايران ١: ٥٤٥.

٣. شرح حال عباس ميرزا ملك آرا، ص ١٦٨.

وعند ما ذهب الأفغاني بعد ذلك إلى روسيا حاول من خلال لقاءاته مع المسؤولين هناك تغيير نظرتهم السلبية نحو ظلّ السلطان، وجعلهم يلتزمون جانبه»[١]

ويبدو أنّ بعض التصرفات التي كان يتحدث بها ظلّ السلطان نحو الاصلاح والترقي هي التي دعت الأفغاني إلى أن يرى فيه شخصاً واعداً قد يصلح أمور البلاد في المستقل.

عزله أبوه عن مناصبه بناء على تقرير من الجنرال فاگنر، وهوضابط نمساوي كان يعمل مستشاراً في الجيش، بعد أن ذهب إلى اصفهان لتفقد الجيش هناك، حيث كتب فيه «إنّ ظلّ السلطان لا ينقصه من مستلزمات الملوكية الاّ التاج والعرش»[٢] وهوكلام يجنّ له جنون الشاه.

نائب السلطنة:

واسمه كامران ميرزا، وهو الابن الثالث لناصر الدين شاه، عيّنه أبوه ـ وعمره لما يزل ست سنوات ـ حاكماً لمدينة طهران، وعيّن له معاوناً، وحين بلغ ثلاثة عشر عاماً، عينه وزيراً للدفاع وعيّن له معاوناً».[٣]

ملامح الاوضاع الاجتماعية العامة

سيطرت على مجمل علاقة البلاط بالشعب مجموعة مميزات ظلّت قائمة طيلة الخمسين عاماً لحكم ناصر الدين شاه، منها: أنّ الشعب مشروع ضريبي موجود والى الابد لتقديم كل شيء من أجل الجهاز الحاكم، ولذلك بقي الفقر المدقع هوالصفة العامة لعموم جماهير ذلك الزمان، بما يرافقه من أمراض وأوبئة وانحدار في الاخلاق. بحيث ظلّ الشاه وحاشيته هم اليد العليا القادرة على منح الخبز والمقام، بل والحياة. والشعب هو اليد السفلى التي تستجدي الخبز والعمل وأنفاس الحياة التي يمكن لأيّ فرد من الطبقة

---

١. سياستگران دوره قاجار، ١، ١٩١. وقد اقام الأفغاني في اصفهان بين ٢٢ صفر ـ ١٢ ربيع الاول ١٣٠٤. انظر اسناد برگزيده، ص ٣٩.

٢. اسناد برگزيده، ص ٦٦.

٢. مقدمة سفرنامه كرمان وبلوچستان، ص (هشده). وداستانهاي از عصر ناصرالدين شاه، ص ٢٣٢.

العليا أن يكتمها في اي لحظة دون حساب اوعقاب.

ومن تلك المميزات: امتهان كرامة الانسان ـ أي انسان ـ وجعله هدفاً دائماً لانتهاكات، الجهاز الحاكم. بينما لايوجد قانون يعطي المواطن أيّ حقّ كان.

ومنها: شيوع روح النفاق والتملّق على كافة المستويات، بحيث أصبحت هذه الروح هي القاعدة، وما عداها ـ وهوقليل جداً ـ هوالاستثناء.

فالشاه يخاطب بـ (قبلة العالم ارواحنا فداه) وهو أكثر ألقابه استخداماً، ويخاطبه حسين خان سبهسالار وزير الدفاع والخارجية بقوله: (اتبرك بتراب قدميك الاقدس الملكي الشبيه بالجواهر) أو(جعلت فداء لتراب قدميك الاقدس الملكي) أو أن يقول عنه سفير ايران في لندن (ملكم خان): «صاحب حقّ التصرف في كل ايران، ومقسّم الارزاق علينا نحن العبيد»[1].

روح التملّق والنفاق والنفعية والانتهازية أدّت إلى التخفيف مماقد يحصل في ضمائر ـ أو بقية ضمائر ـ الشاه وافراد الجهاز الحاكم من تأثّر وتأنيب لما كان يجري من مظالم هم ليسوا بعيدين عن الاطلاع عليها، كما سنرى .

١ـ الاعتداء على الاعراض:

لنبدأ بهذه الواقعة التي جرت قرب باب البلاط الداخلي كما يرويها اعتماد السلطنة في مذكراته بتاريخ ٥ شعبان ١٣٠٢، أي بعد ثمانية وثلاثين عاماً على حكم الشاه:

«عند غروب هذا اليوم حدثت جلبة وضوضاء عند الباب الداخلي للقصر، فقد كان اثنان من جنود المدفعية سكرانين، وكانا يركضان وراء سيدة محترمة. فما كان منها إلاّ أن دخلت إلى دهليز الحريم، فتبعها الجنديان وهما يريدان قتلها. كل هذا والحارس المناوب هناك لم يعبأ بالأمر ولم يتحرك من مكانه. اجتمع كل العاملين في الجناح الداخلي للحريم، إلاّ أنّه لم تكن لأحد جرأة على التقدم نحوهما، لخوفهم من البلطة التي

---

١. ترد هذه الافتتاحيات في عامة المخاطبات الرسمية للشاه. وجميع وثائق ذلك العهد مشمولة بها. انظر مثلاً: اسناد برگزيده، ص ٨ وما بعدها. وحول عبارة السفير انظر: مدارك تاريخي، ص ١٢١ من رسالة له موجهة إلى وزير خارجية ايران.

كانت في يد أحدهما. وحدث أن اجتاز في تلك اللحظة السيد نقيب السادات الروضة خون (خطيب يقرأ العزاء الحسيني) ومعه بعض السادات، فأمسك بجندي المدفعية وسلّمه إلى الأغا باشي»[١].

أما في شوارع العاصمة فيروي أحد كبار موظّفي الدولة هذه الحادثة:

«ذهبت في أحد الايام لزيارة أخي، وقبيل الغروب بنصف ساعة أردت مغادرته، فقال لي أخي: إنّ الوقت متأخر وينبغي عليك الحذر في هذه المدينة المليئة بالاضطراب. ضحكت من كلامه، وقلت: يمكنني دائماً الذهاب في منتصف الليل إلى أي مكان، فلم الحذر وشعاع الشمس لا يزال موجوداً؟ ثم غادرت المكان. وحين وصلت إلى نهاية ميدان (الطوبخانه) رأيت ازدحام الناس هناك في محطة الترامواي، وللوهلة الاولى تصورت أنّ الذاهبين والقادمين هم من منتظري الترامواي، إلاّ أنه قبل وصولي إلى الجانب الآخر رأيت مجموعة منهم تتجه نحوشارع (لاله زار) وحين وصلت إلى مدخله رأيت امرأة تستغيث، إلاّ أنه لا احد يعيرها انتباهاً، دفعني فضولي لمعرفة جلية الأمر وسألت الحاضرين فلم يردّ عليّ احد، انتبهت المرأة إليّ وصاحت ايها الشاب! انقذني في سبيل الله، إنّني زوجة فلان الكاسب ومقيمة في الزقاق الفلاني، ذهبت بالترامواي لزيارة أختي خارج (دروازة قزوين) والآن عدت ونزلت فألقي عليّ القبض! انّني والله لست بغياً. إنّ زوجي واطفالي بانتظاري. ترى، ألا يوجد مسلم في هذه المدينة ؟ ألا يوجد حاكم لهذه المدينة؟ ألا يوجد من يسأل إلى الدرجة اين يأخذونني أنا المسكينة، ولماذا يأخذونني؟

اعتصر الألم قلبي وأخذتني الحيرة وأنا اشاهد سكوت الحاضرين، تقدمت ثم صحت بصوت حاولت أن أتحكم فيه: ماذا تقولين ايتها المرأة؟ ومن يريد أخذك؟ وما السبب؟ برز لي من بين الجمع ثلاثة يرتدي كل منهم الملابس المدنية مع غطاء للرأس طويل وصدرية من اللباد وياقة مرتفعة، حليق اللحية وذوشارب مفتول، قالوا لي: نأمل منك

---

١. روزنامه خاطرات، ص ٤٠٦. والآغا باشي هوكبير خصيان الحريم.

أن تواصل سيرك تمضي من هنا، فانفعلت وقلت: ماهذا الكلام؟ والي اين تأخذون هذه المرأة المسكينة؟ ومن أي جهة أنتم مأمورون بهذا؟ توقّف احدهم وحدّق فيّ وقال لي بسخرية: يا روحي! إنّ المدينة ليس بيدك، اذا اشتهيت أن افتح بطنك بهذا المسدس فحاول أن تقترب! إننا من الذين لا يستطيع حتى ناصر الدين شاه أن يتحكّم فينا.

توقّفت وقلت لمرافقي: اذهب إلى البيت ـ وكان قريباً من هناك ـ واستدع بعض الرجال الموجودين هناك، قال لي مرافقي: لماذا تجلب الشر على نفسك وتضع نفسك في مواجهة رئيس الوزراء؟ إنّهم من حاشية امين الملك، وهم يكررون هذا العمل كل يوم. فإنّ تدخّل احد في أمرهم قتلوه، إنّهم سيلقون ذنبك في رقبتك، ولن يكون هناك من يسأل عن سبب قتلك.

وقفت قليلاً بينما كان يصل إلى مسامعي آهات وصرخات تلك المرأة المسكينة الآسرة»[1]

رأينا امتهان الكرامات في بيت الحريم المخصص للشاه، وفي قلب العاصمة، فلنذهب إلى مدينة اصفهان ولنطلع على ما يفعله ظلّ السلطان الذي هو ابن ناصر الدين شاه، يقول عباس ميرزا وهوشقيق الشاه وعم ظلّ السلطان عن فجوره بامرأة المدعومحمد باقر، وهواحد الوجهاء في المدينة:

«كان يدعوها إلى بيته في أغلب الاحيان بحجة الضيافة أو قراءة التعزية وغيره. كما كانت أخت ظلّ السلطان تحتفظ بها في بيتها لليلة أو ليلتين. كان زوجها يعلم بالامر، إلاّ أنّه لا يجرؤ أن يقول شيئاً.

وفي هذه الاثناء كان ظل السلطان يفكّر بمواقعة زوجة سلطان حسين، وهوحفيد فتح علي شاه، وذلك عن طريق استخدام العنف، فما كان من تلك المرأة إلاّ ان هربت والتجأت إلى بيت محمد باقر المذكور.

---

١. داستانهاى از عصر ناصرالدين شاه، ص ٥٦ ـ ٦٠ . وامين الملك هذا هووزير الخزانة وشقيق رئيس الوزراء آنذاك المدعوامين السلطان

وبعد أيام احتال ظل السلطان فأرسل سمسارة غير معروفة إلى بيت محمد باقر لتطلب إلى امرأة سلطان حسين أن تأتي إلى بيتها قائلة : إنّ لدينا مجلس عزاء، فتعالي واجلسي تحت المنبر ولتبكي قليلاً واطلبي من الله الفرج.

ومهما يكن فقد خُدعت تلك المرأة المسكينة، وجاءت إلى ذلك البيت الذي كان ظلّ السلطان قد اختبأ فيه هو ومرافقوه.

وقد تألم محمد باقر كثيراً لذلك، وقرر الذهاب إلى طهران لتقديم شكوى»[١].

وحين يكون ولاة الامور على هذه الدرجة من الانحطاط، فلا بد أن يكون الوضع سيئاً كذلك في مراكز أخرى من جهاز الدولة.

لنقرأ نماذج مما كان يفعله جنود الدولة كما دوّنت في تقارير يومية موجّهة للسفارة البريطانية من أحد مخبريهم ـ وكان هندياً يجيد الفارسية ـ في جنوب ايران:

«هجم الليلة الماضية ثلاثة جنود من فوج الحاج اردشير خان على امرأة في منزلها وكانوا سكارى، واختطفوها ثم قتلوها. وحين وصل الخبر إلى الحكومة صباحاً فرّ الجنود والتجأوا إلى مقبرة شاه چراغ (احد السادة من نسل اهل البيت) فارسلت الحكومة اربعة مأمورين ليقفوا في باب المقبرة ويمنعوهم من الفرار، فإن فرّوا فإنّ الدولة ستعاقب المأمورين الاربعة».

«اعتصم العلماء في المسجد الجديد (بشيراز) يوماً وليلة بسبب أنّ مجموعة من جنود فوج انتصار الملك قد اختطفوا امرأة وادخلوها إلى منزلهم بالقوة، حيث حكمت الحكومة بأن يُضرب بعض أولئك الجنود بالعصي، عندها تخلّى العلماء عن الاعتصام، إلاّ أنّ الاضطراب في المدينة كان كبيراً إلى حدّ كادت أن تغلق دكاكين المدينة بسببها، إلاّ أنّ العلماء لم يوافقوا».

اراد شقيق صفدر رئيس حرّاس الحكومة مع عدة أشخاص من الحراس أن يقوموا

---

١. شرح حال عباس ميرزا ص ١١٥. وكون تلك المرأة زوجة لحفيد فتح علي شاه، فانه يعني انها من العائلة المالكة التي ينتمي اليها ظل السلطان.

بفعل القبيح مع امرأة كانت تصلي في المسجد الجديد، وقد رآهم اثنان أو ثلاث من اهل شيراز فمنعوهم من تحقيق مآربهم، فتشاجر الحراس مع المواطنين وضربوهم. وقد بدأ الناس بالتجمهر في المسجد لنصرة أولئك المواطنين، فقام أحد الحراس بجرح اكثر من خمسة منهم، كان الازدحام شديداً في المسجد إلى الدرجة التي كادت أن تقع فتنة عامة، وقد مُنعت النساء بعد ذلك من الذهاب إلى المسجد الجديد».

«أراد عدة جنود من فوج خلج (بمدينة شيراز) أن يختطفوا امرأة من أحد الأزقة، فتجمّع اهل المدينة وتشاجروا مع الجنود، فجرح عدة من ابناء المدينة، ثم عُرِض الامر على الحكومة التي قامت بجلد أولئك الجنود كثيراً بالعصي، ثم استرضت المواطنين فتفرقوا»[١].

٢ـ الفقر والجوع والمرض:

حلّت بايران عدة مجاعات ـ أثناء حكم ناصرالدين شاه وغيره ـ وعدة أوبئة. سنقتصر على ذكر نموذجين منهما من عصر ناصرالدين، ولننظر كيف كان تعامل السلطات معها.

كان آخر وباء حلّ في ايران على عهده عام ١٣١٠، وكان عدد الاوبئة في عهده خمساً.

يقول اعتماد السلطنة نقلاً عن أمين السلطان رئيس الوزراء آنذاك: «أدى الوباء إلى موت مئة الف من النفوس المحترمة، ولو كنتُ أنفقتُ الف تومان لبناء محجر صحي لكان اولئك الموتى الآن في عداد الاحياء الذين هم في منفعة الدولة.

قال البعض للشاه: لا تذهب للعاصمة فهناك وباء، إلاّ أنّه ذهب. أراد الناس أن يقولوا ان الشاه قد ترك الرعية في معرض الخطر وسلّم بنفسه، ثم إنّ الشاه ذهب إلى طهران ومنها إلى خارج المدينة، ثم أنّه أوصى طبيبه الخاص الدكتور فيفريه قائلاً: كلّ من أصيب بالوباء وجاء اليك للعلاج، أبعده عنك، وقل: اني طبيب الشاه، ولا أريد أن أتلوث من معالجة الوباء!

١ـ نماذج مأخوذة من (وقايع اتفاقية) ص ٨٦، ٨٠٨، ٥٢٠، ٢١٨ على التوالي.

وقد صنع الطبيب ما أمره به الشاه. فكان كل من يسمع هذا الكلام يلعن وليّ نعمة الكلّ (اي الشاه)»[١].

ويواصل اعتماد السلطنة في نقل مشاهداته من داخل بلاط الشاه فيقول:

«كنّا في حضرة الشاه في المساء، قال حكم الممالك (طبيب الشاه) الذي كان يستخدم التملّق البارد: الحمد لله حيث نعيش في ظل الشاه، فلا وباء ولا حرب ولا مرب[٢].

وفي يوم آخر وكنا نتغذى اقسم عبدالكريم خان شقيق أنيس الدولة (زوجة الشاه) الذي كان قد قدم لتوه من طهران، أنّه لا يوجد وباء في طهران، إلاّ أنّه قال لي عن طريق الاشارة. ان الوباء موجود وهو اشدّ.

ولخوفهم، قال رجال الدولة: إنّ الوباء بجيلان إنّما سببه التخمة وسوء الاحوال الجوية، وفي خراسان بسبب الأراجيف والتخلّف! بينما ادعى عبدالحسين فرمانفرما أنّ الوباء لم يصل اطلاقاً إلى كرمان[٣].

عن المجاعة كتب (افضل الملك). في مذكراته ـ وهوواحد من رجال عهد مظفرالدين شاه الذي حكم بعد مقتل أبيه ناصرالدين ـ عن إحدى تلك المجاعات التي أسماها بـ(مجاعة العصر الناصري): «والله، لقد رأيت رأي العين الناس يتجمعون حوله ويضعون في فمه شيئاً من الخبز، عندها يفيق ويقول: إنّه لم يذق الخبز لليلة أو أكثر. بينما كان يموت بعض أولئك ممن لا يؤتى له بالخبز. كما كان الناس يتجمهرون عندما يذبح خروف فيجمعون الدم ويضعونه على النار ويأكلونه. وكان بعضهم يتخطّف الاطفال القاصرين (٥ إلى ٦ سنوات) ليذبحوهم ويطبخوهم. كان الأغنياء يهدّدون أطفالهم إذا ارادوا إسكاتهم بقولهم: اسكت وإلاّ جاءك آكل الاطفال».

المهم في هذا هو كيف عالجت السلطة الامر؟

يقول (افضل الملك) «كما أتذكّر فإنّ الشاه الشهيد[٤] ناصرالدين شاه أودع مئتي

١. مصيبت وبا وبلاي حكومت، ص ٣٠.
٢. وضعنا هذه الكلمة للاتباع كما هي في الاصل (نه جنگ نه منگ)
٣. نفس المصدر ص ٣١.
٤. كتب افضل الملك مذكراته بعد مقتل ناصر الدين.

شخص من فقراء طهران لدى مدير التشريفات كي يتحمل نفقاتهم، كما سلّم العشرة اشخاص والعشرين والثلاثين لكل واحد من أعيان وأركان الدولة، وامر القائد العام للجيش الذي كان آنذاك رئيساً للوزراء أن يطبخ في معمل الاسلحة مساء كل يوم الخبز، وفي الصباح يوزّع على كل من حضر في ميدان التدريب بمعدل رغيف واحد لكل شخص، ثم يخرج من الباب الآخر للميدان. فكان يحضر في كل يوم إلى ذلك الميدان ما يقدّر بعشرة آلاف امرأة ورجل ليأخذ كل منهم رغيفاً. إلاّ أنّه كان من بين اولئك من هومستحق وآخرون كالنساء البغايا جاءوا للتفرج وتغيير الجو وإلاّ فهم لا يستحقون. وكان يوجد في طهران من النساء الارامل والناس المستحقين ممن ليس مستعداً للحضور إلى الميدان ويذل نفسه امام الآخرين، وكانوا يلجأون لبيع ما لديهم من وسائل ويقنعون أو يستعينون بأقربائهم ويصونون ماء وجوههم وأرواح أبنائهم»[١].

يقول المؤرخون أنّه بين الاعوام ١٢٧٧هـ. و١٢٨٨هـ. كان الجدب يجتاح ايران في كل سنتين، وكان يرافقه الفقر والجوع. كان عدد سكان ايران يبلغ العشرة ملايين نسمة عام ١٢٦٧هـ توفّي منهم ـ حسب تقارير انجليزية ـ في قحط ٨٧ ـ ١٢٨٨ ما يقرب من مليوني نسمة. شاهد عيان انجليزي شاهد قحط عام ١٢٧٧هـ وكتب يقول :

«اضطرب أهالي طهران لانعدام الخبز. كانت دكاكين الخبازين مزدحمة. كان الجوع قد خلع الحياء عن النساء بحيث كنت تجدهنّ انّى توجّهت. في يوم ١٧ شعبان عاد الشاه من رحلة للصيد، فسد طريقه حشد هائل من النساء يطالبن بالخبز وقمن وأمام عيني الشاه بالإغارة على دكاكين الخبازين.

وبمجرد أن وصل الشاه إلى قصره، أمر أن تغلق ابواب المدينة، وقد تجدّدت الاضطرابات في اليوم التالي، وعلى الرغم من إغلاق أبواب المدينة فقد هجمت عدة آلاف من النساء وقمن بقتل حارس البوابة بالعصي والحجارة. كان من المقرر أن تتقدم النساء التظاهرة حيث يفتحن الطريق للرجال ليتدفقوا ويثوروا.

---

١. افضل التواريخ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

كان الشاه يراقب الوضع من أعلى القصر من خلال الناظور، وقد وقف إلى جانبه مدير شرطة طهران الذي قرّعه الشاه وسأله: ماهذه الاوضاع، فقال مدير الشرطة: إنّه سيذهب لتفريق التظاهرة! وفعلاً ذهب هو ومجموعة من أفراد الشرطة وهجموا على النساء بالهراوات وكان رئيس الشرطة بنفسه يضرب المتظاهرات، وحين سال دم احدى المتظاهرات من ضربة هراوته، ارتفع الضجيج والعجيج، انفعل الشاه وأرسل فوراً على مدير الشرطة وأمر بحلق لحيته وشدّه إلى الفلقة لضربه، وحين شدت قدماه إلى الفلقة صاح الشاه: الحبل، فجيء به، وشنق فوراً، سحبت جثته العارية على الارض في الاسواق بعد ذلك، وعلقت من قدميها لمدة ثلاثة ايام!

أمر الشاه أن يؤتى بجميع رؤساء مدينة طهران ويضربون بالفلقة، وقد هدأ الناس في ذلك اليوم!

وفي يوم ١٩ شعبان، ارتدى الشاه بدلة الغضب الحمراء لمعاقبة من ألقى الرعب في قلوب الناس، إلاّ أن معضلة الخبز لم تحلّ. كانت الاضطرابات شديدة إلى الدرجة التي كان معها إمام جمعة طهران (وهوصهر الشاه) أن يقتل معها، إلاّ أنه أغمي عليه وأنقذ. ومرة أخرى ثارت نساء طهران حيث صممن على أن ينقسمن فرقتين: احداهما تذهب إلى السفارة البريطانية، و الاخرى للسفارة الروسية يطلبن من سفيري تلك الدولتين ان يتوسّطا نيابة عن الشعب للحديث مع الشاه لتوفير الخبز للناس! وفعلاً ذهبت مجموعة منهنّ إلى السفارة البريطانية وقد خلعن الحجاب عن رؤوسهن، ولم يتمكن اعضاء السفارة من إخراجهنّ الاّ بشق الانفس...»[١].

رأينا أنّه لا حلّ جذرياً لمشكلة الجوع، كدعم أسعار الطحين مثلاً أو القضاء على جشع التجار، بل إنّ الدولة نفسها كانت تساهم في ذلك. ففي القحط الذي عم شيراز وبقية مدن الجنوب الايراني عام ١٣٠٢، وحين كان الشاه ينوي زيارة تلك المنطقة، «اصدر الحاكم العام هناك أمراً إلى الناس أن يجمعوا المواد التموينية للجيش، وقد صعب

---

١. نظم ونظمية، ص ٤٩ ـ ٥٠.

الامر على الناس الذين افتقدوا الغلال، وكان الحصول حتى على القش صعباً. كما أصدر الحاكم أمراً بأن يعاد بناء واجهات الدكاكين ومداخل الازقة التي أصبحت خربة، لم يكن أمام الناس المساكين من مفر. هذا مع وجود الغلاء في الخبز وسائر الاشياء.

ولـمّا قامت بعض النساء بالشكوى من انعدام الخبز، أمرت الحكومة الخبازين أن يبيعوا بأيّ سعر أرادوا. إنّ مجيء الموكب الملكي قد أصبح سبباً للقحط، ونظراً لقلة البضائع فقد اضطربت الامور، وازداد اللصوص ايضاً»[١].

٣ ـ الناس على دين ملوكهم:

كما قال الميرزا رضا الكرماني في التحقيق الذي أجري معه بعد قتله لناصر الدين شاه، فإنّ الفساد يبدأ من الرأس، كما انّ بداية تعفن السمكة يبدأ من رأسها وليس من ذنبها.

يبدأ الفساد الاداري من ناصر الدين نفسه ثم من أولاده وبناته وأعضاء البلاط، وهكذا حتى أصغر موظف في الدولة. وليس علينا أن نستخلص نتائج من مقدمات عسيرة، فالحقائق دالة على نفسها، ولذلك فقد التزمنا في بحثنا هذا أن نقدم نماذج من آلاف الوقائع تتشابه فيما بينها من حيث كونها مؤشراً على هذا الفساد. إنّ الملك الذي تبلغ دناءة نفسه إلى الحدّ الذي يتقبل فيه الرشاوى، ويصادر اموال الاموات حتى مع وجود ورثة لهم، جدير بكل مذمة لانّه القدوة التي ينبغي ان يُقتدى بها، فحين يكون رب البيت بالدف ناقراً فسيكون الرقص شأن ساكني البيت بأسرهم.

ويمكن بهذا الصدد مراجعة عدة وقائع شاهدها وساهم فيها اعتماد السلطنة، ودوّنها في يومياته. كان الشاه يدعى فيها لوليمة في بيت أحد ابنائه أو أحد الوجهاء، وعند نهايتها تقدم له هدايا مالية وعينية[٢].

ويقول الدكتور فيفريه الطبيب الخاص للشاه:

«لم يحدث في أي وقت أنّ تقدّم أحد بعريضة إلى الشاه بدون أن يكون قد قدّم معها

---

١. وقايع اتفاقية، ص ٢٤٣.

٢. روزنامه خاطرات .ص ١٠. وانظر ايضاً ص ٧٦، ٢٩٦، ٣٢٦.

كيساً صغيراً من الحرير اوالقماش الرقيق مملوء أو نصف مملوء بالمال!

ففي الايام القليلة الماضية قدّم أمين السلطان (رئيس الوزراء) ستة اكياس مملوءة. وقبل ذلك بأربعة أيام قدّم مثل هذه الاكياس العميد عباس قليخان الطالب السابق بمدرسة الهندسة العسكرية بباريس، والذي هوالآن ياور لوزير الدفاع، قدّمها للشاه مع عريضة ممهورة. وصباح هذا اليوم (٨ يناير ١٨٩٠) قدّم مشير الدولة (احد كبار الشخصيات العسكرية والسياسية) للحضرة الملكية كيساً كبيراً لم أشاهد في كبره كيساً حتى الآن.

إنّ كل تلك الاكياس مملوّة بالذهب، وانّما يقدّمونها لاجل الحصول على المناصب. ففي سلّم الوظائف الاجتماعية في ايران لايمكن تحقيق شيء بدون هدية، ولانّ قيمة هذه الهدية معادلة لقيمة شراء المنصب الذي يرغب المهدي في الحصول عليه، فإنّ اهمية ذلك واضحة للعيان.

إنّ الشيء الذي أثار إعجابي هوالمهارة التي يتحلى بها الشاه التي تجعله يقدّر محتويات الكيس دون أن يمدّ يده ليلمس الاكياس فيما اذا كانت خفيفة أو ثقيلة الوزن، بمجرد نظرة واحدة. تلوح بعدها آثار تلك الفراسة على وجناته، بحيث تكفي تلك النظرة لمعرفة مقدار محتوياتها، ولا حاجة بعد ذلك لحساب ما فيها من المال»[١].

وحين توفّي أحد وجهاء شيراز وهو المدعو مشير الملك، وكان له ورثة، جاء الأمر من الشاه بأن يؤخذ من تركته مبلغ ٧٥ الف تومان للشاه على أن تقسط أربعة اقساط خلال اربعة أشهر! وقد خصّص ٣ آلاف تومان للموظف الذي يستحصل هذا المبلغ اضافة إلى مبلغ ٥ آلاف تومان تعطى هدية لظلّ السلطان (ابن الشاه)[٢].

لا عجب اذن أن تؤخذ الضرائب من الناس بالشكل البشع الذي كانت تنهب فيه أموال العباد وتخرب البلاد. نقرأ في وقائع عام ١٣٠٠هـ:

«قام حاجي آقا بابا مدير شرطة مدينة كازرون بضرب أحد مواطني كازرون بالعصي ضرباً مبرحاً وألقاه في الحبس، وفي المساء مات الرجل. فما كان من الناس إلاّ

---

١. سه سال در دربار ايران، ص ٢١٨.

٢. وقايع اتفاقية، ص ٢٠٤.

أن اعتصموا بالمساجد وفي دائرة التلغراف، كما أبرقوا إلى الحكومة يشتكون فيها مدير الشرطة. فأمرت الحكومة باحضار مدير الشرطة المذكور وبعض أعيان المدينة لدراسة الموضوع. والحقيقة فإنّ الحاجي آقا بابا ليس مقصراً، لأنّ المتعارف عليه أنّهم يأخذون منه (من الرجل الذي مات) الضريبة السنوية مقابل سندين موقعين منه. ولابد من الاغارة ونهب الناس كي تسوّى الامور بصورة دقيقة. ومن المعروف أنهم كانوا يأخذون من هذا الرجل كل عام ما يتراوح بين ١٠ ـ ١٢ الف تومان بعنوان المجاملات والهدايا اضافة إلى الضريبة المقررة عليه»[١].

من الطبيعي اذن أن تسوء أخلاق الناس، وأن تسيطر عليهم شتى الامراض الاجتماعية؛ كالجشع والسرقة والكذب والتملّق والنفاق والرياء. وحين يرون أولياء الامور لصوصاً لايفكّرون الا بمصالحهم الذاتية، فانّهم يفكرون بنفس الطريقة ايضاً.

يقول المصلح الايراني زين العابدين مراغهاي في كتابه: سياحت نامه ابراهيم بيك، وهويتحدث عن وصية أبيه له في اتخاذ اصدقاء:

«في سفري هذا ولشدة ما عانيت، نسيت وصية أبي التي أوصاني فيها أن اتخذ في كل مدينة اصلها واحداً اواثنين من الاصدقاء والمعارف الطيبين. لكني ـ إضافة إلى أنني وجدت اهل المدن على حال يتعذر معها ان يتخذ الانسان منهم صديقاً، لأنني لم أشم منهم رائحة الانسانية، وكأن دمائهم قد تجمّدت في عروقهم. قد وجدتهم يرضون ـ ومن أجل ان يدخل تومان واحد في جيوبهم ـ اين يخسر غيرهم من ابناء شعبهم ووطنهم وأخيهم في الدين مائة تومان، دون تردّد. ولا يخطر ببالهم المصالح العامة وصيانة عزة الوطن، وشؤون الدولة، وإعمار البلاد»[٢].

وحتى في المعاملات الشخصية بين الناس فقد اختفت الامانة وعُدمت الثقة، وفي

---

١. المصدر السابق، ص ١٠٩.

٢. سياحتنامه ابراهيم بك، ص ٢٩ ـ ٣٠

وضع كهذا لا يكون إنجاز المعاملات أمراً ممكناً. وتقول السائحة الايطالية كارلا سرنا التي زارت ايران ايام ناصرالدين وتجولت فيها بين ۱۲۹٤ و۱۲۹٥ هـ. (۱۸۷۷ ـ ۱۸۷۸م):

«ان الاقتراض من عادة الايرانيين، وهم يجعلون لانفسهم من هذا الامر موضعاً للفخر. إلاّ أن الله وحده هوالعالم متى وكيف يؤدون ديونهم حتى آخر دينار.. وبالنسبة للدفع فانّ الايرانيين الذين أصبحوا مضرب الامثال في عدم الوفاء بالوعد، هم أنفسهم لا يحترمون ما يقولون ولا ما يكتبون»[1].

وقد افردت كارلا سرنا عنواناً لكيفية دفع رواتب الموظفين اسمته (المعاناة في تسلّم الرواتب) كان مما جاء فيه: «كانت رواتب الموظفين الايرانيين تتأخر إلى الدرجة التي ييأسون فيها من تسلّمها حتى يضطروا إلى اعطاء حصة منها للآخرين، واعطاء الرشوة ليحصلوا على جزء منها في نهاية المطاف. ولكن الامر يختلف مع كبار الموظفين، إذ أنّ كون المال تحت تصرفهم تجعلهم يحرصون على عدم تأخير رواتبهم».

ثم تضرب مثلاً برواتب عقيد في الجيش ذهب إلى محاسب هناك لتسلّمها وبعد مماطلات طويلة ووعود استمرت عاماً كاملاً، رفض تسليمه رواتبه إلاّ بعد أن يعطيه رشوة مقدارها ۱٥٪ من الرواتب. فغضب العقيد وقدم شكوي لوزير الدفاع الذي ثارت ثائرته، وأقسم أنّه سيعاقب هذا المحاسب الذي تجرأ على تجاهل الاوامر الرسمية الصادرة له. وطلب إلى العقيد أن يذهب اليه فوراً ويحذره من العقوبات الشديدة اذا هولم ينفذ الاوامر ويعطيه رواتبه.

فما كان من المحاسب وقد سمع ما نقله إليه العقيد من التهدد والوعيد، إلاّ أن أجابه ببرود: حسناً! مادمت قد شكوتني للوزير، فان ۱٥٪ من رواتبك ليست كافية لتكون حصتي، وعليك أن تجعلها ۲٥٪ وإلاّ لن اصرف لك رواتبك اطلاقاً!

استولى الغضب على العقيد الذي ذهب مرة أخرى إلى وزير الدفاع واطلعه على المجريات، فما كان من الوزير الاّ أن قال له: لقد نفذ صبري، وانك تضيع وقتي الذي

---

۱. آدمها وآيينها در ايران، ص ۱۲۱.

ينبغي أن احلّ فيه مشكلات أخرى، اذهب وادفع هذه الــ ١٥٪ الـتي أرادهـا محاسـبي لجيبه. أجابه العقيد مبهوتاً؛ لكنّه الان لم يعد يقتنع بـ ١٥٪ ويريد ٢٥٪. فاقترح الوزير ـ وقد جوبه بإلحاح العقيد غير المتوقع ـ بأن يدفع أي الوزير من جيبه فوراً العشرة بالمئة المتبقية، ليكون مجموع ما يخسره العقيد ١٥٪ فقط والاّ خسر كل رواتبه، فوافق العقيد»[١].

ويفسر اللورد كرزن الذي عاش في ايران أواخر عهد ناصر الدين هذه الظاهرة بقوله: انّها «نتيجه لنظام قائم على عيبين اثنين: اللؤم وانعدام النظام. إذ أنه حتى الراتب المحدد المقرر غالباً ما يؤخّر دفعه، واحياناً لا يدفع اطلاقاً.

أما الاوروبيون الذين يعملون في دولة ايران، فانّهم يتقاضون اجوراً أفضل ومنظمـة المواعيد، إذ انهم يستقيلون ويتركون العمل اذا لم يعطوا رواتبهم، الاّ أنه يحدث أحياناً أن تدفع لهم رواتبهم على شكل حوالات يستلمونها من التجار في السوق بعد عدة اسـابيع أو عدة اشهر»[٢].

وحتى على صعيد السياسة الخارجية فقد أمكن للرشاوي والهدايا أن تؤثر في بعض الموظفين والسفراء الذين ما كان يكلّفهم حصولهم على تلك المنـافع الاّ بعـض عبـارات التملّق والمديح لقبلة العالم و(مقسّم الارزاق ومن له حريّة التصرف في كل ايران). علـى حدّ تعبير ملكم خان سفير ناصر الدين في لندن، الذي كان له ادوار خطيرة في تـوريط ايران بعقد صفقات ومعاهدات بين ايران وبين انجلترا، تصبّ في مصلحة انجلتـرا مـسبقاً على كل صفقة.

كان هذا السفير ماسونياً وكانت له علاقات واسـعة داخـل وخـارج ايـران، وكـان يتظاهر بالتقدمية والاصلاح ومحاولة تطوير ايران. ويبدو أن ظاهره هذا هو الـذي دفـع جمال الدين الأفغاني إلى مصادقته واكثاره الزيارات إلى بيته، حتى إنّ الباحث الايـراني المعاصر ابراهيم صفائي يقول: إنّ لديه مجموعة من الرسائل التي كتبها الأفغاني بالعربيـة

---

١. المصدر السابق، ص ١٢٢. ويبدوانه كانت للوزير حصة من تلك الرشوة، اذا لا يعقل ان يكون سخياً إلى هذا الحد ـ كما يفهم من اخلاق موظفي ذلك الزمان

٢. ايران وقضية ايران ج ١، ص: ٥٨٧.

وأرسلها إلى ايران ضد ناصر الدين شاه ورئيس وزرائه مكتوبة بخط ملكم خان هذا كما تدلّ مقارنة خطوطها بخطّ ملكم خان»[١]

نظراً لكل ذلك، ساءت سمعة ايران في الخارج حتى قيل: «إنّ أي مشكلة كان يمكن أن تحلّ بشكل اعجازي عن طريق الليرة والذهب الانجليزي. وينبغي الإذعان بأنّ السير هارد فوردجونز قد تمكّن من احراز نجاحات عن هذا الطريق، حتى انّ كل المسائل السياسية كانت تحلّ عن طريق الذهب فقط. فمثلاً لو قرر إخراج أحد موظفي الحكومة الفرنسية من ايران فإنّ الدولة تحدد ثمن إخراجه كما تحدد قيمة حصان. فايران هي الدولة التي لا يمكن فيها أن تخطى خطوة واحدة دون انفاق أموال طائلة»[٢].

وبكل تأكيد فإنّ الامور ما كانت لتأخذ هذا المنحى المنحط لو أنّ أولياء الامور كانوا بمستوى المسؤولية وتحلّوا بالنزاهة، فلو أن رئاسة الوزارة مثلاً ظلت بيد شخص نزيه مثل (اميركبير) اول رئيس وزراء لناصر الدين شاه الذي قتل بموافقة الشاه لما شوهدت كل تلك البلايا.

٤ ـ القانون والعقوبات:

كانت الفوضى تعمّ كل شيء في هذا المجال. فليس هناك محاكم بالمعنى المتعارف عليه في القانون الحديث. والعقوبات كانت كيفية ما دامت الامور بيد مستبد واحد هو الملك. وهي في مجملها قاسية. «فالمجرمون إمّا أن يحكموا بالصلب أو يشدوا إلى فوهة مدفع ثم تطلق منه قذيفة ليموتوا، أو أن يسمروا ابدانهم بالمسامير كنعل الحصان، أو أن يشدوهم إلى أغصان شجرتين يجمعونهما ثم حين يدعونهما تتباعد الاغصان فينشق المحكوم إلى نصفين. ولقد سمعت أخيراً أنّ مجموعة من قطاع الطرق وضعوا وسط حائط وهم أحياء، ثم بني عليهم بالطين والجص، وذلك في سنة ١٨٨٤»[٣].

وعادة ما كان الاعيان وكبار شخصيات الدولة يمارسون العقوبات ضد مستخدميهم

---

١. اسناد سياسي دوران قاجارية، ص ٣١٩.

٢. مقدمة فكري نهضت مشروطيت، ص ٣٢ نقلاً عن اسماعيل رائين في كتابه فراموشخانه وفراماسونري

٣. ايران وقضية ايران، ج ١، ص: ٥٩٣.

أو عبيدهم في البيت، حتى أنّ شخصاً مثقفاً كاعتماد السلطنة المسمى بوزير المطبوعات يقول في يومياته:

«حين عدت اليوم إلى البيت، قمت بضرب ثلاثة غلمان وجارية واحدة بالعصي، كنت مصمماً على ضربهم منذ وقت طويل فسنحت لي الفرصة اليوم»[١].

أمّا ادارة بوليس طهران فقد أنيطت بالمدعو(الكونت دي مونتت فرت) وهوشخص نمساوي أعجب به الشاه لدى سفره الثاني إلى اوروبا، فجاء به معه وجعله مستشاراً لادارة البوليس العامة. وعلي الرغم من محاولته تنظيم الشرطة وفرض زي موحد عليهم، إلاّ أنه كان نزقاً، فقد قيل: إنّه كان يبدّل ملابس شرطة العاصمة ثلاث مرات في السنة على الاقل لجلب رضا الشاه الذي كان يسعد بتغيير الالوان والاشكال.

كان قاسياً في معاملة الناس، يروي اعتماد السلطنة واقعة شهيرة دلّلت على قساوته «تتعلّق ببائع خضروات في السوق كان لديه قفص فيه بلبل، وكان الكونت قد أصدر أمراً أن يدفع كل من لديه قفص بلبل ضريبة قدرها قران[٢] واحد في الشهر، وعندما حلّ رأس الشهر طولب بائع الخضروات بالضريبة، ولما لم يكن لديه قران ليعطه فقد أمر الكونت بحبسه، وهناك تشاجر مع البوليس الذين أخذوه إلى السجن وضربوه على رأسه فمات في الفور.

ومن قبل شهرين والى الآن قتل اثنان في سجن الكونت، قمت بعرض الامر على الشاه، فقال لي: أصلح الامر، فقلت: وهل يعد المقتول إلى الحياة لتسوية الأمر؟»[٣].

لقد ورد اسم الكونت دي مونت فرت في إحدى المناشير التحريضية التي أرسلها الافغاني ضد ناصرالدين شاه بقوله: «وآلت لذلك الخائن (شاه) رئاسة الشرطة وقيادة فوج القوازق نموذجاً كنت أضربه، وأنّ ذلك الزنديق وزملاءه في الالحاد يجدّون الآن في

---

١. روزنامه خاطرات، ص ٣٣٩ في ١٧ شعبان ١٣٠١.

٢. القران: عملة نقدية.

٣. روزنامه خاطرات، ص ٣١٣ في ١٦ ربيع الثاني ١٣٠١.

جلب قواد من الاجانب»[١].

واقعة أخرى تدلّل على انعدام العدالة عرضت على الشاه نفسه يرويها اعتماد السلطنة:

«حضر اثنان من عشيرة القاجار إلى البوليس وأبلغا أنّ أشياء كثيرة سرقت من منزلهما، فطلب الشرطة الابالسة منهما أن يحضرا أخاهما الثالث المدعوعلي خان. فأحضراه، فقام الشرطة بتعذيبه إلى الحد الذي شارف فيه على الهلاك فأطلقوا سراحه. إلاّ أنّه توفي بمنزله من أثر التعذيب، وقد قام اهله بإبلاغ الامر إلى شيخ عشيرة القاجار المدعو(عضد الملك) الذي قام بدوره بكتابة عريضة للشاه الذي ردّ تحريرياً على تلك العريضة، وقد رأيت رده وهو: لا يجوز لأحد أن يعتقل فرداً من عشيرة القاجار بدون اطلاع شيخ عشيرة القاجاز (عضد الملك)، باستثناء الكونت دي مونت فرت مدير الشرطة. فديت وجودك المبارك (ايها الشاه). قد مات علي خان فما هو الحكم في أمره؟ إنّ البوليس في حيص بيص! وا شريعتاه وا إسلاماه!»[٢] .

في شيراز نرى هذه الواقعة التي «طولب فيها شخص كان قد ضمن سداد دين شخص آخر، وعند الموعد المقرر قام المدعو ميرزا يوسف خان المكلّف من قبل الحكومة بهذه المسألة بحبس هذا الشخص في منزله، وبدأ بتعذيبه، ولما كان الرجل غير مدين بل ضامن فقط فقد امتنع عن اعطاء المبلغ، وبقي إلى ليلة عيد الفطر حيث قام ميرزا يوسف خان بشد حبل في خصيتيه وضغطهما بشدة مما أدى إلى وفاة الرجل، فما كان منه إلاّ أن أخذ الجثة مساءً وألقاها عند باب بيته! وفي الصباح شاهد أهله الجثة حيث عُلم بعدها أنّ الرجل قد مات لشدة التعذيب. وقد أخذت مجموعة من الناس جنازته إلى دار الحكومة وتقدّموا بشكوى، ولما لم يجدوا أذناً صاغية قرّروا أخذ الجنازة إلى المسجد والقيام بتظاهرة، وعند سماع مشير الملك (أحد كبار شخصيات شيراز) أرسل اليهم من

---

١. سلسلة الاعمال المجهولة لجمال الدين الأفغاني. ص ١٢٢. وقد علق الدكتور علي شلش على جملة (كنت واضرابه) بقوله (لاندري ما يقصده بهذه العبارة). والمقصود هوما ذكرناه اعلاه.

٢. روزنامه خاطرات، ص ٢٩٦ في ٧ محرم ١٣٠١.

يطمأنهم أنهم سيصلون إلى إحقاق الحق في نهاية المطاف، وعند فحص الجثة من قبل الاطباء قالوا: إنّ القتيل قد عُرض لأذى بليغ! ثم حُبس الميرزا يوسف خان، وبعد عدة أيام أطلق سراحه! وقرّر أن يبحث هذا الموضوع في مجلس للشرع»[١].

هكذا كان الناس يمارسون بأيديهم تطبيق ما يرونه هم قانوناً، بل ويسجنون الآخرين في بيوتهم ويحققون معهم. نقرأ في حوادث مدينة شيراز أيضاً:

يروي اعتماد السلطنة خبر مقتل زوجة بستاني قصر الكامرانية ـ وهو أحد القصور الملكية ـ المدعو خداداد، وكيف أنّ ناصر الدين قد ذهب إلى القصر، وقبل أن يصله مرّ على بستان سلطنت آباد للنزهة، وحين رأى البستاني خداداد قال له: لماذا تركت امرأتك تخرج في الليل كي تُقتل؟ فقال البستاني: لقد ظننتُ أنّه لا فرق بين الليل والنهار في دولتك، واننّا نيام وأنت مستيقظ. ولذا فقد تركتها تخرج وأنا مطمئن!

ثم علّق اعتماد السلطنة على كلام البستاني: يبدو أنه «ليست لأحد من أهل ايران الجرأة على قول هذا الكلام الذي جرى على لسان البستاني. وعلى الرغم من وجود شواهد على حدوث هذا في الماضي وعلى أيام السلاطين الماضين، لكن أن يقال هذا، وفي الوضع الحالي، وفي حكم الدولة القاجارية، فهذا عجيب جداً»[٢].

يبدو أن الشاه حاول في مرحلة متأخرة من مراحل حكمه أن يظهر شيئاً من الانصاف، فوضع صندوقاً في العاصمة باسم صندوق العدالة. يقول مخبر السلطنة هدايت عن مهمة هذا الصندوق:

«كي يضع فيه المتظلمون شكاواهم لتصل إلى الشاه، إلاّ أنّ الاراذل وأوباش الناس القوا فيه بعض الاراجيف مما أدى إلى رفع تلك الصناديق[٣]. إنّ مما يثير العجب هوطبع هؤلاء الناس الذين يميلون إلى اللغو والهزل، حيث يفسرون كل شيء بالسخرية»[٤].

---

١. وقايع اتفاقية، ص ٤٣.
٢. روزنامه خاطرات، ص ٣٣١ في ٤ رجب ١٣٠١.
٣. يبدوكان هناك اكثر من صندوق .
٤. ايران وقضيةايران ١: ٦٠٣، ٦٠٤.

والحقيقة فإنّ السبب في سخرية الناس من تلك الصناديق هو ما كان يقوم به عيون الحكومة كما يقول اللورد كرزن الذي نفهم من كلامه: أنّ تلك الصناديق قد وضعت في عدة مدن:

«إنّ حكّام الولايات قد اتخذوا الاحتياطات حيث وضعوا عند كل صندوق مجموعة مراقبين بأيديهم العصي التي تكون نصيب كل انسان يتجرأ على القاء عريضة فيها. ولهذا السبب ظلّت الصناديق خالية دائماً، وكان الشاه مسروراً لذلك، فالحمد لله أنّ رعيته ليس لديها طلب أو شكوى»[١].

باستيل ايران

أطلق هذا الاسم فيما بعد على السجن المسمى بـ (انبار) الذي كان موجوداً في العاصمة، لكن يفهم من كلام الكاتب والصحفي هاشم محيط مافي (المتوفى عام ١٩٤٢) أنّها اكثر من واحد، أي أنّها زنازين هيّئت داخل السجن الواحد. يقول محيط مافي في وصف زنازين سجن (انبار) الذي سجن فيه الميرزا رضا الكرماني قاتل ناصرالدين في مرحلة من مراحل تمرّده على حكم ناصرالدين:

«هي حفرة بعمق أربعة اذرع، طولها عشرة أذرع، وعرضها أربعة اذرع احيطت بجدران من الآجر والحص ثم سقّفت، ولها باب في جانبها. وضع على أرضها قطعة حديد طويلة توجد على طولها فتحات تكفي لدخول القدم فيها وعند راس كل فتحة توجد حلقة صغيرة. يؤتى بالسجناء ويدخلون أرجلهم فيها، ثم يمدّ عمود حديدي طويل ليدخل في الحلقات الموجودة فيها، وفي نهايته توجد حلقة كبيرة يوضع فيها قفل. فتقفل أرجل السجناء الذين يتمددون واحداً جنب الآخر ويظلون هكذا، ولا تفتح عنهم إلاّ مرة واحدة في اليوم يذهبون لقضاء حاجتهم. هذا بالاضافة الى جامعة، أي قيد حديدي يوضع في رقبة كل سجين، وفيه سلسلة تربط إلى سلسلة في رقبة سجين آخر، وهكذا حتى يتم اتصالها بكافة السجناء في القسم الواحد، ثم يخرج رأس السلسلة كلها خارج الغرفة إلى ساحة السجن ليقفل هناك إلى مسمار كبير دقّ في الارض. قليلون هم

---

١. خاطرات وخطوات، ص ٧٥.

الذين نجوا بأرواحهم من ذلك المكان المتعفّن الرطب»[١].

اننا لن نستطيع فهم سيكولوجية الكرماني التي اندفع فيها بشجاعة هائلة لقتل ناصر الدين دون أن نمرّ بكل الذي ذكرنا نماذج منه فيما مضى. صحيح أنّ الافغاني قد حرّضه على هذا العمل، ولكن الافغاني قد حرّض الايرانيين جميعاً من خلال مناشيره السرية التي كان يبعث بها من خارج الحدود. فلماذا الكرماني وحده هو الذي استجاب؟ تحدّث الكرماني في مرحلة من التحقيق معه بعد قتله للشاه عن العذاب الذي رآه في سجن (انبار). ما هو العذاب الذي يصب على الناس في هذا السجن؟ إنّ محيط مافي يقول: «إنّ صرخات المعذّب تبلغ عنان السماء، حيث يصيح: لا علاقة لي بفلان. فإمّا أن يموت أو يدفع مبلغاً من المال فيطلق سراحه»[٢].

تقول السائحة الا يطالية كارلاسرنا: «سنحت لي في أحد البيوت بطهران فرصة الحديث مع أشخاص عاديين ممن دخلوا السجون وشاهدوا ما وصفوه لي، مما لو رويته بأسره لكم لوضعتموه في باب (السيّاح كثيرو الكذب)»[٣]

إنّ السجون على عدة اقسام، وجميعها في وضع مثير جداً للشفقة. إلاّ أنّ السجون الاكثر عدداً هي تلك الموجودة في بيوت كبار الشخصيات والاعيان. إنّ كل ايراني من الاعيان يعتقد أنّه إن لم يحاكم بنفسه افراداً ويعاقبهم فان منزلته الاجتماعية ستقل.

كانت النتيجة لذلك أنّ كل شخصية من الاعيان أعطى لنفسه ـ بدون حقّ ـ الحقّ في معاقبة المقصرين، ووضع ارجلهم في الفلقة، أو سجنهم تحت مراقبة حاشية في بيته.

في النهار يوضع السجناء في السراديب، وهم مقيّدو الأرجل والأيدي والأعناق بسلسلة من الحديد، أمّا في الليل فتقفل تلك السلسلة مع حلقة حديد ثابتة بحيث لا يستطيعون الحركة إطلاقاً.. مع كل هذا الوضع السيئ للسجناء فانّه أفضل من وضع

---

١. مقدمات مشروطيت، ص ٦١.

٢. نفس المصدروالصفحة.

٣. بحسب اطلاعنا على مصادر الفترة القاجارية وحكم ناصر الدين بالذات فليس في كلام هذه السائحة شيء من الكذب وكثير منه مذكور في مصادر ايرانية وغير ايرانية.

السجناء المودعين في سراديب القصر الملكي المسماة بـ «انبار». فهم يقسمون هناك بحسب جرائمهم إلى مجاميع يقيد كل خمسة أو ستة منهم بالقيود التي تشد بها رقابهم وأرجلهم أوساطهم. وتبلغ تلك القيود حداً من الثقل لا يحتمله السجناء إلاّ بمشقة.

أمّا المدة التي ينبغي أن يقضيها السجين في سجنه فهي غير معلومة، وهم يعيشون فريسة لأنواع الحشرات والهوام المؤذية، ويجأرون من الجوع، إذ أنّه لا يعطي لهم في اليوم الواحد اكثر من رغيف خبز واحد مع كوز ماء. ينامون على أرض السجن، دون أن يروا أثراً لنور الشمس، ولا يستنشقون الهواء النقي شيئاً. فليس لديهم إلاّ هواء السرداب العفن، أنّهم لا يأملون في ذلك الوضع المزري سوى الموت لانقاذهم. ذلك الامل سرعان ما يتحقق، حيث يواجهونه بأجسادهم المكبّلة بالحديد في أغلب الأحيان».

ثم تقارن بين ما تدعيه الدول الاوربية من تمدن ورقي وبين إقامتها لعلاقات مع دول دكتاتورية على هذه الدرجة من القسوة مع شعوبها. تقول كارلاسرنا: «إنّ العبودية وعمليات التعذيب كانت متداولة في أيام محاكم التفتيش، وهي منتشرة انتشاراً واسعاً الآن في هذا البلد (ايران) وبهذا فهي تحتقر الامم المتحضرة:

ان رغبة الدبلوماسيين الاوربيين وحبّهم لتوسيع نفوذهم وفرض آرائهم في ايران، يجعلهم يظهرونه في الغالب في المسائل التافهة أو من خلال ابرام عقود واتفاقيات عند وقوع أحداث مهمة في الشرق. لكنّهم ـ وكما يبدو من سكوتهم هذا ـ راضون ومشجعون لما يجري من ظلم وتوحّش في هذه الدولة مما يمارس كل يوم بحقّ بني الانسان.. إنّ الاوربيين فضلاً عن أنّهم لا يستخدمون نفوذهم في منع مثل هذه الاعمال القاسية والخاطئة، فإنّهم يمارسونهاهم أيضاً. وبذلك يكون جرمهم مضاعفاً، لأنّ ضرب الايرانيين أمر ممنوع بموجب القانون..».

وبعد أن تورد نماذج من التعذيب وأشهرها ضرب باطن القدمين بالعصي (الفلقة) تقول: إنّ بعض أولئك المضروبين ينقلون وهم في حالة اغماء ووهن ويلقون على مفترق الطرقات أو الاسواق وهم ينزفون، أو يلقون عند ابواب منازلهم. ثم تذكر هذه العقوبة:

«قبل سنوات حكم على شخص بالموت في اصفهان، فحفرت له حفرة ووضع فيها قائماً ثم أهيل التراب عليها، فلم يبق منه إلاّ رأسه خارج الارض. ومنع عنه الطعام والشراب فبقي اياماً هكذا يعاني العذاب حتى مات».

وحدث في عام ١٨٧٤م ان ارتفعت اسعار الحنطة في طهران، وتبعاً لذلك ارتفعت أسعار الخبز. فأدّى ذلك إلى تذمر الطبقة التي هي أسوأ الطبقات حظاً في ايران. فأمر حاكم المدينة أن يلقي القبض على رئيس صنف الخبازين، ويلقى حياً في تنور مشتعل ليكون عبرة للآخرين ليبيعوا الخبز بسعر أرخص!

وحين يتهم أحد افراد العائلة المالكة بأنّه يشكلّ خطراً على الشاه، فإنّ تعذيباً خاصاً بانتظاره، وهو: يقوم أحد الجلادين بتدليك صدغيه ويستمر في تدليكهما حتى ترتخي عضلات حدقتي العينين وخروجهما من الحدقتين، عندها يقوم الجلاّد بقطع شرايينهما بواسطة الموسى، والي هنا أتوقف عن تكملة هذا المشهد المورّع، لأنّ القلم لا يسعفني على وصف كل هذه القسوة والوحشية التي تملأ القلب بالشجن»[١].

لقد رأى بعض تلك الاهوال الميرزا الكرماني، وخاصة عند ما سجن في سجن «انبار» الرهيب، وعندما رأى وسائل العذاب تتهيأ، سأل عنها فقيل له: أنّها لك لكي تعترف، هاله ذلك وهوطالب العلوم الدينية ذو البدن النحيف، فقام بتمزيق بطنه بمقص كان قرب المحقق، وغير ذلك من مآس ومحن. مما كان يقصّه فيما بعد على أستاذه جمال الدين الافغاني، فكان يرد عليه: اسكت. انت تقرأ لي مجلس عزاء، هل كان أبوك خطيباً يقرأ العزاء فأصبحت مثله؟ تحدّث وأنت في غاية البشاشة والفخر[٢].

الأفغاني في طهران

قام المدعومحمد حسن خان اعتماد السلطنة الذي مرّت ترجمته في أول بحثنا هذا بدعوة السيد جمال الدين الأفغاني إلى ايران، ولا نعلم بالضبط ما هي الاسباب التي

---

١. آدمها وآيينها، ص ١٢٤ ـ ١٢٨ ملخصاً.

٢. تاريخ بي دروغ، ص ٩٣.

دعت ناصر الدين شاه بدعوته إلى طهران، فكل ما قدّم المؤرّخون الايرانيون من أسباب غير كافية، كالقول مثلاً: «إنّ استماع ناصرالدين لأخبار الافغاني وتحركاته قد دعته إلى تكليف محمد حسن خان اعتماد السلطنة بدعوته إلى طهران»[١]. والمقصود بتحركاته طبعاً تلك التي قام بها في الهند وافغانستان ومصر ولندن التي كان يدعو فيها إلى يقظة العالم الاسلامي واتحاده.

أو القول: «بعد أن أطلع ناصر الدين على درجات السيد جمال الدين العالية ومقاماته الشامخة، واستمع من الاعالي والاداني أحاديث عن كفاءته وقابليته، وفضله وفنه، أصبح متطلّعاً للقائه والجلوس معه، لذا فقد أبرق في طلب السيد وهو في غاية الرغبة والشوق والعشق»[٢].

إنّ شهرة الافغاني بقدرته على إثارة الجماهير والتدخّل في شؤون البلاطات في الدول التي زارها لا تسمح بدعوة كريمة وشوق شديد من قبل ناصر الدين شاه، لذا نرجّح أنّ صراع مراكز القوى القائم آنذاك في القصر بين شخصيات البلاط الناصري كان له دور في تلك الدعوة، فاعتماد السلطنة مثلاً أبدى عدم ارتياحه من قيام علاقة بين جمال الدين ومحمد حسن امين الضرب، حتى أن عقّب على قول الشاه: «لقد طلبت من محمد حسن أن يأتي به (جمال الدين)» بقوله: «لقد اسودّت الدنيا في عيني من ذلك الامر»[٣].

إضافة إلى التنافس القائم آنذاك بين الدولتين العثمانية والقاجارية، حتى أنّ السلطان عبد الحميد قد وجّه الدعوة لجمال الدين بعد أن كتب مقالاته الغاضبة ضد الشاه أثناء إقامته في لندن، لزيارة استامبول ـ بعد إخراج جمال الدين من ايران بطبيعة الحال مما سنفصله لا حقاً ـ على أن لا ننسى اهتمام ظلّ السلطان ـ ابن ناصر الدين ـ بالافغاني الذي كان يسعى ليكون ولياً للعهد بعد ابيه، حتى انه قيل ان الافغاني قد حاول ثناء

---

١. سياستگران دوره قاجار، ج١، ص: ١٩٠.

٢. تاريخ بيداري ايرانيات، ص: ٥٩.

٣. مجموعة اسناد ومدارك چاپ نشده، ص ١٥٠.

لقاءاته بالمسؤولين الروس التي أعقبت زيارته لايران أن يعدّل من رأيهم السلبي في ظل السلطان»[١].

مهما يكن فقد وصل الافغاني إلى البوشهر في ذي القعدة ١٣٠٣. وبعد أن أقام هناك ثلاثة أشهر انتقل إلى اصفهان حيث أقام عشرة أيام ضيفاً على ظل السلطان الذي اكرمه كثيراً. ومنها إلى طهران حيث أقام أربعة أشهر في منزل محمد حسن أمين الضرب[٢].

المهم في هذه الزيارة لقاؤه بناصر الدين شاه الذي وصفه الميرزا علي خان أمين الدولة أحد كبار شخصيات البلاط في ذلك العهد، فقال[٣]:

«بعد عدة ايام من وصوله إلى العاصمة تشرّف (الافغاني) بلقاء ناصر الدين بعمامته الخضراء وملابسه العربية الانيقة، وهو يتكلّم ببيان رصين فصيح. ولـمّا كان حديثه في ذلك اللقاء الاول قد دار حول التنظيمات والاصلاحات ووجوب تدوين القانون، فلم يعجب الشاه».

وبعد أن ينتقص أمين الدولة من شخصية الافغاني وكونه «غير متبحّر في السياسة والحكمة العملية، وليس له حظ وافر في بقية الفنون والفضائل، ولا قوة الذاكرة أو قوة المنطق مما أشيع على أفواه الرجال» يصل إلى الموضوعات التي كان يثيرها بين الجماهير فيقول:

«كان يتحدث إلى المقهورين السذّج والعوام الذين هم كالأنعام عن الوطن والعرض والحقوق، ووجوب القانون ومعرفة الحقوق وحرية الفكر والتعبير، وتوفير الامن للأرواح والاموال!

وقد قام منتقدوه بنقل كل ما كان يتحدّث به في السرّ والعلن إلى الشاه.. لا عجب إذن أن يقوم محمد حسن أمين الضرب باخراج الأفغاني بأمر من الشاه خارج الحدود إلى الاراضي الروسية».

---

١. سياستگران دوره قاجار، ج ١، ص: ١٩١.

٢. نفس المصدر١: ١٩١ وشرح حال وآثار، ص ٤٠.

٣. المقاطع التالية منقولة عن: خاطرات سياسي امين الدولة، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

ومع وجود العيوب التي قال أمين الدولة إنّها في شخصية الافغاني، قال عن التأثير الذي تركته تلك الزيارة في الناس:

«لقد رسخت الكلمات القليلة التي قالها السيد جمال في أذهان التجّار والكسبة وأرباب العمائم، وازدادت رغبة الناس في قراءة الصحف الفارسية والعربية التي تطبع وتنشر خارج ايران.».

بعد أربع سنوات من هذا التاريخ، أي في عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) التقى ناصر الدين شاه في رحلته الثالثة إلى اوروبا، بجمال الدين في مدينة ميونيخ، وهناك جرى حديث بينهما برأ الافغاني نفسه مما اتهم به من كتابة مقالات ـ بعد خروجه من طهران ـ في الصحف التركية تفضح ما يجري في بلاط ناصرالدين شاه. وقد دعا ناصر الدين، الافغاني، إلى زيارة ايران مجدداً، حيث وصل طهران مع وصول الشاه في أواسط عام ١٣٠٧ وحلّ ضيفاً أيضاً في بيت محمد حسن امين الضرب. وهنا واصل الافغاني نشاطه التحريضي مرة ثانية:

«فبالاضافة إلى حملته الاعلامية التي شنّها لدى زيارته الاولى لطهران التي أعلن فيها عن معارضته للظلم والاستبداد، ودعا إلى الالتفاف حول دعاة الحرية، دعا في هذه الزيارة إلى المسلمين ضد الاوروبيين، والى إطاعة خليفة واحد»[١].

وعلى حدّ تعبير أمين الدولة فقد «اتخذ السيد جمال الدين من دار محمد حسين وكراً للفساد، حيث اعتبر المظلومين وفاقدو الأمل كلمات السيد التي كانت مقتصرة على ذم وفضح قوانين التسلّط، عزاءً لاكبادهم الحرّى، ومرهماً لقلوبهم الجريحة، وأصبحوا أتباعاً له. وإنّ عدد أمثال هؤلاء في تلك المدينة (طهران) ليس قليلاً»[٢].

وهنا رجا رئيس الوزراء المدعو أمين السلطان، رجا محمد حسين أمين الضرب أن يطرد الأفغاني من طهران لتهدأ الفتنة. وبعد بحث بين أمين الضرب والأفغاني طلب إليه

---

١. سياستگران ١: ١٩٢.

٢. خاطرات سياسي امين الدولة ص ١٣٦.

أن ينتقل إلى قصبة شاه عبدالعظيم ـ حيث مرقد سليل اهل البيت ـ وقد ذهب إلى هناك وأقام في منزل أعدّه له أمين الضرب.

وازداد البلاء، حيث يذهب أهالي طهران عادة لزيارة ذلك المرقد، ويلتقون بالافغاني الذي ظلّ يواصل التحريض«إلاّ أن أخبار مجالس وعظ السيد ودخان نار فساده لم يكن يصل منه إلاّ القليل إلى مسامع الشاه، لأنّ حكومة قصبة شاه عبدالعظيم كانت خارج دائرة نفوذ نائب السلطنة»[١].

أخيراً اتضحت معالم ما يمكن أن يجره وجود الأفغاني هناك من مصائب على رأس السلطة الغاشمة وهو يحرض الناس صباح مساء ضدها، وعليه أمر ناصرالدين شاه، رئيس وزرائه بإخراج الافغاني من هناك والقائه خارج الحدود.

قام بتنفيذ ذلك العمل خمسمائة من الجنود الخيّالة، حيث اقتيد الافغاني ـ وكان مريضاً ـ[٢] إلى الاراضي العثمانية عن طريق كرمانشاه، فوصل إلى خانقين، ومنها توجه إلى بغداد، حيث كان العراق آنذاك تحت الاحتلال العثماني .

لقد بقيت الصورة المأساوية لنفيه عن مرقد الشاه عبدالعظيم ماثلة في أذهان مريديه، وعلى رأسهم الميرزا رضا الكرماني، ولأهمية تلك الواقعة ننقلها بحسب رواية ابن اخت الافغاني الذي كان في طهران آنذاك:

«قام مختار السلطنة وهوحاكم قصبة حضرة عبدالعظيم بالاتفاق مع رئيس الوزراء الظالم بسحب ذلك السيد الوحيد المظلوم ـ تماماً مثل جده العظيم ـ والعمامة في رقبته من الزاوية المقدسة التي كان مقيماً فيها، واقتيد على تلك الحالة وسط السوق، وحيث كان البرد قارساً عن طريق قم وبرسوج إلى مدينة كرمانشاه.. ولم يكن معه حين اقتيد في سوق القصبة الاّ السيد المدعو بمعين التجار والميرزا رضا كرماني المعروف. أمّا معين التجّار فقد توارى ـ لخوفه ـ عن الانظار، بينما كان الميرزا محمد رضا كرماني يصرح:

---

١. نفس المصدر، ص ١٣٦ ـ ١٣٧. وانما وردت عبارة (وكر الفساد) في النص لان امين الدولة واحد من شخصيات بلاط السلطان.

٢. تاريخ بيداري ايرانيات، ص ٦٠.

واشريعتاه! وهو يحثّ أهالي طهران لمساعدته على اطلاق سراح وحيد زمانه ذاك ـ أي السيد جمال الدين ـ إلاّ أنّه لم يتقدم أحد من المجبولين على طباع اهل الكوفة لإنقاذ ابن رسول الله. وقعت تلك الحادثة الاليمة في شهر شعبان من عام ١٣٠٨ هـ [١].

وبعد إقامة قصيرة ببغداد اتجه إلى البصرة، حيث بدأ بارسال المناشير الغاضبة المحرضة إلى داخل ايران يحثّ فيها على الثورة ضد الشاه، إضافة إلى رسائله الموجّهة للميرزا محمد حسن شيرازي في سامراء التي يطالبه فيها بمساعدة الشعب الايراني للتخلّص من حاكمه الظالم. والرسالة طويلة جداً، يشرح فيها النهب الذي تمارسه السلطات الاجنبية للثروات الايرانية، وتأجير الحقول والطرقات والموانئ والفنادق للاجانب، وشرح فيها كيفية ابعاده عن ايران وما وجّه إليه من إهانات [٢].

ولقد برك ذلك التحرك تأثيراً موجعاً في ناصرالدين شاه الذي كان يتابع بصورة دؤوبة تحركات الافغاني في العراق، حتى إنّه حثّ في إحدى رسائله الموجّهة لوزير خارجيته، حثّه على التدخل لدى السلطات العثمانية التي قالت الرسالة أنّها كانت قد نفت الافغاني إلى البصرة، لأجل طرده من هناك، تقول رسالته التي كتبها بخطّ يده لوزير خارجيته:

«إنّ نفي السيد جمال الدين إلى البصرة غير مجد، لاتصال البصرة بالحدود الايرانية، حيث تكون تحركات ذلك الشقي قريبة جداً من عربستان وفارس. ومن الافضل كثيراً لو أنّهم نفوه إلى اليمن أو بلاد الشام وبيت المقدس أو جزيرة كريد، فاذا حصلتم على كتابات منه تتعلّق بايران فعليكم إرسالها الينا، وسنكون مسرورين جداً من صداقة

---

١. شرح حال وآثار ص ٥١ ـ ٥٢. وفي خاطرات امين الدولة ص ١٤٢ «كان الميرزا رضا كرماني يعدوها وهناك وهو يلطم بيديه صدره ويصرخ، ايها الناس! ان هذا سيّد من اولاد نبيكم، ومن كبار العلماء، فلتنتصروا لشرفكم، ولا تدعوه يمضي مظلوماً، إلاّ أنّ صرخاته ودموعه وجهوده لم تجد نفعاً». وفي التحقيق الذي أجري مع زوجته بعد قتله للشاه قالت: «لست ادري إن كان عاشقاً للسيد (الأفغاني) أم ماذا. فمنذ ذلك الوقت نُفي فيه السيد كان يبكي صباح مساء، واصبح مثل المجانين» تاريخ بي دروغ ص ١١٣.

٢. تاريخ بيداري ايرانيات، ٦٨ ـ ٧١.

حكام الدولة العثمانية. بتاريخ ١٣٠٨هـ»[١].

واصل الافغاني تحركه ضد الشاه بعد ذهابه من البصرة إلى لندن، ثم إلى استامبول بدعوة من السلطان، حيث تم اللقاء بينه وبين الميرزا الكرماني ودار بينهما حديث ذوشجون، كان الافغاني خلاله يحرض مريده على قتل الشاه.

الميرزا رضا الكرماني

من مواليد مدينة كرمان، بدأ حياته طالباً للعلوم الدينية، ثم زاول التجارة في سنّ مبكرة، حيث كان يأتي بالمنسوجات الكرمانية ويبيعها في طهران، وقد اشترى منه كاميران ميرزا الملقب بنائب السلطنة وهوابن ناصر الدين شاه كمية من الاقمشة، إلاّ أنّه ظل يماطله في دفع الثمن، إلى أن اشتكاه لما سمّي آنذاك بالعدلية التي الزمت كاميران ميرزا بتسليمه المبلغ، وكان مقداره الف ومائة تومان ـ وهومبلغ ضخم جداً في ذلك الزمان ـ شريطة أن يصفع على رقبته صفعة مقابل كل تومان واحد[٢]. وقد ترك ذلك في نفسه آثاراً عميقة من الغضب على الجهاز الحاكم.

حين قدم الافغاني إلى طهران كان الكرماني من أبرز مريديه والمستمعين لخطاباته حتى أنّه بعد إخراج الافغاني من ايران، عاد إلى كرمان «وبدأ يتحدث بأحاديث لم يكن أحد من اهالي كرمان يجرؤ على الخوض فيها آنذاك، مثل قوله: لماذا ترضون بالظلم؟ ولماذا تعرضون أموالكم وأعراضكم بدون سبب للتلف والضياع؟ اتحدوا ولا تدعوا الحاكم يمتطي ظهوركم وينهب اموالكم»[٣].

وقد أدى ذلك إلى القاء القبض عليه وإيداعه السجن، إلاّ أنّ علماء كرمان توسطوا فأطلق سراحه، توجّه بعدها إلى طهران ليشكو ظلاماته من ظلم كاميران ميرزا، إلاّ أنّ هذا أمر بحبسه وإرساله إلى سجن قزوين، فبقي هناك سجيناً لمدة اثنين وعشرين شهراً، وسجن أيضاً في سجن «انبار» الملكي بطهران لفترة من الزمن.

---

١. اسناد سياسي دوران قاجارية، ص ٢٦٠.

٢. رهبران مشروطة، ١: ٢٦.

٣. تاريخ بيداري ايرانيات، ٧٤.

وقد عُذب عذاباً شديداً في السجن الملكي إلى الدرجة التي حاول فيها الانتحار حين ضرب بطنه بمقص كان هناك، وأجريت له عملية جراحية عاجلة. وكان مما أجبر عليه أثناء التعذيب هناك كتابة منشور يحرض فيه بالثورة على الشاه، وقد اتخذ وسيلة من قبل معذّبيه لإجباره على الاعتراف بأسماء اشخاص أخرين. وقد قضى في السجون التي في طهران أو تلك التي في قزوين أربع سنوات وأربعة اشهر [١] وبعد خروجه سافر إلى استامبول والتقى بجمال‌الدين الافغاني وقصّ عليه ماجرى له مما سيورده لدى التحقيق معه فيما بعد.

مسرح الواقعة

قبل أسبوع واحد من بدء الاحتفالات المقررة لمناسبة مرور خمسين عاماً على جلوس ناصرالدين شاه على العرش، ذهب لزيارة مرقد السيد عبدالعظيم، حيث كان الكرماني «قد اتخذ له غرفة صغيرة بين الصحن ومدرسة كانت هناك، كان رأس ماله عبارة عن كمية من المرهم، ومجموعة من الشمع لمعالجة الجراحات، وبعض الوصفات لعلاج الصلع والدمامل والبثور. وقدكان محمد حسن أمين الضرب ـ بحكم العلاقة القوية التي تربطه بالسيد جمال‌الدين ـ يساعده، كما كان رئيس الوزراء على علم بعودته من استامبول، وكان يرعاه، إلاّ أنّه لم يكن يدعه يضع قدمه خارج الصحن ليراه أحد من المعارف» [٢]، وما أن انتهى الشاه من أداء مراسم الزيارة حتى عاجله الكرماني باطلاق الرصاص على صدره، فأرداه قتيلاً في الحال يوم ١٧ ذي القعده ١٣١٣ هـ (١٨٩٦ م).

كان مسرح الواقعة كالتالي:

حاكم انهمك بملذّاته وأمواله وكنوزه، أحاط نفسه حاشية لاتجيد سوى فنون التملّق والاغارة على الآخرين والقتل والظلم والتعذيب، ووطن كان يفقد بين الحين والآخر

---

١. تاريخ بي دروغ، ص ٧٩.

٢. خاطرات سياسي امين الدولة ص ١٩٢.

مساحة من ترابه بسبب عدم وجود جيش كفوء مدرّب لحمايته، أمّا ثرواته فكانت تعطى امتيازات استثمارها للأجانب، وأشهر تلك الصفقات بيع حقّ شراء وتصدير التبغ المنتج في جميع انحاء ايران لأحد التجّار الانكليز، مما اثار الغليان العام بعد صدور فتوى تحريم استعمال التنباك (التبغ) من قبل السيد محمد حسن الشيرازي. وكان التغلغل الاجنبي في ايران قد بلغ حدّاً أن قدمت معه بعثات تبشيرية مسيحية تحت غطاء الشركات الاجنبية. يقول الباحث ذبيح الله محلاتي: «جاءت طهران بعثة انكليزية باسم الكمبانة[1] وجاء عدد من الاجانب الانكليز تعدادهم لا يقلّ عن مائة الف نسمة، ففتحوا المدارس لدعوة الناس إلى مذهب المسيح، وجعلوا المبشّرين البروتستانت في جميع المستشفيات ينفقون أموالا جمة على الفقراء والمساكين، ويستخدمون بنات الاسلام»[2].

هذا إضافة إلى تدخّل السفراء في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاط والوزارات، وبواسطة الرشاوي والجواسيس كانوا يعزلون هذا ويأتون بذاك، ويتآمرون في كل مرافق الدولة.

أمّا الموظّفون فقد حرموا من الرواتب الثابتة التي لا قانون يضبطها، وقد تتأخّر رواتب الموظف لأشهر دون أن تفكر الدولة باعطائه شيئاً»[3]. ولذا كان أغلبهم إن لم يكن جميعهم من اللصوص المتخصصين فيالسرقة والرشاوى ونهب الشعب. وتبعاً لذلك كانت المحسوبيات والمنسوبيات شائعة في البلاط والاجهزة الحكومية، ولم تكن الوظائف تحتاج علماً أو خبرة أو دراية، ولقد صرح الشاه نفسه ذات مرة «أنّه يود أن يكون محاطاً بحاشية من الاغبياء لا يعرفون عن بروكسل، هل هي مدينة أم نوع منالخس»[4].

---

١. المقصود بذلك هو company أي شركة

٢. تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، ص ١٢٩.

٣. في الجلسة الاولى لمجلس الشورى بعد نجاح الثورة الدستورية في ايران الذي تم عام ١٩٠٦ اي بعد عشر سنوات من مقتل ناصرالدين نظرالمجلس في الرواتب اذانه «لم تكن هناك ارقام محددة قبل الثورة الدستورية لاي وظيفة من وظائف الدولة المدنية اوالعسكرية حيث كان موظفوالدولة ينشغلون منذاليوم الاول لعملهم في التفكير بكيفية تحصيل رواتبهم» انظر: خاطرات واسناد مستشار الدولة صادق،١: ٢٨.

٤. لمحات اجتماعية ٣ : ١٠٥ نقلاً عن السير برسي سايكس في كتابه تاريخ ايران.

مقاطع من محضر التحقيق مع الكرماني

أجري تحقيق عاجل مع الكرماني بعد إلقاء القبض عليه حول قتله للشاه وحياته السياسية، حيث قام باستجوابه أبوتراب خان مدير شرطة طهران، وقد كتب على الصفحة الاولى من الاستجواب العبارة التالية[١]: «محضر التحقيق مع الميرزا محمدرضاالكرماني بين الملا حسين العقدائي الذي تم بصورة عاجلة من غيراستخدام للتعذيب والعنف، بل باستخدام اللين. حيث حصلنا على هذا المقدار من الاعتراف. ومن البديهي أن يبدي ما يضمره في نفسه بعد ممارسة التعذيب الضروري».

وبعد سؤاله عن تاريخ تحركه من استانبول والمحطات التي توقّف فيها قبل وصوله طهران وجّه اليه السؤال التالي:

«س: منذ متى خطر ببالك أن تقتل الشاه الشهيد؟

ج: لايوجد داع لهذا السؤال. لقد فكّرت بهذا العمل بعد القيود التي قيّدت بها بغير حق، وبعدالعصي التي ضربتها، حتى أنّني مزقت بطني بنفسي، وبعد المصائب التي صُبّت عليّ في بيت نائب السلطنة، وفي (اميرية) وفي سجن (انبار) وسجن قزوين ومرة أخرى في سجن (انبار) أيضاً، أربع سنوات ونصف في القيود والسلاسل، بينما كان هدفي ـ كما تصورت ـ هوخير الوطن، وقد قدّمت خدماتي، فقبل قيام ثورة التنباكو ـ وليس على سبيل التطفّل ـ أدليتُ بمالدي من معلومات بعد أن استدعيت.

س: لقد ألقى وكيل الدولة[٢] القبض عليك وأنت تحمل منشورات ووثائق تخريبية معلومة للجميع. ولولم يكن قد ألقي القبض عليك آنذاك، فإنّ استجوابك في ذلك الوقت دليل على وجود هذه النية لديك، وربما كنت قد فعلت ذلك حينها.

ج: أنّ ذلك سيتضح عند حضور وكيل الدولة .

س: اذن، وطبقاً لاعترافك فإنّ كلّ مانزله بك وكيل الدولة من عذاب كان لأجل

---

١. نشرالتحقيق مع الكرماني في عدة مصادر معاصرة مثل: (تاريخ بيداري ايرانيات) و(نظم ونظميه) و(تاريخ بي دروغ) وهومن تأليف ظهيرالدولة نفسه، والفقرات المقتبسة هنا منقولة عن (تاريخ بي دروغ) ص٧٧ـ١٠٢.

٢. احد مساعدي نائب السلطنة بن ناصرالدين.

حصوله على الترفيع والترقية، ومافعله بك نائب السلطنة كان لحبّه لوكيل الدولة، ترى أيّ ذنب اقترفه الشاه الشهيد. وكل ما في الأمر أنّهما صوّرا له المسألة بالشكل الذي صوّراه عليه. كان عليك أن تنتقم منهما لأنّهما كانا سبب شقائك، لا أن تجعل الوطن كله يتيماً.

ج: ملك حكم خمسين عاماً ومازالت الامور تعرض عليه بشكل مغلوط دون أن يحقق فيها، ثم تكون ثمار تلك الشجرة: وكيل الدولة وعزيز السلطان وامين الخاقان وهؤلاء الاراذل والأوباش أولاد الحرام، الذين أصبحوا وبالاً على أرواح كافة المسلمين. ينبغي اذن اقتلاع تلك الشجرة كي لا تعطي ثماراً من هذا النوع. إنّ التعفّن في السمكة يبدأ من رأسها وليس من ذنبها، والظلم حين يحدث انّما يحدث من السلطات العليا.

س: إن كان الامر ـ وكما تقول ـ تقصيراً بحقّك من قبل وكيل الدولة ونائب السلطنة، فالشاه الشهيد لم يكن معصوماً ولا يعلم الغيب، فحين يطلعه شخص مثل نائب السلطنة الذي هو ابن الشاه سيكون واثقاً من صحة تلك الوثائق، وكان عليك إذن الانتقام من اولئك الذين كانوا السبب في ظلمك. إنّ الدليل الذي قدّمته غير صحيح. وانت رجل من اهل المنطق والحكمة. فعليك إنّ تقدّم جواباً مدعماً بالأدلة.

ج: لم يحصلا منّي على وثائق، الاّ ما انتزعاه منّي في بيت وكيل الدولة بعد أن استخدموا بتعذيبي خشبة العذاب [1] والكي وبحضور شخصين أخرين من اعوان الوالي، مع سيد آخر كان قد خلع عنه عمامته عناداً لرئيس الوزراء، وكان ضيفاً تلك الليلة على مائدة الافطار، وشاهداً لماجرى حيث انتزعوا مني وثيقة بخط يدي، وكنت قد احضرت في ليلة سابقة بيت نائب السلطنة ايضاً.

س : بما أنّك رجل عاقل وتعلم أنّه ما كان ينبغي إعطاء وثيقة كهذه، فكيف أخذوها منك وماذا قالوا لك؟

ج: بعد أن أخبرتهم بوجود لغط بين جميع طبقات الشعب، وسيقومون باضطرابات، فينبغي أن تجدوا حلاً عاجلاً لقضية التبغ. ثم قلت لنائب السلطنة: إنّك حريص على

---

١. ثلاث خشبات يشد اليها المعذب من يديه ورجليه.

مصلحة الشاه، وأنت ابنه الذي سيكون وريثاً لعرشه، وإنّ سفينة الحكم ستصطدم بصخرة وتتحطم، وعندها سينهار هذا السقف على رأسك، وليس بعيداً أن يحدق خطر بالملكية الايرانية التي استمرت لآلاف السنين، وستفنى هذه الامة الاسلامية فجأة، وقد أقسم حينها بقوله: ليس لدي نوايا سيئة، وهدفي هو الاصلاح، وطلب إلي أن اكتب ورقة بهذاالمضمون:

«ايهاالمؤمنون! ويياايها المسلمون! لقد وقعت اتفاقية بيع امتياز التبغ، وأسس بنك، ومُدّت خطوط شركة الترامواي رغماً عن المسلمين. كما بيع امتياز طريق الاهواز. وبيعت المعادن ومعامل الكبريت والسكر ومعامل المشروبات، وسنقع نحن المسلمين تحت أيدي الاجانب.وشيئاً فشيئاً سيزول الدين من الوجود، فما دام الشاه لايفكّر فينا عليكم أن توحّدوا كلمتكم وتنهضوا بحزم للدفاع».

كان مضمون ذلك المنشور بهذا المعنى تقريباً، ثم أمرني أن اكتب تلك العبارات قائلاً: إنّي سأريها للشاه وأقول له: لقد عثرنا عليها في مسجد الشاه، لنقدم بعد ذلك على الاصلاحات المرجوة.

وقد اقسم نائب السلطنة أنّه لا خطر على من كتابة تلك الورقة، بل سيكون لك دين في عنق الدولة يوجب عليها أن تقدم لك مالاً وتعتني بك. وحين ذهبنا من بيت نائب السلطنة إلى بيت وكيل الدولة أجبروني بالتهديد والوعيد على كتابتها مرة أخرى. وحين أخذوها مني بدا عليهم الفرح الغامر، وكأنّهم غنموا الدنيا بأسرها. ثم جمعوا أدوات الكتابة وجاؤوا بخشبة العذاب ليعروني من ملابسي ويشدوني اليها، ويسألوني: قل من هم رفاقك واين تجتمعون؟ وكلما قلت: أيّ مجلس أيّ رفيق، فأنا لي علاقة مع جميع الناس، وقد سمعت من جميع الناس، فأيّ مسلم تريدوني أن أوقع به؟

وعندها قلت لنفسي: لقد حان وقت التضحية، ومن المناسب إن قدمت روحي فداء لأعراض وكرامات وأرواح المسلمين. كانوا قد نسوا ـ وهم في غمرة فرحهم ـ سكيناً ومقصاً على أرضية الغرفة. فتطلّعت إلى السكين، فانتبه المدعو رجب علي خان فالتقطها من هناك، بينما ظلّ المقص ملقى قرب الموقد. كان الوالي يجلس مستقبلاً القبلة وهو

يدعو. فقلت له: اقسم عليك بحق هذه القبلة وهذا الدعاء الذي تدعو به إلاّ ما أخبرتني ماذا تنوون أن تفعلوابي؟

وفي أثناء ذلك وصلتهم ورقة من نائب السلطنة فقرأوها وقلّبوها، قال الوالي: لقد كتب في هذه الورقة أنّ الشاه قد أمر أن تذكر أسماء رفاقك والمكان الذي تجتمعون فيه، وإلاّ فهذه ادوات التعذيب معدة والسياط موجودة.

ولانني رأيت المقصّ قرب الموقد فقد قلت له : تفضل بالجلوس على الخدة كي أوضح لك الأمر بالتفصيل، ولا داعي لاستخدام أدوات التعذيب. أمسكت بيد الوالي واتجهت إلى طرف الموقد ثم اختطفت المقص وطعنت به بطني، فسالت الدماء وكنت أثناء ذلك اكيل لهم الشتائم، فاستولى عليهم الاضطراب. ثم عالجوني بعد ذلك وخاطوا الجرح الذي أحدثته في بطني.

ومنذ ذلك اللقاء في ذلك المجلس وعلى مدى أربع سنوات ونصف ظللت أنا المسكين البريء الذي تصورت انني قد قدمت خدمة كبيرة للدولة، أنقل من سجن إلى آخر. فمن طهران إلى قزوين، ومن قزوين إلى سجن (انبار) وأنا أنوء بثقل قيودي، وبعد سنتين ونصف أطلق سراحي إلاّ أنّ حريتي لم تدم اكثر من أربعين يوماً أنا الذي اصبحت (نوروز علي‌خان القلعة محمودي) أو(سبز علي خان من ميدان القلعة) بالنسبة لنائب السلطنة ووكيل‌الدولة.

س : ومن هونوروز علي خان؟

ج: إنّ حاكم كرمان الملقّب بوكيل الملك، ولأجل أن يحصل على مبالغ إضافية من‌الدوله وترقية في منصبه، كان يفتعل بين الحين والآخر شخصية لملك وأخرى لتمرد على الحكومة. ولقد أشغل الدولة لفترة طويلة بالمسمى نوروز علي‌خان. وكذلك كان نائب السلطنة، فهو كلّما أراد الحصول على حساب متأخر له على الدولة، يلقي القبض عليّ. لقد طلبت زوجتي مني الطلاق، وذهب ابني ذو الثماني سنوات للعمل في أحد البيوت، وبقي طفلي الرضيع على قارعة الطريق.

في المرة الاولى وبعد سنتين من السجن جلبونا من سجن قزوين وأطلقوا سراح

عشرة منّا. وكان هناك اثنان من البابية، كان مُقرراً أن يؤخذا إلى سجن انبار. فمن الطبيعي أن يسأم الانسان الحياة، فان سئمها يهون عليه فعل أي شيء.

حين ذهبت إلى استانبول وتحدّثت عن أحوالي في جمع من العلماء وحضور عدة من الاكابر، لاموني لتقاعسي مع وجود كل هذا الظلم والاجحاف، وعدم انقاذي العالم من أيدي الظالمين.

س: إنّ كل ما شرحته يعزّز سؤالي الذي وجهته اليك، وأطلب اليك أن تكون منصفاً! ترى ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكان الشاه الشهيد وجاءك نائب السلطان ووكيل الدولة بورقة مكتوبة كالتي كتبتها أنت بيدك، واخبراك بتلك التفاصيل، فهل كان أمامك من سبيل الاّ أن تصدق؟ وعليه وفي هذه الحالة فانّ هذين الشخصين هما المذنبان وهمان أولى بالقتل. فلماذا لم تفكّر بقتلهما وأقدمت على هذا العمل الكبير؟

ج: كان ينبغي على الشاه ـ لوكان عادلاً ـ أن يكلّف شخصاً ثالثاً محايداً بيني وبينهما بالتحقيق في الامر، ولأنّه لم يفعل فقد كان مذنباً.

لقد بقيت سيول الظلم تجرف الرعية لسنوات طويلة، ترى ما الذي جناه السيدجمال‌الدين الذي هومن ذرية رسول الله (ص) كي يسحل بتلك الصورة المزرية من حرم حضرة عبدالعظيم وتمزّق ملابسه الداخلية؟ وما الذي قاله سوى الحقّ ليفعل به كل ذلك؟ وما الذي فعله الروحاني جلاق شيرازي ممثل السيد علي اكبر فال اسيري [١] كي يكفره (حاكم شيراز) قوام الملك ويؤتى به إلى سجن انبار فيخنق أولاً، ثم يقطع رأسه بعد ذلك؟ كنت حينها في سجن انبار وشاهدت بعيني ما فعلوه به ؟ ترى هل سيتجاوز الله عنهم؟ أليس هذا ظلماً؟ أليس جوراً ؟ لو كانت هناك قلوب بصيرة لعلمت أنّه في

---

١. كان فال اسيري نفسه من معارضي الشاه. وكان عالماً يقيم بمدينة شيراز واشتهر بإثارته الناس ضدالحكومة. وفي احد الايام «ارسلت اوامر من البلاط الملكي إلى قوام الملك حاكم شيراز بنفيه. فكمن مجموعة من الشرطة له وهويتنزه خارج المدينة فكمموا فمه وقيدوا يديه واركبوه بغلاً واخذوه إلى مدينة بوشهر) وقد ذهب إلى البصرة والتقى هناك بالسيد جمال الدين الذي كان قد نفي قبله «وبدءا معاً في القيام بنشاطات مضادة للشاه» (خاطرات سياسي ايمن‌الدولة ١٤٢ ـ ١٤٣)

نفس المكان الذي سحل فيه السيد جمال‌الدين قد انطلقت الرصاصة لتصيب الشاه.

أليس هؤلاء المساكين من أبناء الشعب ودائع الله؟ اخرجوا قليلاً من حدود ايران، اذهبوا إلى العراق وبلاد القفقاس وعش‌آباد والاراضي الروسية المتاخمة لبلادنا، لتجدوا الالاف المؤلّفة من المواطنين الايرانيين قد هربوا من وطنهم العزيز بسبب الجور والظلم. وهم يشتغلون بأحطّ المكاسب والاعمال، فكل حمّال وكناس ومكاري وعامل تجده هناك فهو ايراني. إنّ قطيع الغنم هذا يحتاج إلى مرعى يرعى فيه، ويزداد لبنه ليرضع حملانه وتحلبوا انتم ما يبقى لديه، لا أن تحلبوه مادام ضرعه مليئاً، فاذا نفد نهشتم لحوم أبدانها. ولأجل هذا ذهبت خرفانكم وتفرّقت. وهذا الذي ترونه هونتيجة الظلم والجور اللامحدودين، أم كيف يكون الظلم والجور اذن؟ وماذا يمكن أن يحدث اكثر من هذا؟

إنّ الدولة تقوم بتسليم مدينة أو قرية لشخص عديم المروءة مقابل اعطائه لها مبلغ مائة الف تومان، ثم تسلّطه على اموال وأرواح وأعراض تلك المدينه أو القرية.

إنّهم يجبرون المواطن الفقير الذليل المسكين تحت الضغط والجور، على تطليق زوجته التي ليس لديه غيرها. بينما هم يتزوجون بالمائة تلو المائة من النساء، وينفقون سنوياً نصف مليون من الاموال التي امتصوها بقسوة من دماء الشعب على (عزيز السلطان) الذي لا ينفع الدولة ولا الشعب ولا حتى نفسه، وعلى غير ذلك من الاشياء.

إنّ ما كان يعلمه جميع سكان هذه المدينة مما يجثم على صدورهم ولايجرؤون على التفّوه به بصوت مرتفع، قد أزيح الآن عنهم بحكم القضاء والقدر الذي جرى على يدي وتنفّس الناس الصعداء، وهم الآن متلهفون لمعرفة ما سيفعله الملك الجديد، وهل سيداوي جراح القلوب الكسيرة ويوفّر الرفاهية؟ فإن وفّر للناس الرفاهية والسعة ـ كما يتوقعون منه ـ وأقام أساس المملكة على العدل والانصاف، فطبيعة الحال فإنّ جميع أبناء الشعب سيفتدونه وسيتثبت أركان ملكه، وسيخلد ذكره الطيب على صفحات الزمان، وسيكون ذلك سبباً في طول عمره وسلامة مزاجه. أمّا اذا سار على نفس الطريق، ومارس نفس الاسلوب، فانّه لن يبلغ مرامه. لقد حان الوقت الذي يقف فيه أمام الناس ليقول: لقد مرّ عهد قاس عانيتم فيه الكثير، وقد انقضى ذلك العهد، وجاء

الوقت الذي ينشرالعدل بينكم، وهدفي هو اقامة العدل ولمّ شمل الرعية المتفرقة، وأن يؤمّل الناس خيراً، وان يقوم بابلاغ كبار شخصيات المجتمع بالضوابط الصحيحة لدفع الضرائب ليعرف الشعب واجباته ويأتي بالضرائب لتسليمها في موعدها المحدد، كي لا يذهب جابي ضرائب إثر آخر ليستحصل بدل التومان المقرر عشرة تومانات.

س: إذا كنت ـ كما تقول ـ تريد خير عامة الشعب، وأنّك قد قمت بهذا العمل من اجل رفع الظلم عن الشعب بأسره، فانّه كان ينبغي عليك أن تقوم بذلك دون إراقة للدماء ويتحقّق هدفك، وذلك أفضل بطبيعة الحال.

والآن ونحن بصدد إصلاح تلك المفاسد التي ذكرتها نريد أن نعرف الاشخاص الذين هم معك، وماذا ينوون أن يفعلوا ، ولتعلم أنّ الحكومة لن تتعرض لأحد سواك، فأنت الذي ارتكبت الجريمة، وعليه فإمّا أن تنجو لأنك قصدت خير الناس في فعلك، أو تقتل لانّك قد ارتكبت الجريمة وحدك، إلاّ أننا نريد معرفة الاشخاص الذين يشاركونك الرأي. فلربما احتجنا اليهم في وقت من الاوقات لاستشارتهم في إصلاح الاوضاع[1].

ج: كما تعهّدت لكم فانّني اقسم بشرفي وعرضي وانسانيتي أن لا اكذب عليكم، إنّ الذين يشاركونني العقيدة كثيرون في هذه المدينة وهذا الوطن، هم كثيرون بين العلماء، كثيرون بين الوزراء، كثيرون بين الامراء، كثيرون بين التجار، كثيرون بين الكسبة، إنّهم موجودون في جميع الطبقات.

إنّك تعلم أنّ السيد جمال الدين حين قدم إلى هذه المدينة (طهران) قد ذهب جميع الناس من كل فئة وطبقة في طهران وفي مرقد شاه عبدالعظيم لزيارته واللقاء به، وسمعوا خطاباته، ولأنّ جميع ما كان يقوله كان لله ولخير عامة الناس، فقد انتفع الجميع واغرموا بخطاباته التي بذر فيها بذور هذه الآمال العريضة في مزارع القلوب. كان الناس يقظين فأصبحوا واعين. إنّ الجميع الآن يشاركونني اعتقادي، إلاّ أنني اقسم بالله القادر المتعال

---

١. أسلوب مبتذل ماكر من المحقق لاستدراج الكرماني للاعتراف وذكر اسماء اشخاص محتملين يمكن ان يكونوا معه.

خالق السيد جمال الدين وكل الناس، أنّ نيتي في قتل الشاه لم يكن يعلم بها أحد غيري وغير السيد جمال الدين، والسيد الآن موجود في استامبول فاصنعوا به كل ما تستطيعونه.

ولقد كان رأي السيد هو أن عملاً كبيراً كهذا لو أخبرت به أيّ انسان فسينتشر خبره، ولا يمكن تحقيقه بعد ذلك. وكنت جرّبت هؤلاء الناس كم هم ضعاف النفوس يعشقون الجاه والدنيا. فعند حدوث قضية التبوغ والتنباك وكان الهدف آنذاك هو إصلاح الامور، ولم يكن هناك رأي بقتل الشاه أو شخص آخر، كان (الملكيون) و(الدولتيون) و(السلطنتيون)[1] كثيرين، وقد تعهّدوا أن يكونوا حلفاء القول والعمل، وحاضرين حيثما تطلّب الامر، إلاّ أنني وجدته ـ بعد أن القي القبض عليّ ـ قد تنحّوا جانباً. ورغم كل ما عرضت له لم أذكر اسم أي أحد منهم. ولقد حدّثت نفسي أنّ اذهب إليهم بعد إطلاق سراحي واطلب منهم مبلغاً من المال بسبب كتماني لأسمائهم في التحقيق، إلاّ انّني حين وجدتهم ليسوا رجالاً تحمّلت الجوع والاذلال ولم أمدّ يدي لأي أحد.

س: حين التقيت بالسيد (جمالالدين) في استامبول وشرحت له ما جرى لك، ماذا قال لك؟

ج: قال: كان من المناسب ـ مع كل هذه المظالم التي ذكرتها ـ أن يقتل نائب السلطنة. فأيّ تعلّق هذا الذي لك بالحياة أنّ ظالماً يظلم بهذا القدر يستحقّ القتل؟

س: مع هذا الامر الواضح لِمَ لم تقتله وقتلت الشاه بدلاً منه؟

ج: لقد اعتقدت أنّني لوقتلت نائب السلطنة فانّ الشاه سيقتل ـ مع وجود كل هذه القوة لديه ـ الف انسان. اذن ينبغي اقتلاع جذور شجرة الظلم، عندها لن تبقى أغصان ولا أوراق. اعتقدت هذا وقمت بتنفيذه.

س: لقد سمعت ـ وهذا شائع ايضاً ـ أنّ السيد جمالالدين قد كتب لك ـ في نفس

---

١. اتسع نطاق منح الالقاب في ذلك العهد فكان هناك مثلاً (امين الملك ومعين الملك وعضد الملك...) و(امين الدولة وقوام الدولة وارفع الدولة...) و(اعتماد السلطنة ونائب السلطنة وشعاع السلطنة...). وقد اوردهم الكرماني بصيغة الجمع تهكماً.

الوقت الذي أمرك بقتل الشاه ـ نصّ زيارة وقال لك: إنّك ستكون شهيداً، وسيكون ضريحك مزاراً لكل الشجعان في العالم.

ج: إنّ السيد يرى عبادة المخلوقات كفراً، وهويقول: انّ العبادة والسجود هما للخالق وليس للمخلوقات، ولا يقرّ تزيين المزار والمرقد بالذهب والفضة. ولا يعطي أهمية لحياة الانسان مقابل عمل الخير. فحين كنت أحدّثه بكل تلك المصائب التي حلّت بي والعصي التي ضربوني بها، كان يقول لي: اسكت ولا تقرأ لي مجلس عزاء، هل كان أبوك من خطباء المنبر الحسيني. ينبغي عليك أن تتحدث ببشاشة وفخر. وكن كالافرنجيين الذين يتحملون المصائب بصدور رحبة ويتحدثون عنها بوجوه طلقة.

س: إن كان الناس يشاطرونك الرأي، فلماذا اذن كانوا جميعاً زرافات ووحداناً، كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً يبكون لهذا المصاب كالاب المفجوع بابنه؟

ج: لا شك في أن تكون مراسم العزاء مؤثرة وتستدر الشفقة، لكن اذهب وسط الرعية واطلع على حالة البؤس التي يعانونها، ألم يسد الاضطراب البلاد بعد هذه الواقعة؟ أليست الشوارع والطرقات تسودها الفوضى؟ إنّ هذه الامور تؤلمني؛ لأنني لا أريد أن نبدوا همجاً وعديمي التربية أمام انظار الافرنج وبقية الشعوب».

المشهد الاخير

بعد شهرين من اعتقاله وتعريضه لأ قسى أنواع التعذيب، ظلّ الكرماني ثابت الجنان ولم يتفوه بأي شيء يضرّ اي انسان ـ سواء اكان له شركاء حقاً في عملية الاغتيال، اولم يكن، وتجبره ضغوط التعذيب على الاعتراف بأي شيء ـ وقد قام رئيس الوزراء آنذاك الملقب بـ (امين السلطان) بمحاولة أخيرة لاستدراجه للاعتراف على احد ممن كانوا معه ووعده بأنّ الشاه الجديد (مظفرالدين) سيعفو عنه وينفيه إلى خارج ايران، إلاّ أنّ الكرماني أجابه «إنّني لا أصدق هذا الكلام. إنّني اعلم أنّ ما قمت به عمل لا انتظر العفو من بعده، فأنا قد قتلت الشاه. قال له رئيس الوزراء: ليس الامر كذلك، إنّه سيعفوعنك شريطة أن تبوح بأسماء رفاقك. قال الكرماني: إنّ أحداً لن يصدّق بهذا

إطلاقاً. إنّكم ستقتلونني وتقتلون ايضاً جميع من يكون معي. لذا من الافضل أن أموت لوحدي»[١]

أخذ إلى ميدان التدريب بطهران حيث وضع في غرفة الحرس هناك، كانت الساعات الاخيرة معلومة للكرماني الذي عرف أنّ نهايته قد حانت، هذه النهاية التي وصفها بالتفصيل الكولونيل الروسي كاساكوفسكي قائد وحدة القوزاق الروسية التي كانت في طهران آنذاك تقوم بالاشراف على إعداد فرسان سلاح الخيّالة الايراني، حيث كتب في مذكراته:

«ثم حضر مجموعة من ذوي المناصب العليا في الدولة، ووجّهوا اليه أسئلة كثيرة، كان القاتل يجيب كل واحد منهم بنفس اللهجة التي يتحدّث فيها. فان كان السؤال مهذباً أجابه بأدب ايضاً، وإن كان العكس صبّ اردأ انواع الشتائم على رأس سائله. كان ذلك خاصة في جوابه لنظام الدولة مدير الشرطة حيث قال القاتل: كم أنت خسيس الأصل وعديم الشرف! لقد أقسمت بجميع المقدسات في العالم أنّك لن تعذبني اطلاقاً ... حسناً، لكن الآن، لا يوجد فرق في الأمر[٢] في ليلة ٣١ تموز ١٨٩٦ قرّر أن ينفذ الحكم، فلم يوجد في جميع انحاء طهران من كان مستعداً لاعطاء خشبة المشنقة، إلاّ أنّه وجد اخيراً من باعهم إياها بخمسة وعشرين توماناً.

عند منتصف الليل نصبت المشنقة. وفي السحر اخرج القاتل واصطف الجنود على هيئة جدران أربعة احاطت بالمشنقة.

كان القاتل قد قضى الليل بالدعاء والصلاة، إنّ جميع الاشاعات التي أطلقها أعداء البابية في أول الأمر والتي حاولوا فيها القول بأنّ القاتل بابي، هي عارية تماماً عن الصحة، فهذا الرجل هو أكثر المسلمين الشيعة طهراً وايماناً. إنّ جميع طلباته الصغيرة قد نفذت له في الليلة التي أعدم فيها، إلاّ أنّه حين طلب نسخة من القرآن ليقرأ فيها للمرة

---

١. خاطرات كلنك كاساكوفسكي ص ٨٢.

٢. الفراغ الموجود في النص موجود في الاصل. ويبدوانه صمت قليلاً ثم قال: ليس الامر مهماً الآن اذ انه سيموت. وفي الكلام اعلاه ما يدل على انه قد عذب، وناظم الدولة هوابوتراب خان الذي قام بالتحقيق معه.

الأخيرة من حياته، رفضوا أن يلبوا له طلبه، إذ انّ القاتل لو أمسك بالقرآن فلن يستطيع أحد أن يأخذ بيديه ويقيّدهما ما دام القرآن فيهما.

أخرج القاتل مقيّد اليدين يرتدي الشلوار الداخلي فقط، ولم يكن يرتدي قميصاً. كان يظهر نفسه بمظهر الشجاع الهادئ، ولكن يبدو أنّه قد ضعف حين وقعت عيناه على المشنقة، ومع ذلك كان لديه ثبات القلب الذي جعله يصيح: اعلموا ايها الناس! إنّني لست بابياً. إنّني مسلم صحيح الاعتقاد، ثم بدأ بتلاوة الادعية التي يقولها المسلم قبل موته، بعدها قال: احتفظوا بهذه المشنقة للذكرى، انّني لن اكون آخر المشنوقين.

حين سحب القاتل إلى الاعلى كان الجنود يقرعون الطبول أمام المشنقة، بينما غادر المشرف على المشنقة وقائد فرقة الاعدام المكان، كانت الطبول البالية الجلود تصدر أصواتها الضعيفة المرتجفة طوال فترة عملية الاعدام.

لقد بقي الجسد معلّقاً طوال يوم ٣١ تموز والاول من اغسطس وعند الظلام كان معلّقاً ايضاً. في الساعة التاسعة مساء أنزل وسلم لليهود الذين أخذوه خارج بوابة شميران وقاموا هناك بالقائه في حفره عميقة لتأكله الكلاب والحيوانات الهوام»[١]

مصادر البحث

ـ آدمها وآيينها: كارلا سرنا. ترجمة علي اصغر سعيدي طهران ١٩٨٣.

ـ الاسلامبولي، رؤية جديدة: رفعت سيد احمد. القاهرة (مكتبة مدبولي) (دت).

ـ اسناد برگزيده: ابراهيم صفائي. طهران ١٩٧١.

ـ اسناد سياسي دوران قاجارية، ابراهيم صفائي. طهران ١٩٦٧.

ـ افضل التواريخ: غلام حسين افضل الملك. تحقيق نظام ما في وسعد ونديان طهران ١٩٨٠.

ـ ايران در برخورد با استعمارگران: الدكتور تقي نصر. طهران ١٩٨٤.

---

١ . خاطرات كلنك كاساكوفسكي، ص: ٨٣-٨٥.

ـ ايران وقضية ايران: جورج كرزن. ترجمة غلامعلي وحيد مازندراني. طهران ١٩٨٨.

ـ تاريخ بيداري ايرانيات: ناظم الاسلام كرماني. طهران ١٩٨٥.

ـ تاريخ بي دروغ: على خان ظهير الدولة طهران ١٩٨٦.

تاريخ الحركة الاسلامية: عبدالحليم الرهيمي. بيروت ١٩٨٥.

ـ داستانهائي از عصر ناصرالدين شاه: محمود حكيمي. طهران ١٩٨٥.

ـ خاطرات سياسي امين الدولة: ميرزاعلي خان امين الدولة تحقيق حافظ فرمنفرمائيان. طهران ١٩٩١.

ـ خاطرات كلنك كاساكوفسكي. ترجمة عباسكلي جالي. تهران ١٣٤٤.

ـ خاطرات واسناد مستشارالدولة صادق. تحقيق ايرج افشار. طهران ١٩٨٣.

ـ رجال عصر ناصري: دروست على خان معيرالممالك. طهران ١٩٨١.

ـ رهبران مشروطة: ابراهيم صفائي: طهران ١٩٨٥.

ـ روزنامه خاطرات اعتماد السلطنة: محمد حسن خان اعتماد السلطنة. تحقيق ايرج افشار. طهران ١٩٦٦.

ـ سفرنامه كرمان وبلوچستان: فيروز فرمانفرما. تحقيق: منصوره اتحاديه (نظام مافي) طهران ١٩٨١.

ـ سلسلة الأعمال المجهولة لجمال‌الدين الأفغاني: الدكتور على شلش. لندن ١٩٨٧.

ـ سه سال در دربار ايران: الدكتور فيقريه. ترجمة عباس اقبال آشتياني. طهران (دت).

ـ سياحتنامه ابراهيم بك: زين‌العابدين مراغهاي. تحقيق م.ع. سپانلو. طهران ١٩٨٥.

ـ سيل ستكران ذوره قاجار: خان ملك ساساني طهران (د ـ ت).

ـ شرح حال عباس ميرزا ملك آرا. تحقيق الدكتور عبدالحسين نوألي. طهران ١٩٧٦.

ـ شرح حال وآثار سيد جمال‌الدين أسدآبادي، الميرزا لطف‌الله خان اسد آبادي.

دون تحديد بزمان ومكان الطبع.

- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: الدكتور علي الوردي. الجزءالثالث/بغداد ١٩٧٢.

ـ مصيبت وبا وبلاي حكومت: هما ناطق. طهران ١٩٧٦.

ـ مجموعه اسناد ومدارك چاپ نشده درباره سيدجمال‌الدين مشهور به افغاني. جمع وترتيب اصغر مهدوي وايرج افشار. طهران ١٩٦٣.

ـ مقدمات مشروطيت، هاشم محيط مافي. تحقيق مجيد تفرشي وجواد جان فدا. طهران ١٩٨٤.

ـ مقدمة فكري نهضت مشروطيت. الدكتور علي اكبر ولايتي. طهران ١٩٨٦.

ـ نظم ونظميه در دوره قاجارية: مرتضى سيفي قمي تفرشي. طهران ١٩٨٣.

ـ وقائع اتفاقية: گزارشهاي خفيه نويسان انگليس در ولايات جنوبي ايران (السنوات ١٢٩١ ـ ١٣٢٢ هـ) تحقيق: سعيدي سيرجاني. طهران ١٩٨٣.

ـ يادداشتهايي از زندگاني خصوصي ناصرالدين شاه، دوستعلي‌خان ومعيرالممالك. طهران ١٩٨٢.

«١٩»

السيد والسلطان

-١-

الاستاذ، العلامة سيد هاني فحص

- بيروت -

السيد والسلطان

جمال الدين الحسيني عبدالحميد الثاني

إلتقيا للوحدة وافترقا عليها

«كل هذه الرزايا التي حطّت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلاّ افتراقنا وتدابرنا، والتقاطع الذي نهانا الله ونبيّه عنه... لو أدّينا حقوقاً تطالبنا بها الكلمة، التي تهلّ بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها وهي كلمة الله العليا، هل كان يمكن للاغراب أن يمزّقوا ممالكنا كلّ ممزّق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلاّ وأقدامنا في صياصيهم وايدينا على نواصيهم؟! إنّ لأبناء الملّة الاسلامية يقيناً بما جاء في شرعهم. لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه في ذلك الدين؟ وهل يمكن لنا ونحن على ما نرى من اختلاف والركون إلى الضيم أن نرعى القيام بفروض ديننا؟».

السيد جمال الدين

«وقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» (التوبة: ٣٦)

لعلنا متّفقون على أنّ الوحدة أصل في الإسلام عقيدة وشريعة، وأصل في الأمّة، وفي تاريخ هذه الأمة: «وإنَّ هذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً واحدةً وأَنَا ربُّكُم فَاعْبُدُون» (الأنبياء:٩٢).

ومن هنا فانّنا مطمئنّون إلى المستقبل الوحدوي، دون أن نبالغ في الطمأنينة فنقعد عن السعي لتحقيق الوحدة، واحباط مساعي التجزئة، التي تستغلّ اطمئناننا، ولكنّنا لن نبالغ أيضاً في اعتبار مظاهر التجزئة ودواعيها المفتعلة والعارضة، ونبقى على يقين بأنّه متى توفّرت للأمّة القيادة المؤمنة الحكيمة، التي تضعها على طريق الوحدة فهي لا تلبث

أن تثبت أصالة الوحدة في وعيها وتكوينها وطموحها.

من هنا يأتي اهتمامنا بالسيّد جمال‌الدين الذي يمثّل الاسلام والأمة والتاريخ من حيث كون الوحدة في تكوينه، يبذل دونها الوسع، واذا لم يصل لا ييأس ولا يتوانى... ويصبح منهجه الصّحيح وفعله النزيه منارة تضيء طريق السّالكين إلى الوحدة... وفي حين تقف بعض الجزئيات في تاريخه حجّة لدعاة التفرقة، فإنّ المخلصين الموضوعيين يستطيعون برؤيةٍ علميّةٍ هادفةٍ أن يؤكّدوا: انّ هذه الجزئيات ليس بأمكانها أن تخدش شخصية الرّجل ومنهجه بل هي بخلفياتها وغاياتها تندرج في هذا المنهج، ولا تنفصل عنه...

على أنّ السيد ليس وحيداً، بل هو واحد من كثير في تاريخنا لم يقصروا في هذا السبيل، وميزته أنّه طبقاً لوعيه بالأمة وظروفها وتوجّهات ونوايا أعدائها في فترة معقّدة من تاريخها سجّل كثيراً من التنازلات، تجاوز ذاته وشخصه صيانةً للكرامة والعزّة التي لم يرها بعيدة عن الوحدة ولم يرَ الوحدة دون الجهاد ضدّ أعدائها... بذلك اختطّ نهجاً لابدّ لدعاة الوحدة الحقيقيّين أن يلتزموا به؛ حيث يصبح الإلتزام به مقياساً لصدق النوايا.

ومن هنا كان تركيزنا في هذا البحث على تبيان موجبات ومسبّبات وغايات العلاقة التي نشأت بين السيد والسلطان عبدالحميد الثاني، ولسوف نعرض خلاله إلى القيم الفكريّة والوعي السياسيّ المتماثل لدى الرجلين، ممّا ادى إلى اجتماعهما، والى التداخلات التي وضعت حداً لهذا الاجتماع، ممّا كان ذا تأثير سلبيّ واضح على واقع الأمة ومصيرها...

وهنا نسارع إلى القول: بأنّنا لم نحمّل السيد مسؤوليةً في ذلك... بل اعتبرنا عبدالحميد هوالمسؤول، وليس هذا حكماً أخلاقياً محضاً بل هورؤية للظروف الموضوعية، سلباً وإيجاباً، ونظرة إلى غلبة الوعي الإسلامي على عبدالحميد في لحظة ما، ممّا مكّنه أن يرى الأخطار في التجزئة والاستعمار، ويسعى لمواجهتها على أساس الوحدة... ولكن ظروفاً موضوعية أخرى تتّصل بتاريخ السلطة وبنيتها وطبيعة السلطان والمؤسسات الحاكمة؛ جعلته ينعطف ليحبط مسعاه، وليأتي هذا الانعطاف السلبي علامةً على الانهيار، الّذي جرف عبدالحميد فيما جرف وجرف الدولة، المركز، وحولّ الأطراف إلى شظايا توزّعها الأعداء من هنا كانت اللحظات الوحدويّة عند عبدالحميد جزءاً من

تاريخنا لا نتجاوزه، ولا نهمله ولا ننكره. ولكن منهج السيد جمال‌الدين الوحدوي أصبح منهجاً لنا نقضي به العقيدة، كما تحتمه الضرورة، ويحكم بصحته التاريخ، ويستدعي اتباعه حاضرنا ومستقبلنا*

ـ اللقاء الأول ـ أوالمؤشّر ـ مع السلطان عبدالعزيز

١ـ السيد جمال‌الدين والتكوين الوحدوي:

عام ١٢٧٠ هـ ١٨٥٣ م غادر السيد جمال‌الدين الحسيني مدينة النّجف الأشرف بعد أربع سنوات قضّاها في طلب العلم... غادرها بعد نصيحة من علاّمتها الأنصاري إثر مكيدة دبّرها البعض ضدّه[1]. وإذا أخذنا في الاعتبار أنَّ ولادته كانت سنة ١٢٥٤هـ يكون عمره عندما غادر النَّجف سبعة عشر عاماً (١٧) فما الذي استدعى أن ينشغل البعض ليدبّروا مكيدة لهذا الفتى؟

نقطع ـ طبقاً لسيرته ـ بأنّه في هذه السنّ قد أظهر نضجاً فكرياً تجاوز سني عمره، ممّا جعله طرفاً بالنسبة للعلماء ـ سلباً وإيجاباً ـ ونظنُّ أنَّ السبب المباشر ـ طبقاً لسيرته أيضاً ـ كان تطلّعه إلى الوحدة الاسلامية ونزوعه إلى مقاومة الاستعمار، وذلك يفترض فيه أن يثير كوامن الميّالين إلى الدّعة والمهادنة حتى يكيدوا له.... ودائماً كان في النجف وفي غيرها من الحواضر العلمية الاسلامية من لم يستطيعوا أن يعطوها الوجه الذي أرادوه لها... وظلّ هذا الوجه نظيفاً مقاوماً وشريفاً ... وراء ذلك لا نجد سبباً أعمق، خاصةً وأنَّ السيد فيما عرف عنه لدى الجميع لم يكن ميّالاً إلى الدنيا[2]. وإن كان ميله

---

* «وفي اواخر القرن التاسع عشر قدم السلطان نفسه خليفة لجميع المسلمين، وذلك في محاولة أخيره في صمود الدولة العثمانية العاجزة أمام الاختراق الأوربي للمجتمعات الاسلامية كافة... وقد أيد الفقهاء صمود السلطان في هذا الجانب وإن عارضه الفقهاء المجددون في جانب سياسته الداخلية الاستبدادية، انطلاقاً من مبدأ الشورى الاسلامي، ولعل أبرز من مثل هذا الموقف هوجمال‌الدين الافغاني الذي رأى في السلطنة العثمانية اطاراً صالحاً لتوحيد المسلمين والوقوف في وجه الخطر الغربي، شرط محاربة الاستبداد الفردي».

ـ الدكتور وجيه كوثراني ـ وثائق المؤتمر العربي الاول ـ دار الحداثة ـ بيروت ١٩٨٠ ، ص ٢٢.

١ . هومرجع النجف، وأستاذ حوزتها الشيخ مرتضى الأنصاري، الذي تتلمذ عليه السيد هذه السنوات الأربع، وعندما اكتشف المكيدة أمّن للسيد وسائل السفر ومرافقاً من خواصّه «وثائق ومدارك حول السيد جمال‌الدين أسدأبادي ـ صفات الله جمالي» (ص ٤٧).

٢. كان قليل الطعام ميّالاً إلى الحامض أكثر من الحلو.... وعندما يتناول ضيوفه طعامهم يبذل لهم السكاكين، ←

إلى الآخرة يجلب ضرراً على دنيا البعض من أهل الدنيا... يؤيّد فرضيتنا هذه جوابه لأبيه عندما طلب إليه البقاء في ايران لدى مروره به في «أسدآباد» حيث قال: «أنّني كصقرٍ محلّقٍ يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقاً لطيرانه، وانّني لأتعجّب منكم؛ إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيّق الصّغير»[١].

كان يرى ترامي ديار الاسلام، ويرى فضاءها مجالاً لتحليقه، ويرى الاسلام، والهموم الاسلامية جوازاً لمروره... كما كان يرى إلى هذا الفضاء الرّحب كيف تتكاثر، وتتكاثف حوله وعليه الغيوم، غيوم الغرب، غيوم الحقد والطمع؛ لتباعد بين أجزائه، وتحجب الرؤية عن أطرافه، من هنا جاء تطوافه فيما بعد في ديار الاسلام، وفي المناطق التي كانت على تماس مباشر ووثيق مع أوضاع المسلمين ومصيرهم[٢].. لقد اختار الهند في بداية رحلته، ومن ثمّ يلاحظ انّ الأقاليم التي استقطبته أكثر من غيرها، وليس على حساب غيرها، بل من أجل هذا الغير أيضاً، هي: (الهند وايران ومصر وأفغانستان والآستانة)... على أنّ عمره لوكان عادياً في الرجال، لما كان كافياً لولا كثافته لأن يصبح علامة في تاريخ هذه الأقطار.

٢ـ دليله في ترحاله:

لماذا اختار الهند بداية؟ عندما قدم مشروعه السياسي التنظيمي إلى السلطان عبدالحميد الثاني متوخياً أن يكوّن أرضية للوحدة الاسلامية والجهاد، ركّز على أنّ الإجراءات الاصلاحية، التي تُتخذ في بعض الأقاليم الاسلامية، سوف تجتذب غيرها من

والملاعق، ويستخدم هوأصابعه الخمس ... وعندما أراد السلطان عبدالحميد تزويجه باحدى بنات السراي رفض وكان يقول: «يريد السلطان أن يزوجني ماذا أصنع بالمرأة؟ وأنا لم أتزوج هذه الدنيا على جمالها!» المصدر السابق (ص ١٥٥).

١. (محمد عمارة ـ جمال‌الدين الأفغاني ـ الأعمال الكاملة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت / الطبعة الاولى ١٩٧٩ م ـ الجزء الأول ـ ص ٢٩).

٢. هناك من يحدد خط سيره بادئاً من أفغانستان إلى قزوين، وهناك من يبدأ من قزوين ـ طهران ـ النجف الأشرف ـ أسدآباد ـ بوشهر ـ بومباي ـ كلكتا ـ مكة المكرّمة ـ النجف وكربلاء ـ أسدآباد ـ طهران ـ خراسان ـ كابل ـ الهند ـ السويس ـ القاهرة ـ الآستانة ـ مصر ـ بومباي ـ كلكتا ـ لندن ـ باريس ـ لندن ـ باريس ـ الجزيرة ـ إ يران ـ القوقاز ـ موسكو ـ بطرسبرج ـ ميونيخ ـ موسكو ـ طهران ـ العراق ـ لندن ـ الآستانة.

الأقطار، حتى تلك التي هي خارج السلطة العثمانية، إلى الإتحاد، فقال عن الهند «... وهل تقف الهند وأمراؤها والمائة وثمانون مليوناً من المسلمين عن نصرة (السلطان) واللحاق لشدّ ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الاسلامية في الشرق وعن هندهم أيضاً»[1] إذن فالهند لأنّ بها هذه الملايين ولأنّها مستعمرة... هنا نلاحظ أنّه في وضع أولوياته يراعي معيارين، معيار إيجابي هوالقوة الكامنة، ومعيار سلبي سيطرة الأعداء على هذه القوة... وبالاضافة إلى ذلك يعمل على تحقيق النموذج المشجع الجاذب... من هنا كان اختياره للهند، التي كانت أكثر عدداً وأشدّ معاناة، وقد احتلّت عام ١٨٥٧ ليكون ذلك مدخلاً لاحتلالات أخرى، بينما احتلّت مصر عام ١٨٨٢ م... وعلى أساس هذين المعيارين جاءت عنايته بايران وأفغانستان، اللتين كانتا تجمعان إلى أهميتهما طمع المستعمرين بهما من الجانب الروسي والجانب الانجليزي معاً[2] ... وهذا بالذات ما شدّه إلى مصر، بعد احتلالها خاصة؛ إذ كانت تعني للأمة كما عنت للمستعمرين السودان، والسودان يعني أوغندة من جهة، كما كان يذهب أفقها السياسي من جهة أخرى ليصل إلى كينيا مروراً بطرابلس الغرب[3]. وقد اكتشف في مصر أهميتها بوضوح شديد حتى سمّاها «باب الحرمين»[4].

---

١ - محمد عمارة ـ جمال‌الدين الأفغاني ـ الأعمال الكاملة ـ الجزء الثاني ـ ص ١٥-١٦.

٢ - وإنّه.... يقصد على أصغرخان أتابك. (أمين‌السلطنة) رئيس وزراء ناصرالدين شاه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية... ثمّ إنّه باع الجزء الاعظم ن البلاد الايرانية ومنافعها لاعداء الدين، والمعادن والسبل الموصلة إليها، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد والخانات ... وما يحيط بها من البساتين والحقول ... نهر كارون ... والتنباك ... والبنك وما أدراك ما البنك هوإعطاء زمام الأهالي كعبيد بيد عدوالاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه إياهم ... و. عَرَض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقاً لسكوتها (لوسكتت). مرداب رشت، ونهر الطبرستان والجادة من أنزلي إلى الخراسان وما يتعلق بها من الدور والفنادق والحقول وهي عازمة على استملاك الخراسان والاستيلاء على آذربيجان ومازندران (صفات الله جمالي ـ أسناد ومدارك ـ ص ٦٩).... و«في عام ١٨٨٥ احتلت القوات الروسية بعض الأراضي الأفغانية ... وكادت الحرب تندلع بين بريطانيا والروسيا لولا أن استبان على الطبيعة استحالة مرور القوات الروسية في ممرات جبال الهملايا في الطريق إلى الهند»، د. عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ ـ ص ١٠٣٠.

٣ - د. عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ ج ٢.

٤ - محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ـ ص ٢٧٧ نقلاً عن الخاطرات ص ٢٠٧-٢٠٨.

فما الذي شدّه إلى الاستانة عاصمة السلطنة العثمانية؟

(وهذا هوالأهم في بحثنا).

لقد قصد الاستانة مرّتين، المرة الاولى كانت عام ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م كان وقتها عازماً على السّفر إلى مكة المكرَّمة، ثمَّ غير رأيه وقصد الاستانة[١]. ألا يمكن أن يكون قد أدرك أنَّ خطر الأعداء على الأمة يتّخذ من الآستانة نقطةً يركّز عليها ليربكها ويضعف الأطراف باضعافها ليقتطع هذه الأطراف، أويقطعها فيما بعد؟[٢]. فارتأى أن يكون في المركز، في الموقع الأكثر سخونةً من مواقع المواجهة، ليبدأ منه العلاج عاملاً على تنمية إرادة الوحدة، وترسيخ قيمها وإزالة عوائقها... والتواصل من هناك مع الارادات الوحدويّة بعد ما لمس القابلية في استانبول.

وهنا يلفت نظرنا أمور هي:

أ ـ منذ وصوله إلى الاستانة ١٢٨٦ ـ عكف على تعلّم اللّغة التركية، لتسهيل التفاهم، وضمان التأثير، وتجنّب وسائط السوء، رغم دعوته إلى الخلاص من هذه اللّغة واستبدالها[٣]. فتعلّمها في ستة أشهر[٤].

ب ـ استقبلته الاستانة استقبالاً كريماً، وكان «عالي باشا» الصدر الاعظم في مقدمة المستقبلين، وبدون فاصل زمني كبير استقبله «السلطان عبدالعزيز» محمود[٥].

ج ـ لم تمض مدّة طويلة على وصوله حتى عيّنه السلطان عضواً في المجلس الأعلى للمعارف، في حين أخذ يمارس نشاطه الفكري والسياسي والعلمي، في مسجد «الفاتح الكبير»[٦]. ممّا يوحي بالتالي: أنّ قرار المجيء إلى الاستانة لم يكن عفوياً، وكان بالتناغم بين رغبة السيد والسلطان معاً. واذا ما كانت هذه الشواهد تدلّ على تقدير للرجل، فان

---

١ – المصدر السابق ج ١ ص ٣١.

٢ – أنظر كلامه عن ضرورة التفات الدولة العثمانية لما يجري في مصر ومسؤوليتها عن وضع حدّ له حفاظاً على مصر وسائر الأقطار ـ محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ٢ ـ ص ١٢٨.

٣ – المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٦.

٤ – المصدر السابق ج ١، ص ٣١.

٥ – المصدر نفسه.

٦ – المصدر نفسه.

هناك ما يدلّ على أن المسألة أبعد من مجرّد التقدير لعالم كبير، ويشير إلى الدور الأساس الذي كان متوقعاً له ومحدَّداً بالتوافق معه. فقد كانت هناك ـ مثلاً ـ أزمة مستعصية بين السلطة العثمانية وبين اليمن، جعلت اليمن تبقى خارج الكيان السياسي، وقد حاول كثير من المسؤولين حلّ هذه الأزمة فلم يفلحوا، ثمَّ لاحظ كبار رجال الدولة عزماً لدي السلطان على تكليف السيد بالمهمّة، وقدّروا نجاحه فيها؛ فسعوا لدى السلطان لإقناعه بالعدول عن هذا التكليف[١] .

في هذه الفترة، كانت السلطة مخترقة بالاعداء والعملاء ... كانت تركيا الفتاة ـ قبل الخروج إلى العلن ـ والعثمانيون الجدد قد تغلغلوا مع الماسونية، ومن خلالها في مفاصل السلطة والقصر[٢]، ومن جهة أخرى كانت الحاشية تواصل انحدارها، والتقاطها لجرائم الفساد الفكري والسلوكي، الذي بلغ مداه في عهد عبدالعزيز، وجعل هذه الحاشية ترى في جمالالدين خطراً لابدَّ أن تسارع إلى الوقاية منه، وهنا نقل شيخ الاسلام حسن فهمي أفندي إلى عبدالعزيز وشايةً مضمونها أنَّ السيد صرَّح بما يوجب الشّك في سلامة عقيدته! كما نقل آخرون إلى السلطان كلاماً عن السيد مضمونه: انَّ الرسالة والنبوَّة أمران كسبيان[٣] .. ممّا يعني أنَّ السيد دخل مبكّراً في الصراع مع الحاشية بعدما أدركت توجّهه، وأدرك خطرها على الأهداف المطروحة وهي الوحدة والجهاد ضدّ الاستعمار، وكان قد بلغ من القوّة ـ إضافةً إلى ثقته بخطّه ونفسه ـ حداً جعله يطالب بمحاكمة شيخ الاسلام وجعل العلماء والمفكّرين ينقسمون حوله بين مؤيّد ومعارض، فطلب اليه عبدالعزيز مغادرة الاستانة تجنّباً للاثارة ... أوخروجاً من نواياه وعدولاً عن رأيه![٤] استدعاه ليستقوي به كسلطان على قاعدة الامنيات، التي تدور بين جنبيه، ثمَّ اكتشف أنّ الرجل جادٌ، وصعب المراس، وكثير الكلفة بحساب السّلاطين ... وانَّه لن يكون خادماً إلاَّ للأمّة... فاغتنمها فرصةً وأخرجه.

---

١ . المصدر السابق ج ١ـ ص ٣١.

٢ . محمد حرب عبد الحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني ـ دارالأنصار ـ القاهرة ط ١ / ١٩٧٨ ـ ص ٥.

٣ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٣٢.

٤ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٣٢.

الظروف التي دعت السيد إلى المجيء

جاء السيد إلى الآستانة منتصف عهد عبدالعزيز، الذي حكم من سنة ١٨٦٠ م إلى سنة ١٨٧٦ م. وهنا يستحسن أن نرى مجمل الظروف التي كانت محيطة بالدولة، والتي لعلّها كانت الدافع الذي جذب السيد أليها. ونورد هنا بعض الأرقام دون ترتيب. كانت فرنسا قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م. وقضت نهائيّاً على المقاومة في قسطنطينة عام ١٨٣٦[١]، كما كانت قد حصلت الحروب المشهورة بين السلطة العثمانية ومحمد علي باشا، حيث تدخلت الدول الأوروبيّة مجتمعةً، رغم عدائها للدولة؛ لتمنع محمد علي من متابعة سيره نحو استانبول خوفاً من قيام دولة اسلامية قويّة وموحَّدة وإبقاء على الدولة العثمانية ضعيفة؛ ليمكن اسقاطها وتقاسم ولاياتها فيما بعد.[٢]

انتهت هذه الحروب سنة ١٨٣٢ م وعقدت معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣ بعدما ترك للطرفين أن يُستنزفا، فزاد ذلك من وهن الدولة ... وبسبب التنافس الأوربي على اقتسام الدولة العثمانية، وتوزيع اسلابها، توقّف الزحف الأوربيّ الاستعماري حوالي نصف قرن.[٣] وفي سنة ١٨٦٠ م احتلّ الجيش الفرنسي بيروت لمدة تسعة أشهر بعد الحرب الطويلة، التي أشعلتها أوربا بين الطوائف تمهيداً لإنشاء الكيان اللبناني الماروني المستقل ذاتياً في جبل لبنان تحت اسم «لبنان الصغير» فكانت تلك أوّل تجربةٍ حدثت في الجسم الداخلي للأمّة.

حدث هذا والكثير مثله قبل عبدالعزيز مباشرةً، وقبله بزمن طويل كنتيجةٍ طبيعيّة لحالة الضعف التي كانت تستشري في جسم الدولة. يقول الدكتور محمد عبدالعزيز

---

١ د. عبدالعزيز محمد الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ ص ٩٥٦ ـ وفي صفحة ٩١٢ من نفس المصدر يقول الدكتور الشناوي: «إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمال افريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة حربية للدولة العثمانية لتمدّ نفوذها بعد ذلك إلى اقليمين آخرين هما طرابلس الغرب وتونس إنقاذاً لأقاليم اسلامية عربية تعرضت لغزوصليبي منظم وعنيف من سكان شبه جزيرة إيبريا».

٢ . راجع الدكتور وجيه كوثراني (وثائق المؤتمر العربي الأوّل ١٩١٣) ـ دار الحداثة ـ بيروت ـ ط ١ من ص ٢٩ إلى ص ٣١ ـ كذلك المصدر السابق ج ٢ ـ ص ٩٥٦.

٣ . الدكتور الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ ص ٩٥٨.

الشناوي: «وقع الزحف الاستعماري البالغ العنف والضراوة على الساحة الدولية في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني الكثير من أسباب الاضمحلال، وهو اضمحلال كانت أعراضه ومظاهره قد ظهرت على عهد السلطان مصطفى الثاني ١٦٩٥ــ ١٧٠٣ م. فعقدت معاهدة «كارلوفتز» عام ١٦٩٩ [١] والقرن السابع عشر يقترب من نهايته، فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سيئاً للقرن الثامن عشر بالنسبة للدولة العثمانية [٢] ..» ولم تكن نزعة التسلّط الأوربي على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر بأقلّ في ضراوتها من مثيلتها في سائر أنحاء العالم، فقد تسابقت روسيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وايطاليا على اقتسام الولايات العثمانية في أوروبا وآسيا الوسطى» [٣] .

امَّا عن الأسباب الموضوعية، والذاتية المباشرة وغير المباشرة لهذا الزحف، ففي هذه الفترة «كان لدى الدول الأوروبية فائض سكاني من نتائج الانقلاب الصناعي في أوروبا وعملت أوروبا على تصدير هذا الفائض إلى أراضٍ «جديدة تستعمرها» [٤] .. ومن هنا أخذت السيول البشرية تتدفّق وفي ركابها تسير البعثات التنصيرية» [٥]، ممَّا يعني أنَّ الاستعمار القادم هواستعمار استيطاني. وهذه الظروف، ذاتياً وموضوعياً تذكرنا بالحروب الصليبية، لقد كان على هذه الحركة الاستعمارية في مراحلها كافة أن تأخذ في اعتبارها

---

١ . المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٥٧ يقول الدكتور شناوي في نفس المصدر ص ١٠٥٨ـ١٠٥٩: «... كما كانت أول معاهدة تعقدها مع النمسا والروسيا وبولندا والبندقية وتتنازل فيها كدولة منهزمة عن المجر وترنسلفانيا، كما وافقت على تنازلات أقليمية للروسيا ... الخ ولذلك يرى فريق من المؤرخين ان هذا المعاهدة تعدُّ أوّل تقطيع لأوصال الدولة العثمانية ... أعقبتها معاهدات (باساروفتنز) ١٧١٨ــ و(كتشك كينارجي) ١٧٧٤ ـ ومعاهدة (أدرنة) ١٨٢٩ و(سان استيفانو) ١٨٧٨ و(برلين ١٨٧٨).

٢ . المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٥٧ ويقول الدكتور شناوي في نفس المصدر ص ١٠٥٨-١٠٥٩: «... كما كانت أول معاهدة تعقدها مع النمسا والروسيا وبولندا والبندقية وتتنازل فيها كدولة منهزمة عن المجر وترنسلفانيا، كما وافقت على تنازلات أقليمية للروسيا ... الخ ولذلك يرى فريق من المؤرخين ان هذه المعاهدة تعدُّ أوّل تقطيع لأوصال الدولة العثمانية ... أعقبتها معاهدات (باساروفتنز) ١٧١٨ــ و(كتشك كينارجي) ١٧٧٤ ـ ومعاهدة (أدرنة) ١٨٢٩ و(سان استيفانو) ١٨٧٨ و(برلين ١٨٧٨).

٣ . المصدر السابق ج ٢ـ ص ١٠٥٩.

٤ . المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٢٨.

٥ . المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٢٨.

العائق الرئيس، الذي يقف في وجهها ـ الاسلام ـ يقول «لورانس براون»: «انّ الاسلام هوالجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»[١]. ويقول «جان بول دو»:

«لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلّا مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوروبيّون على الدولة الاسلامية»[٢] ويقول «ت.ج ـ د ـ جونارا ـ الروماني صاحب كتاب «١٠٠مشروع لتقسيم تركيا»: «انّ الدعوة ظلّت قائمة لعمل مشترك لدحر الاسلام، وانّه خلال فترة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية الأوروبية تهاجم الدولة العثمانية، وأنّ السلطنة العثمانية، وإن لم تكن قد سقطت كلّها دفعة واحده، فلقد تساقطت قطعة بعد قطعة مدة هذه الأعصار الطوال التي كانت خلالها أوروبا تناصبها العداء»[٣]. ويقول لورانس في تقرير له: «انّ أهدافنا تفتيت الوحدة الاسلامية بدحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها»[٤].

وبعد كان طبيعياً أن يرى السيد إلى العالم الاسلامي مستهدفاً، وفي النقطة المركزية من هذا الاستهداف ـ الاستانة ـ الدولة ـ باعتبارها مظهر الوحدة وعنوانها، وهنا كان حريّاً به أن يستجيب لنداء الإيمان والغيرة والحمية؛ ليضع رأيه في السلطة والسلطان جانباً ويُغلّب الصراع ضد الأعداء الا جانب على الصراع الداخلي، يغلّب إنقاذ وجود الأمة موحدة على الاصلاح الداخلي، دون أن يهمله، بل يراه مدخلاً إلى الوحدة والنصر، وشرطاً، وبالتالي فانّ من شأن الصراع ضدّ الأجانب أن يُسهم في تصحيح الأوضاع الداخليّة... بينما إعطاء الأولويّة للصراع الداخلي في ظروف معقدة من شأنه أن يرجّح كفة الأجنبي، ويدفع بالحبّ إلى طاحونه وذلك مالم يقع فيه السيد، بينما وقع فيه الكثيرون، غير أولئك الذين يخوضون صراعات داخلية تحتمها الظروف، وتجعل منها وسيلةً وحيدة لتلافي الخطر الخارجي.

---

١ . طارق شريف ـ الطليعة الاسلامية ـ لندن ـ العدد ١٠ ص ٤٦.

٢ .المصدر نفسه.

٣ . المصدر نفسه.

٤ . المصدر نفسه، ص ٥٠.

«٢٠»

مع السلطان عبدالحميد الثاني
الأفكار والمقدمات والظروف والنتائج

ـ٢ـ

الاستاذ. العلامة سيد هاني فحص
- بيروت -

مع السلطان عبدالحميد الثاني

الأفكار والمقدمات والظروف والنتائج

تمهيد:

منذ أصبحت الدولة العثمانية بعد فتح القسطنطينية مظهراً من مظاهر الوحدة الاسلامية، يغتني بالمضمون الوحدوي تارة ويفتقر اليه تارة أخرى، ويبقى محكوماً به مشدوداً اليه دوماً، وقف الغرب بكلّ قواه ودوله ومؤسساته في وجهها محاولاً إضعافها، وبالتالي إسقاطها[1].

وبصرف النظر عن مدى تطابقها، منهجاً وسلوكاً مع الاسلام، أوعدم تطابقها فقد كان يؤذيه أن يستمرّ هذا المظهر الوحدوي، الذي لن يلبث الاسلام أن ينهض مضموناً عادلاً له مهما تباعدت الشقّة بينهما في مرحلة أومراحل[2].

ذلك ما أدركه المخصلون ممّن كانت معاناتهم من بعض أساليب الجور والاستبداد

---

١. يقول السيد جمال‌الدين: «إنّ فتح القسطنطينية، تلك العاصمة العصماء، من قبل السلطان محمد الفاتح ٨٥٦-٥٨٧ هـ ١٤٥٣ م هي التي ولدت الحقد في الملوك المسيحيين ضدّ المسلمين وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همّها لمناصبة الدولة العثمانية العداء وتعمل على إذلالها وضعضعتها وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية بكل وسيلة وفي كلّ سانحة وفرصة». محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ج ٢ ص ٩ نقلاً عن الخاطرات.

٢. يقول «أورمسبي» وزير المستعمرات البريطاني في رسالة له إلى (تشمبرلين رئيس الوزراء): «أنّ سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع نموالوحدة الاسلامية والتضامن الاسلامي». الطليعة الاسلامية ـ العدد ١٠ ص ٤٦ ويقول هونفسه: «إنّ الحرب علمتنا أن الوحدة الاسلامية هي الخطر الأعظم». نفس المصدر السابق ص٥٠.

والفساد العثماني أشدّ من معاناة أولئك الذين ارتبطوا بالغرب فكرياً وسياسياً وأخلاقيّاً، وأخذوا ـ على طريق الغرب ـ يقوّضون الدولة من الداخل.

المخلصون الذين لم يستطيعوا أن يروا في التوجّه الاستعماري الغربي نحو ديار الاسلام بديلاً كريماً للدولة العثمانية، فالاسلام وتاريخ الغرب لا يبيح لهم ذلك... فوقفوا إلى جانبها في أوقات محنها، متنازلين عن كثيرٍ من مآخذهم واعتراضاتهم، متحملين في ذلك الكثير من الضيق والعناء[١].

رائد هذا المنهج دون منازع كان السيد جمالالدين أسدآبادي أو الأفغاني، السنّي أو الشيعي... لا فرق بل لعلّ ميزته انّه ترك الجدل مفتوحاً على هذه المسألة... انّه المسلم أولا... والأمور الاخرى تفاصيل تتحول إلى سلبيات، اذا لم تندرج ضمن رؤيةٍ اسلاميةٍ شمولية، تتوخّى العزّة وتتوسّل الكرامة[٢].

انّه لجديرٌ بالتأمل والنظر أن نرى السيد جمالالدين المسلم المتحيز للعدل حتى الشهادة، الذي كتب وخطب وعلّم كثيراً حول الاستبداد، ومنافاته للاسلام، رافضاً له عن علم وإيمان... وسعى بجرأة نادرة إلى إسقاط رموزه من «دوست محمدخان» في أفغانستان إلى «ناصرالدين شاه» في ايران إلى «الخديوي اسماعيل» في مصر[٣]، ودفع

---

١. أنظر الدكتور وجيه كوثراني / وثائق المؤتمر العربي الأوّل ١٩١٣.

٢. في مقالة للسيد جمالالدين في العروة الوثقى بعنوان «دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان» يقول: «كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحوما يختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة سياسية في أوروبا، وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة أرجع الله عليهم من القوة والشوكة ماصاروا به حكّام أوروبا وبيدهم ميزان سياستها». محمد عمارة « الأعمال الكاملة ج ٢ ص ٢٦٩.

٣. بالنسبة للأول عندما وقف السيد إلى جانب محمد أعظم خان الذي انتصر على خصمه ليعود فينهزم أمام شير علي خان الذي ضيق على السيد عقاباً له على موقفه السابق. (محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ج ١ ص ٣٠).

وبالنسبة إلى ناصر الدين شاه أنظر رسالته إلى السيد ـ إلى الميرزا حسن الشيرازي في سامراء في كتاب (أسناد ومدارك دربارة سيد جمالالدين أسدآبادي) صفاتالله جمالي ص ٦٥...

راضياً ثمن هذه الجرأة ترحالاً مضنياً لم يكن يقف عنده، لأنه مسلم وديار الاسلام وطنه، وعناء كان يتقبله بقلب مؤمن، وعزيمه ماضية.

نراه يُغضي لا لأنه بدَّل في قناعاته وقيمه بل لأنّ الأخطار المحدقة بالأمة كانت تقتضي الاغضاء إلى حين ... زوال الخطر، والإمساك بزمام الأمور يُغضي ويذهب إلى الاستانة ثانيةً.

١ـ اللقاء بعبد الحميد الثاني:

كانت ثانية رحلتيه إلى الاستانة في عهد السلطان عبد الحميد، الذي قيل الكثير ـ أثناء حياته، وبعد مماته ـ عن جوره، واستبداده، وفساده[١]. ليتبيّن فيما بعد أن الغرب والمتغربين كانوا وراء هذه الحملة، لا إنصافاً للأمة، بل كيداً لها ... ذلك لا يعني أنّ السلطان عبدالحميد كان مثال العدل ... ولكنَّه لم يكن على الصورة، التي قدّموها عنه، وهم يحاولون أن يوحوا للجميع بأنّ الاستبداد والفساد متأصّلان في تركيب الحاكم الشرقي، وأنّ الاسلام لا يحول دونهما، وأنّ البديل هومنهج الغرب[٢] .. لقد كانت سلبيات

وبالنسبة إلى الثالث الذي رهن مصر للبنوك الأجنبية... يقول الشيخ محمد عبده: «... إنّه من المؤكد أننا كنا نتكلّم سراً في هذا الشأن (شأن خلع الخديوي اسماعيل) وكان الشيخ جمالالدين موافقاً على الخلع، واقترح على ان أقتل اسماعيل، وكان يمرّ في مركبته كلّ يوم على جسر قصر النيل، وكنت أنا موافقاً الموافقة كلّها على قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة، لأن قتل اسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله ويمنع تدخل أوروبا». محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ج ١ ص ١٢٤.

١ . انظر الدكتور عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ الفصل (٣١) ص ١٠٠٣ وما بعدها.

٢ . «وإنّ المدنية الأوروبية هي التي انتشلتنا من سباتنا العميق» وثائق المؤتمر العربي الأوّل ـ د. وجيه كوثراني ـ مقابلة جريدة «الكان» مع عبد الحميد الزهراوي (مصري) ص ٢١ ... ومن خطبة عبد الحميد الزهراوي في الافتتاح «الغرب اليوم مقتدى الشرق ومهما أردنا أن نقول: انّه يجب على الشرقي أن يحتاط فيما يريد أخذه من بدع الغرب فإننا لا نستطيع إن ننكر إن عدم اقتباس الشرقيين شيئاً من مسائل حرية الغربيين فيه الكثير من الخطر، وبذلك يكون علينا واجب الشكر لأساتذتنا... أولئك عرفوا كيف توضع أسس حقوق البشر ... أوروبا قدّست الحرية وعشقت تلاميذها بها وإن كان يوجد فيها من يستبعدون وصولنا في هذا السبيل إلى غاية، فحسبهم أن يتذكروا عصورهم السالفة». نفس المصدر ص٣٣ ـ ويقول سلامة موسى: «علة الأقطار العربية ورأس بلواها أننا مازلنا نعتقد أنّ هناك مدنية غير المدنية الأوروبية فلا نتقبل مبادئ البرلمانية الديموقراطية والاشتراكية، هذه المباديء التي لم تعرفها آسيا الاستبداد الأوتوقراطي ←

عبد الحميد لا تنكر، ولكن الحساب عليها يؤجل أو يخفّف عندما تقابلها إيجابيّتهُ في عدائه للغرب، ورؤيته للوحدة الاسلامية أساساً في مقاومته، والذين يقفون على أرض الوحدة والعداء للغرب يغتفرون هذه السلبيات من أجل الأهم في مصير الأمّة وكرامتها، ومن هنا يطرحون المصير والوجود شعاراً يتقدّم على أيّ شعار آخر. الأجانب وتلامذتهم لا يرون الايجابيات، أو يرونها، ولكنّهم يذهبون إلى السلبيات يستعبدونها وينشرونها بعد تضخيمها؛ ليتلافوا بذلك يقظة الأمّة على واقعها من الصنف الأول كان السيد جمال‌الدين... ولأنّه كان مؤمناً ومسؤولاً اتجه إلى الاستانة ... عند المفترق، لا لكسب، بل لله، ودون أن يكون ذهابه إليها تأميناً على سلوك ومنهج حكّامها، كان يرى الأمة مستهدفة بدءاً من الاستانة، وانّ الرّدّ على الأعداء يبدأ منها.

٢ـ القواسم الفكرية والسياسية بين الرجلين:

التقيا... لابدّ أن كلاً منهما كان يتوسّم خيراً في الآخر... واذا كان الخير من السيد مقطوعاً به فما الذي رآه السيد في السلطان؟ بعد تعرفه عليه تذكر الحملات ضدّه، والتي حاولت أن تصوره هزيلاً، واهي العزيمة مشتّت الذهن وقال: «لو وزن بأربعة من نوابغ عصرنا لوزنهم»، التقيا، فما هي القواسم المشتركة التي جمعتهما؟

يقول عبدالحميد: «انّ الحملات الصليبية ضدّ الدولة العثمانية لم تتوقّف قط»[1] ..

في الحكومة والدين والأدب والعلم مع أنّها لبّ النجاح القومي» عيسى النصراوي ـ مجلة الطليعة عدد ١١ ص ٥٠. وفي خطاب موجّه إلى الخديوي توفيق يقول السيد رأيه الفصل في موضوع الحكم البرلماني: «إنّ القوة النيابية لأيّ أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلاّ اذا كانت من نفس الأمة، وأيّ مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك، أوأمير، أوقوة أجنبية محركة له، فاعلموا أنّ حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على ارادة من أحدثها.... فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثة له خارجة عن محيط الأمة، والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجلسها... فمقثل هذا المجلس لا قيمة له، وكما انّه لا يعيش طويلاً، كذلك لا يغني عن الأمة فتيلاً... وأعظم أماني الشعوب المملوكة التملص من ربقة الأجنبي وحكمه». محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ٢ ص ٣٣٠.

١ . «وازدادت الروح الدينية الحربية تأججاً في نفوس العثمانيين عندما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمّت عديد الدول الأوروبية وكانت البابوية في روما تتنادي إلى هذه التكتلات، وكأنّ الحركة الصليبية التي شهدها الشرق الاسلامي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى أواخر القرن الثالث عشر قد انتقلت من ميادينها إلى أوروبا». الدكتور الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ ج (ص ١٠).

والحملات الصليبية تعني: حرب الغرب ضدّ الأمة الاسلامية لاستعمار ديارها وتجزئتها، واستيطان مواطنها، والامساك بحواضر العالم الاسلامي، والمفاصل الأساسية منها، بشكل خاص، لما لها من وهج تاريخي، ومن اشعاع روحي وحدوي في أوساط الأمة. يقول «غاردنر»: «انّ الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس... انّها كانت لضرب الاسلام»[1] والاستيلاء على القدس تأتي أهميته من كونه ضرباً للاسلام وقاعدة لمواصلة الضرب. ينقل عبدالحميد عن صحيفة «ستاندرد« الانجليزية قولها: «يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الانجليزية، ويجب على «انجلترا» أن تسيطر على مدن المسلمين المقدَّسة»[2].

انجلترا؟

لأنّها السيدة الامبريالية... ذلك لا يعني انّها وحدها، أو أنّ الأخريات على وفاق تام معها، ولكن عندما يكون الاسلام هو الهدف المشترك، والعدوان عليه محكوم بخلفية حضارية واحدة، فانّه كفيل بتوحيد المتنازعين فيما بينهم.. يقول عبد الحميد: «إنّ الانجليز والفرنسيين والروس والألمان والنمساويين، أيّ كل دول اوروبا الكبرى وجدت مصلحتها تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها، والمشاهد أنّ هذه الدول الكبرى تنهش في بعضها البعض، ولكنّها سرعان ما تتفق وتتحالف اذا ما تعلّق الأمر بمقاتلة العثمانيين، أمّا ما لا تتفق عليه فهو: من سيحصل على نصيب أكبر في أراضي الدولة»[3]! إنّ هذا الكلام يعيد إلى الذاكرة بداية الحروب الصليبية، وكيف تصالح الغرب المتناحر تحت رعاية الكنيسة على طريق الشرق. هكذا كان السلطان عبدالحميد يرى الأخطار[4].

وبدوره كان السيد جمال‌الدين يراها، ويرسم مؤشّراتها، ويعتبرها إنذاراً للمسلمين،

---

١. طارق شريف ـ الطليعة الاسلامية ـ لندن ـ العدد ١٠ ص ٤٦.

٢. محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ـ ص ٨.

٣. المصدر السابق ص ٥٨.

٤. يقول محمد جميل بيهم: (انّ السبب وراء هزيمة روسيا عام ١٩٠٥ أمام اليابان رغم عدم التكافؤ عدداً وعدة هوأنّ الروس كانوا متحمسين لقتال العثمانيين لا اليابان). محمد جميل بيهم ـ أسرار ماوراء الستار.

وإخطاراً لهم بالوحدة، أوالفناء يقول: «أنرضى ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تُضرب علينا الذلّة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا ولا يخدم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلاً ولاذمّة، بل أكبر همّه أن يسوق علينا جيوش الفناء، حتى يخلي منّا أوطاننا، ويستخلف بعدنا أبناء جلدته، والجالية من أمته؟»[1] إنّه يعيد المسألة إلى إطارها الحضاري، إطار المنافاة الحضارية بين الاسلام وغير الاسلام، ولا يقف عندها مجردة، بل يرى إلى هذه المنافاه تتبلور لدى الغرب عدواناً، والعدوان لا يقتصر على الحرب وابتزاز المنتصر فيها للمنهزم، بل يتعدّى إلى الاستعمار، الذي يفضي إلى الاستيطان «أقسى أشكاله»، وهو يعني الاقتلاع وتوطين الآخرين (من أبناء جلدته والجالية من أمته).. هكذا فعلوا أثناء الحروب الصليبية، استوطنوا وأقاموا دويلاتهم على أرضنا، وهكذا فعلوا في فلسطين، ويفعلون في كلّ المستعمرات بنسب متفاوتة تعيّنها حاجتهم، لا رغبتنا.

٣ـ أفق الوحدة المنشودة:

إنّ أفق الوحدة في منظور الرجلين وطموحهما ـ كما هو في الاسلام ـ أفق الاسلام مداه في الأمة على امتدادها، على امتداد «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله». حيث وصل الاسلام وحيث يصل... كان عبدالحميد يرى أنّ جبهة المسلمين في الدولة العثمانية فقط لا تكفي، ولذلك رأى ضرورة امتداد حركة الوحدة عملياً إلى مسلمي آسيا، بما فيها آسيا الوسطى، حتى يمكن الردّ من خلالها على الهجمة الاستعمارية، ومن هنا أخذ يعمل على تدعيم أواصر الأخوة الاسلامية بين كلّ مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط افريقيا وغيرها[2]، ويقف ملياً عند خصوصية ايران ليقول: «عدم وجود تفاهم مع ايران أمر جدير بالتأسّف عليه، واذا أردنا أن نفوّت الفرصة على الانجليز، وعلى الروس، فأنّا نرى فائدة في وجود تقارب اسلامي في هذا الأمر»[3].

---

١. محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ج ١ ص ٦٧ نقلاً عن العروه الوثقى.

٢. محمد حرب عبد الحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٥٧.

٢. محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٥٧.

هنا يذكر المؤرخون تلك اللافتة التي كانت منصوبة في اقليم القرم، مكتوباً عليها: «طريق استانبول» أثناء زيارة «كاترين» الثانية قيصرة الروسيا إلى الأقاليم الجنوبية منها عام ١٧٨٧ م[١]. إنَّ الفرق بين السيد وبين السلطان في هذه المسألة، كما سوف يتّضح ـ هو انَّ السلطان كان يرى الوحدة ضرورة بحكم الهجمة التي تتعرض لها الدولة.. على عكس أسلافه الذين رسّخوا التجزئة في بعض مستوياتها بالتناغم بينهم وبين السلطة الصفوية على سبيل المثال.

وإذ يتطلّب عبد الحميد الوحدة من أجل هذه الغاية المشروعة لا يرى غير الاسلام أساساً لها. هنا يجد نفسه بحكم الاسلام متخطياً للأجناس والمذاهب. بينما يبدأ السيّد من الاسلام، ليرى الوحدة أصلاً اسلاميّاً غير مرهون بظرف، ويرى الاستعمار، والتجزئة يصارع كلّ منهما الآخر، وهما معاً يصارعان البعد عن الاسلام. إلى ذلك فهولا يُغضي عن الظروف الموضوعية، التي يراها ماثلةً...

ومن هنا يتساءل عن العوائق تساؤل المنكر المستنكر، تقول مجلة الهلال في تأبينها للسيد: «يؤخذ من مجمل أحواله أنَّ الغرض الذي كان يصوّب نحوه أعماله، والمحور الذي كانت تدور عليه آماله: توحيد كلمة الاسلام، وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة اسلامية واحدة»[٢]. ويقول هو: «من أدرنة إلى بيشاور دول اسلامية، متصلة الأراضي، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، أليس عليهم أن يتّفقوا على

١ . «إنَّ كاترين الثانية قيصرة الروسيا قامت عام ١٧٨٧ م برحلة إلى الأقاليم الجنوبية للروسيا بما فيها بلاد القرم، وفي الاقليم الأخير أقام لها القائد الروسي زينات وأقواس نصر كتبت عليها عبارة: (طريق استانبول). الدكتور عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ ج ٢ ص ١٠٦٠.

٢ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٧٩ نقلاً عن مقدمة «الهلال» لرسالة «الردّ على الدهريين» ص ١٥... ويقول السيد جمال‌الدين في مقالة «الوحدة والسيادة»: «هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، واحلامنا ممزقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا، ثمَّ لا نبدي حركة، ونجتمع على كلمة، وندّعي مع هذا اننا مؤمنون بالله، وبما جاء به محمد «ص»!.. إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام، كلّ هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهاهم ما أشرنا اليه... فألهاهم عمّا يوحي به الدين في قلوبهم...» محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ٢ ص ٣٣.

الذبّ والإقدام كما اتّفق عليهم سائر الأمم، ولو اتّفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق في أصول دينهم. إنّ هذا يعدّ كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات»[1]. هنا يتقاطع، أو يتماس السلطان مع السيد، حيث يرى السيد بالاضافة إلى العقيدة والثقافة، الجغرافيا المؤاتية، والأعداء المتّفقين، واقتضاء الظرف، وينبّه العثمانيين إلى دورهم الخاص المرتجى في هذا السبيل يقول: «أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز ـ يقصد مسلمي الهند ـ واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء، لما تجرّعوا مرارة الصبر على تحكّمات الانجليز، وحيفهم في أعمالهم، وتعديهم على حقوق السلطان»[2]. ويعرب عن طموحه إلى دور ايراني متميّز، عمل على دفع ايران اليه، معتمداً على معرفته بعقيدة الشعب وتطلعاته، فوقف السلطان الجائر «ناصرالدين شاه» دونه، ليعود السيد من بعد فيبدأ من نقطة أخرى؛ لتمكين ايران من أداء دورها، يقول في هذا الصدد:

«ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أوّل القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية وتقوية الصلات الدينية، كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره»[3]. ويخاطب الايرانيين قائلاً: «أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس الوحدة الاسلامية»[4] كأنّي به هنا قد رأى حاضرنا، والمؤمن يرى بعين الله، وأحلام الثائر المسلم تخترق الزمان، وتستبق التاريخ تكون أحلاماً مشروعة وعادلة، ثمّ لا تلبث أن تصبح واقعاً أجمل.

هنا يستبعد «محمد عمارة» الذي أصبح معروفاً بليّ أعناق النصوص حسب الطلب، يستبعد صدور هذا الكلام عن السيد، إلاّ اذا كان نطاق الوحدة، التي يتحدّث عنها كما

---

١ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٧٥ نقلاً عن العروة الوثقى ص (١٣٩).

٢ . المصدر السابق ج ٢ ص ٩٧ من مقال «الوهم» في العروة الوثقى.

٣ . المصدر السابق ج ١ ص ٨١ نقلاً عن مقال: «دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان» الأعمال الكاملة ج ٢ ـ ص٢٦٥.

٤ . المصدر السابق ج ١ ص ٨١.

يقول عمارة: «هي الوحدة بين السنّة والشيعة، لأنّ الوحدة الاسلامية أبعد من امكانات الايرانيين»[١] . يهوّن من شأن الوحدة بين السنّة والشيعة، ويتحدّث عن وحدة لايجد لها أساساً إلاّ في النفط!!!

٤ـ غاية الوحدة:

بالاضافة إلى أصل الوحدة، وكونها هدفاً بذاتها، أين يريد السيد أن يوظّف هذه الوحدة التي سعى إليها؟

يقول: «جولد زيهر» «كان يفكّر في جمع هذه الحكومات، ومن جملتها ايران الشيعيّة؛ لتتمكّن بذلك الاتحاد من منع التدّخل الأوروبي في أمورها، فجمال‌الدين بعمله، ولسانه كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية»[٢]. يتحدث السيد عن الوحدة باعتبارها أرضية لتلافي الضعف، واستجماع عناصر القوة من وجهة اقتصادية فيقول: «إنّ غاية الجامعة الاسلامية الاقتصاية هي ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة، والصناعة في جميع المعمور الاسلامي هي لهم ينعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها، وهي نفض اليد من رؤوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضّة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرض، والمعادن، والغابات، وقطر الحديد والجمارك، هذه العقود، مادامت خارجة عن أيدي العالم الاسلامي، فهو يظلّ عالة على الغرب»، هنا التقط السيد الحركة المكوكية للامبريالية بين منابع الثروة، وتوظيف رؤوس الأموال...[٣] [٤]

وهنا تفوح رائحة التنباك، الذي كان محرضاً على ثورته، وهنا نرى معه أنّ الاستقلال

---

١ . المصدر السابق ج ١ ص ٨١.

٢ . المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ نقلاً عن دائرة المعارف الاسلامية وحاضر العالم الاسلامي ـ شكيب أرسلان ـ ج ٣ ص ٢ـ٣، والناقل (جولد زيرو).

٣. المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ نقلاً عن حاضر العالم الاسلامي، ج ١ ، ص ٢٨.

٤. محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٢٢.

والتقدّم، حتى بالمعيار المادي لا يتم إلاّ بالوحدة، والعدالة أيضاً شرطها الوحدة، وهي ـ أي العدالة ـ تترتب على الوحدة، كما يترتّب العدل على التوحيد. وعندما نرى وحدة ولا عدالة تكون الوحدة شكلاً مؤقتاً، وتكون التجزئة فعلاً وواقعاً.

لعلّه ممَّا يناسب هنا أن نرى ما آلت إليه الدولة العثمانية من وضع اقتصادي بدون الوحدة في بداية حكم السلطان «عبدالحميد». ورث «عبدالحميد» السلطة عن أخيه «مراد» الذي ورثها عن عمّه «عبدالعزيز» الذي ورثها عن أخيه «عبدالمجيد» والد «عبدالحميد»، والذي اقترن عهده بما يسمَّى بالتنظيمات، أي «فرماني» «١٨٥٤ و١٨٥٦» اللذين تمّ بموجبهما استبعاد الشريعة الاسلامية، وبدأ تسيير شؤون الدولة طبق المنهج الغربي، وقد ترتّبت على هذه التنظيمات نتائج اقتصادية، تؤكد بأن التبعيّة لا تتجزأ، أو انّ آثارها موضوعية لا تؤثر فيها الأماني، فقد ورث «عبدالحميد» عن أسلافه ديناً مقداره «ثلاثمائة مليون ليرة» وأمَّا الحالة الاقتصادية العامة فيقول عنها: «الدخل العام يقل عاماً بعد عام، والانتاج المحلي كان يضمحل يوماً بعد يوم، فقد كنَّا منذ فترة التنظيمات، نأتي بكلّ أشيائنا من أوروبا، المنتوجات الأوروبيّة غطّت كلّ مكان، أصبحت عدة مصانع في طريقها إلى الزوال، وهبط دخل الجمارك إلى الحدّ الذي لا يجزي بسبب تلك المعاهدات المعقودة مع الدول الكبرى، لم تعد تكفينا زيوتنا، الطرق غير موجودة والتخابر صعب.. كأنّ أراضي الامبراطورية تركت لأقدارها»[١].

٥ ـ عوائق الوحدة في منظور الرجلين:

كما أنّ للوحدة موجباتها ومنشّطاتها، فإنّ لها عوائقها ومثبّطاتها، العدو الخارجي خطر وعائق دون شك.. ولكنَّه لا يستطيع أن يحقّق مبتغاه إذا لم تتوفّر له ظروف واستعدادات وامتدادات داخلية مساعدة. ومن ظروفه وامتداداته قصار النظر، الذين ينسحبون من صناع، التاريخ إلى استهلاكه، يتركون الساحة خالية لكلّ من يريد أن يطرقها بشرّ ويحاولون أن يسحبوا الاسلام معهم، يسحبونه باغلاقه على الدّوائر المذهبيّة

---

١ . المصدر السابق ص ٦٣.

منعاً للوحدة، ويسحبونه بالرعب المُبالغ به من الأعداء، وبدفعه قصراً إلى المهادنة آملين بذلك بخلاص فردي يبقى مستحيلاً بدون نهوض الفرد بهمّته الحضارية. قصار النظر وصنائع الغرب ثقافياً أولئك المتغربون الذين يرون في الاسلام مانعاً حضارياً؛ لأنّه يمنع التبعية ويرون الغرب منقذاً! يمارسون الفصل بين الأمة وعقيدتها ينظرون لتفتيت كيان الأمة، تمهيداً للصنائع السياسية، أي: للحكّام، الذين يقفون على حدود الوطن المجتزأ المصطنع الملفّق، أوالمذهب البريء من الانعزال والانغلاق والانفصال؛ ليمنعوا الوحدة، وبالتالي ليمنعوا مقارعة الأعداء، ويؤسّسوا أساس الاستسلام. من أمثال هؤلاء تعاني الأمة باستمرار، وكان يعاني «السيد جمال‌الدين» دون أن يستسلم، يقول رحمه الله: «علمت انَّ أيَّ رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلافات وآثارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف رجوعاً إلى أصول الدين الحقّة فذلك الرجل هوفي عرفهم الكافر الجاحد المارق المخردق المهرتق المفرق... الخ الخ»[1] وكأنَّ في الكلام اشارة بعيدة ـ سيقربها فيما بعد ـ إلى الانغلاق المذهبي، والى مايعانيه من دعاته ... وهناك ـ إلى جانب هؤلاء ـ حكّام يتذرّعون بالمذهب حفاظاً على التجزئة التي أنتجتهم، يقول السيد عنهم: «فالملوك من السنّة هولوأمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة؛ ليتسنّى لهم بذلك تخريب الأحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً بحجة السنّة والشيعة. أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ومن هذا الموت قبل الفوت! يا قوم: وعزّة الحقّ أنَّ أميرالمؤمنين «علياً بن أبي طالب» لا يرضى عن العجم، ولا عن عموم أهل الشيعة اذا هم قاتلوا أهل السنّة، أوافترقوا عنهم وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم»[2]

شاهد من التاريخ:

من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٢٣ نشبت حرب بين ايران والدولة العثمانية، وكان

---

١. محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٧٠ نقلاً عن خاطرات السيد جمال‌الدين ص ٨٢-٨٣.

٢. المصدر السابق ج ١ ص ٢٨ ويقول السيد عن الاختلاف في المذاهب: «ولا يدعوالى شق وتمزيق نسيج الأتحاد وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبباً في تخالف عنيف» محمد عمارة » الأعمال الكاملة ج ٢ ص ٢٦٥ (العروة الوثقى).

لروسيا دور بارز في زيادة حدة النزاع حتى وصل إلى الحرب. وانتهت الحرب باتفاقيّة «أرضروم» التي لم تؤدِ إلى حسم النزاع الذي ما لبث أن انفجر جزئيّاً عام ١٨٤٤ وحينئذٍ بادرت بريطانيا بمشاركة روسيا إلى تشكيل لجنة لحلّ النزاع ثانية. هنا نلاحظ انّ الدولتين الطامعتين، قد أصبحتا في صلب الوضع بعد النزاع. ولذلك كانتا تلجآن باستمرار إلى حلّ بعض المشكلات المطروحة، وتبقي بعضها لاثارتها في الوقت المناسب، تمهيداً لمزيد من التدخّل. في هذه الأجواء اشتعلت حرب «القرم» ضدّ الدولة العثمانية بتخطيطٍ من روسيا، فأشاع الانجليز أنّ ايران سوف تقف إلى جانب روسيا ضدّ الدولة العثمانية، فبادر «نادرشاه» إلى تطمين السلطان العثماني، ولكنّ الانجليز كانوا قد أقنعوا «رشيد باشا الكوز» والي بغداد العثماني بأن انضمام ايران إلى روسيا احتمال قوي، فطلب من الانجليز إرسال قوات عسكرية إلى العراق للدفاع عنه في نفس الوقت، الذي كان فيه القنصل البريطاني في «بغداد» يحثّ حكومته على احتلال العراق، ويؤكّد في تقاريره إلى حكومته أنّ الأوضاع الداخلية في العراق تقتضي احتلال بغداد، وهل يمكن أن تكون هذه الأوضاع الداخلية سوى امتداد أثر النزاع بين الدولتين إلى أنصارهما داخل العراق بتشجيع من الانجليز دون شك؟! هذا والذي حال دون تنفيذ الاحتلال في هذه المرحلة هوالتحالف المؤقت في مواجهة روسيا بين الدولة العثمانية والانجليز ... لم يحلّ نهائياً بل أجّل الاحتلال إلى فرصة أنسب[1] .

كلّ ذلك تمّ على قاعدة الخلاف بين السنّة والشيعة، أوتحت غطاء هذا الخلاف، الذي يهوّله ويهوّل به الحكام طمعاً في تثبيت منصب، ويستفيد منه الأعداء باستمرار. في عهد (السيد جمال) وبعد اغتيال «ناصرالدين شاه» على يد أحد أصدقاء السيد ـ ميرزا رضا ـ كتب «مظفرالدين شاه» إلى السلطان (عبدالحميد) محرضاً على السيد بأنّه شيعي، ويطلب تسلميه اليه لاتهامه بعلاقته بحادث الاغتيال. لقد رفض «عبدالحميد» الاستجابة للطلب[2] . ولكن توجيه الخطاب اليه يحتفظ بدلالاته، وهنا لابدّ أن نقيس الحاضر على

---

١ . الدكتور الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ الفصل ٢٦.

٢ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٢٤.

الماضي أو الماضي على الحاضر في علاقات بعض الحكّام بايران ماقبل الثورة، وبحكّامها وعلاقاتهم بايران الاسلام، وقيادتها المؤمنة. لقد التقوا مع الشاه رغم تشيّعه، والتقى بهم رغم تسنّنهم.. وهوهوضدّ السنّة، وهم هم ضدّ الشيعة... لم يلتقوا ألاّ لأنّهم ابتعدوا عن الاسلام، والتقوا في الغرب، ولأنّهم أعداء السنّة والشيعة على السواء.

٦ـ قوى التغريب: دورها والموقف منها:

انسجاماً مع المرحلة الغربية الأوروبيّة، مرحلة القوميات والدولة القومية، التي أنشأتها احتياجات التصنيع والتصريف... البدء بتصدير أفكار هذه المرحلة إلى البلاد الاسلامية طموحاً إلى التجزئة والاستتباع، طرح التغريبيّون «القومية» ضابطاً لعلاقات الشعوب والارتباط بالغرب، وخلاصاً من التخلّف حسبما تصفه وتحدّده المعايير الحضارية الغربية، يقول «عبدالحميد» عن بعض المثقّفين المصريين: «إنّ هذا البعض يعتقد أنّ سلامة مصر تأتي من الانجليز، إنّ هذا البعض أصبح يقدّم القومية على الدين، ويظنّ انّه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبيّة، وانجلترا تهدف من نشر الفكر القومي إلى هزّ عرشي... وإنّ الفكر القومي تقدّم تقدّماً ملموساً في مصر، والمتقّفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبةً بيد الانجليز، إنّهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الاسلامية»[١].
انّه كسلطان يعتبر أنّ الهدف هو هزّ عرشه... وهولابدّ يرى إلى أنّ التوجّه القومي في الولايات العربية بروّاده المسيحيّين وتوابعهم من المسلمين في مجمل أطراف الدولة لم يكن لينمو لو لم يتناغم متزامناً مع تيار مماثل له في المركز، جاء ليستكمل التأثيرات السلبية لسياسة التمييز المتأتية عن سياسة الجور العامة، ولينظّم هذه التأثيرات ويعمّقها وينتقل بها إلى مرحلة جديدة، مرحلة توظيف التيار التركي الطوراني العنصري في سبيل تصديع الرابطة الاسلامية...

ذلك كان هدف «تركيا الفتاة» لدى تأسيسها عام ١٨٦٠[٢]. يقول عبد الحميد: «كما استغلّ الانجليز غفلة أعضاء «تركيا الفتاة» عن طريق المحافل الماسونية، بدأ الألمان

---

١ . محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٧.

٢ . المصدر السابق ص ٤ والدكتور عبدالعزيز الشناوي يقول: انّ التأسيس كان سنة ١٨٦٥ ـ الدولة العثمانية ج ٢ـ ص: ١٠٠٤.

يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم، وعن طريق المحافل الماسونية أيضاً، وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل «تركيا الفتاة» في «سالونيك»، وسيطر الانجليز على تشكيل تركيا الفتاة في «مناستر» كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل»[1] ، «وكان هؤلاء الشبّاب أمل الدول الكبرى»[2]. إنَّ السلطان يبسط الأمور

١ . محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٦٩.

٢ . المصدر السابق ص ٥٧... وهنا تتذكر أنّ أحد روّاد القومية العربية في أواخر القرن الماضي الماروني اللبناني «نجيب عازوري أسس أول حزب قومي عربي في باريس، وأصدر له مجلة بالفرنسية مولتها ورعتها الخارجية الفرنسية، وهوالذي أسس أول محفل ماسوني عربي (راجع: نجيب عازوري ـ د. أحمد أبوملحم ـ بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر). ونذكر هنا بأنّ عبد الحميد كما أدعى كان يرى أنّ الحرب الكونية قادمة، ولذا كان يتمنع قدر الامكان عن خوض الحروب الجزئية كالحرب مع روسيا التي انتهت بمعاهدة سان استيفانو، وكان يحاول التخفيف عن النشاطات العسكرية التي تبعثر القوة العثمانية وتستنزفها، استعداداً لخوض هذه الحرب بقوة. ولكن اخصامه في السلطة وخاصة تركيا الفتاة التي أمسكت بالجيش وتقاسمته في تياريها (الألماني والانجليزي) هي التي دفعت إلى خوض المعارك الجزئية فأضعفت الدولة... وراحت تبحث عن محاور غربية لتتحالف معها من موقع الضعيف... بينما آثر عبد الحميد أن يتربص وأن يستثمر الخلافات بين الدول الغربية ليمر من بينها دون أن يقيم تحالفاً ثابتاً انتظاراً لما يأتي. «راجع المذكرات والدكتور عبدالعزيز الشناوي ج ٢فصول ٣١ـ٣٢ـ ٣٣». وفي حديثه لجريدة «الكان» الفرنسية يقول عبدالحميد الزهراوي ـ المصري ـ رئيس المؤتمر العربي الأول: « إنَّ ما حدث في ولايات الدولة العثمانية بأوروبا من الحوادث الخطيرة دعانا إلى التفكير وامعان النظر في الحالة الجديدة التي دخلنا فيها». وكأنّه يريد أن يصرّح بأنّ انفصال جزيرة «كريت» مثلاً قد شجّع العرب القومين على طلب الاستقلال الذاتي أواللامركزية التي قبل معهم روادهم النصارى بطرحها على أن تكون مدخلاً لتحقيق الانفصال الكامل.. يقول شكري غانم وهو أحد شخصيات المؤتمر الأساسية في رسالة إلى الخارجية الفرنسية: «إن المؤتمر العربي السوري المنعقد بباريس سوف يترتّب عليه نتيجتان فوريتان هي استعادة فرنسا لود مسلمي الشرق بالذات... الخ».

ويعلّق الدكتور وجيه كوثراني على موقف شكري غانم الذي يمثل التيار النصراني المهيمن يقول: «ولا يلبث شكري غانم أن يعبّر عن موقف مسيحيي الحركة الاصلاحية في بيروت في فهم هؤلاء برنامج الاصلاحات الذي اشترك به الأعيان المسلمون في بيروت... فلا يقيم أيّ وزن لهدف المؤتمر الذي هوالمطالبة بالاصلاحات من الدولة العثمانية، فالمهم في رأيه هوتوريط المسلمين في حركة لن يكون لها أيّ مخرج في استانبول، وسيكون مخرجها الوحيد الانفصال عن الدولة، ويقدم مثل لبنان المتصرفية «نموذجاً للاحتذاء». الدكتور وجيه كوثراني ـ وثائق المؤتمر العربي الأول ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٠ ص ٥٥ من المقدمة وص ٣ من الوثائق.

←

كثيراً عندما يعللها بالغفلة، واستغلال الغفلة، ولعلّهُ يريد أن يعفي سياسته وسياسة أسلافه من عبء التمهيد غير المباشر لبروز هذه التيارات، وتهيئة ظروف للانجليز والألمان وغير هم يستغلونها.

إذن فالماسونية هي الحاضنة:

فماذا عن تجربة السيد مع هذه الحركة؟

سوف أمرّ سريعاً على هذا الموضوع لنرى ما انتهت اليه التجربة، وما أسفرت عنه من فهم لطبيعة الماسونية ودورها لدى «جمال الدين»، كانت الماسونية في هذه الحقبة تحمل شعارات الثورة الفرنسية (الحرية والإخاء والمساواة) وذات سمعة حسنة نسبيّاً، إذ لم تكن قد انكشفت بعد، وسيكون للسيد فضل في تسليط الأضواء عليها، كما لم يكن الوجود اليهودي في صفوفها مثيراً قبل تفاقم نشاط الحركة الصهيونية ووضوح نواياها. ومن جهة أخرى كانت لدى السيد رغبة في العمل المنظّم، ولعلّه أراد أن يفيد في هذا المجال من تجربة الماسونيّة، فانخرط في صفوفها. ولكنّه بعد اختبار لصدق الماسونيّين في شعاراتهم اكتشف الخيوط التي تربط قيادة المحفل الماسوني المصري بالفكر الاستعماري

وعن الجانب الآخر، الجانب التركي ودوره في تبرير الأطروحات الانفصالية يقول محمد رشيد رضا: «كتب أحد شبّان الترك المقيمين في القطر المصري مقالات في جريدة الأهرام يفاخر بها العرب بقوته وجنسه معبراً عنهم ـ أي الترك ـ بالملة المالكة متبجّحاً بزعمه أنهم هم وحدهم الذين أزالوا الحكومة الاستبدادية؟... وأنهم هم وحدهم الذين لهم الحق بالتمتع بثمرات الدستور الكاملة... وليس للعرب ولا لغيرهم من الأجناس أن يطمعوا في مساواتهم في مناصب الدولة وأعمالها، لأن ولاياتهم مستعمرات أومستملكات للترك فيجب أن يكون قصارى حظ العرب من الدستور أن يستريحوا من أعباء الظلم، ويتذوّقوا طعم العدل، فيكونون من الترك كأهل الجزائر من فرنسا، أوكأهل الهند من أنكلترا». (وثائق المؤتمر العربي الأول نقلاً عن المنار بتاريخ سنة ١٩١٠ م ص ٩١٢ ـ ٩١٤ واذا كان تاريخ هذا الكلام هوسنة ١٩١٠ فذلك لا يعني أنه ابن هذا التاريخ، لم يأت مفاجئاً وإنّما كانت له جذوره والتي أطلعت ثمرها علناً منذ تأسيس تركيا الفتاة عام ١٨٦٠ ... لتعمل على تحويل العلاقة من جانب الترك طبقاً للمقياس القومي الاستعماري المستورد، إلى علاقة استعمارية، ومن الجانب العربي طبقاً لنفس المقياس إلى علاقة عدائية تدفع نحوالانفصال... ومن هنا كانوا حقاً أمل الدول الكبرى...

ومهادنتها للسلطة، الجائرة. وعندما طلب السيد إلى ماسوني مصر تحديد موقفهم من السلطة ردّوا بأنّهم لا يتدخّلون في الأمور السياسية، وعندئذ قال: «ماسونيّتكم اليوم لا تتجاوز كيس أعمال، وقبول أخ يتلى عليه من أساطير الأولين ما يملّ ويخلّ في عقيدة الداخل، وهي رموز لا يفقه أكثرنا مغزاها ولا المراد من وضعها»[1] أنّه نفي يتضمّن اثباتاً ... فقد اكتشف السيد أهداف الماسونية من وراء الغموض والرموز، فقد كانت هذه الرموز وما تزال تغييباً عن الواقع، ومدخلاً للتغريب والتبعية الثقافية والسياسية.

عودة إلى الاتجاه القومي:

كان «عبدالحميد» يراقب هذا الوضع من موقعه في السلطة، والسيد يراقبه من موقع العالم الثائر، ومن هنا قدّر خطورة التوجّة القومي، وخطورة الأطر التي تنميه. وربّما كان ذلك دافعه فيما بعد على تأجيل خلافاته مع السلطة العثمانية، والاتجاه للتعاون معها...

فكرياً

عالج التوجّه القومي بلحاظ منافاته للاسلام، ومن ثمّ حاول أن يرى الأسباب الواقعية، التي يتعلل بها بعد تضخيمها دعاة التجزئة لتبرير سلوكهم، يقول: «علمنا وعلم العقلاء أجمعون أنّ المسلمين لا يعرفون جنسية إلاّ في دينهم»[2] وقال مخاطباً المسلمين: «واعتصموا بحبل الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية». ويقول: «هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن، لا يعتبرون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس. وإنّما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني.. ولا

---

١ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ، ج ١ ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

٢ . «ويروى أن السلطان سليم بعد فتح مصر والشام أراد أن يجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للسلطنة بدلاً من التركية ففاجئته المنية قبل إتمام هذا العمل»د. وجيه كوثراني ـ وثائق المؤتمر العربي الأول ص ٢٤ نقلاً عن محمد كرد علي خطط الشام. الجزء الأول ص ٢٢١.

اشمئزاز عند أحد ولا انقباض»[١] .

غير انَّ السيد يشترط الاسلام، ممَّا يستلزمه من عدل يدور مداره، حتى تستحكم هذه الرابطة، وإلاَّ تصدّعت، يقول: «إنَّ المسلم في تبدّل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل، مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة، ذاهباً مذاهبها، فاذا أذعنت الانفس بوجود الحكام الأعلى، وايقنت بمشاركة القيم على أحكامها لعامتهم في التضامن، لما أمر به، اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشرّ إلى صاحب هذه السلطة المقدّسة، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها، فمحي اثرها في النفوس، والحكم لله العلي القدير» كأنّي به يريد أن يقول: بأن الرابطة القومية لا تبرز، أوتطغى إلاَّ عن حاجة إليها، والحاجة إليها تطرأ عندما لا يكون العدل حافظاً، وحامياً، وصائناً لرابطة العقيدة. التي هي أصل. واذا كان «ابن خلدون» قد اعتبر العصبية أصلاً في الحكم، وأنَّ حكم الشرع جاء استثناء في عهد الرسول والعهد الراشدي؛ لخصوصية الظرف، وخصوصية الحاكم الشرعي، فهيأ بذلك قاعدة للتعامل الفكري الأوروبي مع الشعوب الاسلامية. فإنَّ طرح السيد يأتي مطابقاً للاسلام ناقضاً (لابن خلدون) مشترطاً العقيدة منطلقاً، والشريعة حامياً للوحدة، والعدل أساساً، وحينئذٍ وعلى حدّ قوله يلتفت الانسان المسلم «عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة، وهي علاقة المعتقد»[٢]، على العكس من «ابن خلدون» تكون الشريعة هي القاعدة والعصبية هي الاستثناء (راجع المقدمة للدكتور على الشامي في العدد الخامس من مجلة الوحدة ـ بيروت ١٩٨٠). من هنا تأتي علاقته بناصرالدين شاه تلك العلاقة التي حاول أن يوظّفها في سبيل العدل، وبقي معه ما كان مؤملاً بذلك، ثمَّ لمَّا يئس تحوّل إلى خصم عنيد لا يهادن. ممَّا جعل «ناصرالدين شاه» يحمله على الصعب، و«مظفّر

---

١ . المصدر السابق ج ١ ص ٧٣ ـ العروة الوثقى، مقالات (الوحدة والسيادة) الأعمال الكاملة ج ٢ ص ٣) و(التعصب) ج ٢ ص ٤٠ (والجنسية والديانة الاسلامية) ج ٢ ص ٣٤.

٢ . محمد عمارة ـ الأعمال الكاملة ـ ج ٢ ص (٣٤-٣٥) عن مقال (الجنسية والديانة الاسلامية).

الدين شاه» يتهمه بالتحريض على اغتيال «ناصرالدين» فيما بعد[1] ... ومن هنا حمل همومه إلى الاستانة، وبلورها هناك مشروعاً للوحدة على أساس العدل والاصلاح والتكافؤ، كما سنحاول أن نوضّح.

عوامل التجزئة:

في معالجته للتوجه القومي على ضوء الاسلام كان لابدَّ له أن يكون موضوعيّاً؛ ليرى من أين تنطلق الدعوات القومية، وما هي ذرائعها، وما هو الرّدّ الاسلامي على ما يصور على انّه ذرائع؟ أي: أن يرى الظروف الموضوعية ليجد فيها الأصلي والطارئ، فالطارئ هوما أفرزته حالة التجزئة الفكرية والسياسية والكيانية من فوارق بين أقطار الأمة وشعوبها، وبما انّه طارئ فانَّ الوحدة هي الكفيلة بردم الهوّة الحادثة في مجال العمران، وبترسيخ التكافؤ والكفاءة مبدءاً للعلاقة بين الشعوب الاسلامية، وأمَّا الأصلي فاللغة والجنس، وهنا كان السيد جريئاً ووحدويّاً حتى الحلم. فقد دعا السلطان إلى تعريب تركيا، مذكراً بمحاولة السلطان (سليم الأوّل)، وبالغ في هذه الدعوة إلى حدّ الهجوم على اللغة التركية، واعتبارها لغةً قاصرة[2]، وأمَّا الجنس فهو لايلغيه من اعتباره، ولكنه يرى انّه لابدَّ أن يكون محكوماً بالعقيدة والشريعة، تابعاً لهما وخاضعاً، لا متبوعاً وحاكماً، على أنَّ ما حصل من اندماج بين الشعوب بفضل الاسلام، لم يترك مجالاً لقائل يقول ببقاء جنس على تمايز عن باقي الاجناس، أي على نقائه العنصري، كما يحلوا للبعض أن يعبّر.

يقول السيد: «أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المناظرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط! واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل، ويعبّرون عنه بمحبة الوطن، وأيّ قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصّب الديني، المعتدل، وحسبانه نقيصة يجب الترفّع عنها؟!»[3].

---

١. المصدر السابق ج ١ ص ٢٤ نقلاً عن (تاريخ الأستاذ الإمام).

٢. المصدر السابق ج ٢ ص ١٦.

٣. المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥.

إذن... حتى العمران لن يكون عمراناً إلاّ بالتواصل، والوطن اذا لم يكن محروساً بالشريعة، والعقيدة الثابتة القاطعة، يسهل بيعه، وهجره، واستبداله واستغلاله وخيانته.

٧ـ ثقافة الوحدة وثقافة التجزئة:

إذا كان لكل من الوحدة والتجزئة مستوياتها وتعبيراتها، فانّ لهما ثقافتهما أيضاً، وكما انّ الاسلام هوثقافة الوحدة، فان كلّ ما هوغير اسلام هوثقافة تجزئة. وإذا ما كانت كلّ الأديان اسلاماً بحسب القرآن، فانّها كلّها أديان وحدة، لأنّها أديان توحيد، ومن هنا فانّ المسيحية التي بين أيدينا، ولأنّها افرغت من مضمونها التوحيدي، لم تعدْ ديانة وحدة. ولذلك وقفت عاجزة عن توحيد الغرب الذي يدّعيها، والذي لم ولن يتوحّد إلاّ في حالات طارئة ومؤقتة منها حالة العداء للآخر، وللاسلام باستمرار، والاجتماع على المصلحة في هذا العداء، الذي لا يلبث أن ينحل عداوات داخلية لا تطمع المسيحية إلى حلّها؛ لأنّها من بداية تغريبها، كان محظوراً عليها ذلك، أو لأنّ قابليّتها قد صودرت منذ أن تمثّلت الثقافة الهلينية، أو أخضعت لها، وجرّدت من محتواها الرّبّاني... وانّ ما يصدق على المسيحية من حيث التحريف الذي تعرضت له خاصة في مسألة التوحيد يصدق على اليهودية. وامّا من حيث النهايات فإنّ ما انتهت إليه اليهودية من انعزال وانغلاق وعداونية وتعدّدية فأنّه بلغ من القوة حدّاً جعل أكثر القساوات والبشاعات التي تأتي من المسيحية، وحتى من الإلحاد مدينة لها، صادرة عنها، أي عن اليهودية.[١] وإذ يرى عبدالحميد التنافي بين الاسلام التوحيدي الوحدوي،

---

١ . المصدر السابق ج ١ ص ٦٩ نقلاً عن الخاطرات ص ٢١٧... يقول الدكتور «جورجي كنعان» عن تأثير اليهود على المسيحية،«وهكذا حرص اليهود على تهويد الله، ثمّ احتكروه، ووضعوا على لسانه الدعوة المشفوعة بقسمه بذاته بتمليكهم أرض كنعان، وحرصوا على تهويد المسيحية منذ بطرس تلميذ المسيح ورائد عملية ربط الانجيل بالتوراة، والمسيحية باليهودية، فكان من الطبيعي أن يتطوع المسيحيون بحسب الطلب والعصر والظروف إلى تنفيذ ما يدعي بنبؤات التوراة كونها كتابهم المقدس، وكانت الدول الغربية المتعمدة بماء المسيحية المتهودة خير معوان لهم في عملية تهويد فلسطين». جورجي كنعان ـ وثيقة الصهيونية في العهد القديم ـ دار النهار للنشر ط ٢ ـ ١٩٧٢ ص ١٥٢. يقول الدكتور عبد المنعم حفني عن تعددية اليهودية: (... غير أننا نجد أنّ الإله الواحد يعبّرون عنه في العبرية بـ «يألوهيم» وهي صيغة جمع تعني الآلهة المتعددة، كما يسقط دعواهم في التوحيد والقول بأنهم أول الموحّدين، وتحفل أسفارهم بعبارات تفيد ←

والمسيحية المغربة يقول: «الاسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان، ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة»[١].

وقد كان الجمع بين الاسلام والمسيحية بلحاظ انّها خلفية الغرب الحضاري المقدّم، هوأطروحة التغريبيين، الذين لم يجاهروا برفض الاسلام مباشرة.[٢]

ولكنَّهم يَعُون بأنّ الجمع بين الاسلام ونقيضه من نقطة اتهام الاسلام، انّما هو مقدمة لإلغاء الاسلام. التغريبيون هم السوس الذي كان ينخر في جسم الأمة ثقافياً وسلوكياً وسياسياً، ويصف السيد ذيلية هذا الصنف من الناس، وتبعيّته، وشعوره بالدونية ممّا جعله يعتقد: «بأنّ ما تعلّم من الرطانة الأعجمية هي منتهى مايمكن الوصول اليه من المدركات البشرية، ولقد شاهدت وسمعت من مثل هذه المضحكات المبكيات من عدة أشخاص من زعانف الشرقيين. وقد وقفوا على منابر الخطابة يتزلّفون إلى طالبي الرزق في بلادهم من الغربيين، فأنكروا على قومهم، ولسانهم كلّ فضيلة، وتغنّوا بجمل غربية، ورطانة أعجمية حشوها بالمدائح، التي ربّما تكون قد أوصلتهم إلى بلغةٍ من عيش عند ذلك المكتسح لبلادهم، ولسوف ينبذ من كان مثلهم مكاناً قصيّاً، فلا الأجنبي يحميه، ولا الوطن يؤيه»[٣]... إذن فالدخول في ثقافة الآخر هودخول في قيمه، ينتج قبولاً به،

أنّ اليهود مشركون ومجسمة ومشبهة..) د. عبدالمنعم حفني. الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ـ دار المسيرة ـ بيروت ط ١، ١٤٠٠ هـ. ص ٢١٤.

وعندما يحكم عبدالحميد بالمنافاة بين المسيحية والاسلام يأتي السيد جمال الدين ليؤكد أنّ سبب هذه المنافاة هو ما استحدث فيها وأضيف اليها مما هو ليس منها... هي واليهودية يقول: «وأمّا اختلاف أهل الاديان فليس هو تعاليمها ولا اثر له في كتبها وانّما صنع بعض رؤساء أولئك الاديان الذين يتّجرون بالدين ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ساء ما يفعلون.» الاعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٢١٧ نقلاً عن الخاطرات.

١ . محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٧.

٢ . راجع: الدكتور وجيه كوثراني ـ وثائق المؤتمر العربي الأول ـ الوثائق.

٣ . الأعمال الكاملة ـ ج ٢ ص ٦٩. ويقول سلامة موسى كاشفاً الجذر في التوجه نحوالغرب. «... وليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوروبية ... والحقيقة أن في العالم العربي الآن صراعاً بين المباديء الآسيوية التي ينصرها ويذود عنها رجال الدين، والمباديء الإوروبية التي يدين بها ويعمل على نشرها طبقة صغيرة عدداً ولكنها كبيرة حرمة وجاهاً باعتبار أنّ في يدها مقاليد الأحكام». إذن هم قدوصلوا... عيسى النصراوي ـ مجلة الطليعة الاسلامية ـ العدد ١١ ص ٥٠.

وسكوتاً عنه، ويلغي الشعور بالتحدّي.

ويقول «عبدالحميد» الذي أتّهم بمعاداة العلم والعلماء: «لم أخش مطلقاً في يوم من الأيام من رجل متعلّم، إنّما أتجنّب هؤلاء الحمقى، الذين يعتبرون أنفسهم علماء بعد قراءتهم بعض الكتب، وهذه الفئة من الواهين بالغرب، الذين ثقفتهم معامل أوروبا وأزياؤها ... ما أردت أن أتوقاه ليس علم أوروبا، بل الجهل به»[١]. ويركّز موقعه منهجياً بهذه الكلمة: «أنّ أقراص السلفات لا تنفع لكلّ مرض، أولكلّ بنية»[٢].

هنا يحلو لبعض الأصابع المأزومة أن تشير بالاتّهام إلى من يقفون هذا الموقف ... ماذا تريدون وثمرات العلم ملك للانسانية جمعاء، ولابدّ أن تتواصل البشرية عبر هذه الثمرات ويأخذ بعضها من بعض، وإلاّ فكيف تنهض الأمم اذا انعزلت عن بعضها البعض؟ يرد عبدالحميد: «ليس من الصواب القول بأنّي ضدّ كلّ تجديد يأتي من أوروبا، ولكن العجلة من الشّيطان، ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال، يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضّل به الله علينا، ليس الاسلام ضدّ التقدّم لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية، وأن تأتي من الداخل، وحسب الحاجة إليها، ولايمكن أن يُكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج»[٣].

وعن غفلة المتغربين عن أهداف الغربْ ووعوده المضلّلة هم يقول السيد: «يفعلون ما يأمر به الغربي... ويرجعون من عند الغرب، معلّلين أنفسهم أنّ الغربيين سيوفون لهم بوعدهم، وينالون تلك الأماني... إذ يتركونهم ـ بعد أسداء نعمة التعليم لهم ـ شعباً حرّاً مستقلاً بادارة شؤونه، مختاراً بوضع خزينته، عالماً بايراده ومصرفه، منتقياً من أبنائه حكّاماً من أنزههم نفساً، وأحسنهم سيرة وسيراً، وأصدعهم بالحقّ قولاً وفعلاً..... ها ما يتعلّق به الشرقي، وأمّا ما يفعله الغربي فهوبرنامج عمل من بلاده في محفظته ثمّ ينقله إلى ذاكرته وحافظته مسطور فيه (شعب خامل جاهل متعصّب وأرض خصبة، معادن كثيرة،

---

١. محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد. ص ٧٦.

٢. المصدر السابق ص ٧٩.

٣. المصدر السابق ص ١٤.

مشاريع كبيرة، هواء معتدل، نحن أولى بالتمتع بكلّ هذا)! وماذا يفعلون عندما يصلون»؟ يقول السيد: «إقصاء كلّ حرّ يمكنه الجهر بالمطالب، وتقريب الاسقط همة، والأبعد عن المناقشة والمطالبة، تفريق البلاد طوائف وشيعاً»[1]. كلّ ذلك بالطبع كأساس للاستبداد، والحكم الفردي والتبعية ... وكأنّه حاضر بيننا ويرى إلى مايدور حولنا. وهؤلاء التغريبيون، في النهاية، يدلفون إلى الداخل؛ ليمسكوا رويداً رويداً بالمقاليد، وتزداد قبضتهم على الفكر والسياسة والشؤون العامة مع كلّ عدوان ناجح، يشنّه الأعداء على الأمة. ومن ثمّ يُمسكون هم، ومن يتربّى على فكرهم بالأمور، يقول عبدالحميد: «كان جدّي السلطان «سليم خان» يصيح قائلاً: «إنّ أيدي الأجانب تسير متنزهة فوق كبدي، كنت أحسُّ أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب ليس فوق كبدي بل في داخله ... انّهم يشترون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضدّ بلادي».[2] ويورد أمثلة كثيرة على ذلك نكفي باثنتين منها، يقول: «علمت أنّ الصدر الأعظم السابق «السّر عسكر حسين عوني باشا» تسلّم نقوداً من الانجليز، وإبعدت «سعيد باشا» عن الصدارة العظمى وهوالمعروف بتأييده للانجليز»[3].

نحن هنا بعدد البحث عن الأفكار والأحداث التي جعلت السيد يشدّ رحاله إلى الاستانة، كما جعلت السلطان يستقبله، ويفسح‌له؛ ليقوم بنشاطه من أجل أن تأخذ الأمة أهبتها؛ لمواجهة الواقع المر. واذا كانت هذه هي الرؤى المشتركة، والخلاصات الفكرية بين الرجلين.. فكيف تبلورت الأمور أحداثاً، ووقائع على الأرض... لتشكّل بالتالي عاملاً موضوعياً جعل اللقاء، والتعاون أكثر إلحاحاً؟

٨ ـ الظروف والأوضاع العامة قبل اللقاء:

كان «عبدالحميد» يسير في اتجاه مغاير لرياح الغرب والمتغربين، ولكن الغرب استمر يعد للحروب مع الدولة، وقوي الداخل المتغربة تدفع بالدولة إلى هذه الحروب ليسفر

---

١. الأعمال الكاملة ، ج ٢ ص ٨٠.

٢. مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٧٥.

٣. المصدر السابق ص ٧٤.

ذلك عن مزيد من الاضعاف لها تمهيداً لاسقاطها... واستمرت عوامل الفساد تنخر في جسم الدولة من الداخل، وعبد الحميد ينوء تحت عبء تراث من الأخطاء والانحرافات، تراكمت حتى تجاوزت قدرته الفكرية والمادية، وحتى طموحه إلى التصحيح، يقول السيد: «ضاقت أوروبا ذرعاً بسياسة عبد الحميد وحيطته..»، ويحكي عن دفع أوروبا لليونان (التي بدأت تتحرش بالدولة العثمانية لتتدهور بالحرب)[١]. ويصف سياسة عبدالحميد فيقول: «امَّا ما رأيته من يقظة السلطان، وشدّة حذره، واعداد العدة اللازمة لابطال مكائد أوروبا، وحسن نواياه، واستعداده للنهوض بالدولة، الذي فيه نهضة المسلمين عموماً فقد دفعني إلى مدّ يدي له... عالماً علم اليقين أنَّ الممالك الاسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى إلاً بيقظة، وانتباه عمومي»[٢] ولكن السيد يدرك فيما بعد انَّ المسألة قد أصبحت فوق المستطاع فيقول: «نعم، انَّ زمن العمل قد مضى وانقضى، وكان الحزم في إخراج تلك التصورات ـ يعني التصورات التي قدّمها للسلطان ـ إلى حيز العمل، والدولة العثمانيةإبّان عزّها، واستكمال قوتها وبأسها... أما اليوم فالأمر للقوة والطاعة على الضعيف»[٣].

قال السيد هذ الكلام بعد اليأس من مشروعه في الاصلاح الاداري التوحيدي الذي قدّمه إلى السلطان.

كانت الدولة قد تفكّكت، ولم يعد هناك تواصل بين السلطان، ومؤسساته وجهاز عمله؛ ليمكن التصحيح يقول السيد: «امَّا السلطان «عبدالحميد« فكان سيئ الظنّ، لا يأمن أحداً، ويسيءالظنّ في كلّ أحد»[٤]

---

١ . الأعمال الكاملة ج٢ ص: ١٠، ١٦، ١٨، ٢٢.

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر نفسه.

٤ .المصدر نفسه.

الجذور التاريخية للأوضاع في منظور السيد:

يحاول السيد أن يلتمس أسباباً لكلّ ما حدث حتى تبلور ما سمّي «بالمسألة الشرقية»، يقول:ذاهباً في التاريخ العثماني عمقاً: «التزم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين، وكان على منصة المشيخة الاسلاميةعلماء أعلام وفقهاء أجلّاء عالمون عاملون بحقيقة الاسلام وأحكامه، فعدلوا في الرعية وأمّنوا من دخل ذمتهم، وسهّلوا لهم الصعاب، وحافظوا على جامعتهم من دين ولسان وعقيدة. فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين، وعدلهم،وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم في تلك العصور، حتى اذا انعكس الأمر وبان الجهل مصدر الضعف في الأمة الحاكمة، نهضت الأمم الاخرى للتخلّص»[١] إذن فبالعلم، وموقع العلماء، والعدل توحّدت الأمة حول بعض السلاطين، واجتذبت غيرها إلى صفّها، غير انَّ السيد عاد ليقرأ كيف برز الخصيان والغانيات من أصول أوروبية حكّاماً وحاكمات بالفعل،وأصبح الكثير من السلاطين أسرى الشهوات، ومشايخ الاسلام جاهزين لاصدار الفتوى حسب الطلب[٢]، وهنا يتلمّس السيد أسباب النكوص عن الرابطة الاسلامية، واستبدال الرابطة القومية بها[٣]

---

١ . المصدر نفسه.

٢ . عندما اندلعت حرب الشام سنة ١٨٣١ بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا والي مصر، استصدر السلطان من شيخ الاسلام فتوى تجيز له محاربة محمد علي، ولما توقّفت الحرب وأبرمت اتفاقية «كوتاهية» سنة ١٨٣٣ استصدر السلطان نفسه من شيخ الاسلام نفسه فتوى أخرى تجيز العدول عن محاربة محمد علي، الدكتور عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ١ ص (٤١١ـ٤١٢) وفي سنة١٨٧٦ صدر فتوى عن شيخ الاسلام بعزل عبد العزيز لإسرافه واقتراضه من باريس ولندن أموالاً كثيرة، وعجزه عن تصريف أمور الدولة... وعزل وعين مكانه ابن أخيه مراد الذي ثبت أنّه لم يكن أفضل من سلفه بحسب متطلبات تركيا الفتاة التي أتت به،فقرّر مدحت باشا عزله،وكان لابدّ له من غطاء دبره له شيخ الاسلام الذي أصدر فتوى باعفائه ـ أي السلطان ـ من منصبه لسبب قرره شيخ الاسلام هو(اختلال قواه العقلية) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٣ والمذكرات.

٣ . (الأعمال الكاملة ج ٢ ص ٣٦).. يقول السيد جمال الدين: «أن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها، ولوأن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين، من اي جنس كان، تبع الاوامر الالهية، وثابر على ←

وقبل هذا التقييم العام الذي قدمه السيد للحالة السائدة والتي عقدت مهمته وأفشلتها وقتلتهُ بالتالي، ماذا كان على الأرض من وقائع؟

أ ـ في الداخل ـ

تولّى السلطان عبدالحميد الثاني السلطة بعد أخيه «مراد الخامس» الذي تولّى السلطة، وعمره «ستة وثلاثون» عاماً، وكان معروفاًبصداقته لولي عهد انجلترا الذي دخل عن طريقه أحد المحافل الماسونية. ومن هنا أتت علاقته بتركيا الفتاة والعثمانيين الجدد الذين أتوا به إلى الحكم، ولكنَّهم لاحظوا عدم قدرته على مواصلة خطّهم فعزلوه بعد «ثلاثة وتسعين» يوماً، لم يره فيها أحد بسبب الجنون الذي أفتى به شيخ الاسلام، ولّوا بعده عبد الحميد الذي ما لبث أن كشف عن منهج معارض لنهجهم، فاقتحموا القصر حيث كان مراد منفياً لإخراجه وتوليته ثانية، ولم يفلحوا، فحاولوا اغتيال عبدالحميد فلم يفلحوا.

وقبل مراد كان السلطان «عبدالعزيز» الذي جاء ليتابع رحلة التغريب بعد أخيه عبدالمجيد وعندما ضعف عن المتابعة عزلوه وقتلوه[١].. وظلّ عبدالحميد في الحكم يحاول مستحيلاً يصحّح بعض الأمور، ولا يقوى على تصحيح البعض، ولا يريد تصحيح بعض آخر منها. وجسم الدولة يتساقط في الخارج والداخل، والأشلاء تتجمّع حوله لتتظافر على اسقاطه حتى أسقط بفتنةمن «تركيا الفتاة» أتت عقب فتن أخرى كثيرة ... ولقد كان ممضّاً أن يبلغ قرار العزل إلى عبدالحميد من قبل لجنة رباعية كان فيها «الأرمني» واليهودي «ايمانويل قراصو» الذي وصل عبرالماسونية وتركيا الفتاة والانجليز ثلاث

رعايتها، واخذ الدهماء بحدودها، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة، لأمنه أن يحوز سلطة في الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك أتعاباً،ولا يحتاج إلى بذل النفقات، ولا تكثير الجيوش، ولا مظاهرة الدول العظيمة، ولا مداهنة أعوان التمدن وأنصار الحرية!...» «وان ما يطرأ على بعض الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق أنّما يكون مَنْشَأهُ قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القديمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية».

١ . «إنّي مقتنع الآن بأن عمي عبدالعزيز لم يمت منتحراً بل مات مقتولاً». السلطان عبدالحميد ـ المذكرات ص٣١.

مرات إلى منصب النيابة منها مرتان كان فيها نائباً عن العاصمة، وتسبب في احتلال ايطاليا لليبيا..[1] وكأنّه دخل على عبدالحميد ليقول له: ها! قد جئنا لنثأر لتيودور هرتزل ـ وكان هرتزل قد مات ـ الذي جاء يريد قطعة من ديار الاسلام لقومه، ليجعل منها قاعدة مادية بشرية وفكرية لتكريس التجزئة، ومنع الاستقلال، والثأر لدخول التاريخ الغربي اليهودي ـ المسيحي كلّها.. فأبيت، وقلت: لا أستطيع أن أرى المبضع يقطع جسدي حيّاً، وجعلت هرتزل يصيح: لا يمكن.. طالما أنَّ عبدالحميد حيّ...[2].

ب ـ في الأطراف:

كانت تونس قد سقطت في أيدي الفرنسيين ١٨٨١ ومصر في أيدي الانجليز ١٨٨٢ بعد «خمسين سنة» على سقوط الجزائر. هذا السقوط الذي أعقبته مرحلة استراحة لحركة الاستعمار، نتيجة أوضاع داخلية، وإن لم تتعطّل خلالها عمليات الاعداد والتمهيد للمواصلة .. ومن تونس توجهت فرنسا إلى افريقيا، كما توجهت انجلترا من مصر إلى آسيا وافريقيا معاً... وكانت مصر في تلك الفترة تعني: السودان، والسودان يعني: أوغندا التي كان أسمها وقتئذ «مديرية خط الاستواء»... سقطت جميعها وامتد النفوذ إلى كينيا[3] وكانت «كريت» قد استقلّت وحدثت اضطرابات الروملي الشرقية وانفصل البلغار ... وسقط جزء من سوريا سمّوه «لبنان الصّغير» أعطوه استقلالاً ذاتياً ليمسي قاعدة تصارع اسرائيل؛ تآمراً على وحدة الأمة واستقلالها[4].

---

١ . المصدر السابق ص ٦.

٢ . المصدر نفسه.

٣ . الدكتور عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ ص ١٠٣٩.

٤ . باسم الجسر ـ ميثاق ١٩٤٣ ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧٨ ص ٤٠ يقول: «بين عامي ١٨٤٠ و١٨٦٠ لم يعرف جبل لبنان استقراراً حقيقياً. كان عملاء بريطانيا مستمرين في الحفر تحت أقدام النفوذ الفرنسي عن طريق المطالب الدرزية بينما استمرّت فرنسا في تأييد حقوق الموارنة». وفي ص ٤١ يقول: «... الى أن انفجر القتال عام ١٨٦٠ بين الدروز والموارنة الأمر الذي حمل الحكومة الفرنسية على ارسال أسطولها الحربي إلى شواطئ لبنان، وأنزال قوات على الشاطئ اللبناني مهمتها الزحف على دمشق... تدخلت بريطانيا وتألفت لجنة دولية كان من أعضائها اضافة إلى وزير الخارجية العثمانية» (قناصل بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وبروسيا مهمتها وضع نظام جديد للحكم في جبل لبنان) عرف هذا النظام بنظام ←

كل ذلك حدث بعد مجيء عبدالحميد إلى السلطة:

وكأن الأهبة للاجهاز قد اتخذت ... كانت القاعدة أوالمدخل الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بمعاهدة «سان استيفانو» ١٨٧٨ والتي كانت مقدمة لمعاهداة واتفاقات أذلت الدولة، وأسهمت في تصديعها[1]، وأعادت إلى الذاكرة معاهدة «كارلوفتز» في أواخر القرن السابع عشر.

٩ـ اللقاء:

الدعوة والسفر إلى الاستانة: هذا ما كان يقرأه السيد، ويذكره، ويراه يحدث أمامه ويتوقعه، ويرى الآستانة منطلقه ومنطلق الوقاية منه معاً. ومن هنا شدّ رحاله اليها عندما تلقّى أوّل دعوة من عبدالحميد، وسافر إلى الاستانة سنة ١٣١٠ هـ. /١٨٩٢م/[2]

١٨٦٠ الأساسي «يقضي بجعل لبنان مقاطعة (سنجق) عثمانية ذات نظام خاص لها استقلال داخلي مضمون من الدول الأوروبية تعين الحكومة العثمانية على رأسه متصرفاً مسيحياً من المناطق العثمانية بموافقة الدول الأوروبية الكبرى».

١. الدكتور عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ ج ١ ص ١١٢: «وأخذت الروسيا وحليفاتها رومانيا والصرب والجبل الأسود تنتقل من نصر إلى نصر... واقتربت القوات الروسية من مشارف استانبول في كانون الثاني ١٨٧٨، ولم تجد الدولة مناصاً من طلب الصلح، ورقعت الهزيمة في أدرنه في ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٧٨ وفرضت الروسيا عليها معاهدة جائرة في آذار ١٨٧٨ هي معاهدة سان استيفانو... وهال الدول الكبرى الأخرى انفراد الروسيا وحليفاتها باغتيال ممتلكات الدولة العثمانيه، فدعت إلى عقد مؤتمر دولي تعرض المعاهدة عليه (مؤتمر برلين برئاسة بسمارك)، وفي هذا المؤتمر انتزعت الدول الكبرى والدول البلقانية الصغيرة حقوقاً لها على حساب الدولة العثمانية».

٢. الأعمال الكاملة ـ ج ١ ص ٤٣ واسناد ومدارك حول السيد جمالالدين أسدآبادي ـ صفاتالله جمالي ـ ص ١٥٥... وكان السيد قد أرسل قبلها رسالته المعروفة إلى الميرزا الشيرازي، وقال فيها: «ومن ثمّ أقول للحجّة قول خبير بصير: إنّ الدولة العثمانيةتبجّح بنهضتك على هذا الأمر، وتساعدك عليه، لأنها تعلم أنّ مداخلة الإفرنج في الأقطار الايرانية لا أدري ما المقصود من الاستيلاء عليه، هل على الأمر في الجملة اعلاه، أم الصحيح الاستيلاء عليها يجلب الضرر بدلاً من تجلب الضرر؟ تجلب الضرر إلى بلادها لا محالة». وكان في الرسالة قد حرض المرجع الميرزا الشيرازي على النهوض ضد ناصرالدين شاه، ورئيس وزرائه علي أصغر أمين السلطان (اتابك) الذي أظهر عداءه للاسلام، وتقرب من الغرب و«البابية»، وفرط في مصالح البلاد للأجانب، وكانت قد صدرت فتوى «التنباك» المشهورة... «أسناد ومدارك درباره سيد جمالالدين أسد آبادي ـ صفات الله جمالي ـ ص ٧٠ بالفارسية».

←

... الوحدة وتعبئة طاقات الأمة في مواجهة الهجمة الشرسة كانت غايته،والاسلام رائده... وعلى هذا الأساس دعاه عبدالحميد واستقبله.

برنامج اللقاء:

في اول لقاء بينهما قال له عبدالحميد: «أنّ ملتمسي من حضرتك أن تبذل غاية الجهد حتى تستطيع بتوحيد آرائنا، ومساعدة حضرتكم أن ننشيء ونؤسس اتحاداً واتّفاقاً قوياً ثابت الأركان لا يقبل الخلل من الشعوب الاسلامية؛ حتى يمكن بفضل تلك الوحدة أن تمد شعوب الجامعة الاسلامية يد المودة والاخاء ... بعضهم إلى بعض، وتنهض بالصناعة والعلوم في ضلّ الاستقلال والاتحاد الاسلامي، ولكي يصل اليها التوفيق بعون الله تعالى لاسترجاع تلك القوة العظيمة، ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقي»[1].

كان «عبدالحميد» يريد بذلك.. يصرف النظر عن عمق إرادته ومداها المحدود بمجمل الأوضاع المحيطة به، والأرث الذي يثقل كاهله... كان يريد استكمال مسعاه الوحدوي بعدما حاول على أكثر من مستوى تهيئة أسباب الوحدة فقد كان مثلاً مشغولاً باتمام خط السكة الحديدية بين دمشق ومكة، يقول:«المهم هو اتمام خط سكة الحديد بين دمشق ومكة في أسرع وقت، ففي هذا تقوية للرابطة بين المسلمين، كما فيه أيضاً اتخاذ هذه ـ الرابطة بعد تقويتها ـ صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الانجليزية»[2].

وعن اتصالاته حيث كان يطمح بالمسلمين، يقول: «وكنت دون أن أثير شكوك الانجليز أرسل السادة الأشراف، وشيوخ الطرق الصوفية، والدراويش إلى مسلمي آسيا الوسطى. وكنت أعرض عناية خاصة لربط مسلمي آسيا معنوياً بالخلافة (مثلهم مسلمي الهند)»[3].

على أن هناك من يرى أنّ الفتوى قد صدرت بناء على رأي السيد جمالالدين ورأي البعض، أنّ هذا الرأي لا يأخذ في اعتباره موقع المرجع عامة وموقع الشيرازي خاصة.

١. الأعمال الكاملة ـ عمارة ج ١ ص ٤٥.

٢. محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٤٥.

٣. المصدر السابق ص ٦٨.

وعندما وصل السيد إلى الاستانة بادر عبدالحميد ـ اعراباً عن تقديره له وأمله به ـ إلى تعيينه في رتبة قاضي عسكر[١]، وأرسل اليه شارات الرتبة فرفضها وردّ معتذراً: (بأن رتبة العلم أعلى الرتب، وانَّه لا يريد أن يكون كالبغل المزركش) وكان ذلك[٢] كافياً ليعرف عبدالحميد انَّه امام نوع آخر من الرجال لا يريد لنفسه شيئاً، ويريد لأمّته كلّ شيء.

يؤكد ذلك ما جرى بين السيد والسلطان بخصوص «ناصرالدين شاه».

لقد استمر السيد في الاستانة في التحريض على شاه ايران. ويوماً استقبله السلطان وقال له: «إنَّ سفير العجم قصدني ثلاث مرات فحجبته في المرتين الأوليين، ثمَّ أذنت له، فطلب منّي أن أطلب منك الكفّ عن التعرّض للشاه بسوء، فأنا الآن أطلب منك الاعراض عن شاه العجم». فأجاب السيد: «قد عفوتُ عن شاه العجم.. قد عفوتُ عن شاه العجم»، فعلق السلطان: «يحقّ أن يخاف منك شاه العجم خوفاً عظيماً»[٣].

وأثناء ذلك كان السيد قد شرع في الدعوة إلى وحدة المسلمين خلف الدولة العثمانية باعتبارها أكبر دول الاسلام، والراية التي يستطيع الشرق تحتها خوض معركته الأولى، والأساس ضدّ الزحف الاستعماري الأوروبي[٤].

أسارع إلى التساؤل هنا:

ألم يكن ذلك كافياً منذ البداية ليلفت نظر الجميع من أعداءالوحدة ومن ذوي الأفق الضيّق وأهل الدنيا من حاشيةالسلطان والمنتفعين به ليفكّروا بالكيد للسيد

---

١. قاضي القضاة أورئيس القضاة وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم «قاضي عسكر». ومقره العاصمة، ويشرف على أعمال القضاة في سائر أنحاء الدولة.الدكتور عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ ج ١ ص ٤٢٣-٤٢٤.

٢. الاعمال الكاملة ج ١ ص ٤٦.

٣. المصدر السابق ج ١ ص ٤٤.

٤. المصدر السابق ج ١ ص ٤٤.

والدولةوالوحدة والسلطان معاً؟ ذلك ما سوف نراه... والمهم أنّ السيد الذي قال عنه السلطان نفسه: «أنّه عالم مشهور في قصر يلدز»[1]. كانت الوحدة همه الأول ومشروعه الأهم...

ومن هنا،وطبقاً لما لمسه لدى السلطان من رغبة في التفاهم مع ايران لمواجهة الخطرين الانجليزي والروسي، تقدّم اليه، وأعطاه الأمل في تحقيق هذا التفاهم المنشود، وأقنع السلطان بامكان توحيد الشيعة مع أهل السنّة في مواجهة قوى الكفر، وقام من ناحيته باقناع بعض الموظفين في ايران وبعض علمائها بفكرته. وصدر وعد من قنصل ايران في استانبول ببذل كل ما في وسعه لا نجاح هذه المحاولة الكبيرة[2]. وهكذا خرجت من الاستانة رسائل الأفغاني ـ تعبير المصدر ـ إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي وأشرك معه في دعوته علماء الشيعة، ومجتهديهم، وعدداً من العلماء، والساسة الايرانيين، الذين كانوا يتخذون من الأستانة منفى لهم؛ لمعارضتهم حكم الشاه ناصرالدين، ووردت اليه في الاستانة الردود المشجعة في هذا المشروع العظيم[3].

مشروع السيد:

ولكن السيد ليس مجرد محرض أومنظّر، انّه صاحب مشروع عملي، وله رؤية

---

١ . محمد حرب ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٨١.

٢ . المصدر السابق ص ٩. «حول مشروع السيد للسلطان يقول: «... أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لوبقيت ولاية ترسل اليها الولاة من الاستانة ... لجمع الأموال من غير وجهها وتوزيعها على رجال الدولة في الأستانة هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة؟ أم جعلها خديوية كما هي قبل الانجليز خاضعة للدولةومن الأجزاء المتممة للسلطنة يأتمر خديوها بأمركم... والكل رعية طائعة خاضعة؟ ... قال السلطان: لوقلنا: ان وجودها خديوية أحسن من بقائها سلطنة ثمّ ماذا؟ قلت: يا مولاي ان السلطنة العثمانية تتألّف اليوم من ثلاثين ولاية... فيبدأ بالبعيد منها والمطموح فيها، مثل طرابلس الغرب فنجعلها خديوية ويعدد السيد (بغداد والبصرة والموصل وبيروت وسورية وحلب والقدس وجزائر البحر المتوسط وكريت وأدرنة وسالونيك)، على أن يشترط لها «تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء». ويقترح الحجاز خديوية عليها (الأقوى من أشراف الهاشميين والأحسن سيرة...» الأعمال الكاملةج ٢ ص ٨٧.

٣ . الأعمال الكاملة ج ١ ص ٤٤.

استراتيجية... وقد كان ناصرالدين شاه قد لمس فيه ذلك فطلبه إلى ايران ليكون رئيساً لوزرائه أوصدراً أعظم «راجع: اسناد ومدارك... جمالي» غير أنَّ طموحات السيد كانت أكبر من قدرة الشاه على الاستيعاب، كما كانت أكبر من قدرة السلطان وطموحه... كانت تذهب عمقاً، بينما الشاه والسلطان يريدان البقاء على السطح... لعلَّ هذا التباعد بين الطموحين، طموح الثائر العالم وطموح الحاكم رهين السلطة ومؤسساتها هو الشقّ الذي دلف منه الأعداء وأهل الحسد إلى حريم العلاقة بين السيد والسلطان ليفسدوها.

لقد اتّضح هذا التباعد بين الطموحين عندما قرّر السيد أن يقدّم للسلطان مشروعاً متكاملا يمثّل حلمه الثوري الوحدوي الجهادي الجميل والممكن... لقد كان على درجة من الجرأة والوضوح جعلت السلطان يرتبك، وجعلت السلطة تغازله لتستحوذ عليه: وتمنع اقترابه من الموقع الثوري الجذري، كما كشفت انّه كان يحسّ بأنّ المحيط الداخلي حوله موبوء، وغير جدير بالثقة، ولا يريد العزة.

يقول السيد ملخّصاً الحدّ الأدنى من مشروعه بعد ما لمس استحالة تحقيق القبول بالحد الأقصى: «... فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن، وفيه وقاية مابقي من السلطنة العثمانية في غير أوروبا... فقلت للسلطان عبدالحميد: أتأذن لي في تقديم لائحة في تصوراتي لتحسين حالة المملكة والتحوط بصونها من مطامع الأعداء؟ قال:لا أريد أن تكتب شيئاً من ذلك؛ إذ لا أحبّ أن يطّلع أحد على ما يدور بيننا، بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكلّ حرية وصراحة، فأنا لك من السامعين».

أو قدّم السيد مشروعاً يقضي باعطاء الاطراف شيئاً من الخصوصية[١]، دون أن يكون ذلك على حساب المركز، مع الحدّ من هيمنة المركز على الأطراف وإلغائها بدون موجب،وبالتالي اتاحة الفرصة المتكافئة للأطراف تمكّنها من النمو وتؤهلها لدعم المركز وعدم التنافر معه، كلّ ذلك ترسيخاً للوحدة، ومنعاً لموجة التتريك القادمة على حساب

---

١. المصدر السابق ج ٢ ص ١٥-١٦.

الاسلام والمثيرة، أوالتي تمكن من اثارة العروق والأجناس...

فماذا كانت النتيجة؟

نستعيد حسرة السيد هنا:«نعم، إنّ زمن العمل قد مضى وانقضى»، و«كيف لا تذهب النفس حسرات وأكبر سلطان في المسلمين هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح وإصلاح الملك»[١].

لقد أجاب السلطان منسحباً من العام إلى الخاص، من الرابطة الاسلامية إلى عصبية السلطة والعائلة قائلاً: «ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان؟ وماذا أبقيت لتخت آل عثمان؟ يبقي جلالة مولانا السلطان وينضم إلى العرش العثماني عروش عشرة غير عرش مصر»... وعندئذ تتكامل المناطق ثروة ورقيّاً وعمراناً، « وتسرع ايران للاتحاد لصون كيانها عن مطامع الغرب الموجه نحوعموم دول الشرق... ثمّ ما أسرع الأفغان للانتظام في ذلك السلك!... ويرجع الشرق للمسلمين وما ذلك على الله بعزيز»[٢].

إن يكن لنا نقد ما على مشروع السيد فانّ ذلك لا يلغي أهمية الأسس التي أستند اليها وصوابيته في العموم... ولكن السلطان عاودته هواجسه السلطوية، ووشايات أعدائه الحميمين، أوأصدقائه اللدودين فرفض ... لم يرفض وحسب... رتّب الوشايات فوق بعضها البعض ليكتشف من خلالها خطورة السيد، ويتّخذ على ضوئها قراراً.

١٠ـ الفراق:

أولى الوشايات كانت عن تآمر جرى بين السيد و«اسماعيل كمال بك» والي طرابلس الغرب. يقول السيد ردّاً على هذه الوشاية من بعيد... وبأنفة: «يا مولاي! أعتقد انّني لا أسخّر ضميري لجدّ العرب اسماعيل بن ابراهيم الخليل «ع»... إذن فما أبعد اسماعيل بك كمال أن يسخّرني أو أسخّر له!»[٣].

---

١ . المصدر نفسه ص: ١٨-١٩.

٢ . المصدر نفسه.

٣ . المصدر نفسه.

وعندما ضاقت الاستانة، لم تعد مجالاً للعمل، لم يكن بامكان الصقر المحلّق أن يكفّ عن التحليق... انّه يريد أن يخرج من المدينة التي أصبحت قفصاً... فاستأذن في السفر إلى أمريكا بناء على دعوة من الجمعية الاسلامية في ليفربول، فرفض السلطان[١]... ووضع عليه الجواسيس الذين نقلوا له: إنّ السيد مازال يلتقي بأصدقائه ـ تلاميذ وكان من بينهم: «عباس حلمي» خديوي مصر... وتعرف اليه السيد من خلال تلاميذه: (عبدالله النديم، ومصطفى كامل،وعلي يوسف، وغيرهم).

وعندما طلب مقابلة السيد في استانبول رفض السيد ذلك إلاّ بعد الأذن من القصر، ولكن القصر لم يأذن، والتقيا صدفة في إحدى الحدائق، وعندما قابله السلطان قال له: أتريد أن تجعلها عباسية ـ ويقصد الخلافة؟ فقلت: يقول السيد: «إنّ بني العباس قد انقرضوا وبنوعليٌّ أولى؟ انّ مولانا يقصد عباس حلمي، وهل هي خاتم بيدي فأضعها في أيّ أصبع شئت؟»[٢].

وحاول السلطان ان يزوّجه ليأمن ثورته فأبى[٣]، ثمّ وردت الأنباء بمقتل «ناصرالدين شاه» على يد واحد من أصدقاء السيد في نفس المكان، الذي طرد منه بقسوة بأمر من «علي اصغر خان أتابك» وزير «ناصرالدين شاه»... كان ذلك في ذي القعدة ١٣١٣ هـ. ١٨٩٦ م. ومقتل عدد من أعوان ناصرالدين شاه ممّن دبّروا أمر طرد السيد من طهران.. وطلب «مظفرالدين شاه» خليفة ناصرالدين من عبدالحميد تسليمه السيد، ولم يكن

---

١. المصدر السابق ج ١ ص ٤٦... وعن اتهامه بالتواطؤ مع عباس حلمي خديوي مصر لنقل الخلافة اليه ـ ويبدوأن هذه المسألة كانت موضوع اقلاق لعبد الحميد استثمرها خصومه وأصدقاؤه معاً ـ يقول السيد: «وأيّ الأعمال أنكرها مولانا السلطان على انّي أقسم لك بعزة الحق أنه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديوي مصر شيء من هذا القبيل (نقل اخلافة اليه) أصلاً ... لماذا انزعج السلطان وأزعج لهذه الأكاذيب». وفي اشارةلدور الحاشية يقول: «وما وسعني لغيظ لم أكظمه من اهتمام السلطان بمثل هذا البهتان وهذه الاختلافات والأراجيف المضرة في حيثية الخلافة،وعظيم خطرها، ورفعة شأنها مع معرفتي دناءة مختلقيها ومرتكبيها، وهويدعوعليهم بشر الدعاء.

٢. الأعمال الكاملة ج ١ ص ٤٥-٤٦-٤٧ (أيضاً اسناد ومدارك ـ صفات الله جمالي ـ ص ١٧٩ وص ٢١٨).

٣. المصدر السابق.

بامكان السلطان أن يجيب إلى هذا الطلب لأنّه مدعاة للمواجهة الصعبة مع الرأي العام، فاستعاض عن ذلك بالتضييق على السيد حتى أتاه المرض... ليموت... أو أنّه مات مسموماً كما يروي الثّقات[١].

الوشايات التي صادفت في عقل السلطان وقلبه قلقاً من ثورية السيد، وصعوبة مراسه... يقول عبدالحميد في مذكراته: «وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الانجليزية كلّ من مهرّج اسمه «جمالالدين الأفغاني»، وانجليزي يدعى «بلند»، قالا فيها بأقصاء الخلافة عن الأتراك، واقترحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين... من مصر إلى الجزيرة على طريق الانجليز»[٢]. وبهذه السهولة يتحول السيد من عدو عنيد للانجليز وداعية وحدة إلى صديق ومتآمر مع الانجليز وداعية تجزئة! لابدَّ أن يكون الانسان سلطاناً مذعوراً وضائعاً ومستلباً ومحاطاً بالخونة حتى يصدق هذا الكلام... وقد كان قصر السلطان مخترقاً، فالماسونية والصهيونيةكانت قد دخلت،أو تداخلت مع الداخلين،والذين جعلوا من السلطان ماسونياً أومن الماسوني سلطاناً. أليس بامكانهم أن يصلوا إلى القصر السلطاني؟ ليردّوا على انفصال السيد عنهم، وفضحه لهم،وسعيه فيما يخالف مطامعهم... فجمال الدين كمنهج إنّما يعني لهم:الوحدة، وردّ العدوان، ومنع قيام اسرائيل... فلابدَّ من إحباط المنهج بضرب رموزه وأمنائه.

إذن فلماذا لا تكون هذه الوثيقة من وضعهم؟ لماذا لا يضعها أقرب المقرَّبين إلى السلطان، وقد فعلوا أكثر من ذلك... وهم الخونة، أو العملاء، أو الحاشية الفاسدة أجبرت عبدالعزيز سابقاً على اخراج السيد من الاستانة...

مؤشر آخر في هذا المجال:

في التاسع والعشرين من رجب عام ١٣١٦ هـ . ١٨٩٨ م... كتب «أبو الهدى

---

١ . محمد حرب عبدالحميد ـ مذكرات السلطان عبدالحميد ـ ص ٩.

٢ . المصدر السابق.

الصيادي» بعد وفاة السيد «الى السيد محمد رشيد رضا مهاجماً ترديد مجلة المنار لأفكار السيد جمال‌الدين وقال: «انّي أرى جريدتك طافحة بشقائق المتأفغن جمال الدين الملفقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها، وهومارق من الدين كما مرق السهم من الرمية»[١]. وأبوالهدى الصيادي كان شيخ الاسلام على عهد عبدالحميد خلفاً لحسن فهمي أفندي شيخ الاسلام الذي وشى بالسيد لدى السلطان عبدالعزيز.

وعن أخلاق الصّيادي انّه زار اللاذقية ونزل في بيت أحد الوجهاء، وبعد مغادرتها الأستانة ونظمه القصائد في مدح السلطان عبدالحميد وصل إلى منصبه الرفيع، وأخذ يراجعه أصحاب الحاجات، وكان من بينهم هذا الوجيه المضيف لضائقة وقع فيها وأرسل اليه بواسطة حاجبه عريضة يذكره فيها بالعهد ويطلب حاجته، فكانت النتيجة انّه في اليوم الثاني تلقّى من الأمن العام أمراً بمغادرة الأستانة والعودة إلى بلده فوراً.

توفّي السيد في الخامس من شوال عام ١٣١٤ هـ . التاسع من آذار ١٨٩٧ م... مع انعقاد المؤتمر الصهيوني الأوّل، وتكليف «هرتزل» بالاتصال بالسلطان عبدالحميد الذي مانع في الهجرة وعاند ... ولكن الهجرة اليهودية إلى فلسطين استمرّت، وانعقد أوّل مؤتمر صهيوني في فلسطين عام ١٩٠١ أي في حياته وحكمه[٢]. كانت المسألة أكبر وأبعد من العناد... وكانت تقتضي الوحدة ... والوحدة تمنع الهزيمة ... وتمنع التقسيم... والوحدة لا تعني زوال السلطة بل حكم السلطة بالشريعة... والذين أدمنوا السلطة لا تنقذهم صحوات ضمائرهم أحياناً، لأنّ المسألة هي أكثر من صحوة... انّها يقظة دائمة.

***

ملحق:

لقد بذل السيد «صدر واثقي» جهداً كبيراً في كتابه بالفارسية (سيد جمال‌الدين

---

١. الأعمال الكاملة ، ج ١ ص ٢٤.

٢. يوسف الحكيم ـ سوريةوالعهد العثماني ـ ص ٨٥، دار النهار.

حسيني ـ پايه‌گذار نهضتهای اسلامي) انتشارات پيام ـ طهران ـ ١٣٨٩ هجري وتـوفر على وثائق ومدارك متنوعة آثرت أن أفرد لبعضها هذا الملحق نظراً لأهميتها:

١ـ حول السيد في النجف في الصفحات ٢٤-٢٥-٢٨-٢٩-٣٠-٣١ يثبـت صـدر واثقي أن علاّمة النجف وأستاذها الشيخ الأنصاري قد هيأ للسيد ووالده منزلاً وتكفّـل بمصارفه، وقد غادره أبوه بعد شهرين ليقـضي هوبعـده أربـع سـنوات في الدراسـة وفي رعايةأساتذته: الأنصاري، والآخوند ملاحسين الهمداني درجزيني، وينقل عـن «مـيرزا لطف‌الله» أن الشيخ الأنصاري أقرّ بدرجته العلمية وأجازه في الفتيا... في النجف انتـشر الحديث عن علمه ونبوغه... وفي آخر سنوات دراسته في النجف، وتحـت تـأثير فهمـه وشبابه الثائر وصراحته، بدأ يحارب ـ بواسطة الأدلة القرآنية ـ بعض الأفكـار الـسلبية السائدة ممّا جعل بعض السطحيين ينهضون لمقارعته، وكان الشيخ الأنصاري يرى ذلـك ويزداد قلقاً على السيد ويطلب اليه مغادرة النجف... ويـذكر مـن زملائـه في الدراسـة السيد محمد سعيد الحبوبي الفقيه الشاعر وأستاذ الأخلاق وقائد ثورة العشرين.

٢ـــ حـول رغبـة الـسلطان عبدالحميـد في حـضور الـسيد إلى الآسـتانة جـاء في صفحة ٢٢٤: أنّه أثناء وجود السيد في لندن وبعد تعطيل نشرة (ضياءالخافقين) بضغط من الدولةالبريطانية على المطبعة ذات الحروف العربية التي كانت تطبعها في قرية قرب لندن، نقل رستم باشا سفيرالدولة العثمانية في لندن رسالة إلى السيد من عبدالحميد يدعوه فيها إلى استانبول للمشاركة في حركة الاصلاح. ثمّ أرسل عبد الحميد إلى رستم باشا يحثّـه على إقناع السيد وأنّه لا يقبل له عذراً إن لم يقنعه بالسفر. ثمّ أرسل عبدالحميد رسـالة أخرى إلى السيد مباشرة يشوّقه فيها ويرغّبه في السفر، ويظهر له الود والتكـريم فقبـل، وفي آواخر عام ١٣٠٩ أوأوائل ١٣١٠، عزم على السفر... ويميل صـدر واثقـي إلى أن رسالة عبدالحميد إلى السيد كانت بخط «أبوالهدى الصيادي».

٣ـ حول ماسونية السيد التي يصر البعض على الوقوف عندها لا كرهـاً بهـا.. وقـد يكون هذا البعض أثيراً لدى الماسونية على غير علم منه أوعلـى علـم... لأنّ المـسألة

مسألة منهج... ومن هنا لم يكن الماسونيون أغبياء ليقبلوا السيد جمال أويستاءوا من أفعال ومناهج أخرى تصبّ في طاحونتهم...

يقول صدر واثقي: أنَّ السيد دخل المحفل الماسوني ـ كما قال لمحمد باشا المخزومي: ـ لأنّ شعاراتها ـ الحرية والمساواة والأخوة جذبته ـ ودخل بدافع رغبته في القضاء على الظلم وبناء العدالة الحقيقية.

وبعد ما قبل طلب الدخول في العاشر من محرم ١٢٨٣ هـ دخل في جدل سياسي في مقر الجمعية فتصدَّى له أحدهم ليقول له: «الماسونية لا تتدخل في السياسة ويجب أن تبقى بعيداً عن كيد الحكومات واجراءاتها،يقول صدر واثقي: أنَّ السيد كشف تناقضات الماسونية حتى في شعارها (أدوات البناء والزاوية القائمة) وسمَّى المحفل (دار النسيان).

وقد أخرج من العضوية بحجة إنكار وجود الله سنة ١٨٧٩ م ـ ١٢٩٤ هـ !!

وعمَّا يتصل من قلق انكليزي رسمي من نشاط السيد بهذه المسألة يثبت «صدر واثقي» رسالة سرية بتاريخ ٣٠ آب أوغسطس ١٨٧٩ تحت رقم ٤٩٨ عن «فرانك لاسل» الممثل السياسي والقنصل العام لانكلترا في مصر إلى «الماركيز أوف سالسبوري» وزير الخارجية يصف فيها مواهب جمالالدين وقوّته وكيف أنّه يؤثر في الآخرين ويثير مشاعر الناس ضدّ أوروبا،وخاصة انكلترا،ويبشره بأنّه أخرج من المحفل الماسوني بتهمة الإلحاد.

وينقل واثقي عن مصادره نصاً ماسونياً حول العضو الذي يرتكب الخيانة ضد الجمعية ووجوب إعدامه معنوياً... ويقول: بإنَّه عندما دوهم منزل الشيخ محمد عبده استولى رجال الأمن على كتاب للسيد حول الماسونية أودعه صديقه بعد سجنه... راجع صدر واثقي ـ سيد جمالالدين حسيني ـ صفحات من ٧١ إلى ٧٦ .

الهوامش:

انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في فلسطين بعد مؤتمر «بال» بعدما أعد له ١١٨. «مناحم أوسكين» أحد أقطاب الصهيونيين الروس ... في مستعمرة (زخرون يعقوب)،

وفي حياة «هرتزل» الذي مات في ١٩٠٤/٧/١٣ وهويسعى لاقامة جامعة عبرية استطاع خلفاؤه يضعوا حجر الاساس لها سنه ١٩١٨ في قبل نهاية الحرب الأولى.

وقد قدّم عبدالحميد بعض التنازلات في مسألة الهجرة استطاع الصهاينة أن يوسعوا دائرة الاستفادة منها،ففي سنة ١٩٠٠ أصدر فرماناً عاماً حدّد إقامة الزائرين اليهود بثلاثة أشهر، فاحتجت الحكومات الأوروبية بدفع من اليهود، وبأنّها ترفض التمييز بين رعاياها (المسيحيين واليهود) في هذا الشأن... ونتيجة الضجة والضغوط استقبل السلطان «هرتزلَ» في الاستانة في شهر أيّار ١٩٠١ ثلاث مرات. (الدكتور الشناوي ـ الدولة العثمانية ج ٢ ص ٩٩١-٩٩٢ وما بعدها).

«٢١»

جمال الدين الحسيني
حياته ونضاله

سيد هادي خسروشاهي
- ايران ، قم -

جمال الدين الحسيني

حياته ونضاله

المقدمة:

حين تغفو بعض الأمم لفترة من تاريخها يعبث بمصيرها أبالسة جهنم وزبانية سقر، ولا تستفيق حتى يمنّ الله عليها برجال يعرفون الحقّ ويتبعون سواء السبيل، حاملين في أعناقهم رسالة تدعو الى الاصلاح والتوحيد للنهوض بهذه الامة من جديد، محاولين تخليصها من تسلّط العتاة وتحكّمهم، وتجبر المستكبرين واستعلائهم، معيدين لهذه الشعوب تصورها الصحيح للعقيدة عبر صراع شديد وطويل مع الفئات الباغية كي تستوي كلمة الحق وتعلو بعد أن تنهار الممالك والعروش التي قامت خلال هذه المدة من الزمن.

وكلما بعث الله مبشّراً ونذيراً قام له مناوئون، وكلّما جاء رجل صالح هبت لمحاربته زبانية من عبدة الطاغوت، حتى اذا اكتملت الصورة بدا الصراع بين الخير والشر واضحاً، مجسّداً برجل بسيط مؤمن قد هداه الله الصراط المستقيم وبين مؤسسات وأجهزة وسلطات وعروش لايهمها سوى عرض الدنيا، ولا تحسب للاخرة اي حساب.

ولقد جاء التاريخ بأمثلة كثيرة، وانبت رجالاً كثيرين، وشهد صراعات مريرة لا تنتهي بين الخير والشر، لا تنتهي لأنّ الحملةالمسعورة التي يشنّها الفجّار تبقى مستمرة

حتى بعد موت الصالحين، ويبقى همَّ المستكبرين تحطيم الصورة المثلى للقدوة الصالحة، كي لا يكون له ادنى تأثير على الاجيال التالية بعد موته، لذلك تعمد الفئة الباغية دائماً على تفتيت الأرضية الصلبة التي خلّفتها الدعوة لله، وذلك من خلال التشكيك بصاحبها من جهة، والافتراء والتزوير في أعماله وأقواله من جهة أخرى.

من هؤلاء واحد تعرّض في حياته لما تعـرّض ويتعـرض بعـد موتـه، وفي الخمـس سنوات الاخيرة من أيامنا الى حملة افتراء منظّمة، تحاول النيـل مـن تاريخـه الجهـادي وتراثه الفكري ومنهجه الاسلامي، بالاستناد الى معلومات ملفّقة ووثـائق مـزورة مـن جهة، وبالتشكيك في سلوكه السياسي وعلاقاته المتنوعة من جهة أخرى.

لقد امتدت يد الإثم مرة أخرى الى العـالم المناضـل الـسيد جمـال الـدين الحـسيني، فحاولت أن تنسب الى اسمه وأصله ومكان ولادته تشويهات ما أنزل الله بها من سلطان الى درجة اصدار كتاب عنه تحت عنوان «ايراني غامض في مصر»!!

ونحن في هذه الدراسة لايهمّنا على الاطلاق أن يكون الحسيني من مواليد ايـران أو افغانستان؛ لأنّ الحكم على الرجل يأتي مـن خـلال جهـاده الطويـل وفكـره الـسليم، ودعوته المستمرة لتحقيق وحدة المسلمين.

ولكن يهمّنا أن نعلن وبصراحة إسلامية بأنّ هذه الاقلام المحـسوبة علـى الإسـلام، والمعنة في نبش تاريخ اعلام الثورة الاسلامية ـ وخاصة جمال الدين ـ وفي كل مكـان لا تريد إلاّ ضرب الصحوة الاسلامية، قبل تبديلها بالثورة الإسلامية ولكن كيف وبـأي وسيلة؟

فالهجوم على شخصية السيد جمال الدين الحسيني وجهاده، تحـت سـتار «الدراسـة الاكاديمية»! ثم تعريب و نشر اكاذيب الكاتبتين: الاميركية ـ نيكي كدي ـ والايرانيـة ـ همان ناطق ـ لا يأتي إلاّ لأجل تشويه سمعة السيد بين الشباب الثوري المسلم، فهـم لا يبغون إلاّ أن يقولوا لشباب مصر والعراق وفلسطين ولبنان و...: بأنّ الخـط الجهـادي ـ الاستشهادي ـ الذي تسيرون عليه ضد نظام الحكم، لـيس بأصـيل، بـل أنّـه يمتـد الى جذور «ماسونية»!!

وليقولوا للمسلمين في باكستان والهند وافريقيا الشمالية: بأنّ أطروحة السيد، في الكفاح ضد المستعمر لا تمثّل طموحاتكم في تحقيق العدالة الاجتماعية.

وليقولوا للمسلمين العرب والافغان: بأنّ السيد كان شيعياً ايرانياً غامضاً! وعلى من يريد انتهاج درب جمال الدين أن يفهم أنّه يرتبط بحركة اسلامية غير سنية!

ويقولوا للايرانيين: بأنّ السيد كان افغانياً سنياً! فما بالكم بالاهتمام به وبافكاره؟... ولكن الاسئلة المتتالية، قد تبقى في ذهن الشباب، وفي كل مكان: اذا كان السيد ماسونياً فلماذا كانت تطرده الطواغيت ومن كل بلد؟ واذا كان طائفياً فكيف كان مع الشيعة في ايران والعراق، ومع السنّة في افغانستان والهند ومصر و...؟ واذا كان ايرانياً طائفياً غامضاً، فلماذا كان يفكّر في وحدة المسلمين، واذا كان أفغانياً سنياً فكيف يحرّض علماء الشيعة في ايران والعراق، للقيام بالثورة ضد الطواغيت والاستعمار؟ واذا... واذا ...

والشباب، شباب الثورة الاسلامية يجيبون على هذه الاسئلة وغيرها، بأنفسهم،رغم ما يكتبه «كتّاب السلاطين»:

فالسيد الحسيني لم يكن، لا ايرانياً ولا افغانياً ولا مصرياً ولا عراقياً ولا... ولا... بل كان عالماً مجاهداً أسد آبادياً وكابولياً و اسلامبولياً... كما جاء في تواقيعه المتعددة؛ لانّه وقف ضد الطغاة في كل مكان، وطالب باقامة الحكم الاسلامي والوحدة الاسلامية، ودعا لنصرة المسلمين في افغانستان والهند ومصر والسودان... وكان مصرياً و سودانياً أيضاً حيث واجه الاحتلال البريطاني لمصر والسودان (راجع مقالاته في العروة الوثقى) وقبل وبعد هذا كلّه فهو كان حسينياً كربلائياً، لانّه رفع راية الرفض، وهزّ علم الحرية وقد تسلّمها من جده الشهيد الامام الحسين(ع) وبذلك كان السيد الحسيني، إسلامياً يدافع عن كل العالم الاسلامي ولأجل هذا، فهو حتى في ضمائر الشباب في كل من مصر والعراق وايران وأفغانستان والهند وباكستان وتونس والمغرب... وفلسطين وفي كل خلية تنبض بالرفض لكل انواع التبعية والاستعمار.

أجل، ايها الاخوة!، سوف يبقى جمال الدين الحسيني الرمز الثائر بين الشباب، رغم الاقلام الفاسدة التي تريد اغتيال فكره وجهاده ـ بعد اغتياله جسدياً بواسطة عملاء

الطاغوت ـ لتنتزعه من قول الشباب الثائر، لأنه كان يرجو المسلمين بأن: «يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين» ولأنه كان يعلم دائماً: «فلا بد اذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم الى ما فيه سعادتهم دنياوآخرة».

..يريدون اغتياله نهائياً، لأنه قال: «خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الابطال» وهذا ما تخشاه الطواغيت! وتريد الاقلام المرتزقة نفيه على الاطلاق والى الابد!..

واذا كان السيد الحسيني قد توفّي دون تحقيق حلم الوحدة بين المسلمين، وإقامة الحكم الاسلامي في البلاد، فانّ الفكرة بقيت حية عند الضمائر الحية، وكان لها الصدى في قلوب الامة، حتى نجحت الثورة الاسلامية الكبرى في ايران، بقيادة الامام الخميني، وكانت الضربة القاضية القاسية لعروش كل الطواغيت والسلاطين وعبدتهم، من الكتّاب والوعّاظ الذين كانوا ـ ولايزالون! ـ يعيشون في عالم الاضغاث والاحلام!...

واليوم[١] وبعد مرور الذكرى المئوية لصدور جريدة «العروة الوثقى» وهي المجلة الاسلامية العالمية الاولى التي أصدرها الافغاني بالتعاون مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، وكردّ على حملات التشويه والافتراء، نعيد طباعة المجموعة الكاملة (١٨ عددا) مع نبذة صغيرة عن حياة العالم المناضل وأفكاره، وذلك كهدية للعالم الاسلامي، ودفاعاً عن الحقّ والعدل وخدمة للتاريخ.

سيد هادي خسروشاهي
رئيس مركز الثقافة الاسلامية في اوربا
روما ـ ايطاليا
محرم ١٤٠٦ هـ ـ اكتوبر ١٩٨٥م

---

١ . راجع تاريخ كتابة هذه المقالة.

حياة الافغاني ونضاله

في حياته كان مالئاً للدنيا وشاغلاً للناس، وبعد ما يقرب من قرن على وفاته لم يزل بقلقه وتوهجه مالئاً للدنيا وشاغلاً للناس. في حياته، كان صديقاً للعامة، للفقراء، وكان قريباً من الحكّام والوجهاء والقادة. وبعد قرن على وفاته، لم يزل في صفّ الناس، عامة الناس وإن اختلف حوله القوم ومن يمثّلهم.

عاش حياته القصيرة محلّقاً كنسر شرقي، يطوف بالبلاد والحواضر، وطموحه يكاد يحيط بكل البلاد والحواضر، حمل هموم الأمة وكأنّها عائلته الصغيرة، وعمل لمشروع نهضتها وصعودها في كل دقيقة من عمره، وكأن ما يعمل له كان قاب قوسين أو أدنى، ومات كأبطال الأساطير بعد أن أثقلته أحزان الإحباط والفشل والوحدة.

كان حراً شريفاً ابياً. وما يثير الحزن أنّه مات متألماً وحيداً ولم، يكن يدري أنّ مشروعه ما كان ينتهي بل كانت تلك بدايته فقط.. أو لعلّه كان يدري.

إنّ الرجل الذي يدين له كل الإسلاميين اليوم من «ارخبيل الملايو» الى «وادي الذهب» بأنّه حامل بذرة البداية وحاضنها وناثرها على كل البلاد، إنّه السيد جمال الدين الافغاني الأسد آبادي.

الصقر المحلّق

كان مولده في أسد آباد حوالي ١٨٣٨ م، وفي السنين الأولى من عمره كان يجلس في النجف للدراسة، وبعد خمس سنوات يعود الى بلدته وفي نيته الذهاب للهند لإكمال دراسة العلوم والمعارف التي لم يستطع دراستها في العراق، وقد سأله والده البقاء والاكتفاء بما تعلّم، ولكنّ طموحه العظيم كان يدفع به الى قدره: قال «إنّني كصقر محلّق، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقاً لطيرانه! وانّني اتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيّق الصغير».

كان القرن التاسع عشر قد بدأ في قطع سنوات نصفه الثاني حين بدأ جمال الدين رحلته الطويلة المرهقة، وكانت أوروبا قد سارت شوطاً هائلاً في مشروعها التصنيعي الداخلي ومشروعها الاستعماري الخارجي، لقد زحف الغرب الاستعماري على العالم فاحتلّ معظم أجزاء افريقيا والهند وشمال افريقيا الاسلامي ـ ما عدا ليبيا ـ وكان يطمح

الى أن يدمّر ما تبقى من الوطن الاسلامي بتدمير الدولة العثمانية، وبالتالي بسط هيمنته على كل العالم القديم.

وفي كلكتا حيث قضى الافغاني حوالي العام في العلم والدراسة، كان واقع الرحلة يحيط به من كل الجهات. وقد مضى من الهند الى جدة حاجاً وهو في حوالي التاسعة عشرة من عمره، ومنها الى النجف وكربلاء، ثم الى بلدته أسد آباد والى طهران ثم خراسان، ومنها قرر التوجه الى افغانستان حيث استقر في كابول، وبدأ حياته العامة هناك ـ كما يقول محمد عمارة ـ ألف أول كتبه حول تاريخ افغانستان وقد كتبه بالعربية وسماه (تتمة البيان في تاريخ الافغان).

كانت افغانستان في ذلك الوقت ميداناً للدسائس الانكليزية، حيث كان الاستعمار البريطاني يأمل السيطرة عليها باذكاء الصراع بين أمرائها وشحن أحدهما ضد الاخر، وقد دخل الافغاني الى حمى الصراع الذي كان طرفاه حينها الامير دوست محمد خان، وثيق الصلة بالاستعمار البريطاني، والامير محمد اعظم خان الذي كان معادياً للانكليز، وقد انحاز الافغاني للجانب المعادي للانكليز، وكان ذلك أول موقف سياسي له، وأول خيار واع لازمه حتى نهاية حياته.

استمرت حياة الافغاني في افغانستان حتى ١٨٦٨م، أثناءها تولى منصب الوزير الاول ـ كما يقال! ـ في حكومة الامير محمد اعظم خان، وخاض حرب ١٨٦٢ م ضد دوست محمد خان وجماعته، وقد انتقل التأييد الانكليزي بعد وفاته، الى شير علي خان الذي استطاع أخيراً ايقاع الهزيمة في معسكر محمد أعظم وكان ذلك مقدمة الشدة على الافغاني الذي عزل من كل مناصبه، وعاش محاصراً مراقباً في كابول الى أن وافقت الحكومة على طلبه بغادرة البلاد مشترطة عدم ذهابه الى ايران حتى لا يلتحق بمحمد أعظم الذي كان يعيش منفياً فيها.

ولم يكن أمامه من طريق إلاّ الهند حيث كان الانكليز يحتلّون البلاد ويحتفظون له بملف عدائه ومحاربته لنفوذهم في كابول. ورغم استقبال العلماء والوجهاء وقادة الرأي من المسلمين الهنود له، ورغبتهم في لقائه والالتفاف حوله وهو الذي سبقته أخباره إليهم، إلاّ أنّ حكومة الهند البريطانية لم تكن مطلقاً على استعداد لتحمل بقائه، وبعد أشهر فقط من وصوله الى الهند كان الانكليز يركبونه احدى سفنهم المسافرة الى مصر سراً حتى لايثار الناس.

وفي العام ١٨٦٩م وصل السيد جمال الدين الافغاني الى القاهرة، وكانت تموج يومها بالاحداث والتيارات، ما بين أوروبا الزاحفة ببريق مدنيتها وصعودها المادي والآستانة حيث الانتماء التاريخي السياسي وحلم بقاء الاسلام والمسلمين، وما بين أمة تريد حقوقها في الحرية الحقيقية العدالة وقصر الخديوي المتردد بين الخوف على السلطة وأحلام الإمبراطورية التي غذتها جغرافيا مصر ومركزها العظيم.

وفي القاهرة التفّ حوله الناس، من طلاب الأزهر الى كبار رجال الدولة والسياسة، ولكن مشروعه كان يتبلور في ذهنه والصقر المحلّق الساكن، روحه، يدفعه الى موقع آخر، كان جمال الدين الافغاني قد بدأ يدرك آفاق أزمة الامة وتخلّفها وتكالب دول الغرب عليها، ووجد أنّ الامل في الاصلاح، إن كان مايزال هناك وقت لذلك! لابد أن يبدأ من المركز من الاستانة.

وهكذا بعد أربعين يوماً فقط من الاقامة في القاهرة كان السيد جمال الدين يحمل كتبه التي رافقته الى كل محطات رحلته ويبحر الى الاستانة عاصمة الدولة العثمانية. ولم يكن السلطان عبد الحميد قد تولّى الحكم بعد.

وقد استقبلته الاستانة في البداية استقبالاً حاراً وعيّن هناك عضواً في «المجلس الاعلى للمعارف » وبدأ نشاطه الواسع، ثقافياً بشكل اساسي، وسياسياً بشكل ثانوي. وكان في محاضراته وندواته وأحاديثه يركّز على تحرير الاسلام من التواكل والفكر الاسلامي وبرهانيته. ولكن الامور لم تجر مجرى حسناً، فقد بدأ الوهج الذي أحاط به يثير الحسد والغيرة في عاصمة كانت تعيش آخر مراحلها، وقد تحولت من عاصمة للقوة والفتح الى مركز للتآمر والدسائس والاطماع من كل جهة.

وكانت محاضرته التي ألقاها في دارالفنون «مثل كلية للتكنولوجيا في وقتنا الحاضر» والتي تحدّث فيها عن «الصناعات» موضحاً أفكاره حول النهضة، كانت تلك المحاضرة بداية لعاصفة كبيرة كانت نذرها تتجمع حوله منذ زمن وقد تطورت الامور الى أن انقسمت الاستانة الى معسكرين: أحدهما مع الافغاني والثاني مع شيخ الاسلام الذي كان يمثّل السلطة الرسمية الدينية في الدولة التي تسيطر عليها المتصوفة والفكر الصوفي منذ زمن بعيد. ومع اشتداد الهجوم عليه طلب منه السلطان مغادرة الاستانة لفترة مؤقتة

ريثما يهدأ الضجيج المثار حوله، فغادرها ليصل القاهرة مرة اخرى في آذار (مارس) ١٨٧١م.

مؤازرة محمد عبده

يقول الشيخ محمد عبده صديق جمال الدين ورفيقه وتلميذه لفترة طويلة من الزمن، واصفاً مصر في تلك الفترة ووصول الافغاني اليها: «إنّ أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٧ م كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الاعلى، ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته.. ولا يرى احد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه في ادارة بلاده.. أو إرادة يتقدم بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحاً لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنّهم محكومون مصرفون فيما تكلّفهم الحكومة به وتضربه عليهم، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الأخرى، سواء اكانت اسلامية أو أوروبية، ومع كثرة من ذهب منهم الى اوروبا وتعلّم فيها، من عهد محمد علي الى ذلك التاريخ الذي ذكرناه ١٨٧٧ م لم يشعر الاهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارك التي اكتسبها، ومع أنّ اسماعيل باشا أبدع «مجلس الشورى» في مصر سنة ١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦ م و كان من حقّه أن يعلّم الاهالي أنّ لهم شأناً في مصالح بلادهم، وأنّ لهم رأياً يرجع إليه فيها، لم يحس احد منهم ولا من اعضاء المجلس أنفسهم بأنّ لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية..

.. هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يؤمر به؟ هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له، أو الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم! لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خير من ذلك؟

هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره؟ كلا فإنّه كان يجانب كل لفظ نفي عن الوطن، أو إزهاق للروح، أو تجريد من المال..

وبينما الناس على هذا، لا كاتب ينبّههم ولا خطيب يعظهم، إذ عرض أمر قلّما يلتفت اليه، وإن كان مما جرت به السنة الالهية في كل زمان.

جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ رجل غريب بصير في الدين، عارف بأحوال الأمم واسع الاطلاع، جمّ المعارف جريء القلب، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني، اشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية .. وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه

من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى احيائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخفّ حجاب الغفلة».

أخصب السنوات

في مصر أمضى جمال الدين أخصب سنوات حياته واكثرها انتاجاً وأثراً. فقد اهتم بالاسلام علماً وتراثاً، وكشف أمام من التفوا حوله واستمعوا له قيمة ان يبعث تراث الامة في عصرنا المزدهر من جديد، وقيمة أن تتمثل الامة تاريخها وتراثها لتنهض في مواجهة الاستعمار الغربي. وقد أدرك أنّ حالة الهبوط والانحطاط قد أصابت كل أدوات الحضارة بما فيها اللغة وأسلوب الخطاب. ومن حول الافغاني نشأت لغة جديدة وبلاغة جديدة، وفي فترة قصيرة أخذ أصدقاء وتلاميذ جمال الدين يصدّرون الصحف والمجالات التي أثّرت تاثيراً كبيراً في الحياة الفكرية والسياسية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد بدأ العمل باصدار صحيفة «مصر» التي ترأس تحريرها أديب اسحق ثم «التجارة» باسم اسحق وسليم النقاش معاً. و«امرأة الشرق» التي أصدرها تلميذه ابراهيم اللقاني.

وكان الافغاني يدرك أنّ حسم قضية مصر لن يكون في نهاية الأمر إلاّ باستنهاض شعب مصر، وفي كل ندواته ومحاضراته كان يوجّه حديثه مباشرة للمصريين، كل المصريين، لأن يقفوا من أجل حقوقهم ضد طبقة المترفين من الشراكسة وباقي المماليك، وأن يعوا أطماع المستعمر الاوروبي التي كان يراها تهدد كل مستقبل مصر. وبعد زمن قليل كان الافغاني يؤسس أول وأهم أحزاب مصر الحديثة: «الحزب الوطني» الذي ضم معظم وجوه الرأي والفكر وأحرار السياسة والجيش في مصر. وقد كان هذا الحزب هو الاب الشرعي لثورة عرابي عام ١٨٨١م.

ولكن قنصلي الدولتين الاستعماريتين: بريطانيا وفرنسا أدركا بعد زمن قصير أي عاصفة تلك التي تتجمع تحت عباءة السيد جمال الدين، وبدأت حملة من الدس والتحريض لدى الخديوي توفيق الذي لم يكن بحاجة الى كثير من التحريض. فالرجل ـ الافغاني ـ كان خطراً على مصالح الاستعمار الاوروبي بالدرجة نفسها التي كان يشكّل

فيها خطراً على ادوات الاستعمار، ولم تكن تجربته في افغانستان ببعيدة عن أذهـان كـل الاطراف.

وفي ليل حار من ليالي القاهرة في ٢٤ آب (اغسطس) ١٨٧٩ م اقتيد الافغاني وحيداً من أمام منزله الى مركز الشرطة، ومع أول شعاع للفجر أخذ الى قطـار الـسويس، وفي ميناء المدينة اركب أول سفينة مغادرة بر مصر. في القاهرة كان الخديوي ورجاله يغطون فعلتهم بسيل من الاتهامات والطعن في ظهر الرجل الذي كان قبلها بايام قليلة فقط نجم مصر الفكر والسياسة. كان ما حدث في ذلك الصيف القاهري الحار انقلاباً حقيقياً قامت به السفارات الاجنبية والقصر على قيادة الشعب المصري الجماهيرية لإجهاض حركتـه المتوقعة، ولكن الانقلاب لم يكن كاملاً، فبعد عامين فقط كان تلاميذ الافغاني يتـصدون لتوفيق ويضيئون تاريخ مصر الحديثة في ثورة عرابي.

وصلت سفينة الافغاني الى بومباي التي قـضى فيهـا حـوالي العـامين عـاملاً بجهـد لا يوصف من أجل توثيق علاقاته بكل القوى والفعاليات السياسية في الـبلاد، وعنـدما بدأت الحركة العرابية في مصر ضيّق عليه الانكليز الحصار خوفاً من أن تؤدي اتصالاته الى تصعيد في الحركة، وقد نقل من بومباي الى كلكتـا، وعنـدما وصـلته أخبـار فـشل العرابيين في مصر واحتلال الانكليز لأرض الكنانـة بـدأ مـشروع الافغـاني الكـبير في النضوج، والذي تمثّل فيما بعد بتشكيل اسلامي عالمي تحت اسم «العروة الـوثقى» ضـم الكثير من قادة ورجال الامة الاسلامية في العالم.

الهجرة الى باريس

اختار الافغاني في تلك الفترة باريس مركزاً لنشاطاته السياسية بسبب عوائق وقفت في وجه نشاطه السياسي في غيرها. إذ كانت مصر البلد الاسلامي الوحيد الذي يحظـى بحرية الصحافة، وتتركّز فيه النشاطات الثقافية والسياسية، فقد احتلّهـا الانكليـز إبـان الثورة العرابية العام ١٨٨٢م واعتقلوا المفكّرين والثـوار، وسـجنوا منـهم بعـضاً، ونفـوا البعض الآخر، واغلقوا الجرائد والصحف، وأوقفوا سياق الحريات العامة.

وأما الهند فقد كانت مستعمرة بريطانية منذ العام ١٨٥٧م، وغير ملائمة لأي حركـة موقظة. وفي طهران لم يستطع الشاه أن يحتمل آراء جمال الدين الثورية. وأمّـا اسـطنبول وبالرغم من وجود أصدقاء ومريدين للافغاني كانت هنالك تيارات وشخصيات عديـدة

لم تسمح له بحرية العمل. أمّا القسم الآخر فقد سقط تحت الحكم الاستبدادي، ولم يبق للافغاني خيار إلاّ أن يسافر الى اوروبا لكي يستأنف من هناك نشاطه. وكان طبيعياً أن يختار الافغاني باريس، وليس لندن حيث كان كفاحه السياسي الرئيسي موجهاً ضد الانكليز واستبدادهم وجرائمهم في البلدان الاسلامية.

وصل الافغاني الى باريس بعد عام من فشل ثورة عرابي في مصر، والتحق به تلميذه وصديقه محمد عبده، الذي كان منفياً في بيروت. وفي غرفة صغيرة على سطوح احدى عمارات شارع «مارتل» أصدر الافغاني مع صديقه عبده الأعداد الاولى من الجريدة التي تركت بصماتها على كل ذلك الجيل، والتي أخذت اسم الجمعية السرية (العروة الوثقى) التي سبق للافغاني أن أسسها واختار أعضاءها من صفوة المفكرين الملتزمين من مختلف البلدان الاسلامية ومن أصدقائه ومريديه.

وقد أخذ اسم الجمعية من الآية القرآنية الكريمة: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

ويدلّ اسم الجمعية على أهدافها الوحدوية الاسلامية، وعلى تمسّكها بالدين، ونضالها ضد الطواغيت. وكان اهتمام الجمعية موجّهاً للدفاع عن حقوق الشعوب المسلمة، وبصورة خاصة عن المصريين بعد أن احتل الانكليز بلدهم. يقول الافغاني: «إنّ الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً. إنّ مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلّها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية، ولأنّها باب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع». وحاولت الجمعية كذلك أن تتصل ببعض السياسيين الاوروبيين لحفظ حقوق المسلمين: «انّ الجمعية قد عقدت الروابط الاكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبّون العدالة العامة، ويحامون عنها من أهل أوروبا». وأمّا سرية الجمعية فقد كانت أمر فرضته عليها الظروف السياسية في الشرق حينذاك.

العروة الوثقى: فجر الصحافة الإسلامية

وحصل أن اتفق أعضاء جمعية العروة الوثقى على إصدار جريدة عربية كما تشير المقالة الافتتاحية للجريدة: و«اختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان

عندهم وهو اللسان العربي، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بثّ آرائهم وتوصيل اصواتهم الى الاقطار القاصية، تنبيهاً للغافل وتذكيراً للذاهل».

وقد كتب على غلافها: بسم الله الرحمن الرحيم. العروة الوثقى لا انفصال لها.

مدير السياسة: جمال الدين الحسيني الافغاني.

المحرر الاول: الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة الى جميع الجهات الشرقية.

من شاء أن يبعث الينا بتحارير أو رسائل في أي موضوع كان رغبة في الجريدة أو التنبيه على أمر مهم فليرسلها الى ادارة الجريدة بهذا العنوان: Martela Paris 6 Rue

مساهمات القادة السياسيين

وتشير بعد المصادر الى مساهمة سعد زغلول باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧) في العمل. كما أنّه توجد في بعض الوثائق الاخرى إشارة الى مساهمة ابراهيم المويلحي (١٨٤٦ ـ ١٩٠٦). ومن المعروف أنّ الافغاني ترك حقيبة من الوثائق والاوراق عند صديقه الحاج محمد حسن امين الضرب في احدى رحلتيه الى طهران. وقد نشرت جامعة طهران قسماً من هذه الوثائق قبل سنوات. وتوجد ما بين الوثائق مقالة بقلم الكاتب المصري ابراهيم المويلحي، حوالي العام ١٨٨٦م حيث يشير فيها المويلحي الى وصوله الى الاربعين من العمر، ويتحدث في مقاله الى خلافه مع رياض باشا الذي أجبره على ترك مصر والاقامة في أوروبا. وفي العام ١٨٨٣ م كان يعيش في ايطاليا وهناك سمع خبر قدوم الافغاني الى باريس. وكانت بينهما صداقة وطيدة في مصر. ويقول: «بعد أن سمعت أنّ الافغاني قد جاء الى باريس من الهند كتبت اليه، واتفقنا أن ننشر جريدة العروة الوثقى».

والظاهر أنّ المويلحي كغيره من أصدقاء ومريدي الافغاني كان عضواً في جمعية العروة الوثقى، ولم تكن له مساهمة مباشرة مستمرة في المجلة. ولم تكن هيئة تحرير المجلة تضم الاّ الافغاني وعبده ومترجم، كما يشير الى هذا محمد رشيد رضا في «تاريخ الاستاذ الامام» بقوله: «لم يكن محرّر سواه إلاّ من كان يترجم بعض الاخبار من الجرائد الاوروبية ويلقيها الى الشيخ ليصححها وينفخ فيها روح البشر».

توزيع الجريدة مجاناً

كانت الجريدة ترسل الى البلدان الاسلامية مجاناً، وقد كتب في الصفحة الاولى من كل عدد: «ترسل الجريدة الى جميع الجهات الشرقية مجاناً. وقد عيّنت أجرة البريد خمسة فرنكات في السنة لمن تسمح بها نفسه». وكذلك ذكر محرر الجريدة في مقالته الافتتاحية في العدد الاول: «(ان المجلة) ترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل، ليتداولها الامير والحقير، والغني والفقير، ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه إلاّ أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحلّ اقامته على النهج الذي يريده».

وكان المصدر المالي للمجلة يأتي من جمعية العروة الوثقى. وقد تساءل بعض الباحثين عن احتمال أن يكون السلطان العثماني قد أرسل مساعدات للمجلة، لأنّ المويلحي يقول في ترجمته الذاتية «وأنشأ الافغاني الجريدة في باريس، ودافع عن حقوق الدين، ودعا المسلمين للوحدة باسم امير المؤمنين(اي: الخليفة العثماني) وأبغض هذا الخديوي». والظاهر أنّه لم تكن هناك مساعدة مباشرة من الاستانة رغم أنّ السياسة الوحدوية الاسلامية للمجلة تصبّ لصالح السلطان. ومما يؤيد ذلك كثرة المشاكل المالية التي واجهت المجلة بعد ثمانية اشهر وأدّت الى توقّف نشرها.

مكانة «العروة»

صدر العدد الاول من العروة الوثقى في يوم الخميس ١٣ آذار (مارس) العام ١٨٨٤م (١٥ جمادي الاول ١٣٠١هـ) واستمرت حوالي ثمانية أشهر حتى توقّفت بعد صدور العدد الثامن عشر والأخير منها في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٨٤.

برغم أعدادها القليلة وفترة حياتها القصيرة فقد احتلّت العروة الوثقى في تاريخ الحركة والصحافة الاسلامية الحديثة مكانة مرموقة لم تصل إليها أي جريدة حتى الآن. فقد كانت الصحيفة الاسلامية الوحيدة التي حقّقت لنفسها عالمية الانتشار، إذ كانت توزع في مختلف انحاء العالم من مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وايران، والى افغانستان والهند. وبفضل انتشارها الواسع استطاعت العروة الوثقى أن تبلغ رسالتها الايقاظية الى مختلف الشعوب المسلمة في أقاصي العالم وأدانيه. وكانت في عصرها أعظم صحيفة اسلامية وعربية، وأعمق تاثيراً، حيث تجاوز مدى تأثيرها زمن نشرها القصير، بل وقرنها كلّه. ولدرجة تأثير العروة الوثقى على العقول يكفيك أن نشير الى قصة محمد

رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) منشيء مجلة «المنـار» والتحـول الـذي أحدثتـه العـروة الوثقى في نفسه بحيث غيّرت مسيرة حياته. كان محمد رشيد رضا في مطلع شبابه متزهداً متصوفاً، وفي العام ١٨٩٣ م وعمره ٢٨ سنة رأى في محفوظات والده بعض نسخ «العروة الوثقى». ويصوّر هو نفسه ذلك الانقلاب الروحي الذي اعتلج في داخله بقوله: «فكـان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتـصل بي فأحـدث في نفـسي مـن الهـزة والانفعـال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور الى طور، ومن حـال الى حـال. وكـان الأثـر الأعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية، ويليه تأثير المقالات السياسية في المـسألة المصرية». ويقول رشيد رضا: «إنّ الاسلام ليس روحانياً أخروياً فقط، بـل هـو ديـن روحاني جسماني، أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الانسان الى الـسيادة في الارض بالحق، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل».

أنشئت العروة الوثقى لهدف إيقاظ الشعوب الشرقية عموماً، والمـسلمين خـصوصاً، والدفاع عن حقوقهم، والتنبيه الى خطط المستعمرين وتـدخلاتهم في الـبلاد الاسـلامية، والدعوة الى المقاومة. وتشير المقالة الافتتاحية للعروة الى سياسة الجريدة قائلة: «ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس مـن غوائل ما هو آت.. وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المتـرفين ولبست عليهم مسالك الرشد.. وان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنّما يلـزم لـه التمسّك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم، وهي ما تمسك به أعـز دولة أوروبية وأمنعها.. وتنبّه على أنّ التكافؤ في القوى الذاتية والمكتـسبة هـو الحـافظ للعلاقات والروابط السياسية. وتتهم بدفع ما يرمي بـه الـشرقيون عمومـاً والمـسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجّهها إليهم من لا خبرة له بحـالهم، ولا وقـوف علـى حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين إنّ المسلمين لا يتقدمون الى المدينة ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الاولون... وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم، وتمكين الألفة في أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها.»

شعارات الأمة والمجلة

انطلاقاً من هذه الأهداف، تناولت الجريدة خلال أعدادها موضوعات عدة كان من أهمها:

١ ـ المقاومة ضد الاستعمار الاوروبي وخاصة البريطاني: تحكي الجريدة عن جرائم الاستعمار في الهند ومصر، وتثير المسلمين ضده وتدعوهم الى المقاومة والجهاد «إنّ السعي لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة واجب المسلمين. فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلاّ وهي داعية إليه، جاهزة بمطالبة المسلمين بالجدّ فيه، حاضرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه» (يا أيها المصريون هذه دياركم واموالكم وأعراضكم، وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم، قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً..».

والى جانب ذلك كان هناك انتقادات عديدة للسياسيين ورجال الدين المصريين، كالشيخ الميرغني الذين نادوا بوجوب طاعة الانكليز وبترك المقاومة، كما تنتقد الجريدة السياسيين العملاء وغير الوطنيين، كتوفيق باشا ونوبار باشا. ويتحدّث الافغاني عن حركة المهدي في السودان وجهاده ضد الانكليز، ويؤيد مواقف المهدي وصموده ضد الاستعمار، ويهاجم بلا تردد السياسة البريطانية والحاكم الانكليزي للسودان، «غوردون» ويدعو الدولة العثمانية لئلا تشارك بجيش مع الانكليزي ضد المهدي، ومن المعروف أنّ بريطانيا عجزت عن أن تنال من ثورة الافغاني وهجومه الرهيب على الاستعمار والمستعمرين رغم نفوذها، فلجأت الى سلاح المال والملك، وأرسلت الى الافغاني تدعوه لزيارة لندن، لتسأله رأيه في حركة المهدي، ولتحصل منه على فتوى شرعية تناهضه بها، ثم عرضت عليه عرش السودان قائلة: «إنّها تعلم مقدرته، وتقدّر رأيه حقّ قدره، ولانّها تريد أن تسلك مع الحكومات الاسلامية مسلك المودة والولاء!» وكان مما قاله له اللورد سالسبوري حسب الوقائع الرسمية: «لذلك تصورنا أن نرسلك الى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي، وتمهّد لاصلاحات بريطانيا فيه».

ورفض الافغاني أن يقع في الفخّ البريطاني، وسخر من العقلية الانكليزية قائلاً: «إنّ السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف في عرشه». ويذكر الافغاني في عدد آخر رضى السلطان العثماني عن حركة المهدي.

٢ ـ الوحدة الاسلامية: وكانت من أهم المسائل التي اهتمت بها العروة الوثقى. وقد

دعت العلماء والشعوب الى الوحدة وترك التعصبات الطائفية.

«من الواجب على العلماء بحقّ الوراثة التي شرفوا بها أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية».

«إنّ اقوى رابطة تربط بين المسلمين هي الرابطة الدينية... وما توجهت عناية الافرنج الى بثّ الأفكار السابقة (اي: الأفكار الإباحية والإلحادية) بين أرباب الديانة الإسلامية إلاّ لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوا ارباً وشعبا».

«الميل للوحدة والتطلّع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام، كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين».

ويدعو الافغاني المصريين الى الوحدة ضد عدوهم المستعمر، ويدعو العثمانيين الى مساندة مسلمي الهند. كما أنّه يدعو الايرانيين والافغانيين أن يتحدوا ضد الانكليز. إنّ الوحدة الاسلامية عند الافغاني لم تكن قضية سياسية مرحلية فحسب، بل اعتبرها جزءاً من الأصول الأساسية التي يدعو اليها الاسلام، وهي أمر ضروري سياسياً ودينياً وحضارياً: «هل آن الأوان ليصبح العالم الاسلامي من أدرنة الى بشاور دولة اسلامية متصلة الارض متحدة العقيدة يجمع أهلها القرآن؟... ألا لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله من قوله: ﴿انما المؤمنون اخوة﴾. فيقفون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب. لا التمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً. فان هذا ربما كان عسيراً، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين.. ولكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإنّ حياته وبقاءه ببقائه».

٣ ـ أسباب تخلّف المسلمين: ناقشت العروة الوثقى أسباب تخلّف المسلمين وتحدّثت عن بعضها؛ كتفرق المسلمين وتشتّت قواهم، وعقيدة بعضهم بالجبر، وجهل الحكّام، وعدم المعرفة بحقائق الاسلام، والتمسّك بالأوهام وإهمال العلم. وانتقدت نظر الشرقيين الى الغربيين: «إنّ نظر الشرقيين الى الاوروبيين بغير الحقيقة جعلهم وهماً، وهم بهذا الظنّ يستسلمون لأعدائهم كرهاً ويجارونهم في أهوائهم نفاقاً». كذلك انتقدت بعض الادباء المسلمين وشعراءهم لأنهم «يحصرون رواياتهم في حكايات مضحكة وقصص هزلية.. ورجاءنا فيهم أن يسلكوا مسالك ادباء الامم المتقدمة، وأن يأخذوا في منشآتهم

وأشعارهم طريقاً ينهضون فيه الهمم الخامدة، ويحركون القلوب الجامدة، ويحيون مكارم الشيم، ويوردون الامة مورد سابقيها من الامم».

وكما اعتقد الافغاني وأصحابه أنّ الله جعل «بقاء الأمم ونماءها في التحلّي بالفضائل وجعل هلاكها ودمارها في التخلّي عنها سنّة ثابتة، لا تختلف باختلاف الامم ولا تتبدّل بتبدّل الاجيال، والفضائل مثل: الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والعدل، والحمية على الحقّ والقيام بنصره والتعاون على حمايته..».

وتوقّفت أخيراً

ظهرت جريدة العروة الوثقى في فترة حساسة كان الاستعمار فيها في ذروة كبريائه ومدّه، ونظراً الى تأثيرها العميق الواسع على عقول المسلمين ومواقفها الاسلامية الصارمة ضد الاستعمار البريطاني فقد حاول الانكليز منذ البداية دفع هذا الخطر الكبير. وحتى قبل إصدارها بعد أن تبلورت فكرة نشر الجريدة أدرك الاستعمار عظمة الخطر. يحكي محرر العروة الوثقى: «عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه، فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية فكتبوا عنها قبل صدورها، غير متبينين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة مسيرها. فلمّا وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدّة واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثّر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية، ولجوا في إغرائها وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول الى البلاد المصرية بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا».

عقوبة شراء مجلة!

وبعد أن انتشرت الجريدة واكتشف الاستعمار مدى تأثيرها، بدأ بخلق مشاكل عدة. إلاّ أنه لم يستطع منع طبعها في باريس، وحاول أن يجد طرقاً اخرى، وذلك بتعقّب قرائها واضطهادهم، وكذلك منع دخولها البلاد. فأصدرت الحكومة الهندية البريطانية قانوناً يعاقب بموجبه من يحوز عدداً من العروة الوثقى بالحبس لمدة سنتين وبغرامة مقدارها ١٠٠ جنيه. وكذلك ألزم الانكليز مجلس الوزراء المصري باصدار قرار يمنع العروة الوثقى من دخولها في البلاد المصرية، كما أن حيازة الجريدة حسبت جريمة «وكلّ من توجد

عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من ٥ جنيهات الى ٢٥ جنيهاً». وهذه العقوبات التي فرضها الانكليز على قرّاء العروة الوثقى أوجدت خوفاً في قلوب المصريين، حيث امتنع كثير منهم من استلام أعداد الجريدة كما يشير إليه محررها «إنّنا نأسف غاية الأسف مما بلغنا من بعض المصريين من أنهم يمتنعون عن استلام ما يرسل بأسمائهم من أعداد هذه الجريدة خوفاً ورهبة، مع أنّهم أحق الناس بالإقدام على أمور عظام في هذه الاوقات. فان الآمال في خلاصهم قوية والوسائل إليه قريبة، فكيف يصل ببعضهم الخوف الى الامتناع عن استلام جريدة هم اولى بها من غيرهم، اذ أهم ما فيها الدفاع عنهم».

ونجح الانكليز في معركتهم ضد العروة الوثقى، وبعد أن منعت من الدخول الى الهند ومصر، لم تستطع الجريدة أن تصل الى قرائها المشتاقين وتبليغ رسالتها، وفرضت هذه الظروف عليها التوقف. فتوقّفت نهائياً بعد صدور العدد الثامن عشر في ١٦/١٠/١٨٨٤م ٢٦ ذي الحجة ١٣٠١ هـ.

ولكن المناضلين الافغاني وعبده قالا: «لا يعجزنا بثّ افكارنا في البلاد الشرقية، سواء كان بهذه الجريدة أو بأية وسيلة اخرى إذا دعا الحال، فإنّ أنصار الحق كثيرون».

يقول الأديب والعالم اللبناني الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ ـ ١٩٠٩) عن تأثير العروة الوثقي: «إنّه ما كان أحد ليشك في أنّ جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان..» وكان الزعيم العراقي سليمان الكيلاني يقول كلّما شاهد عدداً من أعدادها: «يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل ان يجيء العدد الذي بعد هذا!».

أفكار الافغاني تعم الامة

في ١٨٨٦ غادر جمال الدين باريس الى ايران، ومنها الى روسيا، ثم ايران، ثم لندن لحوالي العام.

وفي سنة ١٣٦٠ هـ /١٨٩٢م عاد ثانية الى اسطنبول، فوجد حظوة كبرى لدى السلطان عبدالحميد الذي كان قد تولّى الحكم في سنة ١٨٧٦ م، وكان قلقاً مهموماً وهو يدرك خطر أوروبا على السلطنة التي صمدت وحمت حدود الوطن لاكثر من ثلاثة قرون، وقد جاء الزمن الذي طغت فيه سلبيات تكوينها على ايجابياته فيما أوروبا في أوج قوتها وصعودها وأنظارها تكاد تلتهم الدولة العثمانية بما فيها. كان عبدالحميد

يدرك أنّ إنقاذه وانقاذ البلاد لن يأتي الاّ إذا استطاع أن يعيد توحيد الأمة والبلاد حوله، توحيداً حقيقياً نهضوياً اكثر منه توحيداً سياسياً. وكان عبدالحميد يعرف تاريخ الافغاني ونضالاته واتصالاته الوثيقة بكل أجزاء الوطن الاسلامي، من أقصى الشرق الى أقصى الغرب، وهكذا بدأت العلاقة القصيرة المضطربة بينهما.

الافغاني من جهته كان مناضلاً واقعياً يدرك ما في الدولة العثمانية من سلبيات وعوامل تدهور، وكان يعرف أثر الإرث التاريخي لالتفاف الأمة حول سلطانها، وحتى قبل أن تبدأ علاقته المباشرة بعبد الحميد، كان واضحاً في «العروة الوثقى» وهو يبدي تأييده للسلطان، ويدعو للالتفاف حوله في الوقت الذي كان يوجّه فيه الانتقاد لسلبيات الحكم وانحرافاته.

بمواجهة حاشية السلطان

وفي الاستانة بعد قليل من وصوله بدأت الأمور تتكشف أمامه، كان عبدالله النديم الصحفي والأديب والثائر المصري قد سبقه منفياً من مصر الى الاستانة، وكان واحداً من تلاميذه في القاهرة، أوضح له من البداية أنّ الامور لن تكون بالسهولة التي يتصورها، وأنّ حاشية السلطان لا تحمل من الاخلاص لا اسماً ولا جوهراً، وأنّ مشاريعه لإعادة تشكيل النظام السياسي للدولة، آراءه في عقلنة الفكر، وطموحه حول توحيد الامة، لن تجد أذناً صاغية، وإن وجدت فلن تجد إرادة فاعلة.

كان عبد الحميد «طيب القلب كثير الأخطاء» وكان يحمل على ظهره كل الخوف وسلبيات تراث التآمر في عاصمة دولته، في الوقت الذي كان فيه مؤمناً واعياً للأخطار التي تهدد الدولة. كان يستمع لجمال الدين من جانب، ومن الجانب الآخر يجد العشرات من الداسين عليه وعلى رأسهم أبو الهدى الصيادي الشيخ الصوفي السياسي، الذي كان شيخ طريقة وقريباً من السلطان، ومن اكبر أقطاب التآمر في عاصمة الدولة العثمانية.

وشيئاً فشيئاً ورغم الجهد الهائل الذي بذله الافغاني في الاستانة، وعبر اتصالاته في الهند وايران ومصر لتوحيد بلاد المسلمين، إلاّ أن آماله في إنجاز شيء حقيقي بدأت في التلاشي، لم يكن حماسه ولا ايمانه ولا طاقته هي التي نفدت، ولكن تهاوي المرحلة كان اكبر من عزمه وايمانه.

وفي العام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧ م مات الافغاني عن ٥٩ عاماً بعد أن كان النسر المحلّق داخله قد ذوى منهكاً تعباً. وقد أثير الكثير من الجدل حول وفاته، وقال البعض: إنّه مات مسموماً، ولكن ذلك لم يعد ذا أهمية كبيرة الآن، فكيفية موته كانت مسألة صغيرة.. صغيرة أمام قانون موته الذي أوضح الى أي درجة، والى أي حدّ كان من الصعب ان يوقف الانهيار.

تراثه الفكري

لم يترك الافغاني الكثير من التراث المكتوب، وتكاد مصادره المعروفة اليوم تقتصر على كتابه الاول: «تتمة البيان في تاريخ الافغان» وكتابه الثاني: «الردّ على الدهرين» مذكراته التي أملاها على تلميذه محمد المخزومي والتي طبعت بعنوان «تأملات الافغاني» ثم مقالاته في العروة الوثقى. ولكن ما سجّله الآخرون ممن كانوا قريبين منه كان كافياً لنتعرف على طبيعة تفكيره، وكان من أهم هؤلاء ما كتبه رشيد رضا مؤرخاً لمحمد عبده وناقلاً عنه معرفته للافغاني في كتابه «تاريخ الاستاذ الامام» ولكن الدراسات والابحاث حول الافغاني لم تتوقف حتى يومنا هذا، وتكاد لا توجد وثيقة حول حياته باقية ولم يتم كشفها.

وفي «الردّ على الدهريين» صوب الافغاني نقداً قاسياً ضد أتباع الفلسفة الطبيعية الانتقائية التي أخذ بها احمد خان في الهند، وكان قد التقاه فيها سنة ١٨٨٩، ولكن انتقاده كان أوسع من احمد خان، فقد هاجم ايضاً ديمقريطس وداروين، وأنكر عليهم إنكارهم لوجود الله تصريحاً أو تلميحاً.

وقد عمد الى التدليل على الدور العظيم الذي لعبه الدين في المدنية والرقي الانساني. وقال الافغاني: «إنّ الدين علّم الانسان وأعطاه طبيعته الروحية التي جعلته أشرف المخلوقات، مما أوصله الى الترفع عن الانقياد لميوله البهيمية، والى العيش بسلام مع أقرانه». وقال: إنّ الامة الإسلامية قامت أصلاً على أسس دينية وخلقية راسخة «إلا أنّ قيام الدهرية (الفلسفة الطبيعية) في مصر وبلاد الفرس في القرن العاشر تحت ستار الاسماعيلية لم تلبث أن قوّضت أسس العقيدة، وزرعت بذور الشك في نفوس المسلمين. وأكد على «أنّ فقدان الشكيمة الخلقية لدى المسلمين كان أهم الأسباب وراء الضعف

الذي دبّ في نفوسهم، فاستطاعت جماعة من قـزم الافـرنج أن تكتـسح بلادهـم، وأن يقيموا فيها.»

وقد وجّه الافغاني كذلك مآخذ حاسمة الى اتجاهات الفلـسفة الاوروبيـة في عـصره، ابتداء من العدمية الى الاجتماعية والاشتراكية. وقال: إنّ هؤلاء «بحجة مساعدة الفقراء والضعفاء أرادوا إلغاء الامتيازات الانسانية كافة، وإباحة كل الممتلكات».

حوار مع المستشرقين

وفي الردّ على المستشرق الفرنسي آرنست رينان عالج الافغاني النقطتين الرئيسيتين في محاضرة رينان العنصرية:

الاولى: أنّ الديانة الاسلامية كانت ـ بما لها من نشأة خاصة ـ تناهض العلم.

والثانية: أنّ العرب امة غير صالحة بطبيعتها لعلوم ماوراء الطبيعة، ولا للفلسفة.

قال الافغاني في مقالته التي نشرتها صـحيفة «ديبـا» الفرنـسية في ١٩ ايـار (مـايو) سنة١٨٨٣ م : «فأما عن النقطة الأولى فإنّ المرء ليتساءل بعد أن يقـرأ المحاضـرة عـن آخرها، أصدر هذا الشر عن الديانة الاسـلامية نفـسها، أم كـان منـشؤه الـصورة الـتي انتشرت بها الديانة الاسلامية في العالم، أم أنّ اخلاق الشعوب الـتي اعتنقـت الاسـلام، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعا مصدر ذلك؟ لا ريب أنّ قصر الوقـت المخـصص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة.. فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجّلون لم يلقوا أسلحتهم بعد، كما أعلم، وهم عاكفون على محاربة ما يسمّونه بالتدليس والـضلال (يعني العلم والفلسفة).

وقال عن النقطة الثانية: «صحيح أنّ العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخـذوا عن الفرس ما اشتهروا به، بيد أنّ هذه العلوم التي اخذوها بحقّ الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها،ووضحوها ونسقوها تنسيقاً منطقياً، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدلّ على سلامة الذوق، وتنطوي على التثبيت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والانكليز والالمان لا يبعدون عن رومه وبيزنطة بعد العرب عنها، وكان من السهل عليهم أن يـستغلوا كنـوز علوم تلك المدينتين ولكنّهم لم يفعلوا، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربيـة على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب. فأحسن الأوروبيـون إذ ذاك

استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية، ولم يكونوا يفكّرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم».

الصراع بين الشرق والغرب

وفي حياة الافغاني تصاعدت الأطماع الاستعمارية الاوروبية في الشرق الاسلامي، حيث: أطلق على الدولة العثمانية لقب «الرجل المريض» وأصبح مصطلح «المسألة الشرقية» اشارة الى التداول الدائر في العواصم الاستعمارية حول خططها واتفاقاتها ومشاريعها للهيمنة على المنطقة. ولكن الافغاني كان يفهم المسألة الشرقية فهماً آخر، كتب يقول: «مختصر المسألة الشرقية،هي العراك بين الغربي والشرقي، وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين..

إنّ فتح القسطنطينية، تلك العاصمة العصماء، من قبل السلطان محمد الفاتح هي التي ولدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها، لمناصبة الدولة العثمانية، وتعمل على إذلالها وضعضعتها، وإخراجها من فتوحاتها الاوروبية بكل وسيلة، وفي كل سانحة وفرصة.

والاكثر في الحروب والتغلّب، والانتصار فيهما، انّما يكون بالقوة والعلم، ولو أنّ الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست، أو من يوم ما استقلّت به سنة ٦٩٩، وراقبت حركات العالم الغربي، وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية والحضارة، وقرنت الى فتوحاتها المادية، القوة العلمية، على نحو ما فعلت اليابان أقلّه، لما كان ثمة مسألة شرقية، أو لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلاً، وهو تحكّم الجهل بالعلم، أو حكومات جهل تحكم حكومات علم، ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع العلم».

الاسلام والاستعمار

وقال: «التزم الاتراك، والسلاطين العظام منهم جانب الدين، وكان على منصة المشيخة الاسلامية علماء أعلام، وفقهاء، وأجلاّء عاملون بحقيقة الاسلام وأحكامه، فعدلوا في الرعية، وأمّنوا من دخل في ذمتهم، وسهّلوا لهم الصعاب، وحافظوا على جامعتهم من دين ولسان وعادة، فرضخ المستعمرون (بالفتح) من الطوائف

النصرانية لقوة العثمانيين وعدلهم وعلمهم بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الأعصر.

فظلّ النصارى في طاعة العثمانيين، وظلّوا في كل المعاني دعية لهم مادامت تلك المؤهّلات والصفات في الفريقين: القوة والعلم في الحاكم، والضعف والجهل في المحكوم. حتى اذا انعكس الامر وبان الجهل مصدر الضعف في الامة الحاكمة، وظهر العلم مصدر القوة في الامم المحكومة، نهضت للتخلّص من ربقة الاستعباد لمن دونهم في العلم، واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها. وقد سهل عليهم كل صعب في هذا السبيل، إقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى، من دين ولسان وتاريخ، تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة اكبر نقمة، ولا مناص لها من تحمّل أعباء ذلك، وهي سنّة الوجود».

وكان جمال الدين كثير الاهتمام بالتدهور والضعف العام الذي أصاب الدولة العثمانية وبلاد المسلمين، وقد اشار الى سببين رئيسين أديا الى ذلك الضعف: أولهما: «لو أنّ الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعمت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم، بأنّ يتخذ اللسان العربي وهو لسان الدين، لساناً رسمياً، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الاتراك، لكانت في أمنع قوة وآمن حصن من الانتقاص والخروج عن سلطانهم، ولكنّها فعلت العكس، إذ فكّرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأي، لأنّ تدين الاتراك بالدين الإسلامي، على جهل باللسان العربي، جعل لهم في القلوب منزلة.. فما قولك لو تعرّبت .. وزالت دواعي النفور والانقسام (بالتركي والعربي)..

الحريات والشورى

على أنّ دفاعه عن الحريات والشورى ومشاركة جماهير الناس في الحكم وادارة البلاد، كانت السمة التي طغت على كل أفكار ودعوة الافغاني في كل البلاد التي طافها أو اقام بها. يروي الافغاني في خاطراته حواراً دار بينه وبين خديوي مصر، إذ قال الخديوي: «إنّني أحب كل خير للمصريين، ويسرّني أنّ أرى بلادي وأبناءها في اعلى درجات الرقي والفلاح، ولكن اكثر الشعب خامل جاهل.. إنّ دروسكم واقوالكم المهيجة ستؤدي بالشعب والبلاد في تهلكة».

فردّ الافغاني بأدب: «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن اقول بحرية واخلاص: إنّ الشعب المصري كسائر شعوب العالم لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده.

ولكن هذا لايمنع من وجود العالم والعاقل أيضاً، فبالمنظار الذي تنظرون به الى الشعب المصري.. ينظر به لسموكم! .. واذا قبلتم نصحي وأسرعتم لاشراك الامة في حكم البلاد فتأمرون بأجراء انتخاب نواب عن الامة تسنّ القوانين.. فإنّ ذلك أثبت لعرشكم، وأدوم لسلطانكم».

وقد سأله شاه ايران غاضباً: «أيصحّ أن اكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس كأحد افراد الفلاحين؟».

فردّ الافغاني: «اعلم يا حضرة الشاه أنّ تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأثبت مما هي الآن. لاشك يا عظمة الشاه إنّك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية».

وفي كل لقاءاته بالسلطان عبدالحميد، كان جمال الدين يحثّه على فتح الأبواب من حوله، وتوثيق علاقته المباشرة بالناس، ويوضح له الصلة الوثيقة بين الشورى والقرآن، وحكمة تنظيم امورالبلاد على اساس دستوري ثابت.

«لاريب لو تيسّر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً. وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل همام، مثل الفاتح أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم، غير عسير..»

وشرح السبب الثاني الذي كان يراه لايقلّ في تأثيره عن الأول بأن جعلت القسطنطينية عاصمة للدولة، وهي أرض فتحت حديثاً وليست في مركز الدولة و«لأنّ المستعمرة مهما عظم موقعها وطاب هواؤها، لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة للملك، لأسباب أهمها: أنّ المستعمرة كالثوب العارية، قابل للاسترداد، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاؤها إلاّ من ضعف السلطان في عواصمها، ومنها، بعد المستعمرة، على الغالب عن مجموع القوة واحاطتها بأعداء الملك وأعوانه..».

الرؤية السياسية

ومع ادراكه لفوات الآوان في إصلاح ما سبق من أخطاء، إلاّ أنّه كان يملك رؤية لتغيير واقع الحال، وكانت رؤيته تعتمد على فهمه التاريخي الواقعي والاجتماعي لبلاد المسلمين، وقد ذكر في تأملاته التي أملاها على المخزومي أنّه اقترح على السلطان

عبدالحميد مباشرة، أن يعيد التشكيل الاداري للدولة العثمانية من ولايات الى خديويات، بحيث يصبح العراق وشمال الشام خديوية، والمثلث الذي يضم دمشق وبيروت حتى القدس خديوية، والحجاز خديوية أخرى.. الخ. بحيث تتمتع هذه المناطق بما يشبه الادارة الذاتية كما كانت الامور في مصر قبل الاحتلال البريطاني. وكان الافغاني يرى أنّ هذا الوضع سينعش الأوضاع في أجزاء الدولة ويجعلها اكثر قدرةعلى التحرك و النهوض، وأنّ ذلك في النهاية قد يدفع بايران وافغانستان الى اللحاق بالاتحادية الاسلامية الناهضة.

ولكن عبدالحميد ـ كما يذكر الافغاني ـ رفض الفكرة، وأبدى عدم قناعته بها.

لايمكننا ـ على الاطلاق ـ أن نقول: إنّ الافغاني عاش حياة، وترك رؤية، صائبتين بلا أخطاء، فقد كان مثله مثل كل عظام التاريخ، اخذ قيمته من أنّ عموم مسيرته ورؤيته كانت صحيحة الى حدّ كبير، وأنّه حاول حتى الرمق الأخير أن يحقّق ما آمن به.

لقد فهم الافغاني جوهر الغرب الاستعماري فقاتل ضده بصلابة، في الهند ومصر واسطنبول وايران، ومع الحركة المهدية في السودان وأدرك أهمية وحدة الامةمن جديد، فحمل راية الوحدة في كل قطر حلّ به وأمام كل حاكم التقاه.

وأدرك سرّ التخلّف والتهاوي في العالم الاسلامي، ولذا فقد كان نقدياً متقدماً وحضارياً مبدعاً. كان بلا شك مدافعاً صلباً عن الحرية، وعن دور الشعوب في إدارة شؤونها.

أستاذ الروّاد

ويستطيع الباحث اليوم أن ينظر الى القرن الاخير من تاريخ امتنا فيجد أنّ جيلاً باكمله من روّاد النهضة الاسلامية الحديثة من محمد عبده الى عبدالعزيز جاويش وعبدالله النديم ومصطفى كامل كانوا جميعاً من تلاميذه، وأنّ الثورة العرابية في مصر وثورة الدستور في ايران كانت أثراً من آثاره، بل أننا نستطيع القول إنّ النهضة الاسلامية المعاصرة، من ايران الى افغانستان الى مصر، تنتمي جميعها الى الافغاني انتماء شرعياً.

وفي أوراقه التي وجدت بعد وفاته بسنين عديدة، كشفت بعض القصائد الشعرية التي كتبها جمال الدين ولم يهتم بنشرها في حياته، وإحداها يقول:

«طغاة ايران يحرقون

مني والجسد والروح
سأحزم أمتعتي وأرحل
صوب أرض تركيا
ارحل مرهقاً وحزيناً وشقياً،
طالباً العدل
في محكمة السلطان
فان لم يخفف السلطان
عن قلبي المثقل
فسوف أرحل
طالباً العدل
في محكمة الله»

وقد مات السيد جمال الدين وحيداً في اسطنبول مع نهاية القرن التاسع عشر، تعيساً بائساً وكأنه ينظر الى النهاية الآتية. كانت صرخاته اكبر من أن يستجيب لها عصره ومعاصروه.. فذهب، وبعده بسنوات قليلة كانت الدولة العثمانية كلّها تنهار وتذهب، وتنتهي بنهايتها مرحلة تاريخية بأكملها، وليحتدم الصراع داخل الامة بين عشرات المتناقضات وهي تتجهز للمرحلة المقبلة.

الافتراء لتحقيق الاحتواء

هكذا كان السيد الافغاني: رجل الثورة الاسلامية، في كل مكان يزرعها، وفي كل قلب، له من كل حادثة عبرة، ومن كل وقت منطلق، وفي كل ساحة صراع مرير ضد عتاة الارض وطواغيت البشر، وكل من تجلّى فيهم الكبر والاعتداء.

لقد ركز السيد الشهيد على محور المشكلة التي كانت الأمة تعانيها وتئنّ من آثارها، وما كان هذا المحور إلاّ تشكيلاً من عنصرين، وربما كان أحدهما عاملاً في خلق الآخر:

هذا العنصران هما: التحريف في التصور، والميوعة في الاحساس. وفي هاتين النقطتين كمن سرّ الداء العضال لهذه الأمة مما أورثها ضعفاً هائلاً في الثقة بالنفس، وتمييعاً فظيعاً في المواقف، وهزيمة نفسية أمام الغزو المادي.

ومن هنا انطلق رحمه الله ليعيد للأمة تصورها الصحيح عن العقيدة، وعن تلاحم العقيدة مع العمل، ويحرك فيها الإحساس الثوري المتفاعل مع العقيدة والمنطلق على أساسها.

وتكفي نظرة سريعة على أقواله وأفعاله وكتاباته وخططه لنحكم بالتالي على الرجل بأنّه كان مسخّراً حياته للقضاء على محور الداء في هذه الامة، واقفاً نفسه لتطويق آثار الداء، عاملاً على التوعية المطلوبة بهذه الآثار.

وفي هذا السبيل نسي السيد كل انتساب قومي أو عرقي أو نسبي أو ارضي ليحقّق امتداده العالمي، وثار على التقاليد البالية التي منعت رجل العلم الديني من الخوض في غمار السياسة لينغمس كلياً في عالمها باعتبارها احد الميادين الرئيسية التي يجب أن يجاهد فيها العلماء.

وراح يعلنها بالتالي دعوة كريمة، وصرخة مدوية تدعو الى الاصلاح والوحدة، وهما مفهومان يتلاحمان في شخصيته وسيرته ودعوته العالمية..

فاذا انضم لكل هذا الوعي الاخلاص، فإنّ من الطبيعي أن يتبعه التفاني والتضحية ونسيان الراحة، وكل ما يمت اليها، وحينئذ يأتي النصر الالهي المؤزّر لعباده الصالحين.

وهكذا كان الامر، وسرت النيران لتعصف بالعروش في ايران وتركيا ومصر، وهكذا تساقطت العروش الكرتونية التي حملت في أمخاخها العمالة والاستكبار، ومشت دعوة جمال الدين في الافئدة الحرة لتصوغ مصلحين من أمثال محمد عبده، هذا الرجل العظيم الذي خلّد أستاذه في كتاباته وأعماله معاً.

ومضى الزعيم المسلم الى ربه بعد أن غرس الروح الثورية في مجمل الحياة الاسلامية لتفرع بعد ذلك بما يحقّق أهدافه السامية.

لقد ظنّ الاستعمار أنّه مات وماتت معه أفكاره، وربما ظنّ أنّه يستطيع أن يسخّر شخصيته لتغطية بعض عملياته هو، وراح يزرع عملاءه هنا وهناك آمناً. إلاّ أنّه فوجئ بعد مدة بالعملاق الاسلامي يتحرك فيهز الارض تحت أقدام العملاء، بل وينطلق من أرض كان يعتبرها جزيرة الأمان، من ايران الثورة، فاذا باكبر قلعة استعمارية تهتز،

وأعتى متكبّر يسقط بكل حقارة في قمامة التاريخ.

وقد لاحظ أنّ هذه الثورة المباركة تحمل ملامح واضحة تتشابه مع ملامح شخصية الافغاني، ولكن بشكل أروع وأجلى وأبعد تاثيراً.

إنّها ثورة دينية يقودها رجل العلم الديني، وتشعلها الجماهير المسلمة معلنة لزوم عودة التصور الصحيح الى العالم الاسلامي كله، وضرورة بعث الحماس الاسلامي في كل قطاعاته، وذلك لاستعادة الامجاد الاسلامية الكبرى.

وتستجيب الجماهير الاسلامية في كل مكان لهذه الانطلاقة وتتفاعل معها، مما أفقده رشده وصوابه.

إلاّ أنّه بعد أن استعاد صوابه راح يخطّط لضرب الثورة في الصميم، ومذ فشلت مخططاته لضرب الثورة راح يضرب تأثيرها، ويحاول الفصل بينها وبين جماهيرها بشتى الاساليب التشويهية.

وكان ضرب الافغاني الثائر جزءاً من الخطّة لتحقيق الأهداف الاستعمارية، وذلك على يد العملاء الصليبيين والرجعيين والمغفلين المتعصبين.

وعدنا نسمع عن الرجل كل التهم تكال كيلاً حتى ولو كانت في إطار ما يسمى بالتحقيقات العلمية الموضوعية، فإذا بالافغاني البطل المتفاني يتحول الى بابي، رافضي، بهائي، ماسوني، رجعي، قومي، مهادن للعملاء، يحبّ الشهرة، والمغامرة. بل راحت تتهم الشيخ محمد عبده بأنّه كان يعلم الكثير عن أستاذه إلاّ أنّه أخفاه تقية!!

وهكذا نسيت كل مواقفه الرائعة في إيقاظ الشعوب والامة الاسلامية، وأعرض هؤلاء عن الشهادات والأوسمة الحقيقية التي حملتها هذه الشخصية الرائعة، وعن الآثار العلمية والسياسية والحماسية التي تركها نوراً يضيء الدرب للاجيال، وعن الزهد الذي طبع مجمل حياته.

كل هذه الحقائق التي لاريب فيها نسيت في سبيل تحقيق تلك المآرب الرخيصة.

قصة الحملة المسعورة

أما كيف بدأت الحملة الاعلامية لتشويه صورة الافغاني، وكيف جرى الإعداد لها،

فهو ما كشفته مصادرنا من خلال وثيقة مدونة، نورد ملخصاً منها كما جاءت في مجلة «الشهيد» الاسلامية مع بعض التصرف:

إنّه قرار المخابرات الاميركية.. الذي تنفذه الانظمة الرجعية بأموال شعوبهم المنهوبة التي يشترون بها الصحفيين المزورين. والهدف (إسقاط شخصية السيد المجاهد جمال الدين الحسيني)، المعروف بالافغاني.. وبالتالي إسقاط اعتبار الحركة الاسلامية المتصاعدة الذي يعتبر السيد المجاهد أحد رموزها وملهميها..

ورغم اعتقادنا أنّ السيد المجاهد في قلوب الناس بجهاده وتاريخه الرائع.. إلاّ انّنا نخوض في بعض تفاصيل هذه الحملة لكي تنكشف لنا وبصورة أوضح حقيقة دور الانظمة الرجعية التي لا تقل بشاعة عن جرائمهم الأخرى، ضد شعوبهم المظلومة.

بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران، وتنامي الوعي الاسلامي، واتساع الصحوة الاسلامية في العالم، أخذت أقلام خبيثة ورخيصة، تصب كل جهودها في إطار كيل التهم والافتراءات على ماضي الشخصية الاسلامية الفذّة، الشهيد السيد جمال الدين الافغاني.

وطبعا تأتي هذه الاتهامات على صفحات مجلة أو كتاب يسبّح بحمد طاغوت أو دكتاتور ملحد!..

فمجلتي (التضامن) و(المجلة) الناطقتان العربية، تتوليان هذه الحملة المزجاة ضد شخصية المفكر الاسلامي الشهيد جمال الدين الحسيني، فقد فوضت أقلام عملاء الملوك والسلاطين كي يبت في سيرة السيد الحسيني..

وكاتب البحث أو المجلة كان اكثر خبثاً في اختيار عنوان البحث.. اذ ابتدأ في عنونة البحث بعبارة «ايراني غامض في مصر» أو «المجلة تفتتح ملف الافغاني» وهذه العبارة يشيع استخدامها في أزقة المحاكم وعلى الملفات القضائية، فهو يحاول أن ينتقل بالقارئ المسلم عموماً الى صلب بحثه، ولكنّه يريد أن يوقفه على باب البحث المكتوب فوقها «المجلة تفتتح ملف الافغاني» و«ايراني غامض» ليشعره لا أقلّ أنه مدعو للدخول الى قاعة محكمة رجل غامض! والمهم فيها هو سيرة وأفكار السيد جمال الدين الحسيني..

إذن فالباحث منذ البداية لا نستطيع أن نتعهد فيه الصدق والامانة والنية الخالصة في

نقل مشاهد عن حياة السيد الحسيني، وحتى في ردّه على بعض مقتطفات من الكتب والبحوث التي كان يستعرضها، لم يقصد القربة الى الله والدفاع عن السيد الجليل، بل لأنّ الوقائع الموجودة تخالف ما جاء في تلك الكتب والبحوث، فهو لا يريد أن يقبل بها بكل علاقتها كي لا يضع نفسه موضع الاتهام بأنّه ينساق مع ما ذهب اليه اعداء السيد الحسيني في كتاباتهم..

والبحث الذي قدّمته المجلتان على حلقات، وتبعه بعد ذلك عدد من التعليقات والتعقيبات.. في الحقيقة لا نستطيع ابداً أن نعتبره بحثاً، فهو عبارة عن إعادة الحياة في وثائق وكتب نشرت في العام ١٩٦٣ وما تلاه..

فالمجلتان أرادتا أن تعبثا بسيرة السيد الحسيني، إنّما عبر تسليط الاضواء على كتاب نشرته جامعة طهران العام ١٩٦٣، وعبر استعراض مجمل ما كتب عن السيد الحسيني، وكل هذه الكتابات كما تقول المجلتان كتبت بعد ظهور الكتاب الانف الذكر الموسوم بـ «مجموعة اسناد ومدارك جاب نشده درباره سيد جمال الدين مشهور به افغاني» وترجمته بالعربية «مجموعة وثائق غير منشورة تتعلق بالسيد جمال الدين المشهور بالافغاني».

والكتاب من عنوانه يطرح نفسه على أنّه مجموعة وثائق تخصّ السيد الحسيني.. أمّا الحقيقة فإنّ الوثائق ما هي إلاّ افتراءات.

فعملية الطعن بسيرة السيد الحسيني حين صدر الكتاب كانت عملية مقصودة يمكن تبيانها من خلال النقاط التالية..

١ ـ تاريخ صدور الكتاب في العام ١٩٦٣، يكفي لأنّ يوضح حقيقة كذب الوثائق، فعام ١٩٦٣ شهد غلياناً إسلامياً داخل ايران، أعقبه انتفاضة اسلامية عارمة قادتها الحوزة العلمية في قم بقيادة الامام الخميني، وكانت نتائج الانتفاضة التي سمّيت بانتفاضة ١٥ خرداد (حزيران ـ يونيو) تقديم خمسة عشر الف شهيد وعشرات الالاف من الجرحى والمعتقلين، أما إفرازاتها فإنّها ثبتت الخط الاسلامي في قاموس نهضة الشعب الايراني المسلم، ضد حكم الشاه..

وكانت الانتفاضة الاسلامية هذه امتداداً لثورة الدستور وثورة التنباك الذي كان

السيد الحسيني واحداً من قياداتها البارزين..

ولـمّا كانت ثورة التنباك وثورة الدستور تغـذّي في الـشعب الايـراني روح الثـورة والنهوض، خصوصاً بعد أحداث انتفاضة ١٥ خرداد(حزيران ـ يونيـو)، ولـمّا كـان السيد جمال الدين الحسيني في مقدمة تلك الثورات، وبالتالي فهو أحد ملهمي الانتفاضة الحالية وجذورها.. عمدت حكومة الشاه محمد رضا الى إصدار الكتاب المـذكور كـي ترمي بذلك عدة أهداف بحجر.. فتشويه سمعة الـسيد الحـسيني يعـني إلحـاق التـشويه بسمعة ثورتي التنباك والدستور، ويكون الهدف الآخر الاكثر مراداً هـو تـشويه قيـادة الامام الخميني وانتفاضة ١٥ خرداد (حزيران ـ يونيو) التي هي قيـادة الـسيد الحـسيني وثورتا التنباك والدستور.

٢ – أنّ كل الكتابات التي كتبها كتّاب ايرانيون ومستشرقون، جـاءت بعـد إصـدار حكومة الشاه لهذا الكتاب أو (الوثائق!)، بالاضافة إلى أنّ كل هذه الكتابـات اسـتندت الى الكتاب المعني..

فهنا يأتي الشكّ، أين كانت الوثائق أولاً قبل العام ١٩٦٣؟ ولماذا الان؟ ايـن كانـت كتابات المستشرقين والكتاب الايرانيين الاخرين؟ ولماذا بعد ١٩٦٣؟! لماذا الاسـتناد الى كتاب «مجموعة وثائق غير منشورة» فقط من دون الاسـتعانة بكتـب وبحـوث اخـرى لكتّاب آخرين أو حتى كتابات ومقالات السيد الحسيني ذاته؟!

اذن.. فالعملية كانت مدبّرة ومستهدفة، وإلاّ ليس من محض الصدفة أن تـصدر كـل الكتب المستندة الى الكتاب المعني بعد عام ١٩٦٣، وكل كاتـب مـن هـؤلاء يأخـذ أي وثيقة ليجعلها رأسمال للطعن بالسيد الجليل حتى من دون تحكيم العقل أو لغـة الكتـاب والبحث، في وقت هناك بحوث وكتب صادرة قبـل ١٩٦٣ لا تـأتي بمـا اتـى بـه ذلـك الكتاب!

المجلتان جاءتا لتنضما في صـفوف أمثـال هـؤلاء الكتّـاب مـستفيدة مـن الكتـاب المذكورلتسيء الى سمعة السيد الحسيني، ولتزيد في إثبات ما هـو منفـي!، وانتقـت مـن الوثائق في حياة السيد الحسيني الذاتية فكيف بحياته السياسية؟!، وحتى من دون مراعاة

لشعور المسلمين الذين يمجون مثل هذه الافتراءات البعيدة عن الواقع.. ولكنّها الحملة المسعورة ضد السيد الجليل التي يغيب عندها الضمير الحي!!

حينما تقرأ دراسة المجلتان أو قل: استنساخ ما جاء في كتاب جامعة طهران وكتاب نيكي كدي الاميركية، ترى أنهما تحاولان أن تقولا للمسلمين إنّ السيد جمال الدين الحسيني لم يكن إلاّ ألعوبة بيد السلاطين والملوك.. ولم يكن يملك من امره وإرادته شيئاً..

في الواقع أنّ السيد الحسيني كانت له عدة علاقات مع هؤلاء السلاطين، ولكن علاقته كانت في نطاق إسداء النصح لهؤلاء السلاطين.. وحينما يصدر منهم الانحراف يقف بوجههم ليقوم ذلك الانحراف، وعندما لا يذعن السلطان لذلك يأخذ السيد الحسيني بفضحه، وبعض هذه العلاقات كان السيد الحسيني يرتجي من ورائه خدمة الاسلام؛ كطلبه من المسلمين مؤازرة سلطان الاستانة في تركيا ضد المؤامرات الانكليزية، إذ ما دام الخطر قادم من الخارج وعلى يد قوات صلبية ترمي من احتلالها للدول الاسلامية ضرب الاسلام، فإنّ الموقف يتطلب كما كان يرى السيد الحسيني أن لا يترك المسلمون نصرة سلطان الاستانة لئلا تقع الامة الاسلامية أسيرة الاستعمار والصليبية.

ولم يكن عمل السيد هذا بمنقصة، انّما كان الاسلام في خطر، وهذا الموقف يذكرنا بموقف المرجعية الاسلامية في العراق عندما طلبت من المسلمين أن ينضموا ضمن صفوف القوات المسلحة العثمانية ضد قوات الغزو الاستعماري البريطاني، فالخطر على الاسلام كان داهماً.

أما عمله السياسي الجاد ضد الاستعمار البريطاني في مصر فإنّ المجلتين تحاولان أن تسدلا ستاراً كثيفاً عليه من خلال نقل مقتطفات من كتاب من تاليف كاتبة ايرانية وكاتبة اميركية، استندتا على كتاب ما سمّي بالوثائق، وبحث لكاتب مصري حاقد على الاسلام والمسلمين فكيف بالسيد الحسيني؟!

فالكاتبتان تقولان: «يخطئ المرء إذا أراد أن ينسب الى جمال الدين مذهباً، وأنّ فيه عقيدة متجانسة..» ورغم هذا التحامل الشديد على السيد الجليل والتقليل من شأنه، بحيث اتهمتاه بالعلمانية والتعامل مع الانجليز، وصلته بالحركة البابية المنافية لعقائد

المسلمين، فانّ كاتب البحث في «المجلة» مثلاً ياتي ويثمّن جهودهما فيكتب: «ومع أنّ المؤلفة لم تطلع على كتابات الافغاني في الصحف المصرية، واكتفت بما كتب عنه بالعربية، ومع أنّها أيضاً أوجزت الفصل الخاص بآرائه وفكره، واعتمدت على كتاباته الفارسية والفرنسية أساساً، فكتابها يقدم دراسة موضوعية حتى لو اختلفنا معها كثيراً»!! .. وأية موضوعية هذه اذا كانت مراجع كتابها وثائق مبتورة حيكت في أروقة وكالة المخابرات؟!

ولكي يزيد كاتب «المجلة» في طعن السيد الحسيني، ينقل عن ذلك الكاتب الصليبي الاميركي الجنسية قوله في الحسيني: «وأهم من كل هذا أنّه بنى لنفسه وبنيت له في مصر أسطورة حتى غدا الناس في مصر يقدسونه دون أن يقرأوا له ويضعونه فوق مستوى النقد..» ولكن الشمس لا يضيرها أبداً سحابة كثيفة، فالعين لايمكن لها أن تنكر وجودها.. والسيد الحسيني الشمس التي تحاول بعض الكتابات العائمة أن تغيبها.. إلاّ أنّ الشمس أقدر على إذابة هذه السحابات الداكنة..

لقد أعار السيد الحسيني لله وللشعب المصري المسلم نفسه ووقته جمجمته، إذ لم يرتح له بال وهو يحس بأقدام الاستعمار البريطاني توغل في صدره، فانطلق يحرض الشعب المصري المسلم على الثورة والانتفاضة ضد الاستعمار البريطاني، فراح ينادي في أهل مصر.. «فيا أيها المصريون! هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاساً، زحف العدو اليكم تحت راية المحبة، ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة، من عسكرية ومالية وادارة وقضاء، ولم يبق لكم شيئاً إلاّ الحرمان من خدمة أوطانكم، وأنتم أحقّ بها، وطالما دافعتم عنها في الايام السابقة..»

وفي المقال الافتتاحي، لأول عدد من جريدة (العروة الوثقى)، يصوّر جمال الدين حادث الاحتلال البريطاني لمصر على أنّه كارثة على العالم الاسلامي، وقد أهاب المسلمين ـ بباعث من دينهم ـ أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال..

يقول: «.. إنّ الخطر الذي ألمّ بمصر نفرت له أحشاء المسلمين، وانكلمت به قلوبهم، ولا تزال الامة تستفزهم مادام الجرح نقاراً، وما هذا بغريب على المسلمين، فإنّ رابطتهم

الدينية أقوى من رابطة الجنس واللغة، ومادام القرآن يتلى بينهم، وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئه، فلن يستطيع الدهر أن يذلّهم..»

وما يضحك أن تتهم المجلة السيد الحسيني باستلام أموال من الحكومة الفرنسية، فاذا كان السيد غايته المال، لما احتاج لأن يجهد نفسه ويدخل في طرق وعرة وشائكة من أجل خدمة المسلمين، ولما احتاج الى أن يعرض نفسه للهجرة أو الاهانة من قبل أزلام الانظمة الحاكمة كما حدث له في ايران عندما هاجمه خمسمائة من المسلمين وأخذوه جراً على الرغم من مرضه الشديد، حتى قال جمال الدين الحسيني في ذلك:

«كيف يهان هذا الهوان وهوالرفيع النسب، العزيز الحسب، العظيم الجاه، العالي المنزلة في دينه وشرفه وعقله، ورغبته في الخير؟ كيف يرجوه الشاه أن يأتي بلده ويعده أن ينفذ إصلاحه، ويعلي كلمته، ثم يعامله معاملة العبد يطرد، والذليل يصفع، والحقير يهان؟».

ولكي تقول الهجمة الشرسة التي يقودها العملاء عبر مجلة «المجلة» و«التضامن» وغيرهما، ضد السيد الحسيني بأنّه ماسوني، فإنّ كاتب البحث لكي لا يربط الحديث به يذهب الى أحد الكتّاب الموجودين الذي اخذ عن كتاب «مجموعة وثائق..» فيقتبس منه العبارة التالية: «وفي مصر أيضاً جرته ـ الحسيني ـ تطورات الاحداث وتغلغل الاجانب في آخر عصر اسماعيل الى النزول في معمعتها فنشط في المحافل الماسونية..»

قبل كل شيء لابد أن نعرف ماذا تعني الماسونية؟

الماسونية ترتكز على ثلاثة ركائز كما يزعم أصحابها، والركائز هي: حرية. مساواة. إخاء، ولكن في الواقع هي بعيدة عن ذلك و«الجمعيات الماسونية، أو التنظيم الماسوني، هو من أدق وأعقد الأساليب الخفية المستترة في استقطاب حركة المجتمعات وتوجيهها».

وقد عرف عن التنظيمات الماسونية أنّها ضد الاسلام الحنيف، وضد كل شيء يتصف بالخير، وما شعاراتهم إلاّ لذرّ الرماد في العيون، وهي يافطة يرفعونها لإغواء من يروم الخير والسعادة البشرية، وأيضاً يافطة لتشويش الرؤية والبصيرة على الآخرين، والتنظيمات الماسونية عدوة الانسانية، تحركها الدوائر الصهيونية الامبريالية لتحكيم سيطرة الاستكبار العالمي على المستضعفين والمحرومين.

نعم، إنّ السيد تعرّف على الماسونية حينما كانت دوائر النظام الملكي والاستكبار العالمي والدوائر الصهيونية تتلبس لباس الخير والاصلاح، وعندما لمس من أول وهلة أنّها معادية لمصالح الشعب المصري المسلم، أخذ يعريها ويوضّح للشعب المصري المسلم حقيقتها الهدّامة المناصرة للنظام الحاكم، فيذكر السيد الحسيني بهذا الخصوص ما يلي:

«أول ماشوقني للعمل في (بناية الامراء) عنوان كبير خطير: حرية. مساواة. إخاء، وأنّ غرضها (منفعة الانسان/ سعي وراء دكّ صروح الظلم/ تشييد معالم العدل المطلق) ولكن كنت انتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لاتخيّل أنّ الجبن يمكنه أن يدخل من بين اسطوانتي المحافل الماسونية! اذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، واذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة، واذا كانت لا تدكّ صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الاحرار مطرقة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة».

هذه العبارات الصادقة التي توضّح حقيقة السيد جمال الحسيني وموقفه الحازم من المحافل الماسونية تتغافل عنها الاقلام المحمومة، وما همّها، سوى قذف السيد بأباطيل محبوكة.

وأخيراً حينما نتساءل عمّن روج لهذه الترهات، فاننا سنجد في طليعتهم عميلاً صليبياً هو لويس عوض بطل الغارة على التراث الاسلامي الاصيل، وحامل كل ما يمثّل النفوذ الثقافي الغربي الى الجسم العربي.

ولكي تكتمل المسرحية فقد أوعزت الرجعية العربية بنقد كتابات عوض هذا - طبعاً مع كيل المديح له - وردّ كل الاعتراضات الاخرى عليه، ونقده أحياناً، وبالتالي إرجاع الجميع الى ما اسمي بالوثائق التي شجع نظام الشاه على نشرها من قبل جامعة طهران في السنة نفسها التي ثار فيها الشعب ضد نظامه أي العام ١٩٦٣ م (ثورة ١٥ خرداد) ليجعلها المرجع الوحيد لدراسة حياة هذه الشخصية العظيمة.

إلاّ أنّ كل المحاولات باءت بالفشل، ولم تنطل الحيلة على المفكّرين الواعين وبقي الافغاني بطلاً عظيماً تفتخر به الامة وتعتز، بعد أن قدّم لها أروع الأمثال في الايمان

والوعي والجهاد والتضحية والاخلاص.

لمعرفة حقيقة الرجل راجع صورة عن نصّ استقالته من حزب الوفد المنشور في الكتاب.

لمعرفة حقيقة الرجل راجع الصورة التالية عن نص استقالته من حزب الوفد حيث يصرح بأن «الله ليس مصدر السلطات»!

نص الاستقالة

السيد الاستاذ فؤاد سراج الدين

رئيس حزب الوفد الجديد

تحية طيبة وبعد، فانشرف بابلاغكم انى انضممت الى « الوفد الجديد » عند تاسيسه فى ١٩٧٨ اعتقادا منى بأن الوفد الجديد قائم على اسس الديمقراطية العلمانية التى قام عليها الوفد القديم منذ ١٩١٩ .

هذه الاسس، فى اختصار شديد ودون لف او دوران، هى ان « الامة مصدر السلطات »، لا ان الله مصدر السلطات، وبالتالى فان شئون البشر تنظمها دساتير وقوانين وضعية من صنع البشر بالحق الطبيعى بحسب تطور المجتمعات، لا دساتير وقوانين الهية واجبة النفاذ فى كل زمان ومكان بالحق الالهى، ولا يجوز تعديلها باغلبية ثلثى الاعضاء او باغلبية النصف زائد واحد .

وقد فوجئت فى الفترة الاخيرة بتصريحات على مستوى القمة فى قيادة حزب الوفد الجديد تعلن رفض الحزب للعلمانية التى أؤمن بها اساسا للعقد الاجتماعى، بما اقنعنى بأن « الوفد الجديد » الذى تشرفت بالانضمام اليه فى ١٩٧٨ يختلف اختلافا جوهريا عن الوفد الذى اسسه سعد زغلول وقاده مصطفى النحاس فى فترة ما بين الثورتين .

وبناء عليه لقد قررت مع الاسف الشديد الاستقالة من عضوية حزب « الوفد الجديد »، متمنيا ان تثبت الايام خطأ مخاوفى وتقديراتى، وان يتمكن الحزب تحت قيادتكم الرشيدة من المشاركة فى بناء الوطنية المصرية والديمقراطية المصرية فى ظل سياسته الجديدة .

وتفضلوا بقبول وافر احترامى وتمنياتى

أ (د . لويس عوض)

مؤامرة خطيرة.. تتطلّب يقظة كبيرة

هل البت في تتبع حياة السيد جمال الدين الحسيني وفي هذا الوقت بالذات عملية خالصة لا تحوم حولها الشبهات؟!

إننا لسنا فقط نشكّ بذلك، بل لنا قناعتنا، وبالأرقام والوقائع كما بيّنا بأنّ هناك مؤامرة خطيرة تستهدف اغتيال سيرة السيد الحسيني الجهادية، وإبدالها بسيرة ملؤها التشنجات والتناقضات والانتهاكات الصارمة للاسلام..وأنّ المسألة ليست متعلّقة بكاتب أو مجلة أو صحيفة، إنّها مسألة أنظمة قائمة تحاول استخدام تلك الاقلام لمصلحتها الشخصية.

وهي مؤامرة تقف خلفها الدوائر الغربية والشرقية والصهيونية تستهدف:

١ ـ إظهار السيد جمال الدين الحسيني على أنّه رجل مغامر لم ينو الاسلام في عمله، وأنّه للظهور وحبّ الشهرة!!

٢ ـ تشويه قداسة الثورة الاسلامية في ايران، والتي تدين للسيد جمال الدين الحسيني بأفكاره وأعماله الاسلامية الكبيرة.

٣ ـ ابعاد الحركات الاسلامية العاملة في الساحة الإسلامية الشاسعة عن السيد الحسيني وعن الثورة الاسلامية في ايران، ومعظم العلاقات الروحية والسياسية التي تدينها الحركات لقيادة الامام الخميني.

٤ ـ إبعاد الشعوب الاسلامية عن الاحتكاك بالحركات الاسلامية والانتظام في صفوفها..

٥ ـ الطعن بالحركة الاسلامية المصرية، وبالخصوص تلك التي رفعت سلاح القوة لمواجهة النظام، ويجيء الطعن نتيجة لهتك حرمة السيد جمال الدين الحسيني التي تتخذه الحركة الاسلامية العاملة في مصر قدوتها على طريق الجهاد الاسلامي داخل مصر نحو إقامة نظام إسلامي، هو ما يقلق الدوائر الصهيونية التي تخشى أن تقع اسرائيل امام مواجهة مع نظام اسلامي.

وقد لا يتصور أحدنا أنّ ربط عملية تشويه سيرة السيد الحسيني بالكيان الصهيوني، يمكن أن يكون بهذه السهولة، ولكن عليك أن تصدّق اذا علمت أنّ «اسرائيل» تفكّر بقصف المفاعل النووي الباكستاني داخل باكستان بعد تصاعد الصحوة الاسلامية في الباكستان..

فإماتة أفكار السيد الحسيني داخل نفوس أبناء الحركة الاسلامية المصرية ـ كما تعتقد الدوائر الاستكبارية ـ من الممكن أن يقضي على روح التحرك في الفرد المصري المسلم!

٦ ـ ضرب الوحدة الاسلامية وبالذات الوحدة الاسلامية بين الحركات الاسلامية العاملة، بين المجاهد المصري والعراقي والايراني ، التونسي والمغربي، والافغاني والايراني الايراني والمصري، الخليجي والتركي وهكذا ..

الوحدة الاسلامية بين الشيعي والسنّي، وبالخصوص على نطاق الحركات الاسلامية، الوحدة الاسلامية التي مثّلها السيد الحسيني بعمله في صفوف علماء جامع الازهر والحوزات العلمية الشيعية.. في الوحدة الاسلامية التي تمثّلت في تعاضد السيد جمال الدين الحسيني والشيخ محمد عبده.

إنّ المؤامرة التي تدبرها الانظمة الرجعية اكبر من أن نتصور، وهي بكبر الثورة الاسلامية التي أخذت تزلزل الارض من تحت أقدام الطواغيت في عالمنا الاسلامي.. وعلى الاعلام الاسلامي أن ينتبه الى هذه المؤامرة الخطيرة ويفضحها.. ويطرح حقيقة السيد جمال الدين الحسيني.. حقيقته التي تبقى مناراً للعاملين في سبيل الله والمستضعفين.. قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ .

وانّنا كما أشرنا أولاً وفاء لذكرى الرجل الكبير، واحتفالاً بالذكرى المئوية لإصدار مجلة (العروة الوثقى) من باريس، نقدم المجموعة الكاملة لهذه المجلة للقراء في العالم الاسلامي والعربي سائلين المولى العلي القدير أن يبعث في جماهيرنا الاسلامية روحاً ثورية، وتحسّساً بالأهداف الكبرى، وشوقاً ناصعاً للغد الأمثل.

والله الموفق

سيد هادي خسروشاهي

روما ـ ايطاليا

محرم ١٤٠٦ هـ ـ اكتوبر ١٩٨٥ م

ـ القيت في حفل الاحتفاء بمرور رفات جمال الدين الافغاني من العراق في طريقه الى افغانستان، الذي أقيم في الحضرة الكيلانية صباح يوم ١٤ كانون الاول ١٩٤٤.
ـ نشرت في العدد الخاص الذي اصدره الشاعر من جريدته «الرأي العام» عن جمال الدين الافغاني العدد ١١٧٥ في ١٦ كانون الاول ١٩٤٤.

جمال الدين

هويـت لنـصرة الحـقّ الـسهادا ... فلـولا المـوت لم تطـق الرقـادا
ولـو لا المـوت لم تتـرك جهـادا ... فللـت بـه الطغـاة ولا جـلادا
ولـو لا المـوت لم تفـرح فـرادى ... صـعقتهم، ولم تحـزن سـوادا
ولـو لا المـوت لم يـذهب حريـق ... بيانعـة وقـد بلغـت حـصادا
وان كـان الحـداد يـرد ميتـاً ... وتبلـغ منـه ثاكلـة مـرادا
فـانّ الـشرق بـين غـد وأمـس ... عليـك بذلّـة لـبس الحـدادا
ترفـع أيهـا الـنجم المـسجّى ... وزد في دارة الـشرف اتقـادا
ودر بـالفكر في خلـد الليـالي ... وجـل في الكـون رأيـاً مـستعادا
وكـن بالـصمت ابلـغ منـك نطقـا ... وأورى في محاججـة زنـادا
فـإنّ المـوت أقـصر قيـد بـاع ... بـأن يغتـال فكـراً واعتقـادا

* * *

جمـال الـدين، يـا روحـاً عليـاً ... تـنزل بالرسـالة ثم عـادا
تجـشّمتَ المهالـك في عـسوف ... تجـشمه سـواك فمـا اسـتقادا
طريـق الخالـدين، فمـن تحـامى ... مـصايرهم تحامـاه وحـادا
كـثير الرعـب بالأشـلاء، غطّـت ... مغـاوره الجمـاجم والوهـادا
جمـاجم رائـدي شـرف وحـقّ ... تهـاووا في مجاهلـه ارتيـادا
وأشـباح الـضحايا في طـواه ... علـى الـسارين تحتـشد احتـشادا

وفوق طروسه خطّت سطور دم الأحرار كان لها مدادا
شققت فجاجه لم تخش تيهاً ومذنبة ، وليلاً وانفرادا
لأنك حامل ما لا يوازي بقوته العقيدة والفؤادا
وتختلف الدروب وسالكوها وغايتها، دنواً وابتعادا
ويختلف البناة ورُبّ بانٍ بنى من فكرة صرحاً وشادا
وانت ازددت من سمّ زعاف تذوقه سواك فما استزادا
نضال المستبد يرى انكشافاً عمايته، وعثرته سدادا
اذا استحلى غوايته وأصغى الى المتزلّفين له تمادى
خشيت الله عن علم، وحقّ إذا لم تخش في الحقّ العبادا
وجدت اللذة الكبرى فكانت طريف الفكر والهمم التلادا
وأعصاباً تشد على الرزايا اذا طاشت وتغلبها اتئادا
ولمّا كنت كالفجر انبلاجاً «وكالعنقاء تكبر أن تصادا»
مشيت بقلب ذي لبد هصور «تعاند من تريد له العنادا»
صليب العودِ، لم يغمزك خوف ولم تسهل على الترف انقيادا
ولم تنزل على أهواء طاغ ولا عمّا تريد لما أرادا
ولم تجد الأماني والمنايا مبررة عن الحقّ ارتدادا
ولم أر في الرجال كمستمد من الحقّ اعتزازاً واعتدادا
وكان معسكران: الظلم يطغى ومظلوم، فلم تقف الحيادا
ولم تحتج أنّ البغي جيش وأنّ الزاحفين له فرادى
ولا أنّ الليالي محرجات إنّ الدهر خصم لا يعادى
وإنّ الامر مرهون بوقت ينادي حين يأزف لا ينادى
معاذير بها ادرعت نفوس ضعاف ترهب الكرب الشدادا
تريد المجد مرتقياً عليها جنيٌ غضاً تلقفه ازدرادا

* * *

جمال الدين كنت وكان شرق ... وكانت شرعة تهب الجهادا
وكانت جنة في ظلّ سيف ... حمى الفرد الذمار به وذادا
وايمان يقود الناس طوعاً ... الى الغمرات فتوى واجتهادا
وناس لا الحضارة دنستهم ... ولا طالوا مع الطمع امتدادا
وكانت «عروة وثقى» تزجى ... لمنقسمين حباً واتحادا
ونية ساسة بسطت فبانت ... ووجه سياسة جلى وكادا
وحكم كالدجى عريان صاف ... فلم ينكر، إذا انتسب، السوادا
ولم يدخل من الالوان ظلاً ... يلوذ به انتقاصاً وأزديادا
دجا قسراً وساد، وكان شهماً ... صريحاً إنّه بالرغم سادا
وجئت ورفقة لك كالدراري ... لضلال بغيهبه، رشادا
تصد عبابه وجهاً لوجه ... وتزحمه انعكاساً واطرادا

* * *

جمال الدين كنت وكان عهد ... سقيت لما صمدت له العهادا
نما واشتط واشتدت عراه ... وزاد الصامدون له اشتدادا
مشت خمسون بعدك مرخيات ... اعنتها، هجاناً لاجيادا
محملة وسوقاً من فجور ... وشامخةً كمحصنة تهادى
تحورت السياسة عن مداها ... الى أنأى مدى وأقلّ زادا
وبات الشرق ليلته سليماً ... على حالين ما اختلفا مفادا
على حكمين من شفع ووتر ... عصارة كل ذلك أن يسادا
ولطفت الابادة، فهو حرّ ... بأيّ يد يفضل أن يبادا
ومدت اصبع لذويه فيه ... فعاثت فوق ما عاثوا فسادا
فكم في الشرق من بلد جريح ... تشكي لا الجروح بل الضمادا
تشكي بغي مقتاد بغيض ... تأبى أن يطاوعه انقيادا
فكانت حيلة أن يمتطيه ... رضيع لبانه فبغى وزادا

صـــدى للاجـــنبي وراء قفـــر أعـــاد صـــدى فـــسرّ بمـــا أعـــادا
وكـــان أجـــل مـــن زمـــر اذا مـــا تجـــنى المتبيـــع بهـــا تفـــادى
فكـــانوا منـــه في العـــورات ســـتراً وكـــانوا فـــوق جمرتـــه رمـــادا
تـــروى مـــن مطامعـــه وأبقـــى لهـــم مـــن ســـور مـــا ورد، الثمـــادا
وكـــان إذا تهـــضمه غريـــب أقـــام لـــه القيامـــة والمعـــادا
فأســـلمه الغريـــب الى قريـــب يـــسخره كمـــا شـــاء اضـــطهادا
وكـــان الاجـــنبي وقـــد تـــولّى زمـــام الأمـــر واغتـــصب الـــبلادا
يـــرى أدنى الحقـــوق لهـــم عليـــه مـــساغ النقـــد والكلـــم المعـــادا
فأضـــحوا يحـــسبون النقـــد فتحـــاً لـــو اســـطاعوا لمـــا يـــصمّ انتقـــادا
فبـــئس مـــنى لمـــصفود ذليـــل لـــو أن يديـــه لم تـــضعا الـــصفادا
وبـــئس مـــصير مفترشـــين جمـــراً تمنـــيهم لـــو افترشـــوا القتـــادا
وكـــانوا كـــالزروع شـــكت محـــولاً فلمّـــا اســـتمطرت مطـــرت جـــرادا

محمد مهدي الجواهري
بغداد

«٢٢»

جمال الدين
و
التحديات

سيد هادي خسروشاهي

جمال الدين والتحديات[1]

المقدمة:

حين تغفوا بعض الأمم لفترة من تاريخها يعبث بمصيرها أبالسة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحفل الكريم السلام عليكم..

يُعتبر السيد جمال الدين الحسني المعروف بالافغاني أبرز الدعاة الى النهضة واليقظة والصحوة في المشرق والعالمين العربي والاسلامي واذا كنّا نتأمل ونقف لحظة عند مفهوم الصحوة والتوعية سنعيد معرفة أهم دوافع السيد والخدمات التي أسداها، وسنذعن بدوره الريادي في حركات التحرر التي شهدتها بلدان المشرق.

إنّ الصحوة الذاتية أو الصحوة الاجتماعية هي حالة نفسية ويقظة اجتماعية، التي ترشد المصلح الاجتماعي نحو تمييز الامراض والاسقام وحالات التخلّف الموجودة في المجتمع، الذي هو كجهاز الحياة، يتعرّض الى أمراض وأسقام، فمن أجل معالجة هذه الأسقام ينبغي أولاً تمييزها ثم التوجّه نحو مداواتها.

---

١ - كلمة القيت في المؤتمر الدولي حول: السيد جمال الدين والتحديات التي تواجهها الأمة الإسلامية بتاريخ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، الدوحة: قطر.

فاذا كان الجسم السليم وجهاز الحياة متعرضاً الى صدمة، فمن المؤكد تشعر باقي الاجهزة والاعضاء لذلك الجسم بالالم من ذلك المرض . ولا شك فإنّ اهم الآلام والالم الاساسي، الذي كانت تعاني منه الأمة هو الالم الاجتماعي: فهل يكون هذا الالم داخلياً أم أنه ألم خارجي؟ الاميّة والاستبداد الذي يحبس الأنفاس ويوجد الكبت تشكلان المـاً داخلياً غير أنّ الاستعمار واحتلال اراضي المسلمين من جانب الاجانب يشكل المـاً خارجياً لهذه الامة.

كان السيد جمال الدين الحسيني يرى الفرقة والجهل والأمية وانتشار الخرافات وعدم الاهتمام بالعلوم الحديثة التي كانت قد غيّرت معالم الحياة في العالم، أهم قضية واقعية، وكذلك توغّل المستعمرين وهيمنة الاجانب واحتلال البلدان الاسلامية هي أهـم الآلام وأم المصائب في المجتمع الاسلامي، والتي كان مصدرها القوى الاستعمارية.

فالسيد جمال الدين كان قد كتب في مجموعة المقالات التي كتبها في توعية البلدان الاسلامية بالفارسية والتي جمعها ابن شقيقته السيد لطف الله جمالي، حيث كتب السيد الحسيني يقول في أحدى مقالاته بعنوان: لماذا ضعف الاسلام؟

«علينا أن ننظر الى الاحوال الحالية للمسلمين، وأن نجري مقارنة بينها وبين الاوضاع السابقة، وأن نوضّح معالمها في الترقّي والتدهور، وقد كانت نفوس المسلمين في العالم بما يزيد عن ثلاثمئة مليون نسمة، والآن مليارد ونصف مليارد، ويعني ذلك أنّ نفوسهم تزيد اليوم ألفين مرة عن نفوس المسلمين في زمن فتحهم لبلدان العالم، وكانت بلادهم تمتد آنذاك من ساحل البحر الاطلسي حتى قلب بلاد الصين. فكلها أراضي غنيّة وعامرة، وهي أفضل بقاع الارض، تتمتع بطبيعة وطقس نظيفين، وذات تربة خصبة، وتمتلك أنواع النعم التي وهبها الله لها، ومع ذلك باتت أراضي المسلمين اليوم منهوبة وأموالها مسلوبة، يحتلّ الاجانب بلدانهم ويصادر الاخرون ثرواتهم.

فيا للمصيبة! ويا للرزية! ما هذه الاحوال وما هذه المسكنة؟ إنّ مصر والسودان وشبه الجزيرتين الهنديتين تخضع للاحتلال البريطاني، وتحتل فرنسا المراكش وتونس

والجزائر، وباتت هولندا مالكة الرقاب في جاوة وجزر بحر المحيط، وتحتل روسيا بلدان تركستان الغربية وبلاد وماوراء النهر والقوقاز وداغستان، كما تحتل الصين تركستان الشرقية، ولم يبق من الممالك الاسلامية إلاّ معدود منها في حالة الاستقلال وهي تعاني اليوم من الخوف والخطر العظيم، ولاتغفوا أعينهم في الليل خشية من الاوروبيين، ولايستقرون في النهار ذعراً وخوفاً من الغربيين. وبات نفوذ الاجانب متوغلاً في عروقهم، وهم يرتعدون من اسمي: الروس والانجليز، ويصابون بالدهشة من هول كلمتي: فرنسا والمانيا».[1]

فيرى السيد جمال الدين، الاستعمار بأنّه يشكّل أهم قضية وألم اجتماعي تعاني منه الأمة الاسلامية، مع تداعياته الاجتماعية والنفسية، وسلب ثقة الشعب بنفسه وتحقير شخصيته، ونهب ثرواته، والاهم من كل ذلك إحساسه بالاحباط وعدم ايمانه بأصالته الثقافية وهويته الاجتماعية.

علاج هذه الصدمة

فهل ينبغي أن يبقوا مقيّدين؟ فكل مصلح اجتماعي لو أراد معالجة هذا المرض الاجتماعي، ينبغي عليه أولاً الاهتمام بالتوعية الذاتية للمجتمع، واكتشاف الألم والصدمة، ثم التوجه نحو العلاج والمداواة.

لذلك يرى السيد جمال الدين العنصر الأول الذي يراه ضرورياً في بلوغ الصحوة والتوعية الذاتية الاجتماعية يتمثّل في توعيتهم بتعيين مصيرهم، ترسيخ الفلسفة الاجتماعية والتاريخ في عقلية المخاطبين والامة الاسلامية. بما إنّ المسلمين على معرفة بالثقافة الاسلامية، كان ينبغي على السيد جمال الدين أن يوضّح مسألتين رئيسيتين من الناحية الثقافية للمسلمين واعادة بنائها:

١- مسألة المصير

---

١ - سيد جمال الدين الحسيني، مجموعة مقالات جمالية ،ج٢ ص: ١٦١ .

٢- عنصر الحركة التاريخية.

ويكتب السيد جمال الدين: إنّ للتاريخ علم مختص به، فهو أعلى من الروايات التاريخية التي بحثها علماء كل شعب. وهو علم يبحث في مسيرة الشعوب وتحولها، وكيف تطورت وكيف تدهورت، وما هي طبيعة الاحداث الكبيرة وخصائصها، وما هي العوامل الدخيلة في التغيير والتبديل في عادات واخلاق وافكار شعب من الشعوب، ولاينحصر التغيير في العادات والاخلاق بل وحتى في الاحساس الداخلي ووجدان الشعوب، وما هو تأثير هذا التغيير والتبديل في ظهور الشعوب وتكوين الحكومات أو القضاء عليها؟

فهذا الفرع العلمي الذي هو من أهم الفروع الادبية وأحكمها، وهو بحث ودراسة للايمان بالمصير والقضاء والقدر والإذعان بأنّ جميع القوى تكون بيد مدبر الكائنات وخالق الكون، فلو كان الانسان بمفرده يتحكم في المصير لما كان قط أن ينحدر الرفيع الى الانحطاط، ولم يضعف الانسان القوي، ولا يقضى على العظمة، ولايتغير سلطان[١]

و يواصل السيد مقاله:

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا كان توجهاً نحو الجبر (ونفسره بالفاناليسية) هو عنصر للجرأة والشجاعة، ويوجد في الفرد وفي الشعب التهور والشجاعة، ويكون سبباً للتوجه نحو ساحة الاحداث الكبيرة، وتغدو حتى السباع المفترسة تخشاه ... هذا الاعتقاد يحثّ الافراد والقلوب بالثبات والاستقامة وتحمّل الصعوبات، والنهوض لمحاربة المخاوف، والتحلّي من جانب آخر بالجود والسخاء والايثار والفداء والشهامة. لكن هذه التضحيات تتحقّق وتتيسّر فقط في سبيل الحق والمعتقد.

إنّ من يؤمن بتقيد الأجل والرزق والمعاش، يتكفّله الله عز وجل والأعمال تكون بيد الله القدير الذي يتولّى تدبير العالم فإنّه لايخشى بعد ذلك الموت، ويحارب ويدافع في سبيل الحقّ واعلاء كلمة الامة وأصالة الشعب، ويعمل بمسؤولياته، فكيف يخشى الفقر والعوز

---

١ - السيد جمال الدين، العروة الوثقى ، ص: ١٤٣ ، مكتبة الشروق الدولية القاهرة.

ولايتحمّله، وطبقاً لأوامر الله عز وجل والمبادئ الاجتماعية البشرية لاينفق ولايبذل الموجود في سبيل احقاق الحق وتحكيم العظمة؟ إنّ الله عز وجل يمتدح المسلمين على ايمانهم بهذه العقيدة المحركة وما فيها من فضيلة، حيث يقول سبحانه: ﴿إن الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾. (آل عمران ٣-١٧٤)

لقد كان هذا الدافع والمعتقد هو الذي حرّك المسلمين في الصدر الاسلامي الاول للقيام بالأعمال المدهشة للعقل، من فتح البلدان والتغلّب على الشعوب بالرغم من قلة عددهم، وسيطروا على أهوائهم النفسية. وشكّلوا بذلك دولة واسعة الاطراف بلغت مساحتها من حدود الاندلس وامتدت حتى جدار الصين.[1]

تجديد الحياة الاجتماعية والثقة بالنفس

فالسيد باعتباره الموقظ والمصلح الاجتماعي، وبعد تمييزه المرض وآثاره النفسية، يتوجه نحو إصلاح المجتمع وتشجيعه، واعادة تعداده للعوامل الاثباتية للمسلمين، ليزيل بذلك آثار حقارة النفس وظلامها وعدم الثقة بالنفس.

ويخاطب السيد جمال الدين الروح البطلة والارادة القوية للمسلمين فيقول: «إنّي اذرف الدموع وابكي على الماضين، وحبي ومحبتي للطلائع والطليعيين للمسلمين؟ أينكم يا مجموعة الرحمة ويا أولياء المحبة، أينكم أيها الاعلام ويا نماذج المروءة وجبال الصمود والقوة؟ أينكم ايها التابعين نحو الخدمة والحمية وآل الغيرة، ويا ملجأ من لا ملجأ له في يوم المشقة؟ أينكم يا خيرة الامة والقدوة والشهود لباقي الامم، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ أينكم ايها البواسل العظماء المقيمين للقسط والعدالة والقائلين بالحكمة والناهجين للفضيلة ومؤسسي بناء الامة؟

---

١ - المصدر نفسه، ص: ١٤٤.

عمق خبث البريطانيين

يتهجم السيد جمال الدين طوال كتابة مقالاته في «العروة الوثقى» بشدة على الاستعمار البريطاني عند طرحه قضايا العالم الاسلامي، ولايعتبر أي دولة كدولة البريطاني مستعمراً ومخادعاً ومحايلاً. وقد نشر السيد مقالات كثيرة احتلّ السيد في مجموعة مقالات عروة الوثقي في طبعتها الاخيرة حوالي ٤٦٩ صفحة. وكتب معظم المقالات حول بريطانيا وخبثها وخداعها واستعمارها. وقد خصّص بما مجموعه ٣٩ مقالاً في الحديث عن بريطانيا وسياساتها الاستعمارية. ولكن لو أردنا معرفة عمق خبث بريطانيا وتحقير البريطانيين لشعوب الشرق، فعلينا أن نراجع نصّ التفاوض الذي أجراه الشيخ عمر عبده نيابة عن مجلة «العروة الوثقى» في زيارته لفرنسا وبريطانيا مع وزير الحرب والدفاع البريطاني المستر اللورد هرتنكتون، ونرى كيفية نظرة هذه الجماعة ذوي العيون الزرقاء القاطنين في الجزيرة للشعوب وما تحمل من تقييم حيال هذه الشعوب.

فالسيد جمال الدين يورد نصّ هذا التفاوض في العروة الوثقى بعنوان «هؤلاء الرجال الانجليز وهذه أفكارهم» ويقول عن ذلك في الصفحة ٤١٩، لقد رويت هذه المفاوضات في مجلة The Thruth وصحيفة التايمز times بقلم المستر لابوشير.

سأل وزير الحرب البريطاني اللورد هرتنكتون: هل لايرغب المصريون وهم غير راضين أن يكونوا في أمن ورفاهية وفي راحة تحت رعاية الحكومة البريطانية؟

وهل لايعتبر المصريون حكومتنا (حكومة بريطانيا) أفضل من حكومة الاتراك (العثمانيين) الملك أو الباشا الفلاني؟

عبده: لا، أبداً، المصريون هم قوم عرب، ويكونوا جميعهم باستثناء القليل منهم مسلمين. هناك الكثير من المصريين كالبريطانيين يحبّون وطنهم. إذ لايخطر ببال أي أحد من المصريين أن يخضع ويستسلم لسلطة من يختلف معهم في الدين والعنصر. وليس من اللائق للسيد هرتنكتون بما يحمله من معرفة بالشعوب أن يحمل مثل هذا التصور عن المصريين !

هرتنكتون: هل تنكرون انتشار هذا الكم الهائل من الجهل والامية وعموميته السائدة في كافة أقطار مصر؟ وهل يميز المصريون بشكل عام بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني؟! إنّ ما تقوله فيما يتعلّق بالكراهية والسخط من سلطة الأجانب (هل يكون المصريون هكذا) فهذه الخصوصية تختصّ بالشعوب المتربية والمهذبة وليس المصريين الجهلة والاميين؟!

عبده يجيبه بغضب وانزعاج:

أولاً: تعتبر الكراهية والسخط حيال الحكومة الاجنبية وطرد سلطة الاجنبي من الاشياء التي أودعها الله عز وجل في فطرة وضمير كل انسان! ولايحتاج هذا الشيء الى درس أو تعليم أو مطالعة، بل وإنّ أكثر الشعوب همجية «كقبائل الزولو في جنوب السودان» يكونوا على استعداد للدفاع بشكل كامل عن وطنهم وبلادهم!

ثانياً: المسلمون أينما كانوا وما يكونوا فيه من جهل وامية بأية درجة، حسب مايتصوره معالي الوزير، فهم يحملون ثقافة سامية. حتى وأنّ الأميين من المصريين والمسلمين، وأولئك الذين لايجيدون القرائة ولا الكتابة، هم على وعي بضرورات دينهم (الاسلامي) وإنّ أكبر وأوضح هذا الوعي من الاسلام هو إن المسلمين لم يتوجّهوا نحو اعتناق أديان معارضيهم.

فالمسلمون يتلقون في كل اسبوع في خطب الجمعة مواعظ الواعظين التي تقام في المساجد الكثير من المعلومات، وهي تكون بديلة عن العلوم الابتدائية الموجودة لدي الغربيين، وتقدم لهم كافة النصح الدينية والتعليمات الاسلامية مما جعل المسلمين أن يتجنّبوا الخضوع أمام الاجانب وقبول سلطتهم، وتربي في ضمائرهم المشاعر الانسانية الشريفة، ولايختلفون عن باقي الشعوب وهم غير متخلّفين، وخاصة المصريين الناطقين باللغة العربية، ويفهمون دقائق هذه اللغة ورموزها، وأنّ القرآن كتابهم السماوي.

ثالثاً: لقد دخلت بلاد مصر منذ عهد محمد علي باشا العلوم والآداب الجديدة، وتوسّعت فيها، بل وتستطيع أن تتساوي اليوم مع البلدان الاوروبية، وإن كل مصري

يتمتع بالعلوم الجديدة بحسب مقدرته وكفائته.

و ليس هناك من ريف أو قرية في بلاد مصر إلاّ ويوجد فيها عدد كبير من الكتّاب والعارفين الذين تبلغهم الاخبار يومياً، وحتى الذين لايقرأون الأخبار يحصلون على تلك الأخبار من قرّاء الصحف، وفي النتيجة يزيد ذلك من فهمهم العام، ويزداد شعورهم الاجتماعي والطبيعي. وأنّهم بالتأكيد يتعشقون الى وطنهم وبلادهم، وينمو تهذيبهم وتتنامي صحتهم الاجتماعية. وأنا لا اعتقد بأنّ المصريين يختلفون في هذا الجانب عن باقي الشعوب.

يستفاد من هذا النص عمق نزعة التحقير والخبث الموجودة لدى البريطانيين تجاه الآخرين، واعتبارها شعوباً همجية، فيجب احتلال اراضيهم والقيام بنهب ثرواتهم ... »

اليس من الضروري أن يستعيد المسلمون استقلالهم وأن يدافعوا عن كرامتهم ؟ !

عوامل استقلال المسلمين في محاربة الاستعمار

ويقترح السيد جمال، للمسلمين انتهاج طريقين في محاربة الاستعمار البريطاني وهما في غاية الاهمية، ويوصي بهما المسلمين كدواء وحيد للعلاج، وهما:

١- الوحدة الاجتماعية

٢- اقتناء العلوم الجديدة.

ويكتب السيد جمال في مقال من المقالات الافتتاحية لمجلة العروة الوثقى تحت عنوان: «الوحدة والسياسة» فيقول:

«هناك مسألتان ضروريتان، تارة توجبها الضرورة وتارة يشير اليهما الدين، لكن التربية والممارسة تلزمهما الآداب والثقافة، ويكون الاثنان دائماً متلازمين مع بعضهما ومترابطين، ولا يمكن الفصل بينهما، وكل شعب يكون بحاجة ماسة إليهما في سبيل تحقيق رفعته وعزته وعظمته، وهما: الرغبة في الوحدة الاجتماعية وثانياً واجب السيادة والاستقلال.

فلو شاء الله أن يبقي شعباً من الشعوب وأن تكون له حياة، فإنّه يودع هاتين

الصفتين (الوحدة والسيادة) في ضمائر أبنائه. اذن يخلق الله عز وجل ذلك شعباً كاملاً، ويمنح له الحياة بمقدار ما يظهر ذلك الشعب من لياقة في التجلّي بهاتين الصفتين! فكلّ شعب تكون سواعده غير قادرة على الدفاع عن نفسه، وعاجز عن منع الآخرين من التدخّل في شؤونه، وغير قادر على تقوية أصالته وتحكيم حياته الاجتماعية واستقلاليته، فلابد أن يتقوض في كلّ يوم يمرّ عليه، ويتحطم ويسحق وتمحى آثاره من الارض !

فالنصر في الشعوب يشبه الغذاء في الحالة الفردية. فلو لم يتناول الجسم الغذاء لبعض الأيام فإنّه يتوقف عن الحركة ويتوجّه نحو الهزالة والضعف، ويموت في نهاية المطاف فليس من الممكن أن يستطيع ذلك الشعب المحافظة على قوامه ويهاجم خصمه الذي يعمل نحو تقوية بقائه إلاّ في حالة بلوغه درجة من سدّ حاجة النظام الاجتماعي.

فلو شعر الشعب برغبة الى الوحدة والاتحاد، فلابد وأن يبشّر ذلك الشعب بتحقيق الوعد الذي قطعه الله عز وجل له من السيادة والرفعة. ولو بحثنا في تاريخ كل أمة وقوم واطلعنا على أخبار بقائهم وفنائهم، فانّنا سنبلغ بالتأكيد سنّة الله السائدة بين الجموع البشرية، وندرك بأنّ حصة كل شعب وحظّه في بقائه تكون بمقدار وحدته واتحاده، ويكون تعداد عظمته ومقدارها بتعداد ومقدار قوته ودفاعه واكتسابه للنصر.

فكل شعب بمقدار ما يخسر من اتحاده ووحدته يقلّ من شأنه وعظمته بمقدار ذلك الخسران. وعندما يهمل الشعب رساميله المتوفرة لديه، ويكتفي بهممه الدانية، ويقف على بوابات داره وبلده وينظر الى السائرين في ركابه بتشاؤم ، فإنّ الله عز وجل لم يهلك اي قوم إلاّ جرّاء تفرّقهم عن بعضهم، حالة التشاؤم والتفرقة التي فيهم. وسيكون المصير الحتمي لهذا القوم المذلة والمسكنة الطويلة والعذاب الاليم واخيراً الموت والفناء.[١]
نعم إن ضمانة بقاء الشعب هو اتحاده الوطني والانسجام الاسلامي بين أبنائه

---

١ - المصدر نفسه، ص: ١٦٤ - ١٦٣.

﴿ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾.

٢- العامل الثاني في الحياة الاجتماعية والعظمة للشعب في الوقت الراهن يتعلّق بوعي أوضاع الزمن، والتزود بسلاح العلم والمعرفة وبالعلوم الحديثة. ففي عهدنا استطاعت الشعوب الاوروبية بلوغ التنمية، ووسّعت هيمنتها على باقي الشعوب التي تفتقر الى التقنية والعلوم التكنولوجية.

وقد أشار السيد جمال الدين الى هذه النقطة الاساسية تماماً في بداية تحذيره من غفلة العالم الاسلامي.

لقد اعتبر معظم الغربيين السيد جمال الدين رجلاً عملياً يميل للمدرسة البراغماتية، فاذا كان القصد من «أصالة العمل» أو بتعبير سارتر «منح الاولوية للعمل» فإنّنا نستطيع اعتبار السيد جمال الدين من اتباع هذه المدرسة، ولكن اذا كان القصد الإفادة من العمل بمعنى المصلحة الشخصية، فعندها لم يكن السيد من أتباع هذه المدرسة.

كان السيد رجلاً هادفاً، وكان يرجو للمسلمين مجتمعاً مثالياً وهو الهدف الذي يمنح له الأولوية، وليس العمل.

المصلحون الاجتماعيون يستفيدون من كل مجال عملي لتحقيق أهدافهم، ولذلك يعتبر كل شيء للسيد وسيلة لبلوغ هدفه: وكانت صلته بالدول الاجنبية ولقاءاته بالملوك ورؤساء الدول والمثقفين الغربيين والشرقيين، وحتى زيارته لمحفل الماسونية في مصر من النوع الفرنسي والايطالي وما يعادي بريطانيا كانت من هذه الزاوية فقط.

فالهدف الغائي للسيد هو تقدم الامة الاسلامية وتساميها، وإعادة الكرامة السياسية الى هذه الامة، وقطع دابر الغرب المهاجم عن كيان العالم الاسلامي. فهذا الشيء لايمكن تحقيقه كما يرى السيد إلاّ في حالة يقظة شعوب المشرق وإلمامها بالعلوم والصناعات الحديثة والقوانين المدنية الاجتماعية، وسيحصل المسلمون على حريتهم عبر هذا السبيل.

كان السيد جمال الدين يرى إنّ الدين يرى الاسلامي بطبيعته لايمنع التقدم، بل يعتبر

التعلّم والتجهيز بسلاح العلم للمسلمين أمراً ضرورياً، حتى وإن كان ذلك في أبعد منطقة في العالم (كالصين)

و يتحدّث السيد جمال الدين في مقال «لكجة في التعليم والتعلّم» في مجموعة المقالات الجمالية عن ضرورة تعليم الفلسفة. فهو عارف بأننا لانواجه علماً واحداً بل أمامنا علوم مختلفة، وكان يرى بأنّ العلوم يحتاج بعضها الى البعض الآخر، وهذه الحاجة لاتفهم من العلوم نفسها. فلو كان العلم يعتبر منفرداً لن يرقى العلم ولا يبقي، فيقول: إنّ العلم الذي يكون بمثابة الروح للمجتمع، ويشكل اساساً للمحافظة، والعلة المبقية، هو علم الفلسفة والحكمة.

فهو يرى ، اذا كانت الفلسفة معدومة في أمة من الأمم، ويكون جميع أفراد تلك الأمة علماء بالعلوم التي تكون مواضيعها خاصة، فلا يمكن أن تبقى تلك العلوم في تلك الأمة لمدة قرن أو قرنين.

و يشير السيد الى الأوضاع الثقافية الموجودة آنذاك في الدولة العثمانية والدولة الخديوية المصرية كشاهدين على ذلك. فرغم وجود العلوم الحديثة في هذين البلدين لكنّهما لم يستطيعا استخدام تلك العلوم في مكانها الخاص. وذلك بسبب انعدام تعليم العلوم الفلسفية في مدارسهم. ويرى السيد: أنّ الفلسفة هي التي تفهم الانسان على الانسان، وتوضّح شرف الانسان، وتدلّه على الطرق اللائقة له. فكل أمة توجّهت نحو الانحدار فالنقص الأول الحاصل فيها يكون قد حصل في روح الفلسفة، وبعد ذلك تسرّب ذلك النقص الى باقي العلوم والآداب والمعاشرة بينهم.[١]

كما يرى السيد أنّ الفلسفة هي الخروج من مضيق مدارك الحيوانية للتوجّه نحو الفضاء الواسع للمشاعر الانسانية، وازالة الاوهام البهيمية.

أمّا أنّه ينتقد سيادة الفلسفة الارسطوئية، وفقدان الطريقة الاستوائية التي تجعل العلم

---

١ - المقالات الجمالية ، ص: ٩٢-٩٣ بجهود: ابو الحسن جمالي ، ج٢ ١٣٥٨.

في خدمة الانسان وسيطرته على الطبيعة، وتمهّد الحياة له، وتزيل الموانع من أمامه.

فالمسلمون قد أوصلوا العلوم المنسوبة الى أرسطو الى غايتها، ولكن عندما يدور الحديث عن غاليلو ونيوتن وكبلر يظنّون ذلك كفراً، إنّ البرهان والدليل هو الأب والأم للعلم، وليس أرسطو ولا غاليلو.[١]

ويشيد السيد جمال الدين بوجود العلوم الاسلامية من قبيل النحو والصرف ومعاني البيان وفلسفة الاصول بين المسلمين ولكنّه يعتبر ذلك عقيماً ، لأنّ مدرّسينا لم يدرّسوا تلك العلوم بالشكل الذي يؤدي الى انقاذ الطلاب من جميع الخرافات والاشياء الوهمية، فهؤلاء الطلاب لايستطيعون أن يسألوا أنفسهم: « مانحن» ؟ وأي شيء نحن؟ وما ينبغي علينا؟ وقد لايسألون قطّ عن أسرار الامواج الكهربائية والالكترونات والسفن البخارية وسكك الحديد؟[٢]

ويكتب كذلك: والأعجب من ذلك أنّهم يضعون أمامهم اللمبة من اول الليل حتى طلوع الشمس صباحاً، ويطالعون البارعة، ولايفكّرون مرة واحدة بهذا المعنى: لماذا عندما نرفع الزجاجة يتصاعد المزيد من الدخان من الشعلة، وعندما نضع الزجاجة مكانها لايظهر أيّ دخان منها؟[٣]

يرى الدكتور كريم مجتهدي أنّ ما يقصده السيد من تعريف الفلسفة ، لايقصد الفلسفة الارسطوئية، وفي الواقع ينتقد السيد السنّة الارسطوئية للفلسفة التي يتم فيها الاهتمام بالعلوم الاستقرائية الحديثة، بل يكون قصده من الفلسفة: الفلسفة التحصيلية المسلكية الغربية. إنّه يرى - وكذلك اقبال اللاهوري في المراحل التالية- إنّ الاهتمام بالعلوم الاستقرائية تحظى باهتمام القرآن الكريم، ويشجع المسلمين على تعلّمها. من المؤكد كان السيد جمال الدين باعتباره عالماً اسلامياً شجّع على اقتناء العلوم الحديثة، ويؤكد بأنّها

---

١ - المقالات الجمالية صفحة ٩٢- ٩٣ بجهود: ابوالحسن جمالي، ج ٢ ١٣٥٨.

٢ - المصدر نفسه، ٩٤.

٣ - المصدر نفسه، ص: ٩٤.

هي أساس وجزء من هذا العالم الكبير، لذلك انّه يختلف اختلافاً ذاتياً مع الميرزا فتح علي آخوند زاده الذي اعتبر الاسلام كغيره من الأديان والشرائع يمنع من التوجّه نحو التحصل، وكذلك يختلف مع ملكم خان الذي كان يتكلّم عن الاسلام من دافع الاسباب السياسية والمحافظة على موقعه الاجتماعي، ولم يتحدث فقط عن تزلزل الايمان لدى المسلمين.

نعم، إنّ السيد كان ينشد عظمة الاسلام من خلال التزوّد بالعلوم العصرية وإزالة الخرافات من الوجه الاسلامي الناصع، ويدعو الى تجديد عزّة المسلمين وعظمتهم، ويكافح المستعمر البريطاني عبر التأكيد على اليقظة والصحوة، والتقوية العلمية والفلسفية والاجتماعية والسياسية للمسلمين.

من كلام السيد جمال الدين في الوحدة والسيادة:

«... الوفاق و الغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية وفرضان محتومان على من يستمسك بها ومن خالف أمر الله فيما فرض منهما عواقب من مقته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. جاء في قول صاحب الشرع «ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا» وان المؤمن ينزل من المؤمن منزلة احد اعضائه اذا مسّ احدهما ألم تألم له الآخر...

... هذا كله بعدما امر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد ان كانوا أعداء ونطق الكتاب الالهي (انما المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته ان يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد على وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغي وانما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات) فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى، ويصله جهنم وساءت مصيرا، وفي أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر احق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الامة والخبر الصادق (أن يدالله مع الجماعة) وكفى بالقدرة الالهية عونا اذا صح الاجتماع وصدقت الالفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية اسمى درجة في الرعاية الدينية، حتى جعل اجماع الامة واتفاقها على امر من الامور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه واوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين، وعدّ جحوده مروقاً من الدين، وانسلاخاً عن الايمان... ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله «لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت». فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه، هذا اجمال الادلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنةبين لمسلمين، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شعرهم فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه...

...هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم ان ندعى القيام بفروض ديننا ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما افلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به فكيف همه وهما ركنان قامت عليهما الشريعة.. فهل لنا عذر نقيمه عندالله بعد هدم هذين الركنين... ان المبصر بنور الله يعلم انه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين..»

السيد جمال الدين الحسيني مقال: الوحدة والسيادة. العروة الوثقى.



Email : info@taghrib.ir

ISBN : 978-964-167-121-3

